الأعمال النثرية

MAHMOUD DARWISH

1

محمود درويش

الأعمالُ النثريّة

مكتبة



1

محمود درويش

الأعمال النثرية



Mahmoud Darwish Foundation

رام الله - فلسطين

هاتف: 2408587 2 970+، فاكس: 2408587 2 970+

www.darwishfoundation.org

info@darwishfoundation.org



الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

: AlAhliaBookstore

: alahlia_bookstore



دار الناشر

DAR AL-NASHER

هاتف: 2961911 2 970+ رام الله، فلسطين / 5694861 6 962+ عمّان، الأردنّ

info@enasher.com www.enasher.com

الأعمال النثرية الكاملة (1)

شيء عن الوطن؛ يوميات الحزن العادي؛ وداعا أيتها الحرب وداعًا أيتها السلام؛ ذاكرة للنسيان

محمود درويش / فلسطين

الطبعة الأولى، 2019

الخطوط وتصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، هاتف: 95297109 7 962+

الصف الضوئي والإخراج الداخلي: **مؤسسة الناشر**

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9950 - 385 - 81 - 8



محمود درويش

الأعمال النثرية

1

شيء عن الوطن
يوميات الحزن العادي
وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام
ذاكرة للنسيان



تتقدم مؤسسة محمود درويش بخالص شكرها
إلى عائلة الشاعر محمود درويش
لمنحها حقوق الطبع لكامل أعماله الخالدة

الأعمال النثرية



محمود درويش

شيء عن الوطن



القِسمُ الأَوَل

شيء عن الوطن

شيء عن الوطن



هذا الوطن الصغير، كقبضة اليد، الواسع مثل كتاب الأبـد. هذا الرائع... هذا الجـارح والمجروح... هذا الوطن، هل يتحول إلى سجن لأبنائه؟

لقد تمرّس كثيـراً، بكل الأشـكال والألوان. مات كثيـراً، وعاش كثيـراً. أسماؤه تتغيـر، وأشجاره تموت وتحيـا. ونحن نعانقه عنـاق الموت - حتـى الموت. ومـن هذه الحقيقـة الساطعة كالشمـس والخنجر، من هذا الانتماء المبدع، نأخذ أسباب الخضرة: لنا وطن.

ومن داخل هذا العناق المتوهِّج، نرى مرور الزوابع التـي تنكسر علـى سواعدنا الملتفَّة حـول هذا الوطن،

حتى لو أصبح سجناً ومنافي.

نحن مدعوّون، دائماً، وكلما غاص سكّين في هذا العناق، إلى إعادة الاعتراف بالحب - القدر لكي نملك مزيداً من القدرة على الاستمرار في العناق.

ونحن لا نغنِّي الآن. ولكننا بهذا الِاعتراف الشديد الشبه بالغناء، نقاوم محاولة الإيقاع بيننا وبين هذا الوطن الملتف على كلِ الأجساد الحية والميتة. بمزيد من الحب نتحدى التحدِّي. بمزيد من السخرية نقاوم. وبمزيد من الموت الراضي نقاتل كل محاولات إكراهنا على التراجع عن معانقة هذا الوطن.

نحن لم نبحث عنه... عن هذا الوطن في حلم أسطوري وخيال بعيد، ولا في صفحة جميلة من كتاب قديم. نحن لم نصنع هذا الوطن كما تصنع المؤسسات والمنشآت. هو الذي صنعنا. هو أبونا وأمنا. ونحن لم نقف أمام الاختيار. لم نشترِ هذا الوطن في حانوت أو وكالة. ونحن لم نتبنَّاه. ولم يقنعنا أحد بحبّه. لقد وجدنا أنفسنا نبضاً في دمه ولحمه ونخاعاً في عظمه. وهو، لهذا، لنا. ونحن له.

ولكن، لماذا نقول هذا الكلام الآن!

لم يشهد تاريخ اضطهادنا الطويل مثل ما يشهده الآن، من عنف وفظاظة في ملاحقة أبناء هذا

الوطـن كلهم متهمـون... كلهم مهـددون... وكلهم مضطهدون. وحكومـة إسرائيل التي تشغل نفسها في استصـراخ العالم للتيقُّـظ إزاء ما تعتقـد أنَّه إرهاب في أي مـكان من العالم، ومن أجـل أن تعترف الدنيا كلها بأن هـذا الوطن هو وطن كل اليهـود، لا تعترف بحق الذيـن غرسوا زيتونه، وتمارس ضدهم أحد أشد صور الإرهاب عنفاً... وفي وطنهم.

والعالم لا يدري كل شيء.

إننـا نوضـع، الآن بخاصة، أمام هـذا التّحدي: إما أن تصغـر أكتافنا، وترتد جباهنا عـن الشمس. وإما أن نتنازل عـن البقاء في هذا الوطن. ولكننـا فرضنا تحدياً آخر: البقاء والكفاح.

وبين هـذا وذاك نمر فـي سلسلة طويلـة من أنواع السجون:

بأمـر عسكري صغير يقال لنا: أنتم... لا يحق لكم الخروج من هذه المدينة أو هذه القرية!

وهذا سجن.

ويقـال لنا أيضاً: أنتـم... لا يحق لكم الخروج من البيت منذ غروب الشمس حتى شروقها.

وهذا سجن.

ومتـى يحلو للبوليس، المزوّد دائماً بأمر قانوني من المحكمـة، يجري عمليـات التفتيش فـي بيوت الناس وحقائبهـم وجيوبهـم... وفي رؤوسهـم أيضاً، بحجة البحث عن متفجرات.

وهذا سجن...

ومتى يحلـو له أيضـاً، يسوق العشـرات والمئات إلـى غياهـب المعتقلات بحجـة التحقيق عـن أسباب الإضطراب الأمني، وبدون حجة...

وهذا سجن...

وفي الأيام الأخيرة، طوّر الاضطهاد القومي أسلوبه: قرية كاملة مثل سولم، يضرب الحصار حولها وتمنع من التجـوّل في داخـل نفسها. وقرية سولـم وما جرى لها هي بداية خطيرة تصلح لأن تكون ناقوس خطر، ونذيراً خطيراً بتصعيد الإرهاب.

وإذا استمـر هذا التصعيد، وبهذه الوتيرة، فسيصبح من الطبيعي الحديث عن اعتقال شعب كامل.

وهذا فعلاً سؤال:

هـل تريد حكومة إسرائيل أن تسجن العرب كُلهَّم؟ وهل تريد تحويل هذا الوطن إلى سجن؟

إن منطق الشك والإرهاب الذي يوجه خطى الحكومة يوصلها إلى وضع مثل هذا الاحتمال: إقامة المزيد من معسكرات الاعتقال!

ولكن، هل هذا الاعتقال الجماعي يضمن لها ما تريد؟

وهذا، فعلاً، سؤال:

ماذا تريد منا؟

إنَّ كل ما تقوم به يجري بذريعة الردع الوقائي لحفظ الأمن. ولكن، هل العرب في إسرائيل مسؤولون عن تزعزع الأمن؟ هذا السؤال يجب أن يدرسه، بعمق وجدية، أولئك الخبراء بالشؤون العربية. ولكن، هل يجرؤون على الاعتراف بأن احتلال أراضي الآخرين ونهب حقوق الآخرين هو السبب الأول والأخير لما يسمى بالقلق الأمني؟

إن التحقيقات الواسعة التي تجريها الشرطة وأجهزة المخابرات مع مئات المعتقلين تتركز في نقطة واحدة: الانطلاق من أن كل عربي مشتبه به ومتهم، ومحاولة وضع جميع العرب في إسرائيل في خدمة الشرطة وابتزاز وعد منهم بالتعاون السياسي معها. وقد لاحظنا أثناء وجودنا في الاعتقال بأن اتهامنا في عمليات التفجير لم يكن إلا غطاء للانتقام السياسي من ناحية،

ولشراء بعض الضمائر من ناحية أخرى.

ولكن، لماذا يصعّدون الإرهاب ضد العرب في إسرائيل الآن؟

علينا، أولاً، أن نلاحظ أن هذا التصعيد صدى تعيس لوضع الاحتلال التعيس في المناطق العربية المحتلّة بعد الخامس من حزيران. والرابطة بين ملاحقة العرب في إسرائيل وبين تصاعد المقاومة في المناطق المحتلة وفشل الاحتلال في كسب رضى الشعب المحتل، أصبحت علاقة عميقة لا مجرد تقدير. وهكذا، تترك سياسة الحرب والاحتلال إحدى نتائجها الخطيرة على الداخل. وعلى الجماهير اليهودية أن تدرك أنها لن تبقى بمنأى عن آثار هذه السياسة، خاصة أن النضال السياسي الذي يشنُّه العرب في إسرائيل ضد الاضطهاد القومي وضد الحرب والاحتلال متلاحم بنضال القوى التقدمية اليهودية ضد هذه السياسة.

وعلى حكومة إسرائيل أن تدرك أنها ترتكب خطأً فادحاً إذا اختارت العرب في إسرائيل كبش فداء لفشل احتلالها، وإذا استمرت معاملتهم بمنطق الرهائن. كلا! لسنا رهينة في يدها تقاوم بنا مقاومة الاحتلال. ومعاملتها لنا تقدم دليلاً قوياً على كذب دعواها القائلة

إنَّها تسعى إلى تحقيق السّلام أو إنَّها تستطيع السّلام مع الشعـوب العربية على أساس الأمر الواقع. لقد عجزت هـذه السلطة عـن تحقيق السـلام مع أقليـة قومية منذ عشرين سنة، لأنهـا حرمتها حقوقها القومية واليومية. ولا أدل علـى احتقارها لهم من مطالبتها إياهم بمنحها صك غفران عن عدائها، في كل انتخابات، وتهديدها الوقح مـن أن انتخابهم الشيوعييـن سيلحق بهم أفدح الأخطار. وعلى ذلـك، فإن السجّان العاجز عن ابتزاز ولاء السجيـن ومبايعته وكسب رضـاه عاجز أيضاً عن إرغـام شعوب كاملـة علـى الاستسـلام. إن استمرار العنـف ضـد العـرب فـي إسرائيـل ينسف كثيـراً من الجسـور ويؤدي إلى أخطار يجب أن تحسب السلطة لها حساباً.

لقـد اختـار العرب فـي إسرائيـل طريـق نضالهم السياسـي، بالخبرة الطويلة والممارسـة القاسية. وهم باقون في هذا الوطـن لأنه وطنهم. ولن يزيدهم عنصر التحدي إلا سبباً جديـداً للبقاء. والبقاء والإصرار عليه – في مثل هذه الحالة – ليس تعلقاً جمالياً ورومانتكياً بمهـد طفولة، ولكنَّه معركة نبيلـة... معركة مشروعة يجـب أن يصـل صداهـا إلـى الـرأي العـام اليهودي والعالمـي. فحذار من دفعهـم إلى اليأس، لأن اليأس سيف ذو حدّين!

ولو تحوّل هـذا الوطن الصغير، كقبضـة اليد، إلى سجن، فسنبقى على حبِّه لأنه وطننا. وإن من صار سجنه وطناً أو وطنه سجناً لخير ممن يجعل الاحتلال وطناً له!

ويا أيها الوطن الذي نرى أشجاره وحقوله وهضابه عبر الأسوار - لقد صرت أجمل!...

هذا الاهتمام... يهمنا



... أسمـح لنفسي، باسم زملائي العاملين في حقل الكلمة، بـأن أرحب بالاهتمام الأخيـر الذي تحظى به كلماتنا لدى أخوة لنا خلـف الحدود شمّوا من خلالها عبير البرتقال ورائحة الأرض المختلطة بالعرق والعطر والدم، في الوقت الـذي تحظى فيه كلماتنا هنا بنصيبها الدائـم منـذ عرفت كيف تقـاوم... نصيـب الملاحقة والمطاردة والحرمان والسجن.

لا خجل، متسترين تحت مبررات التواضع الفارغ والتنصّل الهارب والكبريـاء المهينة، من الاعتزاز بالثقة التي تُولى لنضالنا القلمي، إنَّها شهادة نعتز بها... وحافز يمـلأ نفوسنـا بالرضـا والاكتفـاء... ومسؤولية أخرى

جديـدة تلقـى على أسنـان أقلامنا، نرحـب بها ونعمل لنتمكن من الوقوف على مستواها.

لقد أدرك بعض أخوتنا الكتّاب في العالم العربي أن الحديث عن شعر النكبة لا يصح إذا خلا من الاهتمام بما يكتب من شعر عربـي في إسرائيل، بصفتنا نحن العرب هنا، جزءاً لا يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني، نحيا مأسـاة مزدوجة... مأساة القضيـة الفلسطينية العامة... ومأساة الاضطهاد القومي وما تلقيه من ظلال.

ومضى بعضـ الكتّاب إلى أبعد مـن ذلك، رأوا أن الاهتمـام فقـط بأدبنا هنا، ليسـ هو التقويـم الصحيح لأدب النكبـة، بل إن شعرنا نحن وحدنا هو شعر النكبة الصادق والمعبِّر عنها بإخلاص وقوّة.

وأبعد من ذلك مضى البعض... لقد طرح السؤال عـن دور شعرنا في الشعـر العربي المعاصر كله... لا فـي شعر النكبة فحسـب. لم يصلنا كل مـا كُتب في هذا الموضوع، ولم تصلنـا جميع الأجوبة على هذه الأسئلة الهامة. ولكن مجـرد طرح السؤال على هذه الوجـوه... هو مصدر راحة نفسيـة على الأقل لنا... وضوء يسلط علينا رغم الأسلاك... ومحاولة لوضعنا في الأمكنة التي نستحقها على خارطة الشعر العربي. وفـي رأيي إن هـذا الأمر لا مفر منـه للمراقب الأدبي

والناقد والمؤرِّخ ذوي النظرة الشاملة. لأن شعرنا شعر عربي، وكوننا في وضع خاص بعيدين بعض الشيء عن التفاعل والاحتكاك المباشرين بالحركة الأدبية في العالم العربي، لا يصح أن يكون مبرراً لطمس هذا الجدول الشعري الذي يصب في نهر الشعر العربي الثوري.

وعلى هذا الأساس، أخذ الاهتمام بحركتنا الشعرية هنا، في المدة الأخيرة يحمل طابعِ السباق بين بعض الكتّاب في العالم العربي. ولعلّ صدور كتاب الأستاذ غسان كنفاني في بيروت أقوى لافتة تنصب على هذا الطريق. لا أعرف الزاوية التي أطلّ منها كنفاني على أدبنا، ولكن محاولته هي الأولى من نوعها... تشد أنظار القرّاء إلى ما يجري في الشعر العربي في إسرائيل. إن المهم هنا كبداية هو مجرد التعريف بأدبنا. وهذه سابقة أكاد أقول إنها قد تصب الزيت على موقدنا الشعري، وتحرر بعضنا من شكوى قلة عدد القرّاء، والإحساس بما يشبه الضياع في وطن أصبح شبيهاً بالسجن.

لم نقرأ مقال الكاتب إبراهيم أبو ناب في مجلة «الآداب» بعنوان «الجذوة الشعرية الفلسطينية» وهو دراسة لشعر بعض شعرائنا العرب في إسرائيل. ولكني قرأت مقال المفكر العربي الكبير محمود أمين العالم

تعقيباً على مقال أبو ناب. كتب أمين العالم: «إن هذا المقال طيب للغاية، يعرض فيه لمعنى جديد لشعر النكبة، ثم ينتقل بنا بعد ذلك إلى دراسة شعر النكبة في الشعر الفلسطيني في إسرائيل. وقد لا يكون من حقي في هذا المقال أن أقيم الشعر، ولكني أستميح القارئ عذراً لأقول إنني قرأت في مقال الأستاذ أبو ناب نماذج شعرية بالغة الجمال والروعة. وأكاد أحس بشوق غامر إلى مثل هذا الشعر الزاخر بالصدق والحيوية والحرارة. أقول ذلك رداً على من يعتقدون أن ما يسمى بالشعر الجماهيري قد انتهى عهده، وأنه لا سبيل إلا لشعر الجذور والأعماق والأعالي، مرحباً بشعر الجذور والأعماق والأعالي، ولكن في غير انفصال أو انقسام عن حركة الحياة والواقع والإنسان العربي».

بنماذج من شعرنا يرد محمود أمين العالم على المعترضين على الشعر الجماهيري. وهذا التقرير الصادر عن مفكر مسؤول يصلح أن يكون تحذيراً و تنبيهاً لبعض شعرائنا الذين يغويهم سراب الغيبية والتجريدية بالبحث عن موضوع «عالمي» للضياع... ويصلح أن يكون تأكيداً على المحتوى الثوري الذي يمتاز به شعرنا في هذا الوطن... وتحية عزيزة من ناقد عزيز على الأدب العربي المعاصر.

إن أهمية شعرنا الموضوعية تكمن في التحام هذا الشعر بكل ذرة من تراب أرضنا الغالية... بصخورها ووديانهـا وجبالها وأطلالهـا... وإنسانها الذي يظل مرفوع الرأس رغم ما تنوء به كتفاه من أعباء، وما يشد يديه وإرادتـه من قيود... إنسانها الذي قاوم ولا يزال يقـاوم الظلم والاضطهاد ومحـاولات طمس الكيان والكرامة القوميـة والإنسانية، وكأني به يقول «اللهم لا أسألك حملاً خفيفاً... بل أسألك ظهراً قوياً» ثقيلة هي الأحمـال... وقوية هـي الظهور. هـذا الإنسان الـذي يحمـل بطولـة الجبل ورقـة العشـب، قسوة الماضـي والحاضر وجمـال الغد، عطش الصحراء وخصب الربيع، يبذل التضحيات غير خاضع إلا لأمر واحد هو حاجته إلى الحرية، هو المثل الأعلى لأدبنا، وهو قادر علـى تأدية دوره مع قـوى الضوء المندفعة إلـى الأمام. ولذلك، لا حياة لأدبنا إلا إذا كان سلاحاً لهـذا الإنسان وزاداً له. ومـن هنا، أتحفظ من الكلمة التي قالهـا واحد من إخوتنا الكتـاب اللبنانيين، قال: «إذا لـم يكن لعـرب إسرائيل من فضـل إلا إعطاؤهم هؤلاء الشعراء، فذلك يكفيهم فخراً». عكس الجملة هـو الأصح: إذا لم يكن لهـؤلاء الشعراء من فضل إلا إخلاصهم لهذا الشعب، فذلك يكفيهم فخراً... لأننا شعراء قضية قبل أي شي آخر.

أخيـراً. كل ما مضى يدفعنا إلـى التأكيد على أهمية «الجديد» وهو المنبر الوحيد للكلمة الحرة التي يجتمع عليه أدباء القضية العادلة. «الجديد» هو العنوان الصحيح للأدب التقدمي المناضـل. والمصدر الصحيح لمؤرخ الأدب العربـي في هذه البلاد. فلنسـعَ جميعاً لمساندة هذا المنبر لكي تعلو كلمتنا أكثر... فأكثر!

أنقذونا من هذا الحب القاسي!

قد يبدو هذا الحديث نشازاً في جو الانسجام البارز بين حركاتنا الأدبية هنا وبين الكتّاب الذين أولوها جُلَّ ما لديهم من إمكانيات وسائل النشر والتعميم على مساحة الأرض العربية الواسعة. لقد كان من حق حركتنا الأدبية، بما تمثله من صراع ناسها مع واقعهم الخشن، أن تفرح وتعتز بالمكانة الطيبة التي احتلتها في مسيرة الأدب العربي العامة، وكان من المقدَّر لهذا الاهتمام المشرِّف بشعرنا خاصة، أن يزوّد شعراءنا بقوة جديدة من دوافع السَّعي نحو الإبداع، وأن يحمِّلهم مزيداً من المسؤولية والإجتهاد الدائم لتحقيق إنجازات أدبية أكبر. فإن المراقبة الإيجابية لأعمالهم، بهذا القدر

مـن التقدير، لا تحتاج إلى كثير مـن جهد للإشارة إلى الـدور الذي بوسعهم تأديته فـي حركة الأدب العربية. ولعلنـا في غنى، الآن، عن تسجيل مجموعة الدلالات الثمينة لما يشبه التهافت على هذا الشعر في المجلات والصحف وأدوات الإعلام فـي العالم العربي. ولكننا لـن نمل تكرار القول إن طرف الخيط في هذه المسألة هو الاندمـاج أو الالتحـام التام بين الكاتـب وواقعه. لم يكـن أدبنا خارق الموهبة حيـن عرف كيف يختار مكانه في حركة الصراع. إن المواجهة الحادة واليومية كانـت أعنف مـن أن تتيح لنـا فرصة الوقـوف طويلاً أمـام أبواب المدارس الفكرية المختلفـة. ولعل هذه الخاصة، بما تفـرغ عنها من جوانب، هي اللافتة التي استوقفت المراقبين في العالم العربي. فعندما كان قسم كبير من إخواننا الكتَّـاب خلف حدود بلادنا يعطفون علـى القضيـة الفلسطينيـة ويتضامنون مـع ضحاياها كان القســم الأكبـر من كتابنـا يعيشها ويـذوب فيها. وحيـن حلَّت نكبة حزيران وشاعت عدوى الإحساس بالمأسـاة، ثم سقط طرفا حبـل كان يلوح على مساحة معينـة من الفكـر العربي همـا: الطبـل... والتمارض العصـري، ثـم اقتحمـت ضـرورة مواجهـة الحقيقة بشجاعـة كل مواطـن، وصارت المجابهـة والصراع قدراً، وانهارت قيـم سياسية وأخلاقية كثيرة... عندها ارتدى الاهتمام بما يكتـب لدينا من شعر وقصة طابعاً

جديـداً يمتاز بأكثر من حب، أضفى على الكثيرين من النقاد والكتاب ميزات العاشق القديم الذي لا يرى في الحبيبة إلا ما يبرر العبادة. وقد نتجت عن ذلك أشكال مـن سوء التفاهم تحرِّضنا علـى هذا الحديث الذي قد يبـدو نشازاً في جو الحب العميق. ولكن لا يجوز لنا، ونحن نقف في دائرة هذا الاهتمام، الاستمرار في تلقي مظاهر كل هذا الحـب دون أن نقول: شكراً، أولاً... وأن نعترف، بصراحة العاشق العصري، بأننا لسنا أهلاً للتقديس في زمـان لا يجوز فيه التقديس كما لا يجوز فيه اليقين المطلق.

إنَّ أخطـر ظاهـرة تستوقفنـا في هـذا السياق، هي أنَّ وتيـرة الحب قـد أوصلت بعضـ المراقبين الأدبيين فـي العالم العربي إلـى محاولة وضـع شعرائنا ليس في مكان أوسع منهم فقط، وإنما إلى محاولة وضعهم على امتداد مساحة الشعر العربـي المعاصر بحيث يغطونها كلهـا. إنَّ مـا في هـذه المحاولـة من خطـورة يتعدى حدود المبالغة الفنيـة والتنكر غير المسؤول للواقع إلى الإعتداء على حركة تاريخ. ولا يغفر لهذا الموقف كونه ناشئـاً عن نيـة طيبة وحماسـ حقيقـي، وعطف عميق على ظـروف الحركة الشعرية فـي بلادنا. ولعل جذور الخطـأ الذي أوصل إلـى مثل هذا التطـرف في معاملة شعرنـا هي إسقاط انتمـاء هذا الشعر إلـى حركة الشعر

العربي العامة في ماضيها وحاضرها، وتسليم أصحاب المبالغـة والتطرف بالاعتقاد بأن هـذا الشعر هو بمثابة صاعقـة انفجرت فجأة. إن شعرنا غيـر منقطع أبداً عن حركة الشعر فـي البلاد العربيـة، وإن كان غير مواكب لهـا مواكبـة يوميـة. وشعرنا ليس نـداً أو بديـلاً للشعر العربي المعاصـر... إنَّه جزء غير متجزِّئ منه ورافد من روافد النهر الكبير. لقد تربينا على أيدي الشعراء العرب القدامى والمعاصرين، وحاولنا اللحاق بأسلوب الشعر الحديـث بعدما تعرفنا على رواد هـذا الشعر في العراق ومصـر ولبنـان وسوريا. ونحـن لا يمكـن إلا أن نعتبر أنفسنا تلامذة لأولئك الشعراء. ولا يصعب على الناقد، حتـى الآن، العثور علـى بصمات هـؤلاء الشعراء على أكثرية إنتاجنا. ولكن المسألة كما نراها، ليست صعوبة الرؤيـة لدى الناقد، وإنما هـي أن الناقد لا يزال مشغولاً بالفـرح الذي يمـلأه نتيجـة اكتشافه هـذا الشعر دفعة واحدة، ولا يـزال العطف على الشبـاب الذين يكتبون هـذا الشعر، في ظروفهم السياسية الخاصة، هو المعيار الأول فـي عمليـة نقد شعرنـا. وقد يكون لهـذا الدافع ما يبـرره في فترة مـا، ولكن امتداد هـذه الفترة محاط بالمحاذيـر التي تخلـق نتائج ضـارة قد تتطـور إلى ما يشبـه الخداع... خداع القراء العرب، وخداع شعرائنا أنفسهم الذين يواجه بعضهم خطر الإحساس بالكمال. ولذلك، فـإن الضرورة تلح على وضع حركة الشعر في

بلادنا في مكانهـا الصحيح. والضرورة تلح، بادئ ذي بدء، على معاملة هذا الشعر على أنه شعر، بالتخفيف من تسليط الضوء على شخصيـات الشباب الذين يكتبونه. ولا نعنـي بذلك إسقـاط الرابطة بين النمـاذج الشعرية وبيـن الظروف التـي فرزتها أو التي جـرت فيها عملية خلق هـذة النماذج، وإنمـا نعني أنـه آن الأوان لإجراء عملية موازنة، بالتأكيد علـى استخدام المعايير الفنية لا السياسية وحدها. فإن الموضوع المطروح على بساط البحث، في آخر المطاف، وهو الشعر لا الإخلاص ولا النوايـا الطيبة. ثم، إن الزاويـة السياسية في هذا المجال تفتقر إلـى ضرورة التأكيد على أن هذا الشعر الثوري لا يعبِّر عـن ثورية أصحابه معزولين عـن حركة جماهيرية يعبـرون عـن صراعهـا. أي أن هـؤلاء الشعـراء ليسوا مجموعـة من أشجار النخيل النابتـة في صحراء قاحلة. إن كونهـم شعراء يملكـون أصواتاً مسموعـة لا ينبغي أن يخلق الأنطباع بوحدانيتهـم وبانقطاع انتمائهم إلى جماهير تملك ماضياً وحاضـراً ثوريين. إنهم أبناء هذه الجماهير وهي التي ربتهم وأعطتهم الجذور.

ومـن حقنـا أن نـرى أن دورة الإلتباس، فـي ما يتعلق بمكانة حركتنا الشعرية من حركة الشعر العربي العامة، تبدأ من انشغال المواطن العربي، بكل حواسه، بالقضية الفلسطينيـة وبالنـزاع الإسرائيلي - العربي.

فقد كان من نتائج حرب حزيران أن مشاغل المواطن العربي كلها، باستثناء ما يتعلق بمعركة تحرير الأرض، قد وضعت في الظل وفي مرتبة دنيا من الاهتمام. وقد انعكس ذلك على معاملة المواطن للأدب أيضاً، ولأن شعرنا صادر من لحم القضية الفلسطينية فقد حظي بالقدر الأكبر من الاهتمام، ودفع حتى بعض الكتاب والنقاد إلى إجراء عملية مفاضلة بينه وبين مجموع الشعر العربي المعاصر. إن الخطأ يكمن في مجرد إجراء عملية المفاضلة، فليس من الضروري ولا ينبغي أن تكون القضية الفلسطينية، منذ نشأتها حتى حزيران، هي المحور الأوحد الذي يدور حوله كل الأدب العربي المعاصر. وإلا، فإننا نصاب بأقصى أشكال ضيق النظر، ونعتبر أن كل التطورات السياسية والاجتماعية في العالم العربي، منذ ما يزيد عن عشرين سنة، غير جديرة بتعامل الأديب معها، أو نعتبرها ضرباً من ضروب الكماليات لمجرد عدم التصاقها المباشر بقضية فلسطين. ولعلنا لا نختلف على اعتبار هذا الموقف تنكراً لمسيرة التاريخ العربي. ومن هنا، لا يمكن تقويم أعمال الشعراء العرب بميزان مدى تفاعلهم مع قضية فلسطين، كما أن أحداً لم يجرِ مثل هذه المحاسبة مع الشعراء العرب في مدى إشادتهم بالثورة الجزائرية مثلاً أو التحولات الاجتماعية العميقة في الجمهورية العربية المتحدة وغيرها. وإذا

لم يكن مفر من إجراء عمليـة المفاضلة أو المقارنة – وذلـك أصح – فلا يجـوز ذلـك إلا إذا حصرنا الأمر فـي إطار الشعـر المتعلـق بالقضيـة الفلسطينية. وهنا نعثـر على الحلقة المفقـودة في سلسلـة المناقشات. عندهـا، قد يكون مـن الجائز – إلى حـد ما – القول إن الشعـر العربي الـذي يكتب فـي إسرائيل، بشكل عام، أقرب إلى صـدق التجربة والأصالة من غيره في تصويره صراع الإنسان الفلسطيني. وكلمة «الصدق» لا غيرها هي الجديـرة بتركيز الإنتباه حولها في سياق المقارنـة التي تمتـد إلى ميـزات أخرى لهـذا الشعر يفتقر إليها شعر القضيـة الفلسطينية الآخر . وإلحاحنا علـى عنصر «الصدق» هنا جـاء ليعبر عن تحفظ فني. فالصدق – كما نعرف – ينتمي إلى مجموعة الصفات الخلقية الحميدة، ولكنـه، وإن كان شرطاً من شروط الأدب الإنسانـي، ليس ضماناً لنجـاح العملية الفنية، ولا يمكن أن يكون، وحده، معياراً للنقد الأدبي، وإذا كان مـن الجائز تسجيل ملاحظـة هامشية في مجرى حديثنـا عن ميزة الصدق في حركتنـا الشعرية، فإننا لا نظلم أحداً إذا لاحظنـا أن المبالغة في تقدير شعرنا قد أدت إلى أن يقوم بعض شعرائنا الناشئين بعملية تصميم قصائدهـم وفقاً لمقاييس غريبة عـن الصدق، وكأنهم يستوحـون قصائدهم مـن تصورهم لكيفيـة استقبال تلك الإذاعة لها!

وملخص القول إنه آن الأوان، لأن توضع حركتنا الشعرية في مكانها الصحيح، بصفتها جزءاً صغيراً من حركة الشعر العربي المعاصر عامة. وذلك يستدعي تخلص الناقد العربي من الخضوع التام لدوافع العطف السياسي وحدها، على أصحاب هذة الحركة، فلا يكفي هذا الشعر أنه يكتب في إسرائيل. إن وضع الحركة في مكانها الصحيح هو خير طريقة لنموها وتطورها لارتياد آفاق أوسع خاصة إذا تذكرنا دائماً أنها ما زالت في المراحل الأولى من الطريق الطويل.

تبقى جوانب أخرى معاكسة للمبالغة في التقدير، وأمور أخرى تتعلق ببعض التفاصيل قد نتناولها في مرة قادمة.

الحصار

ماذا يعرف القارئ العبري عن حركة الأدب العربي هنا؟

لقد آن لنا أن نطرح هذا السؤال، بصيغة اتهام، بعدما استطاعت حركتنا الأدبية أن تثير اهتماماً واسعاً بها في العالم العربي كله، وبعدما تمكنت من التسلل إلى أوساط غير ضيقة من قراء اللغات الأجنبية.

إِنَّ موشه ديان، وهو مصدر مقبول في أوساط واسعة من الرأي العام الإسرائيلي، يدلي بشهادته في هذا السياق، ويقول: «لقد أحزنني رد الجمهور اليهودي على لقائي بالشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. قرأت

هـذا النقد: كيف تقـرر أنت، يـا موشه ديـان، يا وزير الدفـاع، الجلوس مع فـدوى طوقان، ثـم تقترح علينا دعوتها إلـى «هيكل الثقافة» في تـل أبيب لكي نستمع إلى أشعارها؟». ويرد ديان على هذا الانتقاد بالاعتراف التالـي: «لست أنا الـذي جعل فدوى طوقـان شاعرة، ولست أنـا الذي أستكتبهـا قصائدهـا اليومية. ولكن، بسبب وجود جمهور فلسطيني له شعراؤه، فإني أقترح علـى الجمهور الإسرائيلي الإصغاء إلـى الشعراء الذين يحبهم الجمهور العربي لكي نفهمهم».

لا يهمنـا هنـا الوقـوف علـى دوافع وزيـر الدفاع الإسرائيلـي للتعـرف علـى مشاعـر الشعـب العربـي الفلسطينـي من خـلال شعرائـه. إن ما يهمنـا الآن هو تسجيـل حقيقـة ينسبها ديـان إلى امتعاضـ اليهود من الإصغـاء إلى العرب، ورفضهم إجراء حوار معهم، دون أدنـى رغبة منه فـي تفسير الظاهرة ونسبهـا إلى أسبابها الحقيقية إذا كانت موجودة فعلاً بمثل هذا العنف.

يهمنـا هنا تسجيل حقيقة غيـاب الطرف الثاني من الحـوار، وطرح هـذا السـؤال: هل أصغـى الجمهور اليهـودي، طيلة عشرين سنة، إلى المواطنيين العرب في إسرائيل من خلال شعرائهم؟ وهل يعرف القارئ العبري شيئاً عن حركة الأدب العربي في إسرائيل؟

إننـا نلاحظ في المـدة الأخيـرة اهتمامـاً واضحاً بالنمـاذج الانتقادية مـن الأدب العربـي الحديث، في البلدان العربية، وخاصة في الجمهورية العربية المتحدة ولبنـان. يكتبـون هنا، بغـزارة، عن تأثيـر الخامس من حزيران علـى الأدب العربي. يكتبون عن غربة الإنسان الفلسطينـي عـن ذوي القربـى. يكتبون عـن الإرهاب الفكـري الـذي يتعرض لـه الأدبـاء العـرب الشباب. ويكتبـون أبحاثـاً طويلـة عـن تيـارات الشعـر العربي المعاصر وغيرها من القضايا الفكرية والأدبية الهامة.

يكتبون كل ذلك، ويترجمون. ولا شيء عن وجود حركة أدبية عربية في إسرائيل، في الوقت الذي صارت تشكل فيه هـذة الحركة رافداً غزيراً مـن روافد الأدب العربي المعاصر.

لمـاذا؟ إنَّ ظاهـرة التجاهـل التام لهـذه الحركة لا يمكـن أن تكـون ناجمـة عـن المصادفـة أو الإهمال البريء. أو... لا يمكن أن تكون موقفاً نقدياً على اعتبار أن هـذا الأدب لا يقف على مستـوى النقد وغير جدير بالملاحظة.

لمـاذا إذاً؟ قـد يكون مضمون هـذا الأدب وطابعه هـو الإجابة المباشرة على هذا السـؤال. وإذا أدركنا أن موجـة الاهتمام الإسرائيلي بالأدب الانتقادي في العالم

العربي تحركها دوافع سياسية لإدانة الأنظمة العربية، بدليل نوعية الاختيار والرتب العسكرية العالية التي يمارس الآن أصحابها في إسرائيل لعبة الاهتمام بالأدب العربي المعاصر، أدركنا على الفور أن هؤلاء الخبراء بعيدون عن التمتع بالنزاهة الأكاديمية، وأدركنا أيضاً أن ممارستهم الاهتمام بحركة الأدب العربي في إسرائيل تضعهم في موقف حرج لأنه يدين الواقع الذي أنبت هذه الحركة ويدين، بعنف، السياسة التي يتباهى بها هؤلاء الخبراء.

إن جوهر الأدب العربي في إسرائيل هو الرفض والإدانة. وتقديم هذا الأدب إلى القارئ العبري يضع أمامه صورة مغايرة لما ألفه. فقد ألف القول إن العرب في إسرائيل يعيشون في ما يشبه جنان الخلد، وإن الحديث عن اضطهاد وتمييز يتعرضون لهما ليس إلا ضرباً من ضروب الدعاية العربية المعادية.

ولا يريد هؤلاء الخبراء في الاستشراق أيضاً أن يعلنوا الرابطة العميقة بين حركة الأدب العربي هنا وبين حركة الأدب العربي المعاصر، لأن هذا الإعلان يؤكد الانتماء القومي للعرب في إسرائيل. وإذا عدنا إلى شهادة موشه ديان التي طالب فيها بالتعرف على مشاعر العرب الفلسطينيين من خلال شعرائهم، نجد أن المشار إليهم هم أولئك المقيمون في الضفة الغربية وقطاع غزة، أما

العـرب المقيمون في إسرائيـل فإنهم يستثنون– على ما يظهر – من حساب الحوار والاهتمام. إن الفاصل الذي يضعـه ديان بين العرب في إسرائيل وبين الشعب العربي الفلسطيني والأمة العربية... ليس فاصلاً أدبياً ناجماً عن تقديـر ملامح مختلفة في أدب كل من الجانبين بالطبع، ولكنـه فاصـل سياسي جوهـري ومبدئـي للقضاء على الانتماء القومي للعرب في إسرائيل.

نخلص مـن ظاهرة التجاهل التام إلى وجود حصار غيـر معلن على حركتنا الأدبية الصارخـة، يضعها بعيداً عن مسامع اليهود، للحيلولة دون ترك أي تأثير أخلاقي على الـرأي العـام اليهـودي، ويدفعها إلـى الإحساس بالعزلـة والغربة والكفر بإمكانيـة التفاعل، إننا نخاطب جمهوراً لا يفهمنا. ونجري حواراً ضائعاً.

ويزيـد هذا الحصار خطـورة الموقف غير الطبيعي لكتاب يهود يحلو لهم أن يعلنوا التقدمية والإنسانية. إن هؤلاء الأدباء الذين يتميز أدبهم بالروح الإنسانية ورفض الجو العسكري الشائع في هذه البلاد، لم يفكروا حتى الآن بإجـراء أي شكل من أشـكال الحوار الإيجابي مع الأدباء العرب. تصبـح المسألة معيبة إلى حد ما، عندما نـدرك أنهم لا يعرفون شيئاً عن وجود حركة أدبية عربية هنا. لقد كنت أشعر بالحرج الشديد أثناء لقائي بمختلف الأدبـاء الأوروبيـين، فـي عـدة مناسبات فـي أوروبا،

عندما كانوا يسألونني عن تفاعل أدبنا بالأدب العبري الحديث، وعن التأثير المتبادل بين هذين الأدبين، وعن عملنا المشترك. كان جوابي دائماً: لا أحد يعرفنا! وإذا جرى حوار ما، وهو نادر، فإنه يكون حواراً بين ضدين.

أين هم؟ أين هؤلاء الأدباء الغاضبون؟ إني لا أتحدث هنا عن التضامن وعن مسؤوليتهم عن إطلاق صرخة احتجاج على ما يتعرض له زملاؤهم في البلاد الصغيرة. إني أطالب هنا بمجرد التعارف واللقاء وإجراء حوار نستمع فيه إلى بعضنا البعض. إن صرخة كاذبة أو صادقة يطلقها أديب مغمور أو معروف في أقصى الأرض تثير ضمائر هؤلاء الأدباء وحساسيتهم المفرطة دفاعاً عن حرية الكلمة. أما أن يوضع شعب كامل في حصار، وأن تطمس صرخات أدبائه، فتلك مسألة أخرى...

وإذا حظيت حركتنا الأدبية بلفتة صحفية عابرة، فإن التزييف الرخيص يطغى على هذه اللفتة: يصورون أدباءنا التقدميين بأنهم مجموعة من حملة الشعارات المعادية لليهود. أما الأدب العربي «الحقيقي» في إسرائيل، فهو «الأدب الإيجابي» الذي يصور حركة البناء الواسعة التي اجتاحت القرى العربية... وكيفية انتقال المجتمع العربي في إسرائيل «من البداوة إلى الحضارة»... وهو ذلك الأدب الذي لا ينسى البكاء أمام شباك الحبيبة... وعلى ضوء القمر النعسان. وحين

لا يجـدون معبرين حقيقيين عن هـذا الأدب الوهمي، فـلا بأس من اختراع أسماء لا يسمـح بها حتى القارئ العربي هنـا، ويقدمونها إلى القـارئ العبري ممثلة عن الشعر العربي في إسرائيل، كما فعلت صحيفة «معريب» في سلسلة مقالات عن شعراء عرب لم نسمع بهم، مما عـزز الاعتقاد الساخر الشائع عنـد العديد من المثقفين اليهـود وهو: إن كل شاب عربي أنهـى دراسته الثانوية يكتب شعراً!

لقد آن للأدبـاء اليهود التقدميين أن يفتحوا ثغرة في هذا الحصار، وأن يمسحوا عن وجه حركتنا الأدبية هذه البقـع المهينة من الزيف والتشويـه. وليرفع الصحفيون الساخرون أيديهم عـن قصائدنا. فإنها صرخات شعب أسير.

وحتى ذلك الحين، يبقى السؤال – الاتهام معلقاً: ماذا يعرف القـارئ العبري عن حركـة الأدب العربي هنا؟

لماذا يجب أن نلتقي؟

إني أعتبر هذا اللقاء حدثاً ثقافياً وأخلاقياً [1]. وأريد أن أعبر عن أملي في ألا يكون هذا اللقاء شبيهاً ببيضة الديك. إن قوته تنبع من الرمز والإمكانية الكامنين فيه. فمنذ مدة طويلة ونحن ندعو المثقفين اليهود إلى القيام بواجبهم تجاه الوضع الذي يعيشه زملاؤهم المثقفون المنتمون إلى أقلية قومية. ومنذ مدة طويلة ونحن نجري ديالوج معهم، ولكن سرعان ما يتضح لنا أن ما نجريه ليس إلا مونولوج.

وإني أفترض أننا جميعاً، هنا، نؤمن بأهمية

(1) ألقيت هذه الكلمة بنصها العبري في لقاء للأدباء العرب واليهود التقدميين في حيفا.

هذه اللقـاءات. وأننا نؤمـن، بدرجـات متفاوتة، بقوة الكلمـات. من هذه الناحية – علـى الأقل – فإننا ننتمي إلـى دولة واحـدة تطمح إلى اعتراف سائـر الدول بها. أقصد: دولة الكلمات الطيبة.

ومـع ذلك، أجد لزاماً علي أن أشير، بأسف، إلى أن أغلبية حملة الأقلام العبرية لم تستجب إلى نداء الكاتب العربـي. وبشكل أدق: لم تعرف عنـه شيئاً، ولم تسمع بـه مطلقاً. ولست هنا لأتهـم. ولكنني أريد أن آمل وأن أحث، وأن أحاول القضـاء على سوء الفهم المتواصل. وهكذا، فإني أطلع زملاءنا على مدى سرورنا بهذا اللقاء الذي يعقد في جو بالغ العنف والكآبة.

وينبغـي علينا أن نعتـرف، منذ البداية، بـأن صوتنا المشتـرك هنا قد يُسمع أحمق خارج هذه القاعة. فالدم العربي والدم اليهـودي يُسفـكان. والجندي اليهودي يخاطب الجنـدي العربي بالسـلاح. والجندي العربي يرد عليه باللغة ذاتها. العنف في الخارج، «والوطن آخذ في الاتسـاع». ونحن هنا حفنة مـن المثاليين نتحدث عن التفاهم؟

رغم كل ذلك، فإننا مدعـوون إلى الاعتراف بأنه مـن هذا الجو بالذات، يستمد هذا اللقاء قوته وجماله الـلاذع. هذا هو الاختبـار الحقيقـي للضمير في كل

العصور وفي كل الأمكنة. فليس من البطولة في شيء أن نتحدث عن التفاهم في الأيام العادية الهادئة. إن قوة الكلمة تُمتحن في الأيام العادية الهادئة. إن قوة الكلمة تُمتحن في الأيام العاصفة. ونحن نعيش في بحر العداء والدماء. ولهذا جئنا هنا لكي نُمتحن. إن تجربة الأدب والفن التي تبلورت خلال قرون بعيدة تشير إلى العزلة. ولقد استمد الأدب احترام الأجيال اللاحقة من قدرته على الصمود في العزلة. وعلى ذلك، فإننا مدعوون إلى عدم الإستسلام لليأس وخيبة الأمل من الجو السائد.

إذا كان الجو الشائع في الخارج هو الحديث عن الحرب – فلنتحدث عن السلام. ولنتمتع بالعزلة.

وإذا كان الجو الشائع في الخارج هو الحديث عن الاحتلال – فلنتحدث عن حتمية تحرر الشعوب. ولنتمتع بالعزلة.

وإذا كان الجو الشائع في الخارج هو الحديث عن انتصار السلام – فلنتحدث عن انتصار ما يبدو لنا أنه العدل والحق.

وإذا كان الجو الشائع في الخارج هو الحديث عن التخريب – فلنتحول جميعاً إلى مخربين – لنخرب أسباب التخريب والعداء.

إننـا معزولـون. ولكن الواجـب يستدعـي منا أن نتمسك بهـذه العزلة التي هي بمثابة كنـز الضمير. ولا نسبحـنَّ مع التيار. فالأدب الإنسانـي المستقيم – كان دائماً وأبداً– يسبح ويحرص على السباحة ضد التيار.

هـذا هـو الأمل الذي أعلقـه على هـذا اللقاء الذي يشـكل في نظري بدايـة الإجابة علـى القضية المقلقة: العلاقـات بين الأدبـاء اليهود والعرب في هـذه البلاد. ولكننـا ملزمون ببلـورة إجابة عملية. ومـن هنا أعرب عن أملـي في ألا يكون هذا اللقاء شبيهـاً ببيضة الديك. وذلك يستدعـي البحث عن المزيد مـن اللقاءات لكي يتـم التوصل إلى مزيـد من التعـارف... وإلى مزيد من التفاهم. وإني أقترح هنا إقامة شكل ما من التنظيم الحر للأدباء اليهود والعرب الراغبين في التفاهم.

ويسعدني أن أبلغكم بأننا – نحن الكتاب العرب – نعرفكم ونتابع حيرتكم في بحثكم عن حل.

ولكـن يؤسفنـي أن أشكو مـن أنكـم لا تعرفوننا، رغـم إحساسـي بوجـود استعـداد أولي لديكـم لفهم الغير. وأصارحكم بأن لنا مصلحة خاصة في التعارف، فنحـن معنيـون بتصحيح صـورة الأديـب العربي كما تنشرهـا الصحف. إني أشعر بالإهانـة لأني مضطر إلى الإعلان هنـا أن الأدباء العرب ليسـوا شوفينيين معادين

لليهـود. والحقيقة السهلـة هي أن الأديـب العربي في إسرائيل يدافع عن كرامته وعن كرامة شعبه. إنه يتمسك بطابعـه القومـي دون أن يتصادم ذلك مـع كونه مواطناً في إسرائيل. نحن لسنـا مذنبين لأننا نحمل بطاقة هوية إسرائيليـة. ومنحنا هذه البطاقة ليس منة. إنه حق. لقد اخترنا البقاء هنا، ومن يسمح لنا بالاستمرار - لا يحق له أن يظهر أمامنا بمظهر المحسن وصانع المعروف. هذا وطننـا. وهذا الوطـن الآن ليس لليهـود وحدهم وليس للعـرب وحدهم. إننا نؤمن بإمكانيـة أن يعيش الشعبان معـاً بهدوء وتعـاون شريطة أن تقوم حقـوق كل منهما علـى قدم المساواة مع الآخر. نحـن لم نختر أن نكون عربـاً ولا يستطيع واحـداً منكم أن يزعم أنـه اختار أن يكون يهودياً. ولذلك مرفوضة هي، منذ البداية، أسباب الغطرسـة القومية. إن سعيـي وراء حق شعبي لا يتناقض مع اعترافي بحـق شعبك. ومن بكى ألفي سنة يجب أن يفهم مشاعر من يبكي منذ عشرين سنة!

لقد كان العربـي في إسرائيل، ذات يـوم منظراً من مناظـر الطبيعة المثيرة. وكانت هذة النظـرة إليه مهينة. ولكنه يصبح الآن منظراً طبيعياً بشعاً وغير مرغوب فيه. وهذه النظرة أشد إهانة بالطبع. إن مجرد انتمائه القومي مصدر شك واتهـام. وكل الخبراء الإسرائيليون الجهلة بالشوؤن العربية يجتهدون الآن في إيجاد حل لمشكلة

«الطابـور الخامس». وعلينا هنا أن نحذر من أن العربي الـذي يعانـي السلب والاضطهـاد ليس مـادة للرياضة الفكريـة، وليـس كبشـ فداء. إنـه ليس رهينـة، وليس تجربة في المختبر السياسي. يجب أن يكون العربي في إسرائيل موضوعاً لإعادة النظر، وحساب النفس: «ماذا أعطيناه – وقبل كل شيء – ماذا أخذنا منه؟».

وعلى المثقف الإسرائيلي أن يدرك أن الموقف من المواطـن العربي هو المحك الجـاد للنوايا فيما يتعلق بمستقبل الشعـب الإسرائيلي فـي المنطقة. إذا كانت السلطـة قد فشلت فـي التوصل إلى سـلام مع العربي المقيـم فـي إسرائيـل فليس مـن حقها – خلقيـاً – أن تطلب السلام من الدول. وإذا طلبت – فمن يصدقها؟ لقـد صنعت السلطـة الإسرائيلية مـن المواطن العربي دليـلاً بالـغ السوء علـى نواياهـا. وإذا مـا وُجد شاب عربـي يقوم بنشاط مغامر، فإنكم مطالبون بأن تروا في هـذه الظاهرة ثمرة من ثمـار السياسة الرسمية. فعندما تخلقون فيه الإحساس بأنه ولدٌ غير شرعي في وطنه، يروح يبحث عن والد شرعـي. وإن العدمية القومية لا يمكـن أن تكون البديـل للاعتزاز القومـي. إن البديل للاعتزاز القومي قد يكون اليأس الخطير! وعندما يعلن مستشار رئيـس الحكومة للشـؤون العربية في مقابلة مع صحيفة «معريـب» – أن «العربي الإسرائيلي ليس

ناضجـاً حتى الآن للهجرة» فمن حقنا أن نتهم السلطة بالعمـل على إشاعة «وعي الهجرة» في عقول الشباب العرب.

واجبنـا هنـا أن نعمم «وعـي التفاهـم». ونحن لا ندعي القـدرة على حل القضايـا المعلقة. نحن نحاول التوصـل إلى قدر ما من التفاهم. ونحاول رص أصواتنا المشتركة. نحطـم الأسوار لنلتقي ونتعارف لا لنتوصل إلى اتفاق. فلنكرر اللقاء في صف الكلمات الطيبة!

من المونولوج... إلى الديالوج

هل كان لقاء الأدباء اليهود والعرب في حيفا... لقاء تفاهم؟

إن مزاج تلك الساعات الحارة التي قضيناها في المناقشات، والمزاج الذي خلقته وجبة الغداء المشتركة فيما بعد، هو الذي يجعلنا نصدق الاسم الذي أطلق على الاجتماع «لقاء تفاهم».

ولكننا حين نلاحق، الآن، ردود الفعل التي أثارها الاجتماع، وانطباعات الأدباء اليهود عنه، والمناقشات الدائرة في الأوساط الأدبية والصحفية، نكتشف أن الاجتماع لم يكن «لقاء تفاهم»، ونكتشف أنه من

السابق لأوانه، على ما يبدو، الحديث عن لقاءات التفاهم بين الأدباء اليهود المؤمنين بعدالة الصهيونية وبين الأدباء العرب المؤمنين بأخطار الصهيونية.

لا أسجل هنا خيبة أمل أو ندماً، ولكني أسجل تحول الانطباع، والاعتراف بأن الإقدام على الحوار لا ينبغي أن يجعلنا نحلم بالاتفاق السريع. ومن ناحية أخرى أسجل ارتياحنا الشديد من مجرد الحوار الذي بوسعه أن يزيل لهجة العداء والانطباع السلبي السابق عن العلاقات بين الأديب اليهودي والأديب العربي، وقبل كل شيء يفتح ثغرة في حائط الجهل التام بقضية الأديب العربي في هذه البلاد.

كان الاجتماع حواراً قاسياً أو مواجهة. ولعل كونه كذلك هو ما يمنحه هذا الاهتمام المدهش الذي تبديه الأوساط الأدبية العبرية. لقد كان «سوء التفاهم» ودياً إذا صح التعبير. وكان بمثابة جس نبض أو فحص أولي لاستعداد كل منا للتفاهم، ولشروط التفاهم. ومن حسن الحظ أنه قد توفر فيه الحد الأدنى من حسن النية. ولكن كشف الحساب الذي قدمه واحد من المجتمعين دل على عمق الهوة التي تفصلنا عن بعضنا البعض.

وكان بودنا، نحن الكتاب العرب، أن نحدد موضوع الاجتماع: أن نحصره في موقف الأديب

اليهودي من الوضع الذي يعيشه الأديب العربي المضطهد. وحددنا نوع الأخوة التي نريدها: لا أخوة الفارس والفرس، بل الأخوة بين المتساوين. وهذا يعني – على مستوى العلاقات بين أدباء الشعبين – أن يقوم الأديب العبري الإنساني برفض كل أشكال الاضطهاد والملاحقة التي يتعرض لها زميله العربي، لأن السكوت على اضطهاد الأديب العربي أو التفرج عليه ينفي عن الأديب العبري صفة الأمانة الأدبية.

وعلى هذا... اتفقنا.

كل الأدباء اليهود المشتركين في الاجتماع نددوا بكل أشكال الاضطهاد هذه، ودعوا زملائهم إلى التضامن مع الأديب العربي، وأكدوا على أن وضع العربي يهدد بالخطر زميله اليهودي.

ولكن الأديب العربي – قلنا – يضطهد بسبب قضيته، وهو ينتمي إلى أقلية قومية مضطهدة، تنتمي إلى شعب مشرد. والأخوة – على مستوى العلاقات بين أهل الكلمة – تستدعي النضال من أجل تغيير السياسة الإسرائيلية الرسمية تجاه المواطنين العرب في اتجاه منحهم المساواة التامة في الحقوق والنظر إليهم كمواطنين لا رعايا.

وعلى هذا... اتفقنا.

كل الأدباء اليهود الذين اشتركوا في الاجتماع طالبوا بدرجات متفاوتة من الصراحة، بمساواة المواطنين العرب مع اليهود، لأن معاملة إسرائيل لهؤلاء المواطنين هي المحك الحقيقي لنواياها تجاه مستقبل علاقاتها مع الشعوب العربية. إذا عجزت عن إقامة سلام مع أقلية قومية، فكيف تطلب السلام من دول؟ أن الحق الأولي يستدعي وقف سياسة التميز والاضطهاد تجاه المواطنين العرب في إسرائيل.

ولكننا، نحن الكتاب العرب، أبناء شعب يعيش في الخيام والمنافي. ونرى أن دائرة سفك الدم المفرغة في منطقتنا ومتطلبات إحلال السلام على المنطقة وعلى أرض الزيتون والدم، تستدعي الاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني.

وهنا، تختلف التصورات والتقديرات. وتنطلق المقاطعات من القاعة ومن منصة رئاسة الاجتماع ونكتشف أن اتفاقنا على قضايا جزئية لا يطول، ما دمنا غير قادرين على تلافي بحث القضايا الجوهرية.

وللأمانة، يجب أن أسجل هنا ملاحظتين:

الأولى – أن الكتّاب اليهود لم تكن تشغلهم قضية الأديب العربي، منذ البداية، بقدر ما تشغلهم القضية الأهم: الحرب والسلام في المنطقة.

والثانية – أن هؤلاء الكتّاب غير متفقين في ما بينهم على وجهة نظر واحدة، وهم – جميعاً – لا ينتمون إلى أي إطـار أو تنظيـم سياسي موحد. إنهـم مجموعة من الأدبـاء الذين تقلقهم قضية الحـرب المستمرة ويعانون حيرة فكرية مؤلمة توصلهم إلى الباب المسدود.

كانـت أكثريتهم ترى أن الجوهـر يكمن من هاتين النقطتين: أولاً – هل نعتـرف بحق إسرائيل في الحياة؟ وما هي الحـدود التي نعترف بها لإسرائيل؟ وثانياً – ما هو موقفنا من «عمليات الإرهاب العربية»؟

ومن مظاهر سوء التفاهم بيننا، أن الإجابة على هذين السؤالين كانت واردة في سيـاق كلماتنا التي قلناها في الاجتمـاع. ولكـن، لأن أغلبية الجمهـور الجالس في قاعـة سينما «ميرون» والقسم الأكبـر من الأدباء اليهود الجالسيـن في القاعة وعلى المنصة، لأنهم يعتقدون أن هذين السؤاليـن هما الجوهر، كرروا السؤالين وبشكل استفزازي. وفي المقـالات العديدة التي كتبت عن هذا الاجتماع الهـام، كان السؤالان محـور التأكيد ودائرة الضوء والاهتمام. اتهمونا بأننا تهربنا من الإجابة. وراح كتاب آخرون، لم يشتركوا في الاجتماع، يستخلصون النتائج من هـذه «القضية» ويطعنون في جدوى الحوار بين الأدباء اليهود والعرب، ويصفون مثل هذا الحوار بأنه حوار بين صم. وكتب أحد الأدباء اليهود ممن اشتركوا

في الاجتماع «نحن اليهود تحدثنا عن الإرهاب. طلبنا من العرب الذين يعيشون في إسرائيل محاربة الإرهاب الذي سيقضي عليهم في نهاية الأمر. وهم - العرب - تحدثوا عن عذابهم، عن كونهم مواطنين من الدرجة الثانية، عن الاعتقالات وسلب الأراضي وغيرها نحن تحدثنا عن المبدأ، وهم تحدثوا عن التفاصيل».

المبدأ... والتفاصيل. هذا هو السؤال فعلاً. ولكنني أعتقد أننا نحن الذين تحدثنا عن المبدأ، وأن الكثيرين من الكتّاب اليهود تحدثوا عن التفاصيل.

كيف!

أيتهما القضية المبدئية: الموقف من قضية حق الشعب العربي الفلسطيني، أم بعض أشكال ردود أبناء هذا الشعب على إنكار حكومة إسرائيل لهذا الحق؟ هل «الإرهاب» هو الذي خلق مأساة الشعب الفلسطيني... أم مأساة الشعب العربي الفلسطيني هي التي خلقت «الإرهاب».

لقد تحدثنا عن حتمية الاعتراف بحق هذا الشعب، تحدثنا عن مبدأ الاعتراف كشرط لا نفر منه لوضع العلاقات العربية - اليهودية على أساس آخر غير أساس القوة وحسم السلاح والحرب الدائمة. وحددنا موقفنا من المقاومة. قلنا بوضوح وصراحة: يؤسفنا أن تنسف

البيوت ويقتل الأطفال والنسـاء والمدنيون الآمنون في حيفـا أو مستوطنة يهودية. ولكن اسمحـوا لنا أيضاً أن نأسـف لنسف البيـوت العربية وقتـل المدنيين العرب. إننـا نعارضـ مثل هـذا الإرهاب مـن الجانبيـن. أما ما يجري في المناطق العربية المحتلة من أعمال المقاومة، فنحـن نقره. لـكل شعب محتل حـق مقاومة الاحتلال بالأسلـوب الذي يختاره. وإذا كنتـم لاتريدون أن يُقتل أبناؤكـم في المناطـق المحتلة فليسـ أمامكم إلا طريق واحد: الانسحاب.

أيهما المبدأ، إذن، المطالبة بإلغاء أسباب الإرهاب، أم التنديد بأشكال الإرهاب؟

ثـم، ما هو المبـدأ... وما هي التفاصيـل في قضية الاعتراف بحق الشعب الإسرائيلي؟

قلنـا: إن نقطة انطلاقنا هـي أن للشعب الإسرائيلي والعربي حق تقرير المصير في هذه البلاد... إن تمسكنا بحقـوق شعبنا المهضومة لا يعنـي تنكرنا لحق الشعب الإسرائيلـي. على العكسـ، إن الاعتراف بحق الشعب العربي هـو الضمان البعيد المـدى لصيانة حق الشعب الإسرائيلـي، لأنه يضمن إحلال السـلام. وبالحرب لا تضمنون شيئاً في المدى البعيد.

والحدود؟ هذه هي المسألة التي تتعلق بالتفاصيل.

لنتفق أولاً على مبدأ الاعتراف بالحق. ثم قولوا أنتم ما هي حدودكم؟ لا أحد في الدنيا يعرف ويعترف بحدودكم. حتى أنتم لا تعرفون ولا تعترفون. فلماذا يوضع موقفنا من هذه المسألة شرطاً لقدرتنا على التفاهم؟

ولا تزال ردود الفعل تطرح قضية أخرى بلهجة تحريض، أو إيحاء بعدم جدوى الحوار مع الأدباء العرب المنتمين إلى الحزب الشيوعي. وقال بعض الأدباء اليهود ممن اشتركوا في الحوار أنه لو علم، من قبل، أن الحوار سيجري مع أدباء شيوعيين لما جاء إلى الاجتماع . ولكنه اكتشف أن الحوار كان هاماً ومفيداً. وكتب أديب آخر «خير لنا أننا لم نعرف قصائدهم من قبل. لو عرفناها لما جئنا إلى أي اجتماع معهم. إن شعرهم يثير فينا مقاومة شديدة. ولكننا – بمفهوم معين – قد اعتدنا التطرف العربي. وبذل الجهود لمحاورة المتطرفين هو إحدى الطرق التي تبقت لنا. فإن الحوار مع «الأعوان» على إضرابهم محكوم عليه بالفشل، ولا يفيدنا». وكتب آخر يبرر جدوى الحوار معنا – على الرغم من تطرفنا «إن هؤلاء الذي يتكلمون بصراحة، ويدلون بتصريحات غير مريحة لا يشكلون الخطر. فإن الاعتزاز والكرامة أمر جوهري وهام لكل إنسان». وكتب أديب آخر «يجب أن يجري الحوار بين متساوين».

هـذه النتائج التي توصل إليها جميع الكتاب اليهود هـي نتائج مشجعة وإيجابية. ولعلها تشكل نقطة تحول فـي النظر إلـى قضية الحـوار مع العـرب. ومهما تكن الحقيقة جارحة إلا أنها دائماً خير من خداع النفس. لم يبق الآن إلا أن تعمم هذه الاستنتاجات التي تؤلف ضربة قوية لسياسة السلطات الإسرائيلية. فإن العربي المتشبث بكرامتـه القوميـة وبحقوق شعبه هو العنـوان الصحيح للحوار. وقد شاءت المصادفة أو غيرها أن تكون أكثرية الأدباء العرب الحقيقيين من الشيوعيين، على الرغم مما في هذه الحقيقة من نشاز في الأذن الإسرائيلية. والأديب اليهودي – غير الشيوعي أو المعادي للشيوعية – الذي يريـد الحوار المجدي ومواجهـة الحقيقة لن يجد مفراً بعد الآن من كسر الحصار المضروب علينا، ومحاورته الأدبـاء «الإيجابيين» الذين يشيدون بالنعم التي أغدقتها إسرائيل على العرب. لن تكـون إلا تسلية مهينة وضرباً من الأوهام.

وبعد...

إن أهـم علامة في هذا الحـوار الأول، الذي جرى في ذلك الصباح الرمادي في مدينة حيفا المختلطة، هو أنـه عكس رغبة حقيقية لدى الأدبـاء اليهود المتعصبين في ملء ثغـرة خطيرة في دورهـم كأدبـاء في محاولتهم فهم قضايا الأديب العربي في إسرائيل. وكون مناقشات

هذا الاجتماع صريحة إلى هذا الحد يجعلنا نعتقد أنه لم يكـن بمثابة رياضة فكرية معزولـة عن الواقع. إنه حوار حقيقي حـاول كل واحد منا أن يصغـي إلى الآخر وأن يفهمـه. ليس من الضـروري أن نتوصل إلى اتفاق وإلى تماثل فـي الآراء. المهم أن نستمر في الحوار الذي يثير مناقشـات واسعة حول وضـع المواطنييـن العرب في إسرائيل، ويطرح على المواطن اليهودي أسئلة جديدة.

ومن أهم النتائج التي حققها الاجتماع، من ناحيتنا، هـو أننا استطعنا أن نكسر جـداراً خطيراً من سوء الفهم العدائـي والشكوك، وأن تطلع وجوهنا - كما هي وبلا تشويـه - حزينـة... ولكنها غيـر حاقـدة. إنسانية... ولكنهـا غير مستسلمـة. مضطهـدة... ولكنها ليست ذليلة.

وجاءتنا وجوه مجموعة غير قليلة من الأدباء اليهود: قلقة، ودية، مضطربة، وتتطلع إلى أفق أجمل.

ثلاث كلمات على إيقاع واحد

الكلمة الأولى

لأمر ما، قرر المسؤولون في دائرة الإرشاد والتنوير الرسمية أن يكون هذا الشهر مكرساً للتنوير، سيشن فيه الدعاة حملة قوية من «نور الايمان» بالوضع القائم على المواطنين العرب في إسرائيل في مختلف أنحاء البلاد. وقد خصص حوالي ثلاثمائة محاضر لهذا الغرض، يقودهم: نائب رئيسة الحكومة ووزير المعارف والثقافة وزير الشرطة، ومستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية. وفي الأسبوع الماضي، افتتحوا في الناصرة «شهر التنوير» باجتماع كبير تحدث فيه يغال

ألـون، والمستشـار طوليدانـو، ومدير الشرطـة العام، ومديـر دائرة التنوير، ومجموعة مـن المواطنين العرب المربوطين بعجلة التنوير.

ويقال، رسمياً، إن الهدف من هذه الحملة الواسعة هو: خلق مزيد من التفاهم بين الشعبين العربي واليهودي في هذه البلاد.

ونحن لا بد لنا هنا مـن الاعتراف بالحاجة الملحة إلى مبادرة تشجع على التفاهم بين أبناء الشعبين، خاصة بعدمـا ارتفعت درجة حرارة العـداء والشكوك ارتفاعاً خطيراً في السنـة الأخيرة. ولا بد لنا أيضاً من النظر إلى هذه القضية بمنتهى الجدية والعمق.

ولكننا، من ناحية ثانية، مضطرون إلى السؤال عن سبـب تدهور هذه العلاقات، وإلـى السؤال عن هوية الذين جاؤوا، فـي هذا الشهر، لبنـاء جسور التفاهم. إن عشرين سنة مـن التجارب الغنية بالمرارة قد أثبتت للجميـع أن الشـرط الجوهري للتفاهم بيـن الشعبين هـو: المساواة بينهما. وأثبتت أيضـاً أن دعاة السياسة الرسميـة، في تجاهلهم هـذا الشرط، كانـوا يجرون حـواراً مـع وجوههم فـي المرايـا... كانـوا يلعبون بالظـلال – وكانـوا يقيمـون صداقة فريـدة: صداقة الفارس والفرس. وقد أثبت هذا الطراز من الصداقات

فشلـه التـام. والدليـل على ذلـك حاجتهـم الآن إلى الإعلان عن شهر التنوير.

هـذا من جهة. ومـن الجهة الثانيـة، كانت دروس الحث علـى الصداقة والكرز الدعائي موجهة دائماً إلى المواطنيـن العرب، علـى اعتبار أنهـم المسؤولون عن تدهـور العلاقات بيـن الشعبين. كانـوا يعلمون العرب بالكرباج، في الوقت الذي كانت فيه الشوفينية اليهودية خارجـة من عقالها، وتهـدد الخلقيـة اليهودية بأخطار يحذر منها الآن عدد كبير من رجال الفكر والأدب. إن يغال ألون – فارس التفاهم بين الشعبين – مطلع ولا شك على المناقشات الدائرة في هذا المجال، فإذا كان معنياً – حقاً – بصدق الشعار الذي يرفعه هذا الشهر، فلماذا لا يعلـن أسبوعاً واحـداً للصداقة وعـدم كراهية العرب بين الجماهيـر اليهودية؟ ثم إنه لو فعل ذلك، لما صدقه أحد هناك. لأن الشوفينيـة الجامحة والروح العسكرية العاليـة لم تأت من الحائط – كمـا يقولون. لقد خلقتها السياسـة الرسمية التي تنهب حقـوق الآخرين وتعتدي علـى أراضيهـم ومستقبلهم، وتربي الشعـب اليهودي على تحقيق الأساطير التوراتية. ويغال ألون – هو واحد من فرسان هذه السياسة.

وسـؤال آخر: لمـاذا يختارون فـي الحوار هؤلاء الموظفيـن الذين يقولـون: نعم. ولمـاذا لا يجرؤون

على الشروع في حوار مـع أولئك الذين يقولون: لا؟ لمـاذا لا يفتشـون عـن أسباب «لا» وادعـاءات «لا» ويفندونها؟ لمـاذا لا يواجهون «لا». الحوار لا معنى له – وهـو ليس حـواراً إذا جرى بيـن فارس وفرس. وهذا الشهـر الذي يروجون له، تدفعنـا كل الأسباب إلـى الاعتقاد بأنـه عاجز عن تحقيـق الهدف المعلن: التفاهم بين الشعبين. وأكثر من ذلك – نحن نشك في أن هذا هو الهدف. إن هذا الشهر هو واحد من تاريخ سياسـة التدجين والوعظ السياسـي الرسمي، وإشاعة نور الإيمان بالوضع القائم.

الكلمة الثانية

فـي هذا الشهر أيضاً، شهدنا حواراً من نوع آخر. كان الحوار بين «نعم» و«لا».

لقـد شعـرت «منظمـة الكتـاب العبريـن» لعدة أسبـاب، أنها ماضية في ممارسـة إثم أدبي. الرأي العام فـي الخارج يتساءل عـن وضع المواطنيـن العرب في إسرائيـل وعن وضع أدبائـه. إنهم يتجولـون – بحرية – بيـن الاعتقـال والاعتقال المنزلـي وأوامـر الإقامة الجبريـة! ويصرخـون ويحتجـون، ومنظمـة الكتاب الرسميـة في البلاد لا تعـرف أو لا تريد أن تعرف شيئاً.

وقبل مدة بادر عدد من الكتاب العبريين الإنسانيين إلى إجـراء حوار في حيفا، مع الأدباء العرب المضطهدين. وكانت للحوار أصداء واسعـة قد يكون أحدها مبادرة منظمة الكتاب العبريين إلى الاجتماع بالكتاب العرب حول مائدة مستديرة حافلـة بالشراب والسندويتشات في «بيت الأديب» في تل أبيب.

من المكاسب التي أحرزتها مبادرة منظمة الكتاب هـو أنها استطاعت أن تصدر لنا تصاريح سفر تل أبيب. وكان ذلك فرصة لتنذر أحد الكتاب الساخرين فيكتب أن الحكم العسكري قد ألغي ليوم واحد. وجاء الكتاب العـرب إلى تـل أبيب التـي تبدو لهم كما تبـدو باريس للإسرائيليـن. ولعـل قـدرة منظمة الكتاب علـى إتاحة هذه الفرصة النادرة لنا من بين الأسباب التي دفعتها إلى اتخاذ قرار بكتابة رسالـة احتجاج إلى رئيسة الحكومة تحتج فيهـا على أوامر الإقامة الجبريـة المفروضة على الكتاب العرب.

كان ذلك هو النتيجة العملية الوحيدة التي أسفر عنها حوار شديد القسوة والصراحة استغرق خمس ساعات اتفقنـا بعدها على ألا نتحدث عن إمكانية الاتفاق، وألا نحلـم به ما دامت أمامنا صفـوف طويلة من الخلافات الفكرية والإيديولوجية العميقة.

لماذا؟

إن نوعية الجانب اليهودي من الاجتماع، في غالبيتها، صهيونية بلا مواربة، وتؤمن حتى النخاع بحتمية السيادة اليهودية المطلقة على فلسطين. وبعد ذلك، لا مانع لديها من أن يتمتع السكان العرب في إسرائيل بالمساواة في الحقوق. وهي ترى أن المسؤولية عن استمرار الصراع العربي – الإسرائيلي الدامي لا تقع على السياسة الإسرائيلية – الصهيونية المتنكرة لحقوق الشعب العربي الفلسطيني والمتطلعة إلى التوسع الإقليمي. المسؤولية كلها تقع على تنكر العرب لحقوق الشعب اليهودي وعلى رفضهم الاعتراف بالسيادة اليهودية المطلقة على فلسطين. والكثيرون من هؤلاء الأدباء يريدون اختبار واقعية الأديب العربي بالتسليم للأمر الواقع والكف عن التمسك بحقوق شعبه الفلسطيني، وبتنديده المتلاحق بكل يد ترتفع على إسرائيل، وبعمليات المقاومة في المناطق المحتلة، وبالاعتزاز بإسرائيليته!

وكانت نوعية الكتاب العرب. في غالبيتها، تقدمية تؤمن بإمكانية التعايش بين الشعبين إذا انطلق الجانبان من الاعتراف بحقوق بعضهما البعض، ومن أن التمسك بسيادة قومية واحدة مطلقة على فلسطين ستبقي العلاقات العربية – الإسرائيلية في دائرة الدم.

وإن «الإرهاب العربي» الذي تتحدثون عنه لا يجب أن يشغلنا بالظاهرة عن السبب. إن استمرار الاحتلال والتنكر لحقوق مليون إنسان هو الذي يخلق المقاومة.

لقد كان هذا الاجتماع الأول بين ممثلي منظمة الكتاب العبريين وبين مجموعة من الكتاب العرب بمثابة مواجهة فكرية شديدة الصراحة والعنف ساعدت الجانبين على الاعتقاد بجدواها لأن الأديب العبري أدرك حقيقة قضية الأديب العربي، وأن هذه القضية، في جوهرها، ليست المطالبة بتصريح سفر إلى تل أبيب وبحرية شخصية. إنها قضية شعب. ومما شجعنا على الاعتقاد بضرورة استمرار الحوار هو أن التعامل بيننا لم يكن تعاملاً دبلوماسياً.

مثل هذا الحوار الذي يجري بشرف وكرامة، هو الحوار الذي قد يؤدي إلى بعض التخلص من سوء الفهم، وقد يكشف عن بعض الحقائق الجديدة. ولهذا، قال أحد الأدباء العبريين: آن لنا أن نتخلص من محاورة الأعوان على أنواعهم.

ومثل هذا الحوار هو المطلوب حتى لو كشف لنا عن الهوة السحيقة الواقعة بيننا. إن رؤية الهوة خير من تجاهلها.

والكلمة الثالثة

وامتداد لهذا الموضوع، ولاكتشاف الهوة، كتب لي أحد الأدباء العبريين البارزين «أني لا أسلي نفسي بأمل التفاهم بين اليهود والعرب قبلما يحل السلام الحقيقي. إذا شئنا أم لم نشأ. فإن ما يفصل بيننا أكثر مما يجمع. وكلما ازداد الفهم قد نكتشف عمق الهوة و حجم العداء»

هذه الكلمات، بكل ما تتضمنه من تشاؤم صريح، تضع قضية جوهرية هامة: استحالة التفاهم قبل حلول السلام الحقيقي. إن السعي نحو التفاهم الفعلي بين الشعبين مرتبط بالسعي نحو السلام. فلا يمكننا أن نصدق «شهر التنوير» الذي يعلنه آلون، مثلاً، في الوقت الذي يعلن فيه البقاء في المناطق المحتلة.

نتفق على هذا التقدير. ولكن الزاوية التي ننظر منها إلى الأحداث مختلفة ومتناقضة إلى حد الاعتراف بالهوة العميقة. إني أصدق كل الكتّاب العبريين الرسميين وشبه الرسميين حين يتحدثون عن رغبتهم في السلام. ولكني لا أصدق أن الطريق الرسمي الذي يبررون السير عليه في العلاقات الإسرائيلية – العربية يؤدي إلى السلام. كيف يحل السلام بين القاتل والضحية حتى لو كان الغضب الوحيد للقتل. ولنفترض أن حرب حزيران كانت – كما

تؤمن أغلبية الإسرائليين – حرباً دفاعية ومن أجل السلام، فإن الإعلان السافر عن الضم والتوسع والحصول على خارطة جديدة أشياء لا تنسجم مع الرغبة في السلام. السؤال المطروح الآن أمام الإسرائيليين هو الاختيار بين أحد اثنين: المناطق، أم السلام... الخارطة الجديدة – أم السلام؟ وفي هذا العدد من مجلة «الجديد»، ننشر استفتاء أجريناه بين بعض الكتاب اليهود حول موضوع «لو كنت أديباً عربياً»... وهو صيغة صحفية لرغبتنا في أن نسأل الأديب اليهودي: لو كنت مكاني، لو كانت لك مثل قضيتي... فماذا تفعل؟ هل تتصرف مثلي؟ ونحن نعترف بأن السؤال افتراضي، نقصد منه اختبار الضمير وحث الأديب العبري على مطالعة وجوه الغير وقراءة نفسيتها، فاليهودي الذي عرف العذاب مدعو إلى التمتع بحاسة العذاب الذي يصيب الآخرين.

ونحن نجري هذا الاستفتاء، بالإضافة إلى رصد الحياة الفكرية الإسرائيلية، لكي نضع أمام القارئ العربي صورة متواضعة عن أسلوب واتجاه التفكير الإسرائيلي في ما يتعلق بالعرب. ونعترف بأن بعض الردود المنشورة في هذا العدد والتي لا نوافق عليها أبداً لم تصبنا بأية خيبة أمل كما يتصور أصحابها، فنحن لم نقصد ابتزاز موقف إنساني. لقد أردنا الحصول على الصورة كما هي وبلا رتوش وألوان زاهية.

وسيلاحظ القارئ أن بعض الكتاب الصهيونيين لم يتمكن من الوقوف الافتراضي في المكان الذي يقف فيه العربي. وعندما استطاع أحدهم أن يقف هناك ألغى العربي، كما فعل أهود بن عيزر حين تحدث عن المصير الذي حدده له جده المهاجر إلى قرية ملبس، فحرث أرض العربي وزرعها وعاش فيها. وحدد مصير الأجيال اليهودية القادمة في أرض العربي؛ ولكنه لم يسأل نفسه – في حالة صفاء نفساني – أين العربي... وما هو مصيري؟

وهكذا، ما دام الطرف الصهيوني من الحوار الجاري بيننا عاجزاً عن الاعتراف بحق الآخر، ومصراً على تحويل أرض الآخرين إلى مصيره ومصير الأجيال القادمة ومصير الآخرين إلى الضياع، فسنبقى بعيدين عن التفاهم وبعيدين عن السلام... وقريبين من الهاوية!

دفاع عن الشجر

ما جئت لكي أعـدد فضائل الشجر. لأنها أكبر من أن تحصى، وأجمل من أن تمجد، وأشهر من أن تقدم!

جئت لأدلي بهـذا الاعتراف: أنا مولع بالشجر إلى درجـة الغيـرة. ويصعب علـي أن أصـدق حكاية عداء واحدة بين إنسان وشجرة، حتى لو كانت ثمرة منها سبباً في خروجه من الجنة! حتى الله عندما أراد إغراء الإنسان بالجنة أسرف في وصف الشجر. ويصعب علي أيضاً أن أصدق أن قتل الشجر لا يعتبر جريمة.

إِن الشجـر يحمل مجدين: مجـد الجمال، ومجد المنفعة. وإذا كان هنالك فرق أحياناً بين الشيء الجميل

والشـيء النافع، فـإن الشجر قد حـل المشكلة بأروع برهـان. والشجر لا يبعث البهجـة والرضا والنمنمة في القلب فحسب، بل يمد أيضاً بأنامله الخضراء إلى عقولنا، فيعلمنـا الكثير الكثير: يعلمنا مثـلاً كيف تدوم الخضرة في الفصـول الأربعة... في محاصـرة الزمهرير... في تأفـف الحر... وفي غضب الريـح. وهذا الدرس الذي يلقنا إياه الشجر بعفوية عذبة تعبنا حتى سميناه الأمل.

والشجـر يتحـرك... ولكنه يتحرك إلـى الأعماق وإلـى الأعالـي ولا يغادر «وطنه»، وهذا هـو سر قوته. رسـوخ فـي الأرض وتطلـع إلـى الأفـاق. فلنأخذ منه الحكمة ولنتعلم درساً في حب الوطن. إذا فكر الشجرة بالهجرة من أرضه... مات. ولكنه لا يفعلها لأنه لا يريد أن يموت قبل الأوان.

والشجر يكافح الظروف... ولا يستسلم. إنه يقاوم صلابـة الصخر بصبر وأنـاه وحيلة. يأتـي الصخرة من نقطـة ضعفها حتى يستقر رأسه في موضع ثم يعمل فيها ضرباته حتى تتفتت وتصير إلى تراب يمتص منه غذاءه. وهذا الدرس سميناه الكفاح المتواصـل. والشجر لم يسلم من العدوان... كانت الفؤوس ولا تزال تقطع منه ذراعاً أو إصبعاً أو أنفاً... أو تجز شعره كله. ولكن حبه للبقـاء لم يتركه أسير جراحه وعذابه. فكان يعرف كيف يضمد الجـرح ويبني خلايـا جديدة... يطلـق أغصاناً

وفروعاً جديدة... ولا يموت... لا ينهزم. وهذا ما نسميه نحن صموداً.

والشجر يتعرض لمحاولات الاقتلاع، ولكنه لا يقتلع إلا مرغماً... يقاوم ويقاوم ويقاوم حتى النفس الأخير، عندما لا تصبح المقاومة إلا تعبيراً عن تفضيل الاستشهاد على ما عداه، أمام أعداء كثر. وفي بلادنا قرأنا بإعجاب كبير قصة مقاومة شجرة عجز عشرات عن قلعها حتى استعانوا بالجرافات. وهذا درس رائع في التحدي يجب ألا يمر دون أن نأخذ منه العبرة.

والشجر يموت إذا حان أجله... ولكن الإنسان البطل لم يستطع حتى الآن أن يموت كما يموت الشجر إلا مجازاً... الإنسان يموت في أحسن الحالات متكئاً على جدار ولكنه يسقط في الحال. أما الشجر فإنه يموت واقفاً لأن أقدامه راسخة في الأرض عميقاً... عميقاً. وهذا ما نسميه بكبرياء الموت الذي يبقى في حدودنا مجازاً.

* * *

وأكرر: ما جئت لأعدد فضائل الشجر. بل جئت لأدلي باعتراف: أنا مولع بالشجر. أقف أمام الشجرة مثل المسحور، فينازعني حنين لعناقها وتقبيلها. ولكني لا أستطيع التحرك لكي لا أخسر شيئاً من سحرها

وتعاليهـا. وأحتار في اختيار إسم لها: حكيمة فاتنة. لا! لا! إنهـا شجرة وكفـى! إن أقسى تعذيـب للسجين هو أن يوضع فـي سجن لا يرى من ثقوبـه شجرة. وأهتف فـي لحظة نشـوة متحررة مـن كل شيء سواهـا: ليتني طير كـي أجعلها وطنـي... وطن آه هذه هـي الكلمة! لمـاذا لا نكثر مـن الغناء للشجـر... إن الغنـاء للشجر غناء للوطـن... للجمـال... للصمـود... للكرامة... للأمل... للتحدي... للبقاء... وللحياة. وليس مصادفة أن العـازف الأول راح يلهث، راضياً راضياً، في غصن شجـرة. وسريـر الميلاد مـن الشجرة. ووعـاء الموت مـن الشجرة. والشجرة ذاتها تغنـي، وتنوح، وترقص، وتفرح، وتتأمل وتشمخ، وتعطي... ولا تأخذ.

* * *

إذن، ارفعوا أيديكم عن الشجر! إِنه وطن...

الأطلال المحنطة

هذا المكان نفي للمنطق!

إذا تركت للفكر فيه أن يعمل، فلن يولد إلا الشر. وإذا اكتفيت بقـراءة السلام على الأطلال، فلن تسمع إلا إصـرار الريح علـى النسيـان. وإذا تحجَّرت على حجـر، فلن تصبـح إلا نصباً لقبر كلـب. وإذا مشيت فـي بحيرة الشـوك على غيـر هدى فقـد تغوص في جمجمة جدك. وإذا حاولت النوم فيه بقيت أجفانك مفتوحة... معلقة على شبح لا يستقر ولا يمضي! وإذا حاولت الرجوع منه تصـدى لك البحر وحولك إلى خرافة حية.

هذا المكان نفي للمنطق!

* * *

كأنـه شطيرة... السماء عنـده التقت بالأرض على ظهر هضبة. وعلـى كتف الهضبة الأيسـر أشجار سألنا عـن اسمها فقيل هـو الزيتون... ألا تعرفـون أنه منديل السـلام! قلنا: نذكر أنّا قرأنا يوماً عمـا يعنيه الزيتون... وأكثـر مـن ذلك قال لنـا التاريخ: كان بعض الغزاة في عودتهم منتصرين يحملون أغصان الزيتون... أليس هو هذا الذي نراه. قيل لنا بفرح غبي: بالضبط!

وعلـى كتف الهضبة الثاني أشجار في لون الأشرطة المنشورة على قبور الأولياء. مشطتها الريح فاستقامت، ونفضت عنها الغبـار وعبأتها بالعصافير التي نسيت في هـذا الأفق الأخضر متاعب رحلتها فوق البحر الأزرق، ولعلها لا تغنـي، الآن، للرحيل بقدر مـا تغني للبقاء... وهذا حسن!

وعلى كتف الهضبة الأمامي، وهو مرتفع، تصاعدت من الغابـات الخضراء أحجار في لـون الذكريات وفي شكل الوشم، قيل لنا عنها: يسكنها عرب!

بقي المدخل، وهو واحد لا يفضي إلا إليها... وإلى الهضبـة. وكأنه يقول: هنا يأتي الناس ولا يعودون. وإذا

سألت هذا الطريق الوحيد: من أين خرج الأولون الذين عمَّروا وجعلوا هذه الصخـور خضراء، لعله يقول لك: هذه حالة خاصة! وإذا حاولت محاورة الأشياء هنا طال بك الحوار وما انتهيت إلا إلى محاورة نفسك، فتزدحم بأشياء سميناها الأحـزان ولكنها تفكر، والتفكير هنا - كمـا قلنا - لا يولـد إلا الشر... لأن هذا المكان - كما قلنا نفي للمنطق!

* * *

المدخـل - وحـذار أن ننسـاه - علـى بعـد زفرة قصيرة من البحر، حتى إذا وصلت إلى الهضبة اختلطت رائحة الملـح البحري بالملـح الأرضـي، برائحة نوَّار الزيتـون والشوك الذي يعيد طفولتـه من جديد، بتنفس أشجار اللوز الناشرة مناديلهـا البيضاء الشفافة. ومن ثم برائحـة الماضي التي تغلب علـى كل شيء، فتمشي في شبه إغماءة لا تصحـو منها إلا بضربة على الرأس عندما تسمـع قصة هذا المكان من جديد. وفي كل مرة تسمع فيها جديداً...

* * *

الحياة هنا حقيقة. لم يحـدث شيء! وعابر السبيل إذا مر في النهار، صفق للشمس التي تصقله بالنور، وإذا

مر في الليل استسلم بفرح وبلا كلفة للقمر الذي يغتسل بالندى، ويغسل عابر السبيل بالرضا والود مع الأشياء.

وعابـر السبيل إذا عاد مـن رحلة الخرائب التي تثير فيـه فضول الآثـار التاريخية، جلس فـي المقهى وعب مـا يشاء في نشوة يـروى لذاتها لأيامـه القادمة، وعابر السبيـل يسمع هنـا، بعيداً عـن السرعة الهـارب منها، حـوار الطبيعة الصامت، لأنه لا يرى إلا السطح، ما جاء ليتحـرى أو يبحث، بل جاء ليخضـع لما أوهم نفسه أنه النبـع أو الجذور بلا صنعة أو تكلف... جاء ليتعرّى... أمام الشمس والنسيم.

الحياة هنا، بالنسبة له حقيقة... بدليل أن كل شيء يكمل مهمته. هذه الزهرة مثلاً لا يرى فيها إلا أنها تكوِّن نفسهـا، من أيـن تأخذ غذائها؟ ومن حـوَّل لها الصخر تراباً؟ هذا سؤال لا مكان له ذهن عابر السبيل...

الحياة هنا حقيقة! رغم أنها جاءت من موتي، وهذه مسألة لا تهم سواي. ما طعم هذه الحياة لمن يهنأ فيها، ولمـاذا لا يهمه ولا يعنيه هـذا التساؤل؟ أنانية؟ غباء؟ لا إنسانية؟ أم شيء لا يخضع ككل شيء هنا للمنطق!

تعالوا نحاور هذا التمثال الصغير... إنه تمثال امرأه تفكر. لقد خلد لنـا روادن... المفكر، بإبراز عضلات ظهره، فكيـف يفكر هذا التمثـال الصغير الواقف على

فتحة هذا المكان؟ أبرز ما في هذه المنحوتة نهداها... وهـي تفكـر، أي أنها تفكـر بواسطة نهديهـا... وهذا حسـن، ويساعدنا على الفهم، فليكن هذا التمثال دليلنا في هذه الرحلة!

* * *

هذا بلد الفنانين!

هذا إعلان يثير الهيبة فـي مَنْ منحوا «الفن» طأطأة الرأس، وأحاطوه بتصورات جعلته عزيز المنال، وبايعوه عن بعد بالحياد المستسلم، وغفروا له ما جعلهم أصغر منـه بكذبـة! وأنا لا أحـب أن أكون فظـاً ولكني أتمتع بالفظاظة لكي أميز بين المهر والتيس. وأنا ما دمت فظاً – أرفضـ احترام الفن مـا دام لا يأخذني في الحسبان. أريده أن يخدمنـي ويعبدني لكوني إنسانـاً، والجمالية لا تخدعني ما دامـت تناقض جوهر انسانيتي، وتكتفي باستخدامي نعـلاً لها! أريد منها – ما دامت عاجزة عن فهمـي أو مـا دامت أسيـرة نفي المنطـق – أن تعبر عن النـدم، لأن الندم اعتـراف بشيء من الذنـب. أما أن لا يعنيهـا من وجودي غير كوني لونـاً، أو لوحاً، أو سبباً، فإني أختار الفظاظة لأميز بين المهر والتيس!

ولكـن الإعلان ما زال يستجـدي الإعجاب: «هنا بلد الفنانين»!

إن الذيـن بنـوا هذا البلد صار اسمهـم... لاجئين. وكلمة لاجـئ اذا لفظناها ببـطء وصاحبنـا اللفظ بهزة رأس مـع عمضة عيـن، لكفانا الحزن نبشـ الجروح. ولكـن الفنانين هنـا لا يتركون للجـروح أن تنام لأنهم يستوطنون هـذه الجروح، وبواسطـة شفاهها القرمزية يقبِّلون المجد قبلات جعلتهم في سكرة. أفكر: إذا كان القتل بطولة، فإن تحويـل جرح اللاجئ إلى فراش وثير ومضاجعة المجد فيه... بطولة خارقة من زمن خارق!

إن الذيـن بنـوا هذا البلد صار اسمهـم... لاجئين! ولكن بيوتهـم لم تتحول إلى أطـلال، لأن الذين لجأوا إليها أرادوها أن تكون متاحف، تحمل شهادات انتصار التراكتـور علـى الثور! إن هـذه البيوت التـي استبدلت أرواحهـا وروائحها وصلواتها ليسـت أكثر من أطلال حيـة، أو جثـث غيـر مدفونـة، جثث محنطـة لا يفهم الأغبيـاء صـراخ الصمـت فيهـا! فهل يستطيـع جنون الموسيقـى وصياح الأقداح إلى الأبد أن يغلق ثغور هذا الصمت المتمرد؟!

ليالي الفنانيين هنا، كليالي الفنانين! في هذا المرقص تـرى دائمـاً نساء يحملـن صـدوراً طافحـة بالعاصفة المشحونة بالأشعـة، تندلق عليها الخمـرة فتزداد ألقاً، ويتحرك فـي أجساد الرجـال وجع اللـذات المتربصة بانطفـاء الموسيقى التي تستفز الصبـر! في هذا الوادي

المرمري الـذي يشـق تفاحتين، وجدت لـي وطناً...
هكـذا ترتجف فتحات الأنوف. هـذا الضوء الشاحب
قادر، الليلة، علـى مخادعتي. لو عرفت الحقيقة للعنت
حب الاستطـلاع. أعرف الآن: في هـذا المكان، هذا
المرقص، هذا النادي الليلـي، كان يلتقي الناس بالله...
بلغة خاشعة ضارعة. أن هذا جامع!

نعـم. قبـل أن يأتي الفنانون... قبـل أن يعثروا على
«وطن». كان هذا البيت جامعاً!

أقول لـك أكثر من ذلك، لكن تعـال معي. ومشينا
بين بيوت الطيـن والحجر. وفي إحـدى الطرق دخلنا
معصرة القرية الباقية لتثير المتعـة في الفنانين والسياح،
حتى وصلنا إلى ساحة صغيـرة مفروشة بالشوك. رفعنا
بعض الأشواك لنعبر، فعثرنا على انصاب قبور. قالت لنا
فنانـة هربت من هتلر: هذا المـكان كان مقبرة! انظروا
فوق هذه التلـة... هناك تسكن أسـرة عربية طلبت من
الفنانيـن هنـا أن تسيـج المقبرة، لكنهـم رفضوا. وقبل
أسابيع مات أحد كلاب القرية، فدفنوه في هذه المقبرة.
نعم دفنوه في هذه المقبرة...!

* * *

وبعـد، كنت أحكي لكم عن قريـة كان اسمها قبل
18 سنـة: «عين حوض» بقيت بيوتها من الخارج كما

هـي... لم يحدث فيهـا شيء إلا «انقراضـ» أصحابها العرب... الذيـن استبدلوا بفانين غيـر عرب! وأدخلوا اليها الكهرباء.

مـن السهل أن يحدث هنا كل شيء، إلا شيء واحد هو ترجمة الاسم، لقد أصبح الاسم: «عين هود». وهو ترجمة غير دقيقة «لعين حوض»... لأن حرف «الضاد» حرف عنيـد. لا يكون إلا عربياً. كل شيء يمكن تغييره هنـا إلا الانتصـار علـى هذا الحـرف الخالـد... وفي هذا الخلـود رمز كبير، فاذا زرت «عيـن حوض» يوماً واغرورقـت عينـاك بالدموع من هول مـا ترى، امسح دموعك بحرف الضاد وحاول أن تغازل الشمس!

يا أَحمد

- « يا أحمد!

بوسعك أن تكون أحد اثنين: إما عدواً... طابوراً خامساً، وعندها نقول لك: كل الإحترام، وكل الرصاص!

وإما أن تكون مهاناً على أيدي أولئك المكافحين من أجل «مساواتك» بشروط الثورة... التي من المحتم أن ترتبط بالتمييز وفقاً لمتطلبات الثورة القائلة: إن أمورنا دائماً تقدم على أمورك. فإن هذه البلاد وهذه الدولة هما للشعب اليهودي قبل أي شيئ آخر».

- **من الذي يقول هذا الكلام؟ من أنت؟**

● «يا أحمد!

إن الـذي يخاطبك ليس إسرائيل الفرد، بل إسرائيل الشعب الكبير القديم صاحب هذه البلاد».

- **وماذا تريد ؟**

● «انصرف من هنا... غـادر هذه البلاد، وامض إلى بلادك وإلى وطنك القديم».

- **لماذا؟**

● «نحـن الصهيونيين، أَعدنا إلى شعـب إسرائيل بعضـ الكرامـة والشـرف وبعض الوطـن، ولا بد للكرامة كلها من أن تأتي».

- و...؟

● «ولأن الكارثة المتربصة بالشعب اليهودي أكبر من الكارثة المتربصة بكم، فمن الضروري والمحتم أن تكون الكارثة لكم»!

- **أثبت ذلك!**

● «إن أقدم نظرية صهيونيـة وأصدقها تقول: كل أرض إسرائيل لشعب إسرائيل».

- **زدني علماً!**

● «أنا أخاطبك بصفتي صهيونياً. نحن الصهيونيين رأينا في الرحيل الحل الأفضل للأقليات اليهودية في المهاجر. كانت هنالك بلدان عشنا فيها مدة أطول من المدة التي تعيشون فيها في إسرائيل، ولم نكن أعداء لتلك البلدان، ولم نهددها بالسيطرة عليها، ورغم ذلك كله قلنا: لا أمل ولا كرامة في استمرار البقاء هناك».

- **ماذا فعلتم؟**

● «ألم يحلم بعضنا، ذات مرة، بأنه من الممكن شراء أرض إسرائيل؟ كان ذلك هراء. واليوم، وفيما يتعلق بالمناطق التي ما زالت في حوزة العرب داخل دولة إسرائيل هؤلاء العرب المساكين والمضطهدين (عن سخرية) فإن الطريق الوحيد هو شراؤها».

- **لماذا!**

● «أنتم في داخل إسرائيل، وبشكل طبيعي قطعاً: طابور خامس. وأنت على أية حال تملك قدراً من الثقافة يجعلني في حل من أن أسرد لك شيئاً من الماضي ومن الحاضر، فأنت تكثر من الاستماع إلى إذاعات القاهرة ودمشق وحتى عمان أكثر مني. وهنا يجيء المطران حكيم ويدلي بهذه الشهادة:

75 في المئة من عرب إسرائيل هم أعداء دولة إسرائيل، والأكثرية على استعداد للهجرة».

- **أهكذا تعامل دول العالم الأقليات فيها؟**

● آه... «دولة إسرائيل في معاملتها العرب يجب ألا تشبه أية دولة أخرى في العالم وفي هذا المجال، لأن ماهية دولة إسرائيل هي أنها دولة على الطريق... ويجب أن تقرر معاملتنا العرب طبقاً لأهدافنا هنا. ويجب ألا يطبق أي مبدأ آخر ما لم يتحقق هدفنا».

- **أليس في أقوالك اعتراف ضمني بسوء حالة العرب في إسرائيل؟**

«أريد أن أسأل سؤالاً لم يطرح في بلادنا ولم يخطر على بال أحد منا من قبل».

- **كلي آذان مصغية!**

● «إن مستوى معيشة أبناء شعبك في دولة إسرائيل ليس من أشد المستويات انخفاضاً بالنسبة للدول العربية، أليس كذلك»؟

- **نحن الآن في إسرائيل؟**

● «تصور: إن متوسط مستوى معيشة أبناء شعبك هنا يتفوق على مستوى معيشة آلاف اليهود من

الهجرة الجديدة».

ثم: «عن طريق أية أموال ارتفع مستوى معيشتكم، يا عرب، وهذه الخدمات التي تتمتعون بها... أليست من دولة إسرائيل؟ الشوارع والكهرباء والمدارس... أليست من فضل إسرائيل»؟

«أليست أكثرية المصانع والخدمات هنا تبنى من مصادر مالية خارج صندوق الدولة؟ من المليارات التي نحصل عليها من دم آبائنا الذين أُبيدوا – ولن أتحدث هنا عن قسطكم في الإبادة –»

– **أي قسط؟**

● «سواء عن طريق مباشر أم غير مباشر»!

و... «المليارات من الجنيهات التي دفعها الشعب اليهودي في العالم ولا يزال يدفعها من أجل بعث إسرائيل لا إسماعيل في بلاده»؟

قل لي!

– **ماذا؟**

● «ماذا ستكون حالتكم لو كنتم تحصلون على ما تدفعونه للدولة، ولو كان اليهود وحدهم يحصلون على الأموال التي ترد من الشعب اليهودي المباد

والحـي، ولا تدخل هذه الأمـوال صندوق الدولة، بـل تعطي ليهود الدولة، لأن هـذه الأموال تأتي من اليهود في سبيل اليهود؟!»

- **هكذا إذن؟ هكذا يسمى المظلوم ظالماً... والسجين سجينـاً... والقتيـل قاتلاً... والمسـروق سارقاً، إذا نظرنـا إليـه بمنظـار هذا الحقـد على هـذه القمة من الكراهية، الجامحة، والإنسان الذي كان يبني هنا منذ مئات السنين يتحول، فجأة، إلى سحابة صيف يجب أن تخلي مكانها، فجأة للقادم الجديد.**

* * *

ملاحظة صغيـرة: كل الفقـرات الموضوعة داخل أقواسـ... مترجمة عن مقال نشرتـه «نظرة جديدة» مجلة «الثلاثي القوي»: بن غوريون - ديان - بيرس، حددت فيه بوضـوح وصراحة، بمناسبة الحديث عن الفيلم التسجيلـي القصير «أنا أحمد»، سياسة «رافي» من العـرب. أما الأسئلـة فقد وضعتها وفقـاً لتسلسل أفكار صاحب التحريض الدموي. وكما يرى القارئ فإن التعليق على هـذه الجواهر لا يجدي لأنها تتوهج بالعداء والسمـوم. ولهذا اكتفيت بوضـع الأسئلة... والباقي أسجله للتحذير... والذكرى... وللتاريخ.

القِسمُ الثانِي

مواقف من الأحداث

نار على الجبل!

نادانـا جرح في يـركا... والجرح هنـاك يستحيل إخفاؤه لأنه نار على رأس الجبل تأتيه الريح من الجهات الأربـع. ومن إحدى هـذه الجهات أتينـا عندما كانت الشمس ترمى وشـاح الظل على جـرح القرية فتجعله وحده يضيء.

على الطريق الطالعة إلى أعلى الجبل شاهدنا انتصار السواعد علـى الصخور في صراع الإنسان الأبدي مع الطبيعـة. رأينـا جثث الصخـور المتفتـة تحت الجهد والعـرق المقدس. فتذوقنـا طعـم اللقمة النبيلـة التي تستلها الأيدي المعروقة من كبـد الصخر. ورأينا، بعد ذلـك، إِكليل الوحل الذي يتوج مجـد الذين يتنفسون

مـن رئات الآخرين، ويبنون علـى أنقاض الآخرين دار العلا الكاذب!...

يـركا... يا يركا! خاب من لم يصدق أن الاضطهاد مثل النار... لا صديق لها... تأكل الأخضر واليابس... والعمامـة والطربوشـ... والقـرآن والإنجيـل وكتاب المخفي أعظم. إن النـار اذا اشتعلت في حقل جيرانك يا يركا... فلن تبقي ولن تذر، إلا إذا عرفنا أننا متساوون في نصيبنا من الاضطهاد. وهذا الدرس قاسٍ كالصخر يا يركا ولكن من فتت كل هذه الجلاميد قادرٌ على إيقاف النـار عند حدهـا، والذود عـن لقمة العيشـ المرة... والخطوة الحرة... والكرامة الموفورة.

قالـوا لك، يـا يـركا، عندمـا أرادوا تفريـق حزمة الأعـواد ليسهـل عليهم كسـر كل عود علـى حدة: إن العـرب عرب... والدروز دروز ولـن يلتقوا! أرادوا أن يسلخـوا الجلد عن العظم بعدمـا كانا ملتحمين في كل المعارك التي خاضتهـا أمتنا... انطلت الكذبة على نفر قليـل... ولكن حبل الكذب قصيـر وأضعف من أعواد الذرة والشعير. ويوماً بعد يوم تكشفت النوايا وسقطت أوراق التـوت. إن الليـل إذا هبـط لا يميز بيـن المقابر والقصـور ولا بين الأسود والأبيض. ونحن... نحن في الليل سواء.

سألنا طفـلاً حافياً: أيـن الاجتماع؟ لـم يسألنا أي اجتمـاع نقصد... فإن كل طفل... وكل امرأة... وكل شيخ... وكل شاب في يركا يعيش في ظل الخطر الداهم، ويـدرك ما يشغل بال القرية في هذه الأيام ويطرح عليها ستـار الوجوم والغضـب الذي يرقرق العـرق المشتعل علـى الوجوه النحاسيـة. لقد أخرج الخطـر المفاجىء جميع الناس من بيوتهم الترابية والحجرية والاسمنتية... وقذفهم إلى الطرق الترابية الجافة ليحكوا حكاية اليوم: الأرض التي اخلصنا لها وسفكنا دماءنا في سبيلها وعلى حدودهـا، تريـد أن تسلبنا كل ما نملـك: الأرض التي منهـا أخـرج الله كل شيء حـي... ونحن نخـرج منها خبز عيالنا... ودفاتر أبنائنـا... وسترة عوراتنا... هبوا إننا شجـر فأين ستضرب جذورنا إذا لم نملك أرضاً... ولا بحـراً نملك. ولا سماء طبعاً لأن خيمة السماء تابعة بطبيعة الحال لبساط الأرض... إذن، نحن لا شيء... لا مصدر رزق... ولا وطن!

لا ينسـى أهالي يركا أن يستذكـروا الحكم التركي والانتـداب البريطاني اللذين لم يعتديـا على أراضيهم. وأهالي يركا لا ينسون التعبير عن خيبة آمالهم. يقولون: لـم يخطر على بالنـا أن إسرائيل ستعاملنـا بهذه القسوة التي تعاملنا بها تركيا وإنجلترا! يا للعار!

رأي أهالـي يـركا أن أفضل مـكان لاجتماعنا بهم

هـو الـمـكان المقدس الذي يركعون فيـه لله ويلتقون به في صلواتهـم ومراسيمهم الدينية... في الخلوة. شعرنا بالرهبـة التي يضفيها هذا المكان المقدس على من فيه. جلسـ قسم مـن شيوخ القريـة على الحصيـر، ووقف القســم الآخر على أقدامه... ووقف في جنبات المكان مئـات من الشبـاب والأطفال فاشتعـل المكان بحرارة الغضب العادل. لم تخل عين واحدة من نار الاحتجاج والوعد بالصمود.

جلسنا على مقاعد خشبية نستمع إلى بيان عن القضية المؤلمـة... على مؤامرة اغتصـاب معظم أراضي البلدة بما فيها عشرات البيوت المهددة بالهدم والتدمير، بإسم الإنشـاء والتعمير... كل أسـرة هنا مصابة. لم يقل أحد: أنج سعد فقد هلك سعيـد. كل بيت هنا مهدد بالهلاك. صموداً أيها الرجال! والدروز، كما نعرف جميعاً، أهل نخـوة... عوّدونا أنهـم إذا قالوا فعلـوا... وقد قالوا لنا يومهـا إنهـم سيدافعون حتى النهاية عـن أراضيهم حتى لـو كلفهم ذلـك دمهم. لقد شعـرت بجفاف في حلقي عندمـا وقف شيـخ وصـاح: سأحرق نفسـي أمام باب الكنيســت احتجاجاً علـى سلب أرضي. هـؤلاء الناس طيبون وبسيطون بعمق. ولكنهم غير معزولين عن العالم الخارجـي. إنهم يسمعـون عن النضـال البطولي الذي يشنه المناضلون في كل العالم . إنهم يعرفون كيف يقاوم

الأعـزل وهـم يعون تاريـخ الدروز العامـر بالبطولة. هـم يعتزون بهذا التاريخ... وبهذه البطولة. إنهم يبدون الآن كالظبـاء المذعورة... ولكنهم فـي صميمهم يحملون، إذا جرحوا، شراسة الأسد.

جلسنا نسجل اصرارهم وحكايات وشكاوى فردية عن قضيتهم الموجعـة... والمحرضة... على الغضب والنقمـة. عشرات من الحكايات عـن أساليب الخداع والسرقة والتزويـر التي تسلب بواسطتهـا أراضيهم... عشـرات مـن الحكايـات التـي تصلـح أن تسجل في تاريـخ الغاب. حكوا لنا عـن مأساة أرملـة قتل زوجها فـي الجيش... دفع لهـا المسؤولـون تعويضات بمبلغ خمسـة آلاف ليرة إسرائيلية، وأخـذوا منها، مقابل هذا التعويضـ البخس، ثمانية عشر دونمـاً من أصل خمس وعشريـن دونماً كل مـا تملك! وعلقوا علـى الحكاية المؤلمـة قائلين: هذه هي دية الشهيـد! وحكوا لنا عن ابتزاز توقيـع التنازل عن ملكية الأرضـ بالاعتماد على جهل الفلاحيـن القراءة، مستغليـن طيبتهم وبساطتهم وثقتهم بكلمة الرجال.

ثـم وقـف الجميـع، وأقسمـوا معـاً باسـم البيت المقدسـ يمين الولاء للأرض والدفاع عنها حتى النهاية مهما كلفهم هذا الدفاع من تضحيات. وطلبوا منا ومن الرأي العـام والقوى الديمقراطيـة تأييدهم ومساندتهم

في نضالهم من أجل حقهم العادل.

عند عودتنا من أعلى الجبل كانت الشمس لا تزال تسحب وشاحها الذي تشبثت أذياله في مفاصل الصخور المتفتتة، وتجري حواراً هامساً مع الأرض لا يفهمه إلا من في قلبه وتر مشدود إذا مر عليه نسيم الأرض الطيبة الممزوج بالطيب والعرق، تنهد وصرخ. وفي قلوبنا جميعاً مثل هذه الأوتار التي تشكل مجتمعة لحن الاحتجاج الصارخ...

ومرة أخرى رأينا انتصار السواعد الشريفة على الصخور المهزومة، فهل تكون المعركة القادمة أقسى وأشد. وفي الليلة ذاتها غنى «بيت سيجر»: سننتصر في ذات يوم!

الجنود كانوا أطفالاً

جواب آخرعلى دوافع الكراهية العنصرية

السؤال ما زال مطروحاً للبحث:

كيف يقدم الجندي على ارتكاب جريمة قتل بدم بارد!؟ إن معالجة هذه القضية، بفكر بارد، تستوجب تحرير السؤال من علامات الدهشة والاستهجان التي كبلت بها صحيفة «معاريب» السؤال، لأن حادث القتل يحمل من العناصر والدوافع والصفات ما يدفع إلى الاقتناع بأنه طبيعة. وهذه الطبيعة لا يمكن أن تأخذ هذا الشكل من التبلور من شذوذ فردي خاص فقط، فالبواعث التي تبدو أنها ذاتية ليست إلا انعكاساً لقيم المجتمع الذي يمجد كراهية الآخرين ويحتقرهم،

والتعبير أو التنفيس عن الكراهية والاحتقار يتخذ أشكالاً متفاوتة في العنف ومع أن الإقدام على القتل بدم بارد هو قمة هذا العنف، إلا أنه امتداد غير شاذ للنقطة التي بدأ منها... الكراهية.

في عدد سابق من «الاتحاد» استعرض «مراقب» بعض الدوافع للقتل التي تصبح في نهاية الأمر اتهاماً سافراً لقادة المجتمع الإسرائيلي القيمين على التعليم وعلى صياغة عقل الشباب وتثقيفه بروح العنصرية وكراهية العرب والاستهتار بحياتهم.

ومع أن المناسبة التي طرح فيها السؤال، كانت قتل شابين من رام الله، إلا أن الأيام بما تحمله من أحداث لا تزال تطرح السؤال بشكل حاد وصارم. وكان بودنا أن تعالج القضية بالجدية التي تستحقها، ولكن الصحف تجاهلت الموضوع لأنها تعرف أنها ستضع نفسها في قفص الاتهام، وسترد التهمة إلى أولياء أمورها وذلك يتنافى، بالطبع، مع المتطلبات والجهود الحربية. وبالرغم من كل أشكال التجاهل، إلا أن السؤال يبقى صارخاً وأشبه ما يكون بناقوس خطر.

وفي الملحق الأدبي لصحيفة «يديعوت أحرونوت»، يوم الجمعة الماضي، أمسك «مناحم رجب» بطرف الخيط... استعرض بعجالة صورة

العربـي فـي أدب الأطفال العبري ولكـن الكاتب ينظر إلـى الأمر نظرة عكسيـة، فتحصيل الحاصـل عنده أن هـذا الأدب أسهم في بناء شخصيـة الجندي الإسرائيلي فـي توجهه من الحرب وفي علاقتـه بالمحتلين. ويبدو أن هذا الإسهـام ايجابي في نظر الكاتب. واختلافنا مع الكاتـب في تقدير النتيجة ليس هو الذي يحتل الأهمية الأولـى الآن. ولكـن القاعـدة التـي بيدأ منهـا تقويمه للنتيجـة هي التي نتفق معـه عليها. فـإن أدب الأطفال أسهم فـي بناء شخصيـة الجندي الإسرائيلـي ونفسيته ونظرته إلى العرب. فالجنـود كانوا أطفالاً وتربوا على هـذا الأدب ذي الأهميـة الحاسمة فـي تثقيف الطفل، والأقسـى من ذلك أن الطفـل لا يصطدم، عندما يشب بثقافـة تتناقض مع القيم التي تربـى عليها في هذا الجو المشحون بالشوفينية والعنصرية والعداء للعرب.

إذن كيـف يبـدو العربـي فـي عيـون الأطفـال الإسرائيليـن؟ يبـدأ الكاتـب مقاله بقولـه إن المجتمع الشيوعـي يبـرز فـي أدب الأطفـال قيم هـذا المجتمع وتفوقها على قيم المجتمـع الرأسمالي. والنظام النازي أشاع فـي أدب الأطفال النظـرة اللاسامية، حيث ظهر اليهودي فيها ذا أنـف أعوج، وحاول «إغراء» الأطفال الآريين. ومقابل ذلك ظهر الشاب الآري طويل القامة، وقوي البنية.

فكيف يظهر العربي في إسرائيل مقابل اليهودي.

يقول الكاتب إن العرب دائماً في كتب الأطفال عندما يظهرون على خلفية الصراع بيننا وبينهم. ويبرز دائماً حب العرب للكراهية وتوجهنا إليهم يكون دائماً «من فوق»، فنحن اليهود قد جئنا بالثقافة إلى الصحراء، إذا خافوا منا تكون ثمة احتمالات للسلام ولبناء المستقبل المشترك. ويدعي الكاتب أن هذه النظرة لا تربي الكراهية!

ثم يورد بعض النماذج من كتب الأطفال: في كتاب «نوافذ للسماء» يقول المؤلف موشه بن شاؤول «النفخ»، بالبوق قرب الحائط ممنوع، لأن هذا الأمر يثير سخط العرب. ولكن من يتنازل؟ على أي حال فإن العرب يغضبون، لأنهم غاضبون بطبيعتهم.

وفي كتاب «نار في الجبال» يقول يهودا سلوى على لسان طفل «فلسطين – بلادنا. اليهود – كلابنا». وعندما يريد المؤلف أن يصور عربياً جيداً في صورة علي الذي يذكر صديقه اليهودي الذي علمه اللغة العبرية. يجعله يقول: «كل المصائب هي بسبب الذين لا يريدون أن يشتغلوا، بل يريدون أن يستغلوا ويخدعوا أخوتهم. هؤلاء هم الذين يثيرون الكراهية بين الشعوب ويؤدون إلى الحروب وسفك الدماء. على العرب أن

يتعلموا ويشتغلوا ويصبحوا بشراً، فبدون ذلك لا يكون سلام بينهم وبين اليهود».

وفي كتاب آخر تعرض صورة للمدرسة العربية القذرة، وللمعلم العربي الذي يحمل الكرباج. وعندما يقول المعلم اليهودي لزميله العربي إن في البلاد مكاناً للجميع، يجيبه: «إن شاء الله»، ثم يقوم المعلم العربي وطلابه بزيارة مدرسة يهودية. يقول له المعلم اليهودي: «أنظروا كيف يفعل اليهود في أرض إسرائيل» وعندها يتأثر العربي ويشن حملة أخوة وسلام.

وفي كتاب آخر نعثر على الصراع بين العربي المتأخر واليهودي المتطور، ودائماً يكون العربي متأخراً واليهودي متطوراً، هكذا بدون سبب عدا الإنتساب القومي، في كتاب «معسكران» نشاهد الصراع بين النواطير العرب والمستوطنين اليهود، وانتهى الصراع بانتصار المستوطنين. ولذلك، ولأن النصر كان من نصيب اليهود، فقد تحقق السلام، وعقدت صلحة، بعد أن كانت العصابات العربية المسلحة تحرض القرويين على مقاتلة اليهود ونهب مستوطناتهم المجاورة. وعندما يلقى القبض على الراعي العربي، يصاب بالدهشة لأن اليهود لم يبطشوا به، وبعد أن يشكرهم يعدهم بأن قطيعه لن يرعى حقولهم «حقول اليهود» وسيقنع زملاءه الرعاة العرب بالابتعاد مسافة معقولة عن هذه المروج.

وفـي قصة «آثار الغنـم المفقودة» يـروي المؤلف موشـه بن شـاؤول قصة الراعية العربيـة آمنة التي كانت ترعـى أغنام فـلاح يهـودي، وعندما نشبـت الحرب سرقت آمنة تنكات اليهودي وهربت.

هذه بعض ملامح صـورة العربي في أدب الأطفال العبـري كمـا استعرضهـا مناحم رجب فـي «يديعوت احرونوت» وكلها تظهر العربي الجبان المتأخر السارق والدخيل على الوطـن. أما اليهودي فإنـه دائماً شجاع ومثقف ومسامح جاء لكي يبني أرض إسرائيل ويعمرها ويحميها من همجية العربي. ألسنا في غنى عن القول إن هذه التربية من الإستعلاء القومي واحتقار الآخرين ذات صلة بتربية مهدت إلى نشوء أنظمة معادية للإنسانية؟..

اذا تحاشينـا هذا التذكير، فلـن نتحاشى القول إنها جواب حاد على السؤال المطروح للبحث: كيف يقدم الجندي على ارتكاب جريمة قتل بدم بارد؟

لأنـه كان طفـلاً، ونشـأ علـى كراهيـة الآخريـن واحتقارهم!...

شيء عن... أمنون لين!

شئنا، أم لم نشأ، فإن السيد أمنون يجمع المجد من أطرافه: مدير الدائرة العربية في المباي، وعضو كنيست وصهر أبا حوشي. ومن هذه الأمجاد يستمد الدافع على محاولة فعل مالم يستطعه الأوائل. كلما حنَّ إلى الشهرة، والحنين داء قاتل، استدعى صحفياً، أو وقف على منبر، وانهال على المواطنين العرب شتماً ووعيداً، لأسباب عديدة أحدها أن يقال أمنون لين قال.

له ما شاء، فلننشر، عطفاً عليه، ما قال: كل المسلمين والروم الأرثوذوكس في إسرائيل خونة. الحكومة لم تضع سياسة واضحة تجاه العرب، وقد آن الأوان، بعد النصر العسكري، أن نقول للعرب ما

هو المطلـوب منهم. المطلوب منهـم الإخلاص ومن لا يحب الدولة فليرحـل لأننا دولة ديمقراطية»... هذه وجبة واحدة من المأدبة القذرة التي أقامها أمنون لين في حيفا ونشرتها الصحف المحلية. ولولا أنها نشرت في الجرائد وأثارت بعض النقاش، لما كان لها من نصيب عندنا إلا ما تستحقه: الإهمال.

وقبـل أن نبـدأ مناقشـة ليـن، بودنـا أن نذكـره أن المسلمين: سيف الدين الزعبي وذياب عبيد، مثلاً، ليسا مـن الخونة، وأن الرومـي الأرثوذكسـي سليم جبران، علـى سبيل المثال أيضاً، ليس من الخونة. ولهذا اقتضى التذكير، لأن اتهام أمثال هؤلاء بالخيانة، على المستوى الشخصـي، يُسقط في فخ الخيانة أمنون لين نفسه، لأن من يعتمد على خائن لا ينجو من هذه التهمة.

ثم... ليس صحيحاً أن ليس للحكومة خط واضح تجاه العـرب. إن هـذا الخط المعادي للعـرب واضح وحـاد منذ أنشئت دولة إسرائيل، وعلى وجه الدقة، منذ وضع التخطيط لإنشائهـا! ليس لدى المواطنين العرب من «النعم» التي تستوجب إعادة النظر فيها إلا: إرهاب الحكـم العسكـري وتجريدهم من الأرضـ والحقوق والحـد الأدنى من المساواة. ولـن يكون انتهاج سياسة جديـدة، على ضوء هـذا الواقع، إلا تحريـر العرب من هذه «النعـم». وإذا شئنـا أن نخضـع مناقشتنا لأصول

المنطق، فإن النتيجة تكون دفع أمنون لين إلى البطالة، لأنه سيفقد جميع المؤهلات والظروف التي تتيح له فرصة أن يكون «ولي أمر العرب وسيدهم».

ولكن أمنون لين يفكر بمنطق آخر بالطبع... منطق الشوفيني الأهوج الذي يقنع نفسه بأن نصيب العرب من الاضطهاد ليس كافياً لإرغامهم على الذل و«التحرر» من الكرامة القومية. وهو من أصحاب النظرية القائلة إن العصا تخلق الحب. ولكن العجائز في قرانا قد قدمت الجواب على هذه النظرية قبل أن تحمل أم أمنون به، فقلن «كل شيء عند العطار، إلا حبني غصب»! من الوقاحة أن ينتظر المضطهد من المضطهد الشكر والإمتنان وتقبيل جميع الأيادي. ولكن أمنون لين، اعترافاً بالحقيقة، يملك من الذكاء قدراً يجعله يتظاهر بأنه يشوي قلبه على نار القلق على أمن الدولة، اعتقاداً منه بأن هذه الفزاعة قادرة على خلق الحرج. لا... يا خواجة! إن أمن الدولة لم يعد، الآن، مطروحاً على بساط البحث، لدى الحديث عن المواطنيين العرب في إسرائيل، إلا لمقتضيات الدعاية، وتبرير الاضطهاد الذي يسقط كثيراً من الأقنعة والخرافات الديمقراطية. ولعل أمنون لين يعرف، كما نعرف، من هو الذي يشكل الخطر على أمن الآخرين. على أمن الدولة...

وعلـى أمن العالم! إن البكاء الذي يصحب العدوان والجرائم لا يثير في نفوس العالم إلا القرف والإشمئزاز. وسواء كان تهديد أمنون لين تعبيراً عن رأي المسؤولين، وسـواء كان ناجمـاً عن الصراع الداخلي فـي إسرائيل، فإنـه فـي الحالة الأولـى ناقوس خطر يجـب أن ينتبه له الـرأي العام، وفي الحالة الثانيـة يضع المواطنين العرب لعبة في حلبة الصـراع الدائر، وإذا احتدم هذا الصراع، حـول هذه القضية، فـإن أشكول سيكـون مضطراً إلى البرهنـة على أنـه لا يقل بطولـة عن بن غوريـون، كما برهن على أن حربه كانت أوسع من حرب بن غوريون. وفـي الحالتين يبقـى المواطنون العـرب عرضة لمزيد مـن الاضطهاد و الإرهـاب. وإذا كان الهدف من هذه الحملة إرغام العرب على مبايعة الظلم بمثابة ند للرفض الحاد الـذي يبديه سـكان المناطق المحتلـة، فإن هذه المسألـة أيضاً تضاف إلى العوامـل المهددة للمواطنين العرب في إسرائيل!

وذلـك ما كشف عنه أمنون ليـن بقوله: «آن الأوان لأن نخبر العرب ما هو المطلوب منهم». ولعل ما يطلبه ليـن هـو أن ينفذوا السياسـة الرسمية سيئـة الصيت في العالم، وعرضهم كواجهة دعائية منجدة. ولكن العرب يدركون جيـداً ما هو المطلوب منهـم، والذي تحدده مصالحهـم وواقعهـم الأسـود. إنـه الدفـاع بمزيد من

الشجاعـة والإصرار عن حقوقهـم اليومية والقومية... الدفـاع عـن كرامتهـم وكيانهـم والتمسـك بوطنهم، ومعارضة الحرب والعدوان.

ومـا هي الخطـوة الجديـدة التي يهـدد أمنون لين باتخاذهـا ضـد العـرب إذا لـم ينصاعوا إلـى الأوامر. قال: إننـا دولة ديمقراطية، ويجب أن تستخلص النتائج المرتبة!

أولاً، ولو كانت ثمـة ديمقراطية حقيقية في البلاد، لقدمـت أمنون ليـن إلـى المحاكمة، لأن اتهـام آلاف المواطنيين بالخيانة لا يمكن إلا أن يكون جناية ساطعة!

ومـن الصفاقـة أن يطلب ليـن أوغيره مـن العرب الرحيـل عـن الوطـن. إن هـذه البلاد بلادهـم. ومهما تقلبـت الأحوال والمناخات، فإنهـا تبقى بلادهم. فيها يعيشون... وفيها يموتون!

بطاقة إلى وزير الدفاع

لعلي أعترف بأن اختيار العيد موعداً للكتابة إليك، محاولة لئيمة للتساؤل عن الحالة التي عاد بها العيد. ولكن صاحب التوقيع يملك من الذوق قدراً يدفعه إلى التمني، مع كل الناس، بأن يكون العيد بشير سعادة وأمن... لأن الذوق عندي يحمل طباع الزيت ما يجعله دائماً يطفو على سطح كل شيء. وهذه الحقيقة هي التي تبرر قولي لك: «كل عام وأنت بخير»!

ولكن، من أنا: أنا واحد من الذين استطاعت قوتك أن تنتزعهم من أحضان الطبيعة التي يغرق في حنانها الناس في مثل هذه المناسبات... واحد من الذين حرمتهم من الاسترخاء على العشب البري، ومن

المشاركة بفرح العيد... واحد من الذين أردت لهم أن يتعلموا درساً في الإخلاص لما تسميه بالأمن، فاخترت أسلوباً فريداً في التدريس هو إنزال العقاب! ولعلك تدرك أكثر مني أن الذين أخذت منهم هذا الأسلوب لم يعد عليهم بالثمار المأمولة، ولم يحصدوا منه غير الشر. وهذا هو حصاد الشر: لقد زدت شغفاً بما أردتني أن أكرهه، وزدتني كراهية لما أردتني أن أحبه، وساعدتني دون أن تدري على تحديد هدف طلقاتي. إن حرماني من حرية التجول، منذ سنين، على أرض وطني الغالي، لم يقطع أواصر الحب بيني وبين وطني، بل تحول هذا الحب، بفضل هذا الحرمان، إلى حب ذي مذاق أسطوري. لأنك، نتيجة خطأ في حساباتك، أضفت حرارة الحلم إلى برودة الواقع، فالتحم الحلم والواقع في قصة حبي لوطني التحاماً جعلني شبه مسحور بجبالي وسهولي وترابي وخرائبي. وهذا أيضاً ما يبرر قولي لك: كل عام وأنت بخير!

يصعب عليَّ ألا أتصور الخجل الذي يعتريك وأنت تذيع اسطوانات فخرك بالحرية والازدهار والإخلاص الذي جئت به إلينا. إن طريقة صنعك للمواطنة الصالحة تذكرني بطريقة صنع الهريسة المصنوعة من الدقيق واللحم والسمن والبصل والملح كما تعلمتها وأنا طفل في الصفوف الأولى. كان هذا

الدرس نكتة، وقال لنا المعلم إنه نكتة. فهل حديثك يا معالي الوزير عن الفخر بالجنة التي تمننا بها نكتة!... والحديث يجر أذيال الحديث، والشيء بالشيء يذكر... ومن الهريسة نذكر الكعك... كعكة زنوج أمريكا مثلاً، وهناك يتحدثون كثيراً كما تتحدثون هنا عن المساواة وملحقاتها. وقد قال أحد زعماء الزنوج الشبان المحرومين مثلنا: «إن المساواة بالمعنى الذي يفهمه زعماء الولايات المتحدة تصبح مجرد كعكة من السماء يوزعها البيض على عدد قليل من أفراد الطبقة الوسطى من الزنوج الذين يقبلهم البيض في صفوفهم. إنها خدعة لتغطية سيادة البيض». نضيف إلى ذلك أن الحكم العسكري غير موجود هناك... وهكذا تصبح المسألة هنا أكثر سخرية. وأنا، يا معالي الوزير، لا أطالبك بنصيبي من الكعكة. إن على أعتابك كثيراً من الناس الواقفين في انتظار فتات الكعكة. فليهنأوا بها. وأكثر من ذلك: يصعب علي أن أتصور أنك تجهل تاريخ حياة الكعكة منذ استخرجت من الأرض. هنالك فرق كبير بين صاحب الحق المغتصب وبين المتسول. ونحن لا نزال نريد أن نعتقد، كما يطيب لنا، أننا أصحاب حقوق مغتصبة لا متسولون. ولذلك نتجرأ على مخاطبتك دون اللجوء إلى مراسيم الانحناء. لا. هذه لا نفعلها. وهذا أيضاً ما يبرر قولي لك: «كل عام وأنت بخير»!

مـا جئت أنغص عليـك احتفالك، ولكـن أسألك: لماذا تسعى إلى تنغيص أيامي كلها، وتحاول أن تحرمها من عيـد أو من المشاركة بالعيد؟ وهذا السؤال الساذج يضعـك يا معالـي الوزيـر موضع الاتهـام. جئت لكي أتهمـك لا لأطلب منك أن ترد إلي حريتي التي سجنتها علـى ورقة وردية منـذ سنين. وفـي المناسبة أصارحك القول أني فخور بتسديـد حسابي ثمناً لمحافظتي على كرامتي وشرفـي، وقامتي المنتصبة، إنه فخر لابن فلاح أعـزل مسلوب الأرض والحق... أن يثيـر نقمة وزير دفاع دولة هزمت سبـع دول أيام كانت الدول تباع في الأسواق وأيام كان القرش مثقوباً! وهذا الفخر يقع أيضاً نتيجة خطأ في حساباتـك، ولكنه أيضاً يبرر قولي لك: كل عام وأنت بخير!

شـاءت الصدفة السيئة يا معالـي الوزير أن يصادف العيد الذكرى الخامسة لمصرع الشباب العرب الخمسة الذي سيبقى ندبة أبديـة في جسم شعبنا، ووصمة باقية فـي جسم النظـام القائم مـا دام باقياً. ولـن ينسى أحد أن هـؤلاء الشبـاب هـم ضحيـة السياسة التـي تنتجها حكومتكم، ونحـن نعرف أن السياسـة الرسمية ترمي إلى اقتلاع جـذور الجيل من هذه الأرض، التي جبلت بالعرق وجثث الخيول الغريبة والدم والمطر والحكمة، وظلت جميلة... جميلة في عيوننا لأنها أمنا. ولكننا في

العيد نجيئك يا معالي الوزير، لنجدد الولاء لهذا الوطن الذي نعبد حوافي لقـاء الخضرة بالزرقة فيه... في قبلة ملائكيـة تضفي على حبنا اللمسـات الرومانتيكية التي تأسـر قلوبنا نحن الشباب. نبقى فيه لنعمل على التناسق بيـن جمالـه الخارجـي وجمـال حياتنا، ولكـي تبقى أغصـان الزيتون فيه إشارة حقيقيـة لأحلام الناس كلهم في السلام والأمن الحقيقيين.

الطبل... والزمر... والحكم العسكري

لست من هواة جمـع الطوابع أو التواقيع أو الصور أو علب الكبريت الفارغة، أو خصلا ت شعر النساء...

ولكني أريد هوايـة جديدة لم يسبقني إليها أحد... وأخيراً وجدتهـا: سأجمع طرائف الحكـم العسكري فـي بلادنا. وكنت في البداية أحسب أن جمع كل طرفة سيكلفنـي كثيـراً مـن الجهـد. ولكن خفـة دم الحكم العسكـري... وموهبتـه الهزلية... وقدرتـه على إثارة البسمـة المـرة، أراحتني مـن بذل الجهـد. فتكدست أمامـي عشرات من الحكايات الطريفة في بنائها الفني، والتـي ستصبح جزءاً هاماً مـن «فلكلور الاضطهاد» إذا صحـت التسميـة، والتـي تستحق أن تـدوَّن في كتاب

يكون فريداً من نوعه. واكتشفت حقيقة أخرى هي أن الطرائف غير المسجلة التي يرويها الناس في جلساتهم بمرارة واستهجان، كانت أكبر وأمتع من الطرائف التي نشرت في الصحف بصيغة أخبار عادية.

وبالمناسبة، هذه واحدة من الحكايات غير المسجلة التي سمعتها من إحدى القرى:

كان يا ما كان، في إحدى قرى الجليل، خلع الفلاح الشيخ قمبازه وعلقه على غصن زيتونة في الحقل... وترك حماره يرعى العشب اليابس، ثم أمسك بيد المحراث وراح يحرث أرضه ويدمغ كل شبر منها بالعرق والتنهيد. وبعد ساعات، التفت الفلاح إلى مربط الحمار فلم يجد حماره هناك... فخفَّ للبحث عنه. وعندما مرَّ به فلاح آخر وقال له: رأيت حمارك وراء التل... والتل يبعد عشرات الأمتار فقط عن الحقل. وعندها أسرع الفلاح الشيخ للحاق بحماره قبل أن يختفي. في تلك اللحظة واجهته الشرطة العسكرية وسألته عن التصريح الذي يخوله حق البحث عن الحمار في أرض يحتاج الدخول إليها تصريحاً من الحكم العسكري. قال الفلاح الشيخ: التصريح موجود في جيب القمباز المعلق على الزيتونة. قال رجال الشرطة العسكرية: «هل في يدك الآن تصريح أم لا... لا دخل لنا بالقمباز والزيتونة».

فقال لهم الفلاح الشيخ: معي تصريح ولكنه في القمباز المعلق على الزيتونة وأنـا الآن مسرع للحاق بالحمار قبـل أن يضيـع. فقالوا له: هذا لا يعنينـا. إنك تطأ هذه الأرضـ... أرض الدولة! دون تصريح... وساقوه إلى المحكمة العسكريـة. وفي المحكمة العسكرية وقف الفلاح الشيخ ليقول إنـه غير مذنب... وروى حكاية الحمـار والتصريح الموجود في القمبـاز المعلق على الزيتونـة. ولكن الحاكم العسكـري لم يفهم فأدانه... وحكم عليه بدفع غرامة.

لمـاذا؟ لأن الحمار – حتـى الآن – لا يفهم قوانين الحكـم العسكري والأمـن... ولأن الحمـار، عن نية طيبـة، راح يبحث عن العشب في أرضـ الدولة. ولأن الحمار... حمار ولو في إسرائيل ربي!

فعلاً، الحق على الحمار، ولكن المحاكم العسكرية لم تفتح، حتى الآن، قسمـاً لمحاكمة الحمير... وهذا خطأ!

* * *

أمـا آخر «تقليعات» الحكم العسكري التي نشرت فـي الصحـف كخبـر متواضـع، فإننا نجدهـا في هذه الحكاية:

قبـل أيام، نظرت المحكمـة العسكرية في الناصرة في قضيـة أحد أعضـاء كيبوتسـ برعـام – القائم على أراضـي كفـر برعـم – هـذا الشخصـ اتهمـه الحكم العسكـري بتهمة تشغيل عاملين عربيين في شهر كانون الثانـي، بدون أن يحصلا علـى تصريح دخول إلى تلك «المنطقة المغلقة» مـن إمبراطورية الحاكم العسكري! وكان العاملان قـد غرما في حينه، بدفـع غرامة بسبب هـذا الإثم. ولكن حضرة النيابـة العسكرية قررت هذه المرة أن تشدد في معاقبة، عضو الكيبوتس لسببين:

الأول: وجـود الكيبوتسـ المذكـور فـي منطقـة الحدود.

الثانـي: استهتـار الكيبوتسـات الموجـودة علـى الحـدود... على حد زعمهـا، بحدة الوضـع الأمني، بتشغيلها عمالاً عرباً «عزلاً» من التصاريح.

والمقصود من هـذه المحاكمة هو أن تكون ضوءاً أحمر لسائر الكيبوتسات لتوقفها عند حدها، وتفهمها: أن الأمن أمن... والعرب عرب ولن يلتقيا!

قال المتهم: أنا عضو كيبوتس، وأنا لا أدعو العمال للعمل في الكيبوتس، ولست مسؤولاً عن تشغيلهم، إن هـذا الأمر يتم في المركز في تل أبيب، مع أنني مسؤول عن عملهم في قسم البناء.

أما القاضـي العسكري، فقد أعلن أنه يفضل تأجيل إصدار الحكم، مع أن المتهم طلب استمرار المحاكمة.

تأجلت المحاكمة إلى 26 أكتوبر.

وقبـل أن يصدر قـرار المحكمة، أتبـرع بمساعدة المدعي بهذه القصة:

كانـت تصدر فـي فلسطيـن جريدة هزليـة اسمها «الطبل والزمر»... وكان شعار الجريدة كل من اشتراها أو قرأها أو سمع بها... يعتير مشتركاً فيها.

وعلى هذا الأساس، يصـح القول: العربي، كل من شغلـه أو ساعده أو رآه أو سكت عنـه، يعتبر شريكاً في التهمة!

إذن، فـي منطق «الطبل والزمـر» يجب إدانة عضو الكيبوتسـ. وهل هنالك فرق كبير بين الطبل والزمر... والحكم العسكري؟!

لمن تقرع الأجراس؟

يروقني أن أعلن إعجابي العميق بشعار الغضب الساطع الذي عم أمريكا في الأيام الأخيرة. إن شعار «ضد الموت» يخص الأمريكي أكثر مما يخصه شعار «ضد القتل». لأن عملية الموت الجارية في فيتنام لا تطحن الفيتنامي وحده، ولكنها تصيب الجندي الأمريكي الذي أريد له أن يكون قاتلاً. وعندما تساوى القاتل والمقتول في نصيبهما من الموت، صار من الطبيعي أن ينهض الرأي العام الأمريكي، بمثل هذه القوة، وليدافع عن نفسه أمام الموت. هكذا الدنيا! والإنسانية ما زالت – ربما – بحاجة إلى عمر أكبر لكي تخصها مسألة القتل إذا كانت بعيدة عنها. إن عصرنا

العنيف يتمتع بصفة نبيلة هي صفة التضامن، ولكن دافع التضامن وحده ما كان بوسعه أن يدفع آلاف الأمريكيين إلى الشوارع دفاعاً عن سكان جنوب شرق آسيا. ومن هنا، فإن هبة الشعب الأمريكي الرائعة تتعدى كونها دفاعاً عن ضمير إلى كونها دفاعاً عن الدم الأمريكي المسفوك في قارة بعيدة. ولا ينوي أحد هنا الطعن في براءة هذه الهبة الجبارة، على الرغم من أن النصر الأمريكي – لو حدث – لأشغل الرأي العام الذي تديره أدوات جبارة إلى حين. فهل كتب على الإنسانية، إذن، ألا تحتج على موت الآخرين إلا إذا أصابها هذا الموت؟ هذا سؤال جارح وشديد القسوة إذا طرحناه على المستوى الأخلاقي متحرراً من النظام. ولكن ما يغرينا بالرضا هو علامة التضامن البريء الذي يعم عصرنا احتجاجاً على قتل الناس في كل القارات.

ولكن، لماذا يحتج الناس على الموت؟ ولماذا اتحد مئات الآلاف من الأمريكيين وراء هذا الشعار المقنع «ضد الموت في فيتنام»؟ وهل الموت الذي يختاره الفرد هو شيء مرفوض؟ إذا أردنا أن نلخص خبرة الأدب والفن – عبر آلاف السنين التي اجتازتها البشرية – لوجدنا أن البطل الذي لا ينسى ولا ينتهي هو ذلك الرجل الذي تعامل مع الموت، على أرضه وعلى أرض بعيدة. ولكن حبنا لهذا البطل يصدر عن كونه رجلاً يدافع عن قضية

شريفة. يصبح الموت عنده جسراً أو حالة أو شكلاً قاسياً وجميلاً من أشكال البحث عن حياته وحياة الآخرين المتحدة فيه. ويصبح هو شهيداً. إن موت الشهيد موت مثير وجميل لأنه لم يمض سدى. وكل جندي يموت دفاعاً عن وطنه أو دفاعاً عن قضية نبيلة يتخذ موته مبرر الحماس والإعجاب. ويصبح الحزن عليه طاهراً من الندم. ونحن ما زلنا نذكر تلك الشجرة الخالدة التي سفح عندها روبرت الأمريكي دمه في أحد جبال إسبانيا، في رواية همينجواي «لمن تقرع الأجراس». لم يكن روبرت الجميل الذي تطوع للموت دفاعاً عن الجمهورية في إسبانيا ملكاً لأي علم. إنه ملك الإنسانية والسعي نحو العدل والحرية في كل العصور القادمة.

ولكن موت الجنود الأمريكيين، الآن، في غابات فيتنام موت من نوع آخر شديد القسوة. إنه موت ضائع سدى. هؤلاء ليسوا شهداء. إنهم ضحايا. ضحايا قضية عدوانية ومعادية للإنسانية والعدل والحق والحرية وكل ما اصطلح على أنه قيم ومبادئ. إن أصدقاء وحبيبات وأهالي هؤلاء الجنود المساكين لا يشعرون بالاعتزاز لأن أحباءهم سقطوا من أجل قضية خاسرة – خلقياً وسياسياً. ومجتمعهم لا يطالبهم بالبطولة، كما يطالب المجتمع صاحب القضية أبناءه الجنود. إن المجتمع الأمريكي – على المستوى الشعبي – يطالب بوقف موت أبنائه لكي

يعـودوا إليه، ولكي يعود السلام إلى ذلك الشعب الصغير المدافـع عـن وطنه. ولا نستطيـع أن نتصـور أن الشعب الأمريكي يحمل نقمة على الثوار الفيتناميين الذين يطلقون النار على أبنائه. الشعب الأمريكي يعرف الآن أن الشعب الفيتنامـي ليس هـو القاتل. القاتل هو النظـام الأمريكي، ولهذا حمـل أسمـاء ضحايـاه... عشـرات الآلاف من الأسماء الغائبة مع عشرات الآلاف من الشموع... وسار إلى البيت الأبيض ليطالبه بوقف الموت.

إن ما يحدث في أمريكا الآن من حركات الاحتجاج علـى المـوت – سدى هـو تطـور لا ينبغي النظـر إليه بإعجاب فحسب. يجب أن يكون عبرة ورمزاً ومصدر إلهـام للشعـب الإسرائيلي خاصة الذي دفـع أبناؤه إلى أراضـي الآخريـن ليمارسوا عملية القتـل والموت. إن المـوت في سينـاء وعلى ضفاف قنـاة السويس، وعلى مرتفعـات الجـولان وفي أغـوار الأردن، لا ينتمي بأي وهـم من الأوهـام إلى طـراز الموت في سبيـل الدفاع عن وطـن وعن قضية عادلة وإنسانيـة. إنه يشبه الموت الأمريكـي الضائـع في فيتنام. وسيصعـب على الشعب الإسرائيلـي – لو فكر برويـة – أن يقتنع بأن موت أبنائه هناك – استشهاد في سبيل الوطن. والغضب الذي يخلقه موت جندي إسرائيلي في وطن محتل، لدى الرأي العام الإسرائيلي يجب ألا يوجه إلى الشعب العربي الذي يدافع

عن أرضه وحقه في الحياة التي يختارها. هذا الغضب يجب أن يعثر على عنوانه الصحيح وهو – الاحتلال. قرأنا ريبورتاجات عن مشاعر الجنود الإسرائيليين في مواقعهم في الضفة الشرقية من قناة السويس. لا يشعرون بأن هذا المكان هو وطنهم. يتحدثون هناك عن إسرائيل ويسألون: «كيف الحال خارج البلاد»؟ وخارج البلاد – هناك – معناها: إسرائيل. وأنا لا أزال أعيد قراءة الكتاب – الوثيقة الهام «حديث المحاربين» وأعايش مشاعر الجنود الساخطين على الحرب والقتل والموت. وقد استوقفني طويلاً قول جندية إسرائيلية عند بدء إحساسها بالحرب. قالت: «بدأ ذلك في اللحظة التي رأيت فيها جريحنا الأول. اجتزنا الحدود بهتاف وغبطة، كالسياح. وبعد ذلك – عندما رأيت الجرحى والقتلى – كفت المسألة عن كونها نزهة ممتعة. وفكرت للحظة: لو أصابتني رصاصة، فسيكون موتي بلا فائدة، ما جئنا لنحارب، وموتنا لا يفيد أحد».

إذا كان هذا القول يبدو – في المناخ الإسرائيلي العام – نشازاً قبل أكثر من عامين، فإنه الآن يصبح مقبولاً إزاء بروز عملية الخداع القائلة إن الحرب كانت دفاعاً عن النفس هدفها الإتيان بالسلام. يمكن الآن مخاطبة المجتمع الإسرائيلي دون انفعال، بعدما فترت حرارة النصر وهربت إمكانية السلام واشتدت

عمليـة المـوت ولـم تعد الحرب نزهـة. المـوت الآن – لا القيـم المتصلة بحقـوق الأخرين والعدل – هو الذي يخصـص أوساطاً أوسع من المجتمـع الإسرائيلي ويشغل بالها. لماذا تكون هـذه المعادلة صعبة دائماً؟ وهي في الوعـي السياسي المتوسـط في عـداد البديهيات؟ لقد اجتمعت شتـى العوامل المتعاكسـة لتصعب رؤية هذه المعادلـة – أهمها: براعة التثقيـف الصهيوني في قلب المصطلحـات. أقنعت الناس بـأن العدوان دفاع، وبأن الحرب قـدر لا مفر منـه، وملأت الثغـرة الخطيرة في الإستراتيجيـة العربية الغامضة التـي أوحت بأن العرب لا يضعـون أمـام الإسرائيليـن، إلا أحـد اختيارين: إما البحر... وإما رابين. والآن، وبعد بروز وقائع الاحتلال ونتائجـه تزداد الأوسـاط التي تجتاز مـا يمكن تسميته بمرحلـة التساؤل والقلـق: إذا كان صحيحاً أن الحرب دفاع، فلماذا نستمر في احتـلال المناطق العربية؟ وإذا كان صحيحـاً أن هذه المناطق رهينـة، فلماذا نقيم فيها مستوطنات ونعلن، بصراحـة، إننا لا ننوي الانسحاب من هنا ومن هناك؟ وها هـم العرب – بمواقفهم العلنية والصريحة – على شتى القـرارات والمشاريع يظهرون استعدادهـم للسـلام مقابل الانسحـاب. وقد وضعت تطورات العامين الأخيرين السلطة الحاكمة في إسرائيل أمام هـذا الاختيار الفاضح – السلام أم المناطق؟ وهذه ثغرة خطيرة ينبغي على المفكرين الإسرائيليين التقدميين

وعلـى الدعاية العربية والعالميـة التقدمية الإلحاح على ملئهـا. وهكـذا تصبـح المعادلة: المـوت – وحقوق الآخريـن سهلة وجلية، فلا تصادم بين حرصك على ألا تمـوت وبين الاعتراف بحقـوق الآخرين. العكس هو الصحيح – الاعتراف بحقوق الآخرين هو ضمان الحياة ووقـف الموت. فلماذا ينبغي علـى الشعب الإسرائيلي أن ينتظـر المزيد من موت الجنـود الإسرائيليين – لكي يتحرك؟ ويرفع شعار «ضد الموت – في البلاد العربية» إلى العنـوان الصحيح؟ ولماذا لا يقتنـع بأن الموت في سينـاء هو كالموت في غابات فيتنـام. ولماذا لا يعترف بأن الجندي الذي يموت في سبيل احتلال أرض ليست لـه، ليس شهيـداً... بل ضحيـة؟.. إن أمريكا بوجهيها الرسمـي والشعبـي – نمـوذج مقبول علـى المجتمع الإسرائيلـي. لقد جرب الوجه الرسمـي – العسكري. وفشل الأصـل الذي ينذر بفشل الظـل. وقد آن الأوان لأن يجرب الوجـه الثاني – الوجه الشعبي الذي يحمل الغضب الساطع .إن الأجراس تقرع. فليغضب الشعب الإسرائيلي قبلما يكبر الموت!

رسالة إلى زنجي

كل الذين بحثوا عن الحب كانوا يعرفون أن الرسالة الأولى تشرب حبراً من سهر الليل... وكانوا يصطادون الكلمات من قاموس النجم... وكانوا يبالغون في أناقة التعبير وترف الشوق المكتوب إلى حد التنافس مع رقة النسيم... حتى تكون النقرات على الباب الموعود نقرات أليفة قادرة على الإغراء بفتح الباب.

وأنا الآن، متحرر من هذا الهم الموصوف بأنه أجمل هم. أنا أعرف أنك تعرفني، ولا بد أن الملاحظة التي اعتصرت من خبرة أجيال والقائلة إن الطيور على أشكالها تقع، قد أدركتك وربما قبلي!

أنا، إذن، واحد من هذه الطيور التي اختلف لونها ولـم يختلف شكلهـا وشكل مصيرهـا وحظها. بيني وبينك وتر إن مرت عليـه الريح أصدر أنغاماً متشابهة ذات مزيـج مثيـر من الأنيـن الصارخ والرقـة القاسية والحـب الـذي أرغـم علـى الكراهية ليحافـظ على شرف قدسيته. كلانا وقف خـارج دائرة الطباشير في انتظـار الحكم، ولكن القاضي، هـذه المرة، لم يكن عادلاً. بيني وبينك شيء يفجر تعبير التضامن. أنت أخ ولدتـه أمي، وكلانا طرد من البيت، فصرنا ننام في قبو عتيـق قامت عليه أعمدة قصـور الذين رفضوا الحب، ولكن رطوبة القبو ومـرارة التشرد وقسوة السوط إذا انتصرت الآن على جسدينا، فلن تنتصر على جوهرنا. كلانا يـدرك أن الكرامة هي المبـرر الوحيد لاحتمال عذاب الإنســان، وكلانا يدرك أن القلب بلا حب هو قطعة لحم وشرايين تصلـح أن تكون طعاماً للكلاب. ولهـذا، ندرك أكثر من سوانا هـذا الفخر المتفجر من كوننا بشراً.

لا أنت... ولا أنا خائفين على طهر الحب إذا طعم بقطـرات من الكراهية. الكراهية هنـا شكل من أشكال الدفاع، عندما تعرف لمن تصوب طلقتها. إن الكراهية التي تكـون لحماية الحب لا تصـاب بعمى الألوان... وهذه هـي عبقريتها إذا صـدق التعبير. أنـت تدرك أن

الأبيض ليس عدوك لكونـه أبيض... وأنت تدرك أيضاً أن الأسـود ليسـ أخاك لكونه أسـود... فالحب يكمن تحـت كل غطاء وتحت كل لـون. ولكن اللون في مثل حالتنـا أصبح رمـزاً لحقيقة. ولهذا، عندمـا يقال أسود في بلادك، لايرى سامع الكلمة إلا الإنسان المضطهد. هذا الرمز يتجاوز حدود وطنـك... ويصلني. وعندها يلائمنـي التعبيـر فأصبـح أنا أسـود دون مـا حاجة إلى الإفـراط في تشابه التقاطيع. كل نظـام ظالم وله أسود. ومـن هنا أحسسـت وأنا أقرأ كتـاب أديبكم الموهوب جيمسـ بولدوين «لا أحد يعرف اسمـي»، أن جيمس يكتـب عنـي أنا. عن الزنـوج في إسرائيل مـع قليل من الاختـلاف في تقاطيع الصـورة. عندما كان يكتب عن الحب كان يروي قصة حبي... وعندما كان يكتب عن الكراهية كان يعكس كراهيتي.

ونعـود إلى كراهيتنـا التي يحاول الذيـن فرضوها علينـا أن يزيفوا بواسطتها جوهر حبنـا العميق، فنشعر أنهـا مصـل واقٍ للدفاع عـن عافية حبنـا. المجلود لا يحب جـلاده... والسجين لا يحب سجانه... والشاة لا تحب القصاب... وهـذه كراهية شريفة لأنها تحفز حاملهـا على المقاومة، وإلا أدار وجنته الأخرى لتلقي الصفعـات. إذن، يا صديقي، نحن نكـره لأننا نحب، وإن اختلفت وسائل تعبيرنا.

كنـا، يومـاً، نخجل مـن حقيقتنـا ونهـرب لأننا ضعفـاء. الضعيف فقط هو الـذي يخجل من حقيقته، لأنـه غير قادر على مواجهة الآخرين بها. ولهذا، كتب شاعر زنجـي قصيدة لحبيبته، يرجو منهـا ألا يمرا معاً في الشـوارع العامة لئلا يرى صورتـه المنعكسة على واجهات الحوانيت الزجاجية، فينتبه إلى نفسه. ونحن أيضـاً لجأ بعضنـا إلى الهروب من اسمـه الذي يفضح حقيقتـه. ولكننـا اليوم أقـوى... نسير فـي الشوارع العامة بخطى واثقة، وبصيحات عالية. لقد كثر الضغط على الوتر المشدود بيننا عندما قرأت أنكم في شيكاغو تلحنـون مظاهراتكـم و تصاحبونهـا بالأناشيـد... الأناشيد التي لها قبضـات فولاذية مغسولة بالعرق... وخطوات ثابتـة لا يثلمها مطر الحجـارة المنهمر من أبنـاء الرب المعـادي للحب. قـد سمعـت أناشيدكم الحارة والطيبـة معاً... من خلال الكلمات المرصوفة علـى صدورالجرائد. اسمح لي أن أعبر لك عن شعور غير أخـوي... لقد حسدتك... وغـرت من قدرتك علـى الإنشـاد... وتمنيت هـذه القيثـارة ذات آلاف الأوتـار التي تعزفها حناجر يابسـة من العطش. ومليئة بغبـار الشـوارع المرتجـة. وأكثر من ذلـك: إن هذه القيثارة البشرية يشتد لحنها قوة عندما تهبط الحجارة، كالندى، على أوتارها الجنية!

يـا صديقي! أردت أن أقول لك أشياء كثيرة ولكني لـم أقل شيئاً غير التعبير عن فخر إنسانيتي بشجاعتك... فالمعـذرة. قبـل أن أعـدك برسالة أخـرى، لا أستطيع الصبر على قول: أنــت ... أنت رجل. وهذه سعادة لا توصف!

رسالة ثانية إلى زنجي

يا قمر الدنيا الأسود!

هل أطمح بالسير معك، وأنت ماضٍ في مسيرتك الصاعدة؟ إذا كانت الأعمال بالنيات... فأنا بطل! وإذا كانت الأعمال بالأعمال... فأنا جبان!

ولكنك بحكم قرابة الظلم، تجد لي عذراً إذا أغمدت نظرة حادة في أعماق سجني. إن خطوي كلمات، وساعدي كلمات، وكفاحي كلمات، وحياتي كلمات. والكلمات إيمان... وفي البدء كانت الكلمة! وأنا وإن كان لا يكفيني كفاحك شر الكفاح، إلا أني لا أعزل مصيري عن مصير انتصارك. إن حلاوة النصر التي يجنيها كفاح أقلية في الولايات المتحدة... تقع

على زادي المر فتمنحـه شيئاً من الحلاوة. وإذا تغيرت نغمة وتـرك تغيراً مفرحاً لن يسلم وتري المشدود إليك من هذا الفرح.

وبالإضافـة إلـى ما كل مـا يقال عن وحـدة العالـم وتأثيـر ما يجـري في طرف منـه على طـرف آخر... فـإن بيني وبينك أكثـر من هذه الحقائـق. قال أحدهم إن الولايات المتحـدة إسرائيل صغيـرة، و إن إسرائيل ولايات متحدة كبيرة!

وأنت من الولايـات المتحدة، والولايات المتحدة زعيمـة «العالـم الحـر»! وأنا مـن إسرائيـل، وإسرائيل «واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط»!

والتشبيهـان، فـي جوهرهمـا، واحـد. فلو كان الشرق الأوسط «عالماً حراً»! لكانت إسرائيل زعيمة. ولكنهـا تأبـى على نفسهـا أن تكـون زعيمـة «عالم همجي» ولهذا سقطت كالواحة في قلب الصحراء... في الشرق الأوسط!

وعلى هـذا الأساس... أكون أنا زنجيـاً صغيراً... وتكون أنت عربياً كبيـراً! ما دام كل واحد منا ابن أقلية مضطهدة.

كمـا أن تكاثري الطبيعي يخلق مصـدر قلق للنظام القائـم عندي، ويدفعه إلى الحديث عـن مستقبل أسود

للبيض في بلادي، عندما يخلق هذا التكاثر حقيقة تفوقي البشري. كذلك يجري الحديث في الولايات المتحدة عن احتمال تفوق بشري أسود على البيض في أكثرية مدن الولايات المتحدة!

وعن المساواة في الحقوق، نعثر على بعض وجوه الشبه، ولعلك في بعض الحالات أكثر حظاً مني: في الحكومة الأمريكية يوجد زنجي واحد. في الحكومة الإسرائيلية لا يوجد أي عربي! للمرة الأولى في التاريخ يصل زنجي في الولايات المتحدة إلى درجة مدرب للفريق الرياضي الأمريكي... بعد سنوات عديدة من تفوق الزنوج في ميادين الرياضة الأمريكية.

عندكم يتحدثون عن الدمج... وعندنا يتحدثون عن الدمج. وحديث الدمج عندكم فارغ من أي محتوى أمام الوقائع. وحديث الدمج عندنا فارغ من أي محتوى أمام الوقائع التي تدين أصحاب هذه الأحاديث. الدمج الاقتصادي والثقافي والاجتماعي في الولايات المتحدة... يعرض كل من يتحدث عنه إلى أضحوكة أمريكية واسعة الانتشار. كذلك عندنا: يثير السخرية فينا حديثهم عن الخرافة التي تتحدث عن إدخال الكهرباء إلى بعض القرى... والتي يدفع القرويين ثمنها من عرقهم مضافاً إلى هذا العرق تجريدهم من الأرض التي تعني بالنسبة لنا... الوطن!

وهـذا مثـل واحد لا اكثـر ! ومـن أغراض هـذا الدمج عندكـم: أن أجـرة العامل الزنجي تبلـغ 59% من أجر العامل الأبيض. وعندنا: فـي أزمة البطالة يكون العمال العـرب هم الضحية الأولى، وعندكم: نسبة الزنوج 9 ، 10%، ومع هذا فإن العاطلين عن العمل من الزنوج تبلغ نسبتهـم، 17,5%... أي تفوق فـي الفقر والمجاعة! ومـن جراء ذلك يبلـغ نسبة السجناء السـود 27,8%. ونسبـة المتهمين بالقتل 55,2%، ونسبة الأولاد الذين لا آباء لهم 62,1%.

وأبشـع من ذلك: لـم يتحقق الدمـج إلا في ميدان واحد أوحد... في الجيش. بلغ عدد المحاربين الزنوج المقاتليـن في الفيتنام 22% ومـن الوحدات العسكرية وعـدد الضحايا هناك 22% أيضـاً! أي: يموت عشرة جنود زنـوج حتى يموت أبيض واحـد! و هذا الموت هو التعويض الـذي يناله الزنوج مقابل الاضطهاد الذي يلاقونـه في داخل الولايـات المتحـدة! وهذا الموت أيضاً يصح أن يكون صيحات ديك توقظ الذين يرون في بلادنا، من الزنوج العرب العملاء أن الخدمة في الجيش هي من أهـم شروط الدمج وإعلان الـولاء... اضطهاد وحشي في الداخل، وموت مجاني في الخارج!

عندكـم يقولون: اقتلـوا الزنوج! وعندنـا يقولون: اطردوا العرب!

عندكم عـدد الجرحى والقتلى أكثـر منا، لأن عدد مظاهراتكم أكبر، وحجم نضالكم أضخم!

أرجو يـا صديقي ألا تفهـم من رسالتـي أننا نعاني بمقـدار ما تعانون من الاضطهاد الدامي. الحق يقال إن حظكم أسوأ. فنحن نستطيع دخول المقاهي والمدارس ومعانقة الفتيات الشقراوات، لأن لوننا غير ساطع ومميز كلونكم. فأنتم لشدة قرابتكم، من الشمس... أصبحتم ذوي لـون صـارخ، مما يثير فـي العنصريـن البيض ما يثير المنديـل الأحمر في الثور! ولكنني لن أخدعك... سأقول لك إننـا لا نستطيع التجول في أنحاء بلادنا كما نشاء! ولا نستطيـع فلاحة أراضينا لأنهـا، كما يقولون ليسـت لنا. ومما يسجل في مصلحة النظام القائم عندنا أنه أذكى من نظامكم فـي مهنة الاضطهاد... فهو يرى ولا يرى، وهو يحاول سحب الأرض من تحت أقدامنا دون أن نشعـر بأياديـه الناعمة، وهو يحولنـا إلى رعايا دون أن يقول لنا ذلك مباشرة!

يا صديقي! لم أنس أن أقول لك كل شيء... ولعلي أكتب لك مرة أخرى. وكن على ثقة أن أخبارك ما زالت تجـري في دمي... فتثير في الزهو، ولكنها تذكرني بأن مـا أملكه، حتـى الآن، هو الكلمـات... الكلمات... الكلمات!

دم... دم... دم!

قـرأت، بكثير من التأثر، رواية تعتبر بعض الأوساط الثقافيـة فـي العالم عـدم قراءتها، حتـى الآن، وهناً في مواكبـة روح العصـر... خاصـة عندمـا يصبـح الرقم القياسـي في المبيـع هو التقويم المتسلـط الذي يفرض على القارئ مقاييس يتردد كثيراً في رفضها.

فـي فترة قصيرة جداً بيع مـن هذه الرواية عشرات الآلاف مـن النسـخ التي درت علـى المؤلف أكثر من مليونـي دولار، فانضم إلى أسرة الكتاب المليونيريين. وفي مدة قصيرة أيضاً أجاز بعض النقاد لأنفسهم اعتبار صاحـب الروايـة «دستويفسكـي العصـر» وهذا عاد عليه، بالطبع، بلقب مؤلف روايـة الموسم، فتسابقت

دور النشـر فـي بلدان عديدة في العالـم على ترجمتها ونشرها.

لسنا في مجال نقـد الرواية، كرواية، هنا... فذلك يتطلـب منا وقفة أطول، ولكن من غيـر الممكن إلا أن نعرب عن دهشتنا لظاهرة هبوب العواصف في فناجين سـواء كانت كبيرة أو صغيرة. ويبدو أن دهشتنا ستطول فـي كل موسم، فمنذ «فاني هيـل» الغارقة في الجنس، حتى هـذه الروايـة الغارقة فـي الدم، شهـد كل موسم عاصفة مصطنعة حملت رائحة الجنس أحياناً، ورائحة الدم أحياناَ، ورائحة الجنس والدم معاً أحياناً أخرى.

ولكن ما يستوقفنا الآن هـو موضوع الرواية الذي يعكس مأسـاة ضخمة يعيشها المجتمـع الأمريكي... موضـوع القتـل الـذي يرتكب «بدم بـارد» وهو اسم الروايـة. قد لا يعلم كثير من القراء أن الولايات المتحدة بـلاد لا تمر عليها دقيقتان دون وقـوع جريمة فاحشة. ووكالات الأنبـاء تحمـل كل يوم أخبـاراً عن حوادث القتـل بسبب أو دون سبب ولـم ينس أحد جريمة القتل الكبيـرة التـي ارتكبهـا أحـد المواطنيـن الأمريكيين، وراحت ضحيتها ثمان من بيضـ الحمائم، وآخر يقتل زوجتـه وأولاده، و... و... وفي إحدى حوادث القتل كشـف التحقيق عن وجود علاقـة بين حادث قتل وبين روايـة تتحدث عن الدم، فقد تطابقـت أوصاف القاتل

علـى أوصاف بطل القصة. ويميل بعضـ المراقبين إلى الاعتقـاد بأن القاتل استهوته شخصيـة بطل الرواية ولم يجد وسيلة للتعبير عن «تضامنه» معه إلا تقليده، فارتكب جريمته. ولعل هذا التأثير الذي تركه ذلك الكاتب بهذا الشـاب دليل قاطع على الخطـورة الناجمة عن إسراف الكاتب في تجميـل حادثة القتل ركضـاً خلف الإغراء بالمجـد السريع الزائف، وعلى خطـورة تنافس الأدب مع موديـلات فساتيـن النساء مثـلاً، وعلـى الخطورة النابعة من عدم مسؤولية الكاتب، فعندما يتحول القاتل بين يـدي الكاتب إلى «الرجـل النموذجي» فقد تغري هذه الصورة كثيراً من الشبـان الذين يبحثون عن أمكنة لا يجدونهـا في مجتمع تقوم مثله العليا على الدم. ومن هنـا، أرانـي لا أستطيـع إلا أن أشعـر بربـاط يجمع بين يدي القاتل الـذي قضى على حياة ثماني ممرضات... وبيـن قلم مؤلف رواية «بدم بارد» الذي كاد يقطع تأثير المجتمع الأمريكي على بطـل روايته بإقدامها على قتل أسرة كاملة في إحـدى ولايات أمريكا. أكاد اقول دون سبب، خاصة إن الجريمـة ارتكبت بعد صدور الرواية بشهـور قليلة، وفـي الوقت الـذي لا تزال فيـه الرواية حديث الناس، وهي – أي الرواية – لا تحمل أية لائحة اتهام ضد النظام الذي سبب هذا القتل ولا يزال يسببه في كل يوم. إن القتل في الولايات المتحدة يكاد يتحول إلى «موضة» والروايات الأمريكية التي تغري بالرجولة التي

لا تكتمل إلا بالقتل تملأ الأسواق... فهذا شاب يستمع إلى صديقه الذي يحكي لـه كيف قتل زنجياً لأنه طاب له ذلك، فـرأى فيه صديقه الشريـك الملائم لارتكاب جريمـة مشهية! ومـاذا تفعل السلطـات الأمريكية إزاء ذلـك: تهـدر دم الزنوج فـي الداخـل... وتقتل مئات الأطفـال والنساء والشيوخ فـي الفيتنام. ولكي تخفف من ازدياد حوادث القتـل في الولايات المتحدة تبحث الآن مشـروع قانون يحدد مـن انتقال السلاح من دولة إلـى أخرى داخـل الولايات المتحدة، ومـن الحصول على السـلاح بواسطة البريد. وبحـق تساءلت صحيفة «نيـو ستيتسمان» بسخريـة: وهل السـلاح المصنوع محلياً لا يقتل؟!

إن الأيـدي التي تأمر بإطلاق النار على الفيتناميين التي تدفع إلى ارتكاب حـوادث القتل... في مجتمع أصبـح فيه الثراء هـو القوة الرئيسيـة والمثل الأعلى، والـذي يحول الحب إلى كراهيـة والرذيلة إلى فضيلة ويحيـل الإنسـان إلـى ذئـب للإنسان... ومـن أجل الوصول إلى هـذه المكانة في هـذا المجتمع يسفك الدم... بدم بارد، وإذا كان رب البيت يضرب بالدف، يرقص أهل البيت، ورب البيت يحاول أن يبني المجد الخائـب علـى الـدم فـي الفيتنـام، وعلـى الاحتكار والاستغلال والاضطهاد.

ولهذا، فإن ادعاء الكثيرين من الكتاب المعبرين عن المصاح الرأسمالية، بعدم وجود أسباب ودوافع لسلسلة جرائم القتل الطويلة في الولايات المتحدة... هو ادعاء لا يرمي إلا إلى الاستمرار في الإخلاص لهذا النظام المسؤول عن كل قطرة دم تسفك على شوارع شيكاغو وفي أزقتها... وعن كل أشكال الجنون الأمريكي.

إن قصة الدم الذي أصبح حبراً للجرائد، ما زالت طويلة على ما يبدو، ولكنها وصلت إلى فصل خطير... خطير في الولايات المتحدة... التي ترتكب فيها، كما تقول الإحصائيات، جريمة في كل دقيقتين، وأكثر هذه الجرائم لا تخلو من الدم، وإذا اخفيت الإحصائيات بعض الحقائق عما يجري في الولايات المتحدة... فإن عيون الناس ترى الدم المسفوك في الفيتنام!

واقع الكاتب العربي في إسرائيل

أيها الأصدقاء المحترمون[1] ...

اسمحوا لـي أن أعلن هنا أني أشعـر بالسعادة. إني أتكلـم بصفـة شخصية، ولكننـي قد أعبر عـن مشاعر زملائـي الكتـاب والشعـراء العـرب المضطهدين في إسرائيـل، والذين يدافعون عن حقهـم في التنفس وعن حق شعبهم فـي الحياة... وظهورهم إلـى الحائط. إن المعركة التـي نخوضها في بلادنا هـي معركة الإنسان المسحـوق الذي يرفض الاعتـراف بالموت. كل قوى التقـدم في العالم تعلـن تضامنها مع الشعـوب العربية،

(1) كلمة ألقاها الشاعر في مؤتمر نيودلهي للكتاب الأفريقيين والآسيوين.

ومـن بينها الشعـب العربـي الفلسطيني، فـي كفاحها العادل ضد العدوان الإسرائيلي على أراضيها وتاريخها وحقوقهـا. ولكـن هذا الـرأي العام العالمـي لا يعرف كثيـراً عن البقية الباقيـة من الشعب العربـي الفلسطيني التي تعيش في إسرائيل وتتعرض لمختلف أشكال القهر والاضطهـاد منذ أكثر من عشرين سنـة. وأنتم تعرفون، أيهـا الأصدقـاء، أن الصهيونية فـي الممارسة اعتمدت على شعارين أساسيين لتحقيق أهدافها. هذان الشعاران هما: احتلال الأرض، واحتلال العمل. وهكذا، تزاوج منذ البدايـة جانبا الاضطهاد الذي يتعرض له الإنسان العربي في إسرائيل!

الاضطهاد القومي، والاضطهاد الطبقي

ونحن هنا فـي مؤتمر كتّاب. وهـذا يستدعي مني أن ألفـت نظـر الكتّـاب الأسيويـين - الإفريقيـين إلى واقـع الكاتب العربي المقيم فـي إسرائيل، هذا الكاتب الذي كان يشعر بالمـرارة المشروعة من نجاح السلطة الإسرائيليـة في حصر صوته فـي مكان ضيق. إن أجمل أعمالنـا الأدبيـة كتبت فـي السجون... فـي السجون السياسيـة والسجـون المعنوية... في السجـون العلنية وفي السجـون السرية. ونحـن لا نستطيع، حتى الآن، أن نمارس أبسط حقوق الإنسان، أعني حق الإنسان في التعرف إلى وطنه.

إن وطننا صغير، صغير كحذاء طفل، ونحن محرومون من حرية أن نراه، ونحن لا نستطيع اللقاء بقرائنا. إن كل شعرائنا وكتابنا خاضعون لأوامر الإقامة الإجبارية العسكرية التي تمنعهم من مغادرة أماكن سكنهم، وأحياناً تمنعهم من مغادرة بيوتهم منذ غروب الشمس حتى شروقها. حتى أشعار الحب، أيها الأصدقاء ، لا يسمح لنا بنشرها إلا بعدما تمر تحت يد الرقيب العسكري. ولكن صوت الشاعر... صوت الحرية... صوت الأرض لا يمكن أن يحبس في زجاجة، ولا يمكن أن يعتصر كما لا يمكن اعتصار الظل. وأصواتنا هي ظل الأرض.

ومن هنا، أقول إني أشعر بالسعادة، لقد كانت القصيدة بطاقة إلى السجن في بلادي، ولكنها الآن بطاقة حب إلى قلوبهم. ولقد منحتموني من الحب ما يجعلني أطمئن إلى أني سلكت الطريق الصحيح، ودفعت الضريبة التي لا بد من دفعها لكي أكون جديراً بضمّ صوتي إلى نشيدكم الرائع. لا. ليست الجائزة التي منحتوني إياها أمس باقة زهر على قبر ضائع، ولكنها باقة زهر لميلاد شعبي المتجدد. لقد قتل شعبي كثيراً... سنة بعد سنة... مجزرة وراء مجزرة، ولكنه دائماً يهب من الأنقاض واقفاً، وقد تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة... حرية اختيار الموت قي سبيل الحياة.

والمناضلـون – وحدهـم – قـادرون دائماً علـى تغيير المفاهيم. وهكذا يصبح مفهوم الموت – مفهوم الحياة.

ونحـن جـزء من هـذا الشعب الـذي يخدش وجه الموت. إن انتماءنا ليس وجهة نظر وليس رأياً للمناقشة. إنـه حقيقية تاريخيـة حاولـت الصهيونيـة – ولا تزال تشويهها. ولكن كل محاولات ترويضنا وتدجيننا باءت بالفشـل. ونحن نقـول دائماً إن الموقـف الذي تتخذه السلطـات الإسرائيلية من المواطـن العربي في إسرائيل هو المحك الحقيقـي لنواياها فيما يتعلق بمستقبلها في الشـرق العربي. فإذا كانت هـذه السلطة قد فشلت في التوصـل إلى سلام مع العربي المقيم في إسرائيل، فليس من حقها – خلقياً – أن تتظاهر بالطموح إلى السلام مع دول! لقد صنعت منا برهاناً عميق المنطق والدلالة على حقيقة نواياها.

وإننا نشعر بالإهانة لأننا مضطرون إلى الإعلان دائماً أننـا لسنـا شوفينيين. هذه هي التهمة التـي توجهها إلينا السلطة التي تشكل مركـز الشوفينية والتعصب القومي في الشرق الأوسط، وأحد مراكـز العنصرية في العالـم. إن القاتـل هنا يتظاهـر بالبكاء. وطيـارو الفانتوم الذين يقتلـوون الأطفال العـرب ويهدمون المصانـع العربية يتظاهـرون بالبـكاء. وجنـرالات العـدوان يتظاهرون بالبـكاء. لقد أصبح التظاهر بالبـكاء جواز سفر الحكام

الإسرائيليين إلى الرأي العام العالمي. ومن المؤسف، أنهم استطاعوا تضليل بعض أوساط هذا الرأي العام فصدقهم... وصدق أنهم يريدون السلام.

ونحن، لا نبارز هذا الأسلوب الخبيث بالطريقة ذاتها. إننا لا نحتكم إلى الأساطير القديمة لنبرر شرعية وجودنا وحقنا. إننا نحتكم إلى الواقع وإلى مبادئ العدل. والحقيقة السهلة هي أن الأديب العربي في إسرائيل يدافع عن كرامته وعن كرامة شعبه، ويحافظ على طابعه القومي دون أن يصطدم ذلك مع موقفه الإنساني، نحن لسنا مذنبين لأننا نحمل بطاقة هوية إسرائيلية. وإن منحنا هذه البطاقة ليس منة وليس صدقة. لقد اخترنا البقاء في وطننا... ومن يسمح لنا بالاستمرار إنما يفعل ذلك مرغماً... لأننا صامدون. وهذا وطننا، لأننا ولدنا فيه. فهل نحن شوفينيون لأننا نريد البقاء في وطننا؟ وهل نحن شوفينيون لأننا نقول إن السلام والعدوان لا يشكلان معادلة سليمة؟ وهل نحن شوفينيون إذا قلنا إن السلام مفهوم يختلف عن مفهوم الإستسلام؟

إننا نؤمن بإمكانية أن يعيش العرب واليهود معاً، فالتاريخ العربي لم يعرف العداء لليهود. ولكن لماذا لم تتحقق هذه الإمكانية؟ لأن الصهيونية – بمساندة الإمبريالية هي التي تريد فلسطين بدون عرب، وهي لا

تعتـرف، حتى مجرد اعتراف شكلـي، بوجود الشعب العربي الفلسطيني.

لسنـا شوفينيين. نحـن ضحايا الشوفينيـة، ولكننا من الناحية الأخرى لا نأخـذ الحكمة من الجلاد الذي كان ضحيـة النازية، ولـم يتعلم مـن هذه التجربة القاسية إلا تقليـد قاتله في قتل الآخرين. وهنـا، اسمحوا لي أن أشيـد بمواقف بعض العناصر والقوى الإسرائيلية وعلى رأسهـا الحزب الشيوعي الإسرائيلي، التي تحارب هذه الحكمة القاتلة. وتـرى أن الاعتراف الصريح والعملي بحق الشعب العربـي الفلسطيني في تقرير مصيره الحر هو وحـده الذي سيحـرر الشعب اليهـودي من كارثة قومية يقوده إليها حكام إسرائيل. إن المصالح الحقيقية للشعـوب لا تتناقض، وإذا بدا هنالك تناقض، فإن ذلك يشيـر إلى وجود خطأ فادح. وحكومة إسرائيل ترتكب أخطـاء مميتة بحـق شعبها قبـل كل شـيء، باغتصابها حقوق الآخرين.

هذا هـو وجهنا الحقيقي... هذا هو ضميرنا. وإننا نجـد في بلادنـا صعوبة فائقـة في تطهيـر وجوهنا من الزيف، ونجد صعوبة في الكلام... ولكننا نتكلم وندفع ثمـن الـكلام. إن أشعـار السجون قد وصلـت إليكم، أيهـا الأصدقاء الأعزاء، وهذا اللقـاء ذو الجمال اللاذع يهبنـا طاقة هائلة علـى الصمود، ويشـكل برهاناً عميق

المنطـق والحيوية على هزيمة السلطـان أمام القصيدة. لقـد أعطيتمونا فأسـاً كبيرة فتحنا بها طاقـة في الزنزانة التي أصبحت عارية أمـام الشمس والعيون. شكراً لكم أيهـا الأصدقاء... إننا أكثر من أصدقاء وأكثر من حلفاء. نحـن أجزاء تكمل بعضها. وسنشعر بعد الآن بمزيد من الثقة ما دمتـم معنا. إن عذابنا ليس بلا نتيجة. وأجراسنا ليسـت مختنقة ما دمتم معنـا، إننا نزحف معكم في كل مكان... في غابات أفريقيا المستيقظة وفي سهوب آسيا المنطلقة. لا أسماء لنا، وماذا يهم الاسم! نحن رموز... نحـن صـوت... نحن قضيـة. والسكين التـي تغوص في لحم واحـد منا تثيرنا جميعاً. ومـن حسن حظنا أن أبناء ثـورة أكتوبر معنا... أبناء الثـورة التي غيرت مناخ الكـرة الأرضية ومزاجها. يسعدنا كثيراً أننا أصدقاء أيها الأصدقاء السوفييت.

ومن حسن حظنـا أن أروع الأساطير معنا. أساطير تمشـي على أقدام، أساطير أبطالهـا بشر. إن الفيتناميين معنـا. شكـراً لكم أيهـا الأصدقـاء الفيتناميـون لأنكم أصدقاؤنا، ومن حسن حظنا أننا هنا في ضيافة أصدقائنا الكتـاب الهنود على أرض الهند العريقـة... الهند التي تجدد نفسهـا... شكراً لكم، وأرجـوا أن تنقلوا أعمق مشاعـر الامتنان إلى شعبكم وإلى رئيسة الوزراء السيدة اللطيفة أنديرا غاندي.

ومن حسن حظنا أن كل واحد منكم معنا... كلكم معنا ونحن دون أسماء. نحـن أوركسترا واحدة يعزف كل واحد منا فيها على آلته الصغيرة، فلنضع لحمنا على الأوتار. إن صوت اللحم هو الذي يغني!

الجبنة الصفراء... والوطن

جدّي، كان في مثل هذا الشهر، يعيش على أعصابه. يكف عـن الكلام ويكثر مـن الإصغـاء للمذياع، ومن التدخيـن. كان ينتظر كلمة من هيئـة الأمم المتحدة... كان ينتظر وعداً صادقاً يأخذه إلى أنقاض بيته القديم... ويبقيـه هناك إلى الأبد. لأنه أراد، هكذا أراد، أن يموت هنـاك. وكان جـدي الـذي أراه الآن فـي كل زيتونـة عتيقة... وهو يـرد على نظراتنا التي كبرت قبل الأوان، يراوغ دمعـة في عينه لتبقـى في القلـب... فلا ينجح، ويحكي لنا... يحكي عن صيـف آخر ومواسم وأعياد حتـى ننام. وفي الصباح يأخذنـا إلى بساتين لبنانية على شاطئ البحر الأبيض ويقول لنا – ما أقساه – : «كان لنا

مثلها وسنعـود إليها». وعندما كنا نسأله ببراءة تحرجه: «متى نعود» يقول لنـا: «عندما ينتهي مشوارنا». وكان فعلاً يعتقد أن غربتـه مشوار. وعند الضحى – ما أقسى حنانـه – كان يأخذنا لنقف معه فـي طابور الشحاذين: كل واحد يحمل سلة صغيرة، وعيناه على الأرض، واقفاً فـي الدور حتى يقترب من مـوزع الفتات ويعطيه قطعة من الجبن الأصفر... وحبات من التمر... وحفنات من الطحين. وكان ذلك أول عهدي بالجبن الأصفر.

وأدركـت عندمـا كبـرت أن ذلك الجبـن الأصفر والطحين كنا نأخذه مجاناً من وكالة غوث اللاجئين!

هكـذا مـرت طفولتنا. ومـات جدي وهـو ينتظر الوعـد الصادق من هيئة الأمـم المتحدة مات في أرض لـم يرد المـوت فيها لأنها ليست لـه. وهكذا أصبحت عظامه لاجئة هي أيضاً.

وكما ترون، أدرك جدي، بفطرته، أن حكاياته عن الوطـن التي توزع علينـا العطش وحـب الاستطلاع، جارحة مثل العمليات الجراحية. ولكنها أفضل من الصبر علـى الموت البطيء... لأنها تحمينا من الموت... من الانقطـاع عن الجذور... ومن عقـدة الضياع. وهكذا ورثنا عنه هـذه الكلمة الساحـرة الأسطورية والمفزعة «وطن» وهو أجمل ميراث.

مات جـدي الذي يصلـح أن يكون رمـزاً لجيل. وكبـر أبناء جيلي الذيـن ضاعت منهم أقمـار الطفولة وهـم يركضون خلف الجبن الأصفر. وذاقوا في وقت مبكـر أقسى أنـواع اليتـم... ولدوا يتامـى... ولدوا لاجئيـن. وتزوجوا وأنجبوا أطفالاً أيتامـاً هم أيضاً... وزاد عددهـم لأن اللاجئين مثـل كل الناس، ينجبون. فهـل مات الوطن الذين حملوه علـى أكتافهم وعاشوه بحواسهم الخمس؟ هـل مات لدينا نحن الذين عرفناه سماعيـاً؟ وهل ينهـي الزمن قصة هـذا الحب الغريب المحـروم؟ كل التقارير الرسمية، والتـي يكتبها أحياناً أناسـ لم يذوقـوا الحب، تؤكد أن تعلـق جيل المأساة بوطنـه أشـد وأعمق مـن السابق... وإن مـرور الزمن لـم يزد هـذا التعلق إلا قـوة، هذا إذا كانـت هنالك أية حاجة للجوء إلى الاستعانـة بالتقارير الرسمية الباردة. ومـن الأمور المفروغ منها أن تعلـق الإنسان بوطنه لا يحتاج إلى توابل كثيرة. ولكن القضية هنا تتخذ صورة أخرى: فإن توابل تعلـق اللاجئين العرب الفلسطينيين بوطنهـم تحرضهم على الصلاة وأكثـر منها... وأكثر مـن العبادة، وتحول هذا «الهم العام» إلى هم شخصي ذاتـي يعاني منـه اللاجيء، فيوصله إلـى الإيمان العنيد والصحيـح بـأن دواء كل جـرح صغيـر متفـرع عـن الجـرح الكبيـر العام هو ذرات من ترابـه أو موجة من عبيـر برتقاله البعيـد أو القريب، وبذلـك يعيش قضيته

يوميأ... يتنفسها ويشمها ويراها ويسمعها في دقات قلبه المتيقظة دائماً، والمشدود على أسلاك شائكة يكرهـا كراهية مفترسة بقدر ما يحب احتراقها... لأن احتراقها معناه انتهاء المأساة... وعودة الحياة.

لا يستطيع المرء، مهما بـردت أعصابـه، واعتاد المفاجـآت، إلا الاهتزاز والاستسـلام لرعشة جارحة وهـو يقـرأ تقرير وكالة الغـوث. وكالـة الصدقات... وأجراس الـذل والعار، الـذي تبحثه الأمـم المتحدة هـذه الأيـام. يشيـر التقرير، بلغـة رسمية، إلـى ازدياد عدد اللاجئين المضطرد... وإلـى ازدياد حاجتهم إلى الطحيـن والجبن الأصفر والخيـام. وأهم من ذلك إلى ازدياد تعلقهم بوطنهم الـذي أبعدوا عنه ظلماً... وإلى ازديـاد تمسكهم بحقهم في العـودة. متى يدرك الذين يكرهون الحـب أن تجويع اللاجئيـن لا يقطع صلتهم الشرعية بوطنهم؟ بل يعود بأشد الأخطار على السلام. إن الجـوع يولد الكراهية والحقد على مسببي الجوع. والاستمـرار في التجويع يخلق مظاهر أخرى مقلقة من التعبير عن الكراهية حماية للحياة. يجب الاستفادة من حكمـة أبي ذر الغفاري التي عجـب فيها ممن لا يجد قوتاً فـي بيته كيف لا يخـرج إلى الناس شاهـراً سيفه! ولكـن اللاجـىء دون بيت أيضـاً. فمن يأخـذ العبرة! وللجائع هنـا قصة أخرى: إنه يقـف على حدود وطنه

المحاط بالأسلاك، وينظر إلى الأفق المقيد... وإلى الأرض الطيبة الغالية كالدم... وهكذا يزيد الغلة المنهل العذب. عندها يصبح قلبه أكثر من قلب... عصفور ينتفض من المطر... ثم يحوله الحب المفرط إلى أفعى تحمي الحب من الغدر. وعندها تصبح نظرته أكثر من نظرة محروم وهو ليس كذلك، وأكثر من مطالب، وهو ليس كذلك، إنها نظرة المسلوب المحتجة. إنها قدر، إنها تنفجر كالطلقة في ضمير العالم: أريد حقي... لا أريد صدقة... ثم تطوف على كل باب وشباك في الدنيا! الصرخة تصل إلى الأوج في مثل هذا الشهر من كل عام. وكما كان جدي الذي هو رمز ينتظر وعد الأمم المتحدة... يقف أكثر من مليون لاجىء في انتظار تنفيذ الوعد. ولكنهم لن يموتوا كما مات جدي في أرض غريبة. هذا الجيل ولد ليحيا وهم لا يريدون مزيداً من الجبن الأصفر والخيام والطحين. إنهم يريدون أن يصنعوا الجبن بأيديهم، وأن يزرعوا القمح في حقولهم، وأن يبنوا البيوت في بلادهم، لأن لهم أيدي... ولهم حقول... ولهم بلاد. إن قضيتهم ليست مطالبة بمزيد من الصدقات لأنهم ليسوا شحاذين، ولم يسقطوا من كوكب آخر، لهم وطن يريدون العودة إليه، وهو حق ومشروع. وهذه هي القضية. والجيل الجديد الذي نظر إلى الجبن الأصفر قبل أن ينظر إلى القمر، يحمل وطنه في قلبه... وفي عيونه، لقد شربه

مـع حليـب الطفولة المجفـف الذي جاءت بـه وكالة غوث اللاجئيـن! وكل خطوة في طريق الغربة... وكل نسمـة... وكل لسعة برد في ليالـي الغربة تصنع الحب الأسطوري للوطـن الأسطوري: فلسطيـن... التي لن ينساها. لا، لن ينساها، لأنها الحياة والموت معاً...

القِسمُ الثالِث

شهادات

هكذا أعيش وأناضل في إسرائيل

تعرفت على محمود درويش[1]، لأول مرة، عندما كان يلقي من شعره أمام الجمهور. آنئذٍ كان يلقي قصيدته التي تحولت، في نظري، إلى بطاقته الشخصية: «سجل: أنا عربي»، لقد هز محمود النحيل جمهور المستمعين وأثاره، وحوّله إلى موجة عارمة تحطم السدود. أي تناقض بين الاثنين: القصيدة والمبدع! لقد جاء التناقض من الكلمات التي خرجت من فم محمود. آنئذٍ أصبح محمود

(1) هذا الحديث أخذه يوسي القارلي المحرر في صحيفة «زو هديرخ» التي يصدرها الشيوعيون باللغة العبرية في إسرائيل – وقد ترجمته مجلة «الجديد» ونشرته بالعربية.

درويش شاعر الشعب العربي الفلسطيني ترجمت قصائدة إلى اللغات: الفرنسية، والإنجليزية، والروسية، والإيطالية، والبلغارية. ولكنها لم تترجم إلى اللغة العبرية. وأصبحت مجموعاته الشعرية من أكثر الكتب مبيعاً، لا في إسرائيل فحسب، بل البلدان العربية أيضاً.

قبل عدة أيام، أطلق سراحه من سجنه الرابع، لماذا اعتقل وسجن؟ إن محمود درويش وشعره شوكة في عيون السلطة. لقد قررت تقديم محمود درويش إلى القارئ العبري بكلماته. ولذلك فإني أنشر بصورة مونولوج، الأشياء التي قالها في حوار ليلي جرى بيننا بعد إطلاق سراحه من السجن بثلاثة أيام.

هذا هو محمود درويش:

• أذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات. كنت أقيم في قرية جميلة وهادئة، هي قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء، ينبسط أمامها سهل عكا. وكنت ابناً لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة.

عندما بلغت السابعة، توقفت ألعاب الطفولة. وإني أذكر كيف حدث ذلك... أذكر ذلك تماماً: في إحدى ليالي الصيف، التي اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل، أيقظتني أمي من نومي فجأة، فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرية أعدو في الغابة. كان الرصاص يتطاير من على رؤوسنا، ولم أفهم شيئاً مما

يجري. بعد ليلة مـن التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربـي الضائعيين في كل الجهات، إلى قرية غريبة ذات أطفال آخريـن. تساءلـت بسذاجة: أين أنـا؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة «لبنان».

يخيل لـي أن تلـك الليلـة وضعت حـداً لطفولتي بمنتهى العنف. فالطفولة الخالية من المتاعب – انتهت. وأحسست فجأة أني أنتمي إلى الكبار. توقفت مطالبي وفُرضـت عليَّ المتاعـب. منذ تلك الأيـام التي عشت فيهـا في لبنان لـم أنس، ولـن أنسى إلى الأبـد، تعرفي علـى الجبنة الصفـراء. هذا «المصطلـح» الذي عرفني على كلمـة الوطن. فلأول مـرة، ودون استعداد سابق، كنـت أقف في طابور طويل لأحصـل على الغذاء الذي توزعـه وكالة الغوث. كانت الوجبة الرئيسية هي الجبنة الصفراء. وهنا استمعت، لأول مرة، إلى كلمات جديدة فتحت أمامـي نافذة إلى عالم جديـد: الوطن، الحرب الأخبـار، اللاجئون، الجيش، الحـدود، وبواسطة هذه الكلمات بدأت أدرس وأفهم وأتعرف على عالم جديد، على وضع جديد... حرمني طفولتي.

بعـد أكثر مـن سنة، عشـت خلالها حيـاة لاجئ، أبلغونـي ذات ليلة أننا سنعود غداً إلى البيت. أذكر جيداً أنـي لم أنم فـي تلك الليلـة... لم أنم من شـدة الفرح. فالعـودة إلى البيت تعنـي – بالنسبة لـي – نهاية الجبنة

الصفراء، نهاية تحرشـات الأولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة «لاجئ» المهنية.

... وخرجت إلى رحلة العودة. كان الظلام مخيماً علـى كل شيء. وكنـا ثلاثة: أنا، وعمـي والدليل الذي كان يعـرف مجاهل الدروب في الجبـال وفي الوديان إني أذكر الزحـف على البطون لكي لا يرانا أحد. وبعد رحلة مضنية، وجـدت نفسي في إحدى القرى. ولكن ما أشد خيبة أملي: لقد وصلنا إلى قرية دير الأسد، وهي ليست قريتي. لا بيتي هناك ولا زقاقي. سألت: متى نعود إلى قريتنا... إلى منزلنا. ولـم تكن الأجوبة مقنعة. ولم أفهـم شيئاً... لم أفهم معنـى أن تكون القرية مهدمة... لم أفهم... معنى أن يكون عالمي الخاص قد انتهى إلى غيـر رجعة. ولم أفهم لماذا هدموا هذا العالم... ولماذا هدموه... ومن هم أولئك الذين هدموه؟

ورويـداً رويـداً اعتدت على حيـاة الكبـار، وقضايا الكبار. واتضح لي – بمنتهى خيبة الأمل – أني لم أعد إلى منبع الأحلام، لم أعـد إلى زقاق الطفولة. كل ما في الأمر هـو أن اللاجىء قد استبـدل عنوانه بعنـوان جديد. كنت لاجئاً في لبنان، وأنا الآن لاجىء في بلادي. والآن، عندما أتحدث إليك، وأنـا في الثامنة والعشرين من العمر، فإنني قادر على تقويم تلك الفترة. إذا أجرينا مقارنة بين أن تكون لاجئـاً في المنفى وبيـن أن تكون لاجئاً فـي الوطن. وقد

خبرت النوعين من اللجوء، فإننا نجد أن اللجوء في الوطن أكثر وحشية. العذاب في المنفى، والأشواق وانتظار يوم العودة الموعود – شيء له ما يبرره... شيء طبيعي. ولكن أن تكون لاجئاً في وطنك – فلا مبرر لذلك، ولا منطق فيه. وعندما نتقدم قليلاً في السن نتخلص من الغصة، ونشعر أن الوجود هنا أكثر تبريراً. عندها يتدخل عنصر التحدي، وعامل الوعي والبحث عن حل، وقد عثرت على الحل في سن لاحقة، عندما انتهى الصبا، وأدركت أن ثمة حاجة إلى الانتماء، لا الانتماء السلبي العادي، بل الانتماء الفعال... الانتماء الملموس والسياسي.

ومن الطبيعي، أن السياسة تقضي على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات. وبوسعي أن أقول الآن إن وضعي الراهن أسهل، ولكن المواجهة النفسانية الداخلية تثور فيّ عندما أجلس لكتابة الشعر. عندها يجري الحوار بين إحساس الفنان وبين الوعي السياسي. وأنا أعتقد أن الفنان يجب أن يكون عارياً أمام نفسه.

* * *

عندما عدت إلى دير الأسد، كنت في الصف الثاني. كان مدير المدرسة إنساناً طيباً. وأنا أذكر عندما كان يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف، كيف كان

المدير يستدعيني ويخبئنـيٍ في غرفة ضيقة. فقد كانت السلطات تعتبرني متسللاً وكان المعلمون يرغبون في الدفاع عني. لقد أضاف ذلك الحادث كلمة أخرى إلى قاموسـي الخاص، إلى قاموس الحياة: كلمة «متسلل». وكلمـا كانت الشرطة تأتي إلـى القرية، كانوا يخبئونني في خزانـة أو في إحدى الزوايا، لأنه من المحظور عليَّ أن أعيش هنا... في وطني، لقد منعوني من الإدلاء بهذا الاعتراف «كنت في لبنان». وعلموني القول إني كنت لـدى القبائـل البدوية في الشمال. وهكـذا فعلت لكي أحصـل على بطاقة الهوية الإسرائيلية. ولكني لا أزال – حتى اليوم – محروماً من الجنسية في وطني.

واعتبـرت تلميـذاً متفوقـاً، كنت أكثر مـن مطالعة الأدب العربـي. وقلدت الشعر الجاهلـي في محاولتي الشعرية الأولى.

واليـوم، يبدو مـن المستهجن أن أكشـف النقاب لأول مـرة: إنـي كنت موهـوب آنئذٍ فـي الرسم. ربما كنت في ظـروف وملابسات أخرى أتطـور كرسام لا كشاعـر. وقد تضحك عندما تعـرف لماذا توقفت عن الرسـم. السبب فـي منتهى البساطة: لـم يملك والدي قـدراً من المال يتيح له إمكانية أن يشتري ما أحتاجه من أدوات الرسـم. لقد زودني بدفاتـر الكتابة بشق النفس آلمني ذلك كثيراً فبكيـت وتوقفت عن الرسم. وعندها

حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر. وكتابة الشعر لا تتطلب نفقات مالية.

كانت مواضيع محاولاتي الشعرية الأولى هي مشاعر الطفولة. وكنت أحاول الكتابة، أحياناً، عن مواضيع ذات وزن، كانت أكبر من طاقتي في تلك السن. شجعني المعلمون على الكتابة، ولا أزال حتى اليوم مديناً لبعضهم – ومن بينهم معلم شيوعي هو نمر مرقس – قاموا بتوجيهي وساعدوا خطواتي الأولى في الشعر.

* * *

لقد خلق لي شعري المتاعب منذ البداية. ودفعني إلى الصدام مع الحكم العسكري. وإذا أردت مثلاً على ذلك: كنت طالباً في الصف الثامن عندما احتفلوا بمناسبة إقامة دولة إسرائيل. وقد نظموا مهرجانات كبيرة في القرى العربية باشتراك تلامذة المدارس في هذه المناسبة. طلب مني مدير المدرسة أن أشترك في مهرجان عُقد في قرية دير الأسد. وعندها، ولأول مرة في حياتي، وقفت أمام الميكرفون وبالبنطلون القصير، وقرأت قصيدة كانت صرخة من طفل عربي إلى طفل يهودي. لا أذكر القصيدة ولكني أذكر فكرتها: يا صديقي! بوسعك أن تلعب تحت الشمس

كما تشاء. بوسعك أن تصنع ألعاباً. ولكني لا أستطيع. أنـا لا أملك ما تملكه. لك بيـت، وليس لي بيت، فأنا لاجـئ. لك أعياد وأفراح، وأنا بلا عيد وفرح. ولماذا لا نلعب معاً؟!

وفـي اليوم التالـي استدعيت إلـى مكتب الحاكم العسكري فـي قرية مجد الكـروم. هددني وشتمني، فاحترت. لم أعـرف كيف أرد عليه. وعندما خرجت مـن مكتبه بكيـت بمرارة لأنـه أنهى تهديـده بقوله: إذا استمـررت في كتابة مثل هـذه الأشعار فلن نسمح لأبيـك بالعمل في المحجر! يؤلمنـي أن أذكر الآن أن تهديدات ذلـك الحاكم العسكري أثـرت عليَّ تأثيراً سلبيـاً. وبمنطـق الصبي قلت لنفسـي: سأحصل على القصاص. ولن أكتـب. وبالمنطق ذاتـه عجزت عن فهم السبب الذي يجعل مثل تلك القصيدة تثير حاكماً عسكريـاً. وأسجـل الآن أن ذلـك الحاكم العسكري كان أول يهـودي أقابلـه وأتحدث إليـه! لقد ضايقني سلوكـه: إذا كان الأمـر كذلـك، فلمـاذا أتحدث إلى الطفل اليهـودي؟ لقد تحوّل الحاكـم العسكري إلى رمـز الشر الذي يـؤذي العلاقات بيـن الشعبين. ومن الواضح، الآن فقط أستطيـع الإجابة على الأسئلة التي ضايقتني آنئذٍ.

* * *

ومن حسن حظي، ظهرت في حياتي صورة أخرى مناقصـة للحاكم العسكري. بعـد ذلك الحادث ببضعة شهـور، انتقلت إلـى الدراسة في مدرسـة كفر ياسيف الثانوية. هناك التقيـت بشخصية يهودية أخرى تختلف تمـام الاختـلاف، هـي المعلمـة شوشنـه التـي لا أملّ الحديث عنهـا. لم تكن معلمة. كانت أماً. لقد أنقذتني مـن جحيـم الكراهيـة. كانـت – بالنسبة لـي – رمزاً للخدمة المخلصة التي يقدمها يهودي طيب لشعبه. لقد علمتنـي شوشنه أن أفهم التـوراة كعمل أدبي، وعلمتني دراسـة بياليك بعيداً عـن التحمس لانتمائـه السياسي، وإنمـا لحرارتـه الشعرية، لـم تحـاول أن تعبئنا بسموم البرامـج الدراسيـة الرسمية التي ترمي إلـى دفعنا للتنكر لتراثنا. لقـد أنقذتني شوشنه من الحقـد الذي ملأني به الحاكـم العسكري. لقد حطمت الجـدران التي أقامها ذلك الحاكم.

* * *

قبل عدة أسابيـع، عقدنا – نحن محرري الصحف الشيوعيـة العربية – مؤتمراً صحفيـاً في حيفا. تصرف بعض الصحفيين دون لياقة إذا استخدمت الكلمة اللينة، ودون فهـم لمشاعرنا وقضايانـا. وفي مجرى الحديث قلـت لأحـد الصحفييـن إن صحيفة «عـل همشمار»

نشرت في الصباح خبراً بارزاً على الاحتفالات بمرور عشرين سنة على إنشاء كيبوتس «يسعور». جاء في الخبر أن الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل. وقلت للصحفي: يؤسفني أن أقول لك الحقيقة - أنا أفهم فرحك ولكنني عاجز عن مشاركتك فيه. لماذا؟ لأن هذا الفرح قائم على أطلالي. فإن كيبوتس «يسعور» ومستوطنة «احيهود» مبنيان على أنقاض قريتي... على أنقاض حارتي وبيتي. ذلك ينتمي إلى الماضي؟ ولكنه محفور في أعماقي!

عندما عدت من لبنان، حذرني أهلي من «خطورة» رغبتي في زيارة المكان الذي ولدت فيه وقضيت طفولتي، فإذا ألقي القبض علي هناك، سأطرد إلى لبنان. وهكذا لم أزر المكان إلا عام 1963. كانت زيارة سرية لأن دخول تلك المنطقة ممنوع. ولم أجد من كل القرية إلا مبنى الكنيسة التي تحول إلى إصطبل. إن ما رأيته في ذلك المكان المهجور يفسر لك لماذا كانت هذه هي زيارتي الأولى والأخيرة. فتشت عن مرتع طفولتي فلم أجد إلا الأشواك، لا منزل ولا شيء إلا الشوك. لن أعود إلى ذلك المكان. وكانت الزيارة بمثابة حج. قمت بتأدية هذه الفريضة مع مجموعة من الأصدقاء، من أبناء القرية. خلدنا إلى الصمت التام طيلة تلك الزيارة وبعدها. التقينا هناك براعي أغنام

من اليمن يقيم في مستوطنـة «أحيهود». قلت له: لقد أصبحنا أبناء قرية واحـدة! لم يفهم ما أعنيه، ولم تكن بي رغبة في التفسير.

* * *

أنـا أفهم سوء فهم ذلك الراعي... الشاب البسيط. ولكن يشق علي أن أفهـم الأغلبية الساحقة من المثقفين اليهود المقيمين فـي إسرائيل. ويزيد من صعوبة فهمي كونهم شديدي الحساسية أي سوء يتعرض له أي مثقف يهـودي في أي ناحية من أنحـاء المعمورة. ولكنهـم لا يحاولـون إجـراء أي اتصـال مـن الفهم مـع زملائهم العرب فـي إسرائيل. إنـي أذكر مشاعـر الإحراج التي داهمتني فـي أوروبا، عندما سألني عـدد كبير من أدباء العالـم عن التأثير المتبـادل بين الشعـر العربي والشعر العبـري فـي إسرائيـل. وأولئـك الأدباء الذيـن سمعوا عـن الملاحقات التـي يتعرض لها الشاعـر العربي في إسرائيـل، كانـوا معنيين بمعرفة الجبهـة المشتركة بين هؤلاء المضطهدين وبين أكثرية زملائهم العبريين. أجد لزاماً علـي أن أؤكد هنا أني واجهت - بهذه الأسئلة - قضيـة جادة جديرة بالاهتمام والملاحقة، لم تطرح في إسرائيل من قبل. وكان جوابي: «لا شيء» ويؤسفني أن أمثال الأديب المناضل مردخاي أبي شاؤول هم قلائل

في إسرائيل. وبوحي من هذه الأسئلة كتبت افتتاحية في مجلة «الجديد» طرحت فيها هذه القضية التي تتطلب الإجابة. أريد أن أومن بأننا سنحصل على الإجابة. إنني لا أطمح إلى التماثل والفهم التام من جانب الشعراء والأدباء اليهود. إنني أدعو – بكل بساطة – إلى التعارف. أدعو إلى آذان صاغية، ولا أدعوا إلى الموافقة المسبقة. من المخجل أننا لا نعرف شيئاً عن بعضنا البعض. إن ما جرى في مؤتمر للكتاب عقد مؤخراً في فرنسا، بين الوفد الإسرائيلي الرسمي (حاييم غوري وأهرون ميغد) وبين كاتب لبناني قام بتوزيع بيان احتجاج على ملاحقة الشعراء العرب في إسرائيل، هو بمثابة دعوة جديدة وملحة إلى النظر بجدية إلى قضية العلاقات بين حملة الأقلام العبرية والعربية في إسرائيل. وإني أحتج هنا على الحلول السهلة التي يقترحها قسم الصحافة الإسرائيلية باختراعها أسماء غير معروفة وعديمة القيمة لتمثل بها حركة الأدب العربي في إسرائيل. وأريد أن أحتج أيضاً على ظاهرة أخرى هي الطريقة التي يقدمون بها الممثلين الحقيقيين للشعر العربي بصورة «حملة شعارات» و«معادين لليهود»!

إن الجهل التام بالأدب العربي في إسرائيل ينبع من اعتبارات وحسابات سياسية بحتة، مع أنه ليس من المقبول الحديث عن السياسة والشعر في سياق واحد!

إن أولئك الذين يسيطرون على أدوات الدعاية والنشر لا يريدون أن يقدموا للقارئ العبري حقيقة الأدب العربي في البلاد. إنهم يخافون مضمون هذا الأدب. ويدركون أن وصول هذا الأدب إلى الجمهور اليهودي سيحطم حواجز. فالأدب العربي هنا هو أدب مقاومة واحتجاج على وضع غير عادل كأي أدب آخر من نوعه في العالم. وإذا كان من المتاح لي أن أستعير مثلاً من أدب الاحتجاج العالمي المعاصر، فسأذكر اسم «جيمس بلودوين» الزنجي الأمريكي، صاحب الكتاب المثير «لا أحد يعرف اسمي»، وأعرف أن رنين هذا الكتاب ليس عذباً للأذن الإسرائيلية بسبب تشابه الواقعين، ولكن القلائل... القلائل جداً في المجتمع الإسرائيلي هم الذين يعرفون أسماءنا وقضايانا. يبدو أني أريد أن أفترض وجود شعراء مبدعين، مثل يهودا عميحاي ودالية ريبكوفتش، ذوي استعداد أولي لفهم أمثالنا. عندما ألتقي بالحيرة النفسية لدى هذين الشاعرين وغيرهما، أحصل على حقنة من الأمل، في أنه لا يزال في هذه البلاد من يحافظ على حاسة فهم الآخرين!

وينبغي علي أن أضيف أنه بالإضافة إلى كل المتاعب والعقبات، هناك عقبة اللغة، إني أفهم لماذا يحصل عدد كبير من الأدباء اليهود على انطباع خاطئ عنا. إنهم لا يعرفوننا. لا يقرأوننا بلغتنا الأصلية. وبهذا

الصدد أجد نفسي عاجزاً! ولكن، لماذا لا نتعارف على الأقل؟ لا أطلب منهم أن يحكموا على إنتاجنا، فالشرط الأول لهـذا الحكم هو المعرفة، وهـم لا يعرفون. هذه القضيـة تشغـل بالي. وأنـا لا أمل تكرار دعـوة الأدباء اليهـود إلـى التعرف علـى الأدبـاء العـرب. وفي هذه المناسبة، بودي أن ألفـت نظر القارئ العبري - وليس بدافع السخريـة - إلى حقيقة أن الكثيريـن في إسرائيل يعرفـون اسم الشاعرة فدوى طوقان مـن نابلس الواقعة تحـت الاحتـلال الإسرائيلي منذ عامين فقـط، بينما لا يعرفـون أسمـاء الشعراء العـرب الذيـن يعيشون تحت الحكـم الإسرائيلـي منذ مـا يزيد عن 21 سنـة! إن هذا السؤال موجع وخبيث. أعترف بذلك ولكن حاولوا أن تفهمونـي. وأنا لا أعاتب الأدباء اليهود المتعصبين، إني أعاتـب الأدباء الذين يريدون أن نسميهم أدباء تقدميين. من هؤلاء أطلب: تعالوا نتعارف ونتناقش!

* * *

بـدأ تعرفـي علـى الأدب الثـوري والشيوعـي، خـلال دراستي الثانوية. قـرأت «الاتحاد» و«الجديد» وغوركـي ولينيـن. تحسست طريقـي. وظهرت نقطة ضوء فـي حياتي. في سنوات دراستـي الأخيرة شغلتني كثيراً مسألـة الحيرة الأدبية. كيف أعبـر عن نفسي. أنا

شـاب أنتمي إلى قوميـة معينة، ولي قضايـا معينة. وفي الوقـت ذاته أعيش فـي إسرائيل. أريـد العثور على حل لهـذا السؤال: «هل من حكم القـدر وجود تناقض بين هذيـن الإنتمائين؟». لا أخفـي عليك أن هـذا السؤال يتـراءى، أمام النظـرة السطحية، بالـغ السهولة، ولكنه سؤال شاق وخاصة للشباب. وأنا لم أعثر على الجواب بسهولة. حللتـه على النحو التالي: «لا تناقض جوهري بيـن الشعـوب، إذا قامت العلاقات بيـن الشعوب على أساس المساواة» أنت مدعو لأن تكون بطلاً، من ناحية نفسية، لكي تتغلب على هذا السؤال في ظروف بلادنا. وأنـا لا أدعي البطولة النفسيـة إذا قلت لك إني وجدت الحـل، فالتناقض ليس قدراً على الرغم من أننا يجب أن نفهم أولئك الذين يعتبرونه كذلك.

إني أحاول رغم الآلام والعذاب الناجمة عن الظلم، المحافظـة على أهم عناصر الإنسـان: أن أكون إنساناً، وأن أنجو من التعصب القومي. لا أقول ذلك نفاقاً، ولا لأني أتحـدث إليك، وإلى القارئ العبـري بواسطتك، لأتحـدث بسذاجة: أنـا لا أعادي اليهـود. وأقول لك بـإدراك تام إن الإنسان – مهمـا كان لونه ومهما كانت قوميته – هو كنزي.

وأريـد أن أتباهى بإنسانيتـي، بأنني أول شاعر عربي عرض جندياً إسرائيلياً، حتى بعد حرب حزيران، بجوهره

الإنسانـي، كيف حدث ذلك؟ بعد حـرب حزيران التي أعـادت قتلـي حافظت علـى انتمائي الإنسانـي، كتبت قصيدة «جندي يحلم بالزنابـق البيضاء». والقصيدة هي حوار مع جندي إسرائيلي عاد من الحرب خائباً لأنه فقد انتمـاءه الإنساني. شربت معه أربع كؤوس خلال حديثنا عن الحرب وعن حبه الأول وعن همومه اليومية، دون ظل من الكراهية القومية. لقد وضع الجندي قلبه أمامي، وأنا استقبلتـه كصديق قبل الحـرب. هاجمني أديب سوري، بشدة، على هذه القصيدة. اتهمني بأنني أضلل الرأي العام العربي والعالمي. وقال إن هذا الجندي موهوم. ولكنني سررت عندما قرأت كتاب أحـد النقاد الشباب البارزين هو رجاء النقاش. في كتابه عني رد على الكاتب السوري بـأن الصراع فـي المنطقة ليس مع اليهـود كبشر، ولكنه صـراع بين العـرب والصهيونية. وقال رجـاء النقاش إن العالم لم يفهم عداء العرب لإسرائيل، ولمح إلى أن العقبة بين تفاهم العـرب واليهود هي الصهيونيـة والإستعمار، وأنا أستغرب لماذا لا يستخلص الضمير اليهودي النتائج الحقيقيـة من تأثير الأدب العربـي الإنساني في إسرائيل. إننا نشهد، في الآونة الأخيرة، ملاحقة إيجابية من العالـم العربـي للشعر العربي فـي إسرائيل. صحيـح، أن أغلبية الإسرائيليـن تنظر إلى هذه الحقيقة بريبة وترى فيها دليلاً علـى موقف العرب السلبي. ولكننـي أنظر إلى الأمر من زاويـة أخـرى، إن هذا الاهتمـام علامة علـى التغييرات

الإيجابية الجارية فـي النفسية العربية. العالم العربي يرى فـي الشعر العربي في إسرائيل رمـزاً للصمود، رمزاً لعدم الاستسـلام، ورمـزاً للأمل. وقـد كنا شهـوداً على النقد الـذي تعرض له شعـر القضية الفلسطينيـة المكتوب في البلدان العربية. كان النقد يقول إن أغلبية هذا الشعر تتميز برفع الشعارات المتعصبة، ولم تعرف كيف تجد السبيل إلـى القلب الأوروبي وإلى حاسة العـدل الإنساني. وقد وجـد هؤلاء النقـاد حلاً لهذه المسألة فـي الشعر العربي المكتوب فـي إسرائيل. رأوا فيه شعراً إنسانياً يسمو على مشاعر الحقد والمـزاج النفسي البدائي. وعبر عن ذلك بمستوى فني عـال وأنا كشاعر عربي يحافظ على طابعه القومـي العربي والإنساني، أرى في هذه المظاهرة كسباً للعقل السليـم والإحساس المعافى، وانتصاراً للإنسانية، لا يعنـي ذلك أني صرت عدميـاً ولا يعني ذلك أني أسلم بأي شكل من أشكال الغبن والظلم، لكن ذلك يعني أنني قادر على التميز بين الإنسان والسياسة.

يجري حـوار بين الأدباء والنقاد فـي العالم العربي حول تسميـة حركة الشعـب العربي فـي إسرائيل التي يمثلها بشكل بارز: سميـح القاسم، توفيق زياد، وسالم جبـران وأنا. هناك من يسميهـا: شعر المقاومة. وكتب أحد النقاد البارزين في القاهرة غالي شكري: يمكن أن نسمـي هذا الشعر شعر مقاومة، ولكن علينا أن نذكر أن

نقطة انطـلاق هؤلاء الشعراء هي الاعتراف بحق اليهود والعرب فـي العيش في فلسطين، ولذلك من الأصح أن نطلق عليهم اسم: شعراء الاحتجاج والمعارضة.

لا. أنا لا أعتبر نفسي شاعراً ناضجاً. لا أشعر بالرضا الفني. وأنا أحد الذين يعتقدون بأن الفنان الذي يتوصل إلـى الرضا عن نفسه يفقد مبـررات استمراره. صحيح أنني نجحـت في تحسين أدواتـي الفنية، ونجحت في قهر تناقضاتي، ولكنني لا أشعر بالرضا الفني.

إذا كان يشغلنـي فـي كل تجاربـي الأدبيـة؟ قضية الحقيقة والعدل في حياتنا. إنها تصبح قضية أكثر تعقيداً وتركيباً في هذا العصـر المركب. ولكنني أتشبث بكل نقطـة ضوء وسعادة في بحثي عن الأشياء التي تبرر قدرة الإنسان على الصمود أمام العذاب.

ليـس من حقي القـول إني سعيد، مـن السخف أن أدعـي بأنني سعيـد. ولكن مطاردتـي للسعادة تمنحني السعـادة. هذا هو – في رأيي – مبرر وجود الشاعر منذ قام الإنسان بالتعبير عن نفسه.

أحاول المزج بين انتمائي القومي وانتمائي العالمي والإنسانـي. وأحـاول أيضاً أن أعمـق حاضري بخيرة العناصر الكامنة فـي الماضي، وبأجمل ما يظهر لي من المستقبل.

من الطبيعي أن تحترم شاعراً وتعجب بشاعر وتحب آخـر. كلنا نقـدر شيكسبير علـى سبيل المثـال. وكلنا نعجب بحكمت ونيـرودا واودن، ولكن رغـم إعجابي البالـغ بالكثيرين من الشعـراء، إلا أنني أحب لوركا... نعـم، أنا أحب لوركا حبـاً. لا أعتبر لوركا شاعراً مبدعاً فحسب، ولكنني أعتبره أيضاً صديقي.

* * *

الكثيـرون مـن أصدقائي يتألمون مـن أجلي. هذه الملاحقـات... الاعتقـالات وأوامر الإقامـة الجبرية التي تحـدد حرية تجولي فـي وطنـي، أصبحت جزءاً مـن حياتي اليوميـة. ولكنني أنظر إليهـا باستهتار يكاد يكـون خبيثاً. لست متوتراً ولست مندهشاً. أجلس في غرفتـي، كل مساء ويطربني أن أرتبـط بالشمس، لأني أمنع من مغادرة البيـت عند غروب الشمس. منحوني شرفاً كبيراً عندما ربطوا خطواتي بالشمس. أجلس في الغرفـة، أقرأ، أسمـع موسيقى، وانتظـر البوليس. وفي الساعـة الرابعـة بعد كل يوم أثبت وجـودي في محطة الشرطـة بابتسامة حقيقيـة غير لئيمة دائمـاً. وأنا أنظر إلـى ذلك برؤية شعرية: لقد تقاسمنـا اليوم: لهم الليل، والنهار لي. لا يحق لـي الخروج في الليل، وهم دائمو التجـوال فـي الليل. وكل واحـد منا يعـرف أن النهار

أجمل من الليل، وضوء الشمس أحلى من الظلام، فمن انتصر... أنا أم البوليس؟

* * *

لا أنام قبل الاستماع إلى ألحان ميكيس ثيودوراكيس. بيني وبينه حكاية: قبل ثلاثة أسابيع قرأت في الصحف الإسرائيلية أن ميكيس قد اعتقل. كتبت قصيدة من وحي هذا الاعتقال، عنوانها «ريتا... أحبيني». كتبت في مقدمة القصيدة أن سبب اعتقال ميكيس ثيودوراكيس هو أنه «خطر على أمن الجمهور». أضحكني أن الصحف الإسرائيلية وضعت هذه الجملة ضمن أقواس تعبيراً عن سخريتها من هذا الادعاء: «خطر على أمن الجمهور». ضحكت، لأن هذه الصحف تنظر إلى هذا الادعاء كأمر بعيد عنها وبعيد عن حدود إسرائيل! إني أستمع إلى ألحان ميكيس كل مساء وأحس أننا صديقان. أنا أيضاً «خطر على أمن الجمهور». ولكنني لم أتصور أن مصيري، ذلك الأسبوع، سيكون كمصيره، فعندما نشرت القصيدة في «الاتحاد» كنت أنا في الاعتقال لأنني «خطر على أمن الجمهور»!

حياتي...
وقضيتي... وشعري[1]

لم أكن قد التقيت به قبلاً، ولكني كنت أعرفه من زمن طويل، منذ أخذ ينشر - هناك - أشعاره التي جمعها في ديوانه «أوراق الزيتون»... أتتبع ما يتسرب إلينا من قصائده وقصائد رفاقه الآخرين... وعندما اجتاز شعره الأسلاك الإسرائيلية الشائكة، وانطلق في العالم العربي - خصوصاً بعد نكسة حزيران - شعلة أمل وإصرار وسط اليأس الشعري القاتل في تلك الفترة، شعرنا هنا باعتزاز كبير: هذا واحد منا، عملاق شعري آخر يوكد طليعية شعرنا التقدمي، ويعطي، هو ورفاقه، المثل الحي على اندماج الشاعر بشعبه، والشعر بالقضية.

(1) نص الحديث الذي أجراه مع الشاعر الاستاذ محمد دكروب.

في صوفيا، أيام مهرجان الشباب العالمي، جاء من يقول لي: «محمود وسميح هنا. يريدان رؤيتك»... وفي أحد احتفالات التضامن مع الشعوب العربية، التقيت بمحمود درويش... شاب نحيل، وجه أليف جداً، قريب إلى القلب... اكتشفنا كأننا نعيش معاً من زمان... هو أيضاً يعرف الكثير عني وعن رفاقي الكتاب هنا. قال إنه ورفاقه، هناك، فتحوا عيونهم على الأدب التقدمي من خلال «الثقافة الوطنية» ثم من خلال «الأخبار». بعض ما نكتبه في صحفنا، كانوا ينقلونه إلى صحفهم. كانت صحفنا، كما قال. نافذتهم إلى العالم العربي، والشريان الذي ينقل إليه حركة الأدب والفكر والكفاح.

- يا محمود!... أنت أسطورة عندنا.

ابتسم بحياء... قال أنا إنسان عادي جداً، ما أقوم به يقوم به الكثيرون، ولكن صوتي، كشاعر، يصل إلى مسافات أوسع...

التقينا بعدها عدة مرات في صوفيا، وسط ضجيج المهرجان، وأهازيجه، وزيناته، ومشاكله... ثم التقينا في موسكو، حيث أتيح لي، في جو هادئ، أن أجري معه هذا الحديث، محاولاً أن يكون وثيقة أدبية وإنسانية، عن حياة، وشعر وكفاح شاعر المقاومة العربية في فلسطين: محمود درويش.

«م.د»

طفولتي: بداية المأساة

- حدثنا عن نشأتك... البيئة والجو والناس... وانعكاس أحداث تلك الفترة الأولى على نفسك ومسيرتك فيما بعد؟

– أضع أمامكم طفولتي، لا لأني من أولئك المولعين بالحنين إلى «البراءة المفقودة»، ولا لأني أنتمي إلى الذين يعاملون مرحلة الطفولة على أنها العنصر الحاسم الذي يحدّد اتجاه الشاعر. ولكن الطفولة، في مثل حالتنا، اكتسبت ميزة خاصة وستساعدنا، ولو قليلاً، على فهم الصلة التلقائية المبكرة بين الخاص والعام. إن **طفولتي هي بداية مأساتي الخاصة التي ولدت مع بداية مأساة شعب كامل.** لقد وضعت هذه الطفولة في النار، في الخيمة، في المنفى، مرة واحدة وبلا مبرر تتمكن من استيعابه، ووجدت نفسها فجأة تعامل معاملة الرجال ذوي القدرة على التحمل ولا تُستثنى من مصيرهم. فالرصاص الذي انطلق في تلك الليلة من صيف 1948 في سماء قرية هادئة «البروة» لم يميز بين أحد، ورأيت نفسي، وكان عمري يومها ست سنوات، أعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء، فالجبال الوعرة... مشياً على الأقدام حيناً وزحفاً على البطون حيناً. وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا في بلد اسمه: لبنان. وحين صحا ذلك الطفل الممزق الثياب من

التعب والرهبة كان رأسه يزدحم بالأسئلة التي هاجمته دفعة واحدة وبلا تسلسل. **ومنذ تلك الليلة انقلبت الصفة الخاصة لعالم الطفولة، وأصبح ذلك الطفل محروماً من الأشياء واللغة التي تميزه بها عن الكبار**. والغريب، هو أن تلك الليلة أكسبته شعوراً غامضاً بأنه، منذ الآن، لن يختلف عن الكبار. والتصقت بذهنه وعاطفته كلمات جديدة صار يعرف أنها مصيرية: **الحدود، واللاجئون، الاحتلال، وكالة الغوث، الصليب الأحمر، الجريدة، الراديو، العودة، وفلسطين**... إذ لم تكن به حاجة، على ما يبدو لأن يعرف بأنه من فلسطين قبل الآن. من هنا، ألاحظ أن ارتباطي الأول بالقضية بدأ بتعرفي المفاجىء على كلمات. وعندما كنت أسأل أهلي عن ترجمة هذه الكلمات، كنت أدخل عالم قضايا جديدة وألتصق بها رغماً عني، مبتعداً بوتيرة سريعة، عن عالم الطفولة إذا كان يعني ما يحظى به الطفل من تفوق وتمييز، وصرت أقترب، بوتيرة سريعة أيضاً، من عالم الطفولة الذي صار يعني المكان الذي ستخلصني العودة إليه من هذه الكلمات الجارحة: **لاجيء**. وهكذا، تحولت عواطفي إلى أسيرة لكلمة «**العودة**» التي تعني المصلحة والانتهاء من العار. وصرت أنتظر، حيث أصبح الإحساس المرهف بالحرمان والظلم والتشرد مسيطراً على ذهني الصغير. وكل ما ورثته من حب للدنيا استبدله الواقع الجديد بضيق شديد بها. ولهذا – أذكر – فقدت موهبة

اللعب وتسلق الشجر وقطف الأزهار ومطاردة الفراش، وورثت عن أهلي عادة التأفف والركون إلى الصمت والتأمل. وأستطيع الآن أن أحدد، من بعيد، أن **الموهبة الأولى التي قادتني إلى الشعر كانت موهبة التأمل**، بمعنى أنها أوصلتني إلى الارتباط المرهق بهموم الكلمات الجديدة، وسط جو كثيف من الغربة، فعمقت إحساسي بالسبب والشكوى. ومن هنا أيضاً أستطيع أن أحدد منبع حساسيتي الشديدة تجاه العدوان. **فإن طفولتي كانت ضحية عدوان**. وأجد الآن، خلال هذه المراجعة، أن الطفولة لم تكن تعني مرحلة من مراحل حياتي، وإنما كانت وطني. وفي وطن الطفولة كنت أشعر بالمراحل: الحرمان، الخوف، طرح الأسئلة، العزلة، التأمل، ثم الغضب على شيئين: على الواقع الجديد، وعلى الذين احتلوا طفولتي – وطني، وقادوني إلى هذا الواقع. هذه هي تجربة «الطفولة المنفية». وتليها تجربة أخرى :

العودة... منفى آخر!

قيل لي في مساء ذات يوم: الليلة نعود إلى فلسطين. وفي الليل، وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في الجبال والوديان الوعرة، كنا نسير... أنا وأحد أعمامي ورجل آخر هو الدليل. والدليل رجل خبير بمسارب الجبال، استغل هذه الخبرة لتصبح مصدر رزق.

في الصباح. وجدت نفسي أصطدم بجدار فولاذي من خيبة الأمل. أنا الآن في فلسطين الموعودة. ولكن أين هي؟ لا. هذه ليست فلسطين. تلك الأرض السحرية... الخلاص من الظلم والحرمان، لا تحتضنني كما تصورت. وهذا الصبي العائد، بعد سنتين من الإنتظار، يجد نفسه أسيراً لمصير المنفى ذاته، بأسلوب آخر وعلى أرض ليست له... ليست له، هذه هي الحقيقة الثانية التي ما زالت، حتى الآن، أعنف يد تحرِّك إحساسي بالمأساة، كما كانت أول محاولة شعرية لي. لم أعد إلى بيتي وإلى قريتي، فقد أدركت بصعوبة بالغة، إن القرية هُدمت وحرثت. كيف تهدم القرى؟ ولماذا؟ وكيف يعاد بناؤها؟ ثم أجد أن اللغة الجديدة ما زالت تلبسني. **اسمي الآن: لاجئ فلسطيني في فلسطين!** وأعود مرة أخرى إلى وكالة الغوث والغربة ومطاردة الشرطة لأننا لم نكن نحمل بطاقة هوية إسرائيلية... لأننا متسللون! وإذا كان من المتاح الآن تقويم هذه التجربة، تجربة اللاجيء في وطنه. فإني أشعر بأنها تبعث على خطر القتل النفسي بصفاقة أقسى من تجربة المنفى. في المنفى يتوفر لديك الإحساس بالانتظار. وبأن المأساة مؤقتة فتنسم رائحة أمل. وتحمُّل عذاب المنفى مبرَّر. والتصور للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة القصيّة وغيرها أمر مشروع. أما التجربة الأخرى، **اللجوء في الوطن**، فإنها أمر غير مبرر وصعب الستيعاب في حدود

وعـي الطفل والصبي. إنك تشعـر بالغصة والقهر حتى في أجمـل أحلامك. وتكتسب ملامحـك انعكاسات واقـع هي أقرب ما تكون إلى الرمـوز. كنت أشعر بأني مستعار من كتاب قديم يخلق فيَّ انطباعاً غامضاً لأني لا أحسن قراءته. ولكـن الكابوس لا يستمر بهذا الشكل. فـإن «اللاجىء الفلسطيني فـي فلسطين» لم يترك «حراً بحرمانه». وهنا يضاف عنصر جديد هو عنصر التحدي من جانب السـارق، وهو ذو حدَّين: الحد الأول، يزيد مـن الشعور بالتمزق. والحد الثانـي يفجِّر هذا الشعور في نقطة ما... **فـي التحدي المضاد الـذي يتطور إلى طريق عمل وكفاح.**

عن القصائد الأولى

- كيـف بـدأت تتلمسـ الطريـق إلـى الشعر؟ حدثنـا عـن الأشعـار الأولـى... القصيـدة الأولى – التي نشرت لك، وتأثير نشرها على نفسـك وفي حياتـك... ثم التيـارات الأدبية والسياسية التي تأثرت بها في تلك الفترة...

– لا أذكـر متـى بـدأت، بالضبـط، محاولـة كتابة الشعـر. ولا أذكـر الحافز المباشـر لكتابـة «القصيدة» الأولـى، وإن كنـت أذكر أني حاولت، فـي سن مبكرة، كتابـة «قصيدة طويلة» عن عودتـي إلى الوطن، حذوت فيهـا حذو المعلَّقـات، فأثـرت سخرية الكبـار ودهشة

الصغار. وأذكر أن بعض الصحف بدأت بنشر محاولاتي عندما كنت في المدرسة الابتدائية، وكنت أحدِّق طويلا باسمي المطبوع في الجريدة، فأطمح بأن يطبع مرات أخرى!... وخلال دراستي الثانوية صارت كتابة الشعر تحتل الجزء الأكبر من اهتمامي. وكنت سريع التأثر بالشعراء الذين أقرأ لهم مؤخراً. وكانت محاولاتي تتسم بالزخرف والنغم المسموع جيداً، وكان اندفاعي وراء الانسياق للموسيقى ينسيني أو يضيِّع عليَّ الفكرة. في تلك السنوات كنت دائم البحث عن نفسي وعن الطريقة الأفضل للكتابة. ومن المؤكد أن الرومانسية تستهوي كل أبناء الجيل، ولكن هذا الشعر الجديد الذي نقرأه في «الاتحاد» و«الجديد» للشرقاوي والبياتي والبغدادي وبسيسو والسيَّاب وغيرهم يشعرنا بعلاقة أقرب ويلهبنا بالحرارة لصلته المباشرة بالواقع، فأخذني هذا الشعر إلى أول الطريق وانفصلت عن حبي الجارف لشعراء المهجر وعلي محمود طه. ولكن لم أجد، بعد، وسيلة التعبير. كان يشغلني في هذه المرحلة كيفية التعبير عن قلقي وتمزقي وغضبي كشاب ينتسب إلى شعب مضطهد ومسحوق، بما يخيل لي أنه أفضل الأشكال وأقربها إلى القلب. ثم، كيف أجمع بين حبي لفتاة وارتباطي بالقضية العامة. وكانت تلك السن تصوِّر لي أن في الصورة شخصيتين متناقضتين. وكنت أتأثر بأي انتصار ثوري في أي مكان في العالم، فأسارع إلى «تخليد» هذا الانتصار.

في الحزب الشيوعي

وفـي تلك الفتـرة تعرفنا على عمليـة غسل الدماغ الثقافـي الذي نتعرض له. اكتشفنـا أنهم، في المدرسة، يعلموننا عن تيودور هرتسل أكثر مما نتعلمه عن محمد، والنماذج الذي ندرسها مـن شعر حاييم نحمان بياليك أكبـر بكثيـر من نماذج شعـر المتنبي. ودراسـة التوراة إجباريـة، أما القـرآن فلا وجود لـه؛ فأحسسنا أن غزواً ثقافياً لنشـر العبرية يزحف إلينا ناعمـاً كالأفعى، فكان لا بـد لنا من أن نمنح أنفسنـا الوقاية، وازداد اقترابنا من الأوساط اليسارية، وصرنـا نقرأ مبادئ الماركسية التي أشعلتنا حماسـاً وأملاً. وتعمّق شعورنا بضرورة الانتماء إلـى الحـزب الشيوعـي الـذي كان يخوضـ المعارك دفاعاً عـن الحقوق القومية ودفاعاً عـن حقوق العمال الاجتماعيـة، وحيـن شعرت أني أملك القـدرة على أن أكـون عضواً فـي الحزب دخلت إليه فـي عام 1961، فتحـددت معالـم طريقـي وازدادت رؤيتـي وضوحـاً وصـرت أنظر إلـى المستقبل بثقة وإيمـان، وترك هذا الانتماء آثاراً حاسمة على سلوكي وعلى شعري.

من المباشرة إلى الرمز الشفّاف

- ديوانـك الأول... اسمه، طابعـه العام. ماذا يمثل... في المضمون، في الشكل، في حياتك

الخاصة، وفي الشعر العربي داخل إسرائيل؟
الديوان الثاني... والثالث والرابع... ماذا يمثل كل ديوان، في نظر النقاد عندكم، وفي نظرك وفي حركة التطور الشعري عندك؟ هل وضعت شعراً وأنت في السجن؟ تأثير السجن في نفسك وشعرك.؟

– أول ديوان مطبوع لي، لا يستحق الوقوف. كنت في سنتي الدراسية الأخيرة (18سنة)، وكان تعبيراً عن محاولات غير متبلورة. صدر عام 1960 واسمه «عصافير بلا أجنحة».

● أما الديوان الثاني «أوراق الزيتون» الصادر عام 1964 فإني أعتبره البداية الجادة في الطريق الذي أواصل السير عليه الآن، الطابع العام المميز لقصائده هو التعبير الجديد، بالنسبة لشعرنا، عن الانتقال من مرحلة الحزن والشكوى إلى مرحلة الغضب والتحدي، والتحام القضية الذاتية بالقضية العامة، منتقلاً من سمة «الثوري الحالم» إلى الثوري الأكثر وعياً. وتشيع في جو الديوان رائحة الريف، وآلام الناس، والتغني بالأرض والوطن والكفاح والإصرار على رفض الأمر الواقع، وحنين المشردين إلى بلادهم، ومحاولة العثور على مبرر لصمود الإنسان أمام مثل هذا العذاب، كما ترون في هذه الأغنية مثلاً:

وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى
وقالوا: أنت قاتل!
أخذوا طعامه، والملابس والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى
وقالوا: أنت سارق!

ردّوه عن كل المرافىء
أخذوا حبيبته الصغيرة
ثم قالوا: أنت لاجىء!

يا دامي القدمين والعينين
إن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل

فحبوب سنبلة تجفّ
ستملأ الوادي... سنابل!

وقـد استقبل الديـوان برضا بالغ من القـراء والنقاد والشعراء الذين اعتبروه مفاجأة وقفزة في الشعر العربي فـي بلادنا. ويسعدني أن أذكـر أن «أوراق الزيتون» هو الكتاب العربي الوحيد الذي طبع طبعتين.

«عاشق من فلسطين»

● الديوان الثالث هو «عاشق من فلسطين» صدر عام 1966. إن طريقتي في التناول هنا تختلف عنها في «أوراق الزيتون» مما نتج عنه تغير في النبرة. صوتي هنا أكثر انخفاضاً وهمساً وشفافية. تخلصت من شرح تفاصيل الصورة واكتفيت بالإشارة الموحية. وحين أنظر إلى الأشياء لا ألتصق بها فقط، وإنما أتوغل فيها أو هي تتوغل فيَّ. كان وعيي ووجداني يدخلان في معادلة واحدة. ولعل التزامي هنا لم يعد مبدأ أو وجهة نظر أو طريقة، وإنما صار نبضاً في الدم. وأعتقد أن للتجربة التي خلقت «عاشق من فلسطين» فضلاً على ما أدعيه. القسم الأكبر من الديوان كتب في السجن أو عن السجن. وأظن أن للمكان بعض التأثير على بناء القصيدة أيضاً. ويخيل لي أن كتابة القصيدة في السجن أشبه ما تكون بعملية التقاط سريع أو اصطياد خاطف، وماهر، في نغمة أشبه ما تكون بالدندنة، حيث لا تكون للشاعر هناك أدوات الكتابة المادية التي اعتاد عليها. وقد يكون العامل المريح الذي يكتب فيه الإنسان. شاء أم لم يشأ، أحد العوامل التي تدفعه إلى العناية الشديدة بالأناقة. ومن هنا تجد أن قصيدة السجن قصيرة، مكثفة، وتحتوي على فراغ جميل ذي إيحاء، فإنك تشعر أن هذا الشاعر السجين لم يقل كل شيء، لم يستهلك تجربته،

ومـا زالت هنالك ظلال غير مرئية. وهذه الميزة – ميزة الانطبـاع بوجود مالم يقـل – تعجبني كثيراً في الشعر، كقاريء مـن حقي المطالبـة بأن يتعـدى دوري جهاز الاستقبـال، إلـى المشاركة فـي العمليـة الإبداعية. مع ذلـك، فإننا نظلم المسألـة إذا جعلناها وقفاً على عنصر المـكان إلا بقدر مـا يعنيه من وعاء للتجربـة أو مسرح لهـا. إن السجن يرغم المرء علـى المراجعة والتأمل في كل شـيء. وكون السجين مقطوعاً عن العالم الخارجي ومحرومـاً منه يجعل ارتباطه العاطفي والفكري به أكثر التحاماً وحميمية. كل شيء في هذه الدنيا الطليقة خارج الأسوار يصبح ذا ذكريات ومواعيد. لدي موعد مع كل شـيء... عندما يطلق سراحي سأقف طويلاً لكي امتلىء بزرقة البحر وملوحته. وفي السجن «اكتشفت» الشجر بكل ما فيه من مودة، كـرد فعل للون الرمادي، وهكذا تصبح الألوان مثار اهتمام من نوع جديد. ما زلت أقول إن النفي الحقيقي للإنسان هو أن تبعده عن الشجر. كل عشبـة تتحول إلى رمز. وفي السجن تكتشف علاقاتك الحميمة بالناس، ويزداد الانتماء حناناً، وترى أهلك من زاويـة أخرى لم تنتبـه لها من قبل. لقـد كنت مضحكاً جداً عندمـا كتبت إلى أهلي: «اكتشفت أني أحبكم بلا حـدود. لا تؤاخذونـي على هذا الاعتـراف»، ولكنني كنت صادقاً. ملخص القـول إن العالم الخارجي الذي يتحـول إلى وحـدة رمزية واحدة يتداخـل في السجين

من أجـل قضية، وتصبح كل العناصـر مشاركة في هذه القضية التي يلح عليك السجن بالتشبث بها.

هذا مـا حاولت أن أكتـب عن حنينـي إليه بطريقة قتلـت فيها عنصـر الحنين، لأن السجن لـم يبعدني عن الناس والأشياء والقضيـة، وإنما جعلني أهضمها بشهية ونهم. وهكـذا، أرى أني خطوت خطـوة نحو المزج بيـن الأشياء مما استدعى صيغة أكثر مرونة تتسع لحركة المـزج، أسفرت عن إنزال ضربة، غير مقصودة لذاتها، ببنـاء القصيدة الكلاسيكي. وقد حـدث ذلك بما يشبه التلقائية، إذ لا خيار لـك وسط هذه الحركات والرموز فـي أن «تقرر» شكلاً ما، فالعمليـة هنا هي التي أخذت إطارها وشكلها.

«آخر الليل...»:

● آخر دواوينـي هو «آخر الليل». وأراني في غنى عـن تقديمه لكم لأنه نشر في العالـم العربي على نطاق واسع. ولكنـي أشعر بأن مسافة التطور الفني، بينه وبين «عاشـق من فلسطيـن» أوسع من المسافـة الممتدة بين «عاشـق مـن فلسطيـن» و«أوراق الزيتـون». أشعر أن كلمات «آخر الليل» أكثـر ظلالاً وإيحاء. وصار الرمز، عنـدي، أغنـى بالكثافـة، وإن كان الجو العـام شفّافاً. واستطعـت، كما يبدو لي، أن أحقق الصداقة بين الحلم

والواقع، بين سبـب الرمز ومدلوله، وتلقائية العلاقة بين الفكـر والوجدان. وفي الحـوار القاسي أو الصراع بين المـوت والحيـاة انتصرت على المـوت دون أن أجعل أيديولوجيتي تتدخل، ظاهرياً.

ولكن «آخـر الليل» الذي أعتبـره أفضل ما كتبت، استقبـل بفتور علني من أغلبية القراء في بلادنا. وقال لي عشرات من المثقفين: «يـا محمود! عد إلى الوراء. إذا كان هـذا هو التقدم الفني فليتك لـم تتقدم». وقيل لي، بشفقـة، ليتك لم ترحـل عن القرية... هـذا الشعر غير مفهوم. ومجمل رأي القطـاع الأوسع من القراء هو أن هذا الديـوان يمثل بداية سقوطي. يضـاف إلى ذلك أن الذيـن يكتبون النقد في بلادنا، عادة، لم يعيروا الكتاب أي اهتمـام. وكتب أحد رفاقي مؤنّبـاً: «هل سيأتي كل قـارئ إلـى الشاعـر ليفسر له هـذه الرمـوز، أم يبحث عـن منجِّم» وأعرب عن أسفه لانجـراري وراء الشعراء الرمزيين!

مـن المكابرة أن اقول إني لـم أشعر بعذاب نفسي. هل يترتب عليَّ، لكي لا ينقطع التفاعل بين شعري وبين الناس، أن أعـود إلى التعبير المباشـر، والحث الصريح على الكفاح والتمسك بالأمل والعقيدة؟ هل أعلِّل هذه الظاهرة بعدم وجود نقاد جادين؟

هل هذه الظاهرة تطرح قضية «التناقض» الفني بين متطلبات التجديد عند الشاعر وبين مدى الإمكانيات الفنية المتوفرة لدى قطاع واسع من الناس؟ هل أصبحت صوري ورموزي وطريق تناولي معتمة؟ هل غامرت كثيراً؟ إن هذه الأسئلة تشغل بالي بشكل ملحّ، خاصة أني أعتبر نفسي شاعراً ثورياً يخاطب الجماهير ويلتزم بقضية الجماهير ويكتب من أجل الجماهير. ويطرح أمامي سؤال للمستقبل: كيف أوفِّق بين شق الطريق أمام الكلمة لتمارس مفعولها بين الجماهير بصفتها كلمة ثورية من ناحية، وبين متطلبات الشروط الفنية المتطورة لهذه الكلمة؟ ثم، إنني مليء بالإحساس في أن «اللعبة الفنية»، عندي، مكشوفة خلف منديل شفّاف.

ضد السلطة و العدمية

- تخوضون معارك كثيرة... حدثنا عن المعارك الفكرية والاجتماعية التي مارستها... وعن محاربة السلطة لكم ولشعركم... وعن السجن...؟

— كل هذه المعارك تقريباً تدور، مباشرة، في دائرة المعركة السياسية، سواء كانت السلطة الطرف الآخر والمباشر، وسواء كان الفكر الرجعي أو الانتهازي أو العدمي محفوفاً بعطف السلطة أو تأييدها أو لا يعدو

كونـه جندياً من جنودها. ولعـل مكافحة سعي السلطة إلـى إشاعة العدميـة القومية في صفـوف الجيل العربي الجديـد قد أصبحت إحدى معاركنـا اليومية. وتكرس السلطـة جهـوداً خاصة لإضعـاف قوة جـذب حزبنا للشباب بالهجوم المستمـر على الفكر اليساري وعلى الاشتراكية، داعمة هـذا الهجوم بأساليب الإرهاب غير الأخلاقية، وبفتح الأبواب علـى مصاريعها لكل أنماط الحياة الأمريكية وثقافتهـا. وتوحي السلطة مثلاً لأحد مأجوريها، بين الحين والآخر، لاختلاف مناقشة واسعة حـول: «هل العـرب يؤلفـون شعباً»؟ وتمـلأ صحفها بالمصـادر «والبراهين والأدلة العلميـة القاطعة!» على أن هـذه الشعوب المسمـاة عربية ليسـت عربية! ولم يكـن مـن الطبيعـي أن نجلس مكتوفـي الأيـدي أمام مثـل هذه الأسئلـة، ودخلنا معركة طويلـة مع أصحاب هـذا «الفكـر». أورد ذلك فقط على سبيـل المثال. ثم إننـا نحـارب التثقيف الرسمـي للشبـاب اليهود بروح الشوفينيـة والغطرسة القومية والتفـوق العرقي وتزييف التاريخ، سواء كان ذلك في برامج التعليم أوالصحف أو الأدب والفكر.

وفـي الميـدان الأدبي، دخلنـا عدة معـارك حول الالتـزام في الأدب، ومـا هو الأدب؟ وهـل هو للحياة أم لذاتـه؟ وغيرهـا من المواضيـع التي أشغلـت حياتنا

الأدبيـة، بشكل ملح، ذات يـوم. ثم إن لا بد من دخول معركـة حول قضيـة كانت قضية الساعـة: قضية الشعر الحديـث، وغيرها من المناقشـات الدائرة حول قضايا الفن والأدب، والروايات العربية الرخيصة التي أغرقت المكتبات.

أمـا محاربة السلطـة لشعري وشعـر زملائي فقد كانت السلطة، في البدايـة، تجهد لجعلها غير مرئية، بـكل ثقلها، خاصـة أن السلطـة تحرص كثيـراً على مباهاة العالم «بواحة الديمقراطية في صحراء الشرق»! «اكتـب ما تشـاء وادفع الثمـن الذي نشـاء» هذا هو الشعار الغير مكتوب. ولكن، ما هو الثمن؟ لن تعمل، لـن تمارس حرية التجول، ولن تتـرك طليقاً، وستبقى عرضـة للاعتقال. فـإن أنظمـة الطـوارىء الانتدابية التي لا تزال سارية المفعـول، تتيح للسلطة العسكرية ممارسة كافة الإجراءات ضد أي مواطن وهي في حلّ تـام من تبيين الأسباب أو تقديمـه للمحاكمة. وهكذا أصـدرت السلطـة العسكرية أوامر الإقامـة الإجبارية ضد الشعـراء العـرب التقدميين بدون استثنـاء. وأنا، مثـلاً، لا أستطيـع مغـادرة حيفا منـذ أربـع سنوات. وسميح القاسم أمـر بملازمة بيته منذ غروب الشمس حتـى شروقها لمـدة ثلاثة أشهر متتاليـة. وتوفيق زياد وسالـم جبران محددا الإقامة فـي منطقة الجليل. ثم،

هنالـك المراقبة العسكرية على طبـع دواوين الشعر: لا يستطيـع الشاعـر أو صاحب المطبعـة أن يطبع أية مجموعة شعرية إلا بعد أن تجيزها المراقبة العسكرية. ومـن الواضـح أن الرقيب لا يرضـى أن يكون عاطلاً عن العمـل أو كسولاً! ثم، هناك الفصل من العمل إذا كنت موظفـاً: عيسى لوباني وسميح القاسم وغيرهما طـردوا من جهاز التعليم. ثم، هنـاك السجن، رغم أن السلطـة لم تجـرؤ، حتى الآن، ولمتطلبـات الدعاية، علـى محاكمة شاعر لأنه كتـب قصيدة، وقد حاولت تقديمي إلى المحاكمة في عام 1961 على قصيدة عن غـزة، واستدعيت للتحقيق وقُدمت لـي لائحة اتهام، ونشرت الصحـف أن العقوبة ستبلـغ خمس سنوات سجن، ولم أُحاكم حتى الآن. ولكني حوكمت لأنني سافرت إلى القدس لإلقـاء قصيدة. وسجنت شهرين. وأذكـر أني في عـام 1961 وجدت نفسـي في غرفة التوقيـف لمدة عشـرة أيام دون تهمـة ودون تحقيق. وفي حرب حزيران اعتقلت مرة أخرى.

ولكـن السلطـة لا تكتفـي باتخـاذ الإجـراءات المباشـرة ضد الشاعـر، إنها تمارس المعركة النفسية عـن طريق الصحـف، فحين أحظـى بإشـارة صحفية فـي صحيفـة حكومية أجـد نفسي من خلالهـا شبيهاً بالوحش. فليست معركتي إلا معركة عنصرية... أعاني

مركبات الحقد وكراهية اليهود وغيرها من الألقاب! وإني أتصدى لهذه الصورة بأعصاب باردة، بالتمييز بين السلطة الصهيونية وبين اليهود. أذكر أن صحيفة «دافار»، مثلاً، وصفت قصيدة لي عن الحرب بأنها «طعن لأفضل ما لدى الشعب اليهودي من قيم»، فقلت لـ «دافار»: إنكم أنتم الذين تشتمون شعبكم، فأنا أحتج على العدوان والقتل والتدمير والتنفس من رئات الآخرين، فتقولون لي: «إنك تطعن أفضل ما لدى الشعب اليهودي من قيم».

ومن المفيد أن نعلم أن التحريض على شعرنا ليس من اختصاص الصحفيين فقط، وأذكر أن نائب وزير الدفاع السابق شمعون بيرس حين أراد البرهة على ضرورة بقاء الحكم العسكري على العرب لم يجد إلا شعرنا سبباً كافياً لاستمرار هذا الحكم.

حزيران . الدماء و الدروس

- حرب حزيران... كيف واجهت وطأتها؟ تأثيرها في حياتك، وموقفك والطابع الذي اتخذه شعرك في تلك الفترة المريرة، وبعدها.

أدبياً، لم تخلق تأثيراً مفاجئاً، ولم تقلب أفكاري رأساً على عقب، ولم تحطم قيمي كما فعلت، ومن

الخير أنها فعلت، بالكثيرين من الشعراء العرب خارج بلادي. لـم أكن جالساً في برج حمـام لكي تقنعني، بمثل هـذا الدليل الفـادح، على ضـرورة النزول إلى الشـارع. ولكنها كانت مكاشفة جارحة. وأضافت، لمن لم يصدق حتى ذلـك الحين، برهاناً جديداً على ضرورة ممارسة العمل والفكـر الثوريين الحقيقيين، وعلى أن الأدب ليس سلعة أو متعة. وهذا ما كنا نؤمن به، حتى النخاع، قـولاً وعملاً، وما زلنا بعد حزيران أشـد إيماناً. ومـن الضروري أن يستفيـد منها أولئك الذيـن سـودوا أطناناً مـن الورق ضد التـزام الأديب بقضيـة، وضد تسلـح الأديب بفكر ثـوري حقيقي. ومـن الموجـع حقـاً أن يحتـاج أديب إلـى مثل هذه الكارثـة لاكتشاف ما يشبـه البديهيـات. وأذكر أني قلت لفـدوى طوقان، فـي لحظات لقائنـا الأول في حيفا: هل ترين يا فدوى أن شهراً واحداً من الاحتلال قد حل، عندك، كل المناقشات الطويلة حول الشعر؟ مشيـراً إلى الإنعطـاف الواضح في شعـر فدوى بعد احتـلال نابلس. وقلت لها، بكثير مـن الوجع، «آمل أن يستفيـد الجميع مما حـدث، لئلا يأتي نزار قباني، مثلاً، لزيارتنا»!

مـن الواضـح، أن أحداً لا يحـاول التخفيف من قبضة الذهـول، وتفتّح الجراح الجديـدة، والجراح

القديمة التي تحفر مرتين أو ثلاث مرات. وأنا شخصياً، وأنا قابع في السجن، تعطلت أعصابي. وبعد خروجي لم أجرؤ على القيام بمحاوبة الكتابة، لأن التشنج والرؤية الغارقة في الدم والحروق لم تتح لي بلورة المدخل الذي سأنفذ منه إلى مثل هذا الموضوع المهلك. والصعوبة الفنية في مثل هذه المواضيع هي العثور على فتحة ضيقة تتمكن من السيطرة عليها والتطلع إلى ساحة الموضوع وآفاقها. ويبدو أن سخونة الوجدان الزائدة عن الحد المعقول تفسد العملية الإبداعية بقدر ما تفسدها برودة العقل الزائدة عن الحد المعقول. بعد شهور وجدت نفسي أكتب بهدوء ظاهري هذه القصائد التي يحتويها ديوان «آخر الليل». وقد سهَّل علي العملية، إلى حد ما، إدراكي أنه لم يتبق لي شيء... إلا العقيدة والكلمة. فلماذا تسقطان؟ وهما وسيلتاي للصداقة مع الحياة، والتعويض الباقي.

لقد استطعت في هذه القصائد، وأقول ذلك بنبرة فخر، أن أنقذ إنسانيتي من الموت، في تلك الفترة العنيفة التي هددت إنسانية الإنسان بأفدح الأخطار. عندما انفجر الحلم، وجدت نفسي أني ما زلت متشبثاً بأنبل تراث: إنسانيتي.

شعر المقاومة:
احتجاج وتغيير

- إن شعرك وشعر زملائك يعتبر جزءاً من شعر المقاومة العربي والعالمي حدثنا عن مفهومك أنت لشعر المقاومة؟

– شعر المقاومة، كما أفهمه، تعبير عن رفض الأمر الواقع... معبأ بإحساس ووعي عميقين بلا معقولية استمرار هذا الواقع وبضرورة تغييره والإيمان بإمكانية التغيير. قد يبدأ هذا الشعر، غالباً، بالتعبير عن الألم والظلم، ثم الاحتجاج والغضب والرفض. ولكن لكي يفعل هذا الشعر مفعوله عليه أن يكون عملية للتغيير فيتسلح بنظرية ثورية ذات محتوى اجتماعي، وهكذا يجد نفسه شعراً جماهيرياً. إن شعر المقاومة، بطبيعته. شعر ثوري. وكون هذا الشعر جماهيرياً قد يهلك أشباه الشعراء فنياً. عندما تصبح النية الطيبة والمباشرة والخطابة الرنانة هي العناصر الأساسية في شعرهم. إن «اللعبة» الفنية في شعر المقاومة تصبح أكثر انفضاحاً. وعلى الشاعر أن يتداخل مع الواقع وينسق بكلمات متحررة من الهجاء والخطابة المباشرين. وأرى أن من أنقى ميزات شعر المقاومة، عادة، الصفاء الإنساني الشامل، فصرخة الإنسان المضطهد المقاوم في أي مكان هي صرخة إنسانية تخص كل إنسان، والظلم

والسجـن والقتـل والاضطهاد وقائع معاديـة للإنسانية غير منحصرة في حدود جغرافية، ومقاومة الإنسان لها هـي عملية إنسانية نبيلة. ويتمتع شعـر المقاومة، عادة، بحساسيـة شديـدة بالتاريخ كجزء مـن تمسكه بجذور عميقـة تعينه علـى الصمود وعلـى تبرير هـذا الصمود واحتقار هذا الظلم الطارئ أمام جبروت التاريخ.

وأنـا أعتبر نفسي امتداداً نحيلاً. بملامح فلسطينية، لتراث شعراء الاحتجاج والمقاومة ابتداء من الصعاليك حتى حكمت ولوركا وأراغون الذين هضمت تجاربهم في الشعر والحياة ، وأمدوني بوقود معنوي ضخم.

عن الرمز و الشجر

- فـي شعـرك كثير مـن الرمز، وذكـر لأشياء الطبيعيـة «الزيتون والبرتقـال والتراب» لها عدة أبعاد رمزية وإيحاءات... يقال: إن هذه الوسائـل الرمزية «تبعـد» الشاعـر الواقعي عـن واقعيته... ما رأيك فـي هذا، من خلال تجربتك الشعرية نفسها؟

– أشياء الطبيعة هذه، هـي التي غالباً ما تتحول إلى الرمز عندي، فالبرتقال والزيتـون، مثلاً، هما من أقوى معالم الطبيعة في بلادي، ولكنهما ليسا طبيعة مجردة – وبالمناسبـة، أنا لا أتحمس لشعر الطبيعة الوصفي الذي

يمجـد الطبيعة على اعتبـار أنها لوحة جميلـة. إن هذه الطبيعـة تستمـد حيويتها ومدلولهـا وقيمتها من خلال تعامل الإنسان معهـا، إن اهتمامـي بالبرتقال والزيتون مستوحى من واقع الإنسان الذي غرس هاتين الشجرتين وسقاهمـا بالعـرق والأمل منتظراً ثمار مـا أعطى. هذه العلاقـة بين الـزارع والشجرة تحمل مدلـول استمرار الحيـاه والأمـل والوطنيـة والتلقائية. ولكـن، وبشكل مأساوي، فصمت هـذه العلاقة بعسف وبكثير من الدم الـذي لم يعد يبرر لي المحافظة على حرفية لون الشجر مثـلاً، بعد أن اختلطت أوراقهـا الخضراء باحمرار الدم وسـواد الليل. والمـزارع لاقى أحد ثلاثـة مصائر: إما المـوت عنـد الشجرة، وإمـا الهجـرة الإجبارية عنها، فالتصقـت بذاكرتـه وأصبحت رمـزاً للوطـن وانتظار العـودة، وإمـا بقي أمامهـا دون أن يملـك القدرة على احتضانها واستمـرار العلاقة بها، فتحولت لديه إلى نبع مـن الظمأ أو إلى امرأة تسبى أمـام عينيه. هكذا، لم يبق مـن الشجـرة إلا مدلولاتهـا، أي أن الواقـع تحول إلى رمز أو إيحاء. هـذا الرمز أيضاً ليس جامداً... ليس أمراً مفروغـاً منه، إنه يتحـرك مع تطور قضية هـذا الإنسان بمـا يفرزه هذا التطور من حـالات نفسية. ولكن الرمز الذي يحافظ على «حقيقتـه» في كل حركات الزيتون، في نهاية المطاف، هو التشبث في التراب والقدرة على مواجهة الزمن وطول النفس والخضرة الدائمة أخيراً.

من الواضح، أن هذه الصورة لم تأخذ أبعادها الحالية عندي من أول الطريق. وقد توصلت إليها بعد إحساس بضرورة التخلص من تفصيل الصورة الشعرية، والاكتفاء بما يشبه الرمز للتدليل على الواقع الحسي دون الاستغناء عنه كلياً. الرمز عندي، كما أراه ليس مبهماً. إنه يكتشف بسرعة، وهو في أول الأمر وآخره بديل للتعبير المباشر.

هنالك تبرير آخر، لعله قادر على إعطاء جواب آخر على عضوية الترابط بين الصيغة والموضوع. كان من دوافع لجوئي إلى الرمز، في البداية، محاولة تخطي الواقع الذي لا يتيح لي إمكانية الحديث بشكل مباشر، لأسباب سياسية فكان لا بد لي من ممارسة «الاحتيال» الفني لعكس واقعي. وهكذا ترون أن الرمز كان ضرورة وحاجة ثم تحولت إلى طريقة تعبير.

لماذا الرمز وأنا واقعي؟ لعل ما قلته عن توصلي إلى الرمز يعطي الجواب، ثم إن استخدامي الرمز جاء لإغناء واقعيتي ولخدمتها. والواقعية، كما أفهمها، هي طريقة في فهم الحياة وعكسها وإعادة خلقها، وليست وسيلة تعبير ميكانيكي جاهز، ولذلك، لا أرى تناقضاً بين التزامي بقضية وعقيدة وبين سعيي إلى ما يبدو لي أن طريقتي الذاتية في التعبير.

- في شعرك ملامح من الأساطير والحكايات الشعبية... ما هي الأساطير والحكايات التي أثرت بك؟

هذه الملامح ليست ساطعة في شعري. وإذا كنت ألجأ أحياناً إلى الأساطير فليس ذلك لإعادة خلقها، وإنما كنت أحاول «اختطاف» الرمز منها عندما يكون هذا الرمز صالحاً لخدمة موضوعي والتوافق مع ذاتيتي، أي عندما أشعر بالتشابه بين إيحاء ذلك الرمز والإيحاء الذي أريده.

كنت مولعاً بشكل خاص بالأساطير اليونانية وبقصص القرآن والتوراة. وقرأت، بشغف حكايات ألف ليلة وليلة.

عن الشكل الجديد للشعر والإلقاء أمام الجماهير

- كيف يتم التوفيق، عملياً، بين الشكل الجديد للشعر وبين الضرورة التي تواجهونها باستمرار لإلقاء الشعر بين الجماهير العربية داخل إسرائيل؟.. حدثنا عن تجاربكم في هذا المجال؟

بودي القول إن مهرجان الشعر العربي في إسرائيل قد تحولت، ذات مرة، إلى احتفالات شعبية ينتظر الناس مواسمها، وأنا أذكر تلك الفترة بفرح حقيقي. كانت

ساحـة القريـة أو المدينة أو دار السينمـا تزدحم بالناس من جميع الفئات والأعمار للاستماع إلى الشعر بحيوية وتجاوب واضـح، حتى ضاقت السلطـات ذرعاً بهذه الظاهرة «الخطرة» وقاومتها بمختلف الوسائل ولجأت أخيراً إلى منع الشعراء من الإنتقال من أمكنة سكناهم.

لم يكـن المستمعون يفكرون ببنـاء القصيدة بقدر اهتمامهم بما تحملة من الصور والمعاني والإيحاءات. وأذكـر أن القصيدة الأولى المنتمية إلـى الشعر الجديد التـي سمعتها في مهرجـان شعري كانـت للشاعر حنا أبو حنا، وقـد استقبلت بحماس منقطع النظير لرشاقتها الفنيـة وبساطتها العميقة ومحتواهـا الثوري. إن أنصار «الشعـر القديـم» فـي بلادنا متشـددون حيـن تكون القصيـدة مطبوعـة، ومتساهلـون أشـد التساهل حين تكون مسموعـة. وهذا يؤكد لـي أن إحدى صعوبات الشعـر الجديد، بالنسبة لكثيرين مـن القراء، هي طريقة قراءتـه المتعسرة، فلا يعرفون متى تبـدأ الفقرة الجديدة ومتـى تنتهي الصـورة الأولـى لتلحقها الصـورة الثانية وهكـذا... وبالنسبة لي، فوجئـت ذات يوم حين أصر المستمعون على الاستماع إلى قصائد مكتوبة بالطريقة الجديدة. وأذكـر أني حين القيـت، لأول مرة، قصيدة غامـرت في بنائهـا الجديد هي «بطاقـة هوية» أجبرت على إلقائها أربـع مرات متتالية. ونتيجة تجارب عديدة

أدركت أن القصيدة الإنسانية، مهما كان بناؤها، يمكن أن تلقى أمام الجماهير، دون أي حرج. ثم إن القصيدة الطنانة الرنانة تخلق جواً ضوضائياً، بينما القصيدة الجديدة تنشر، بسرعة غريبة، جواً من الذهول الذي يحبه الشاعر في مستمعيه. ولا أقول إن كل المستمعين يفهمون، دفعة واحدة، كل ما في القصيدة، ولكنهم يعيشون جوها ويفكرون بها. وأعتقد أن على الشعراء الجدد، لكي يعززوا مكانة الشعر الجديد، أن يزيدوا من إلقاء الشعر للجماهير لكي تعتاد عليه وتتحرر آذانها من النبرة الضخمة القديمة التي اعتادت عليها و توارثتها جيلاً بعد جيل.

التيار التقدمي هو الحاسم بين الكتّاب والشعراء العرب

- حدثنا عن أوضاع و تيارات الحركة الفكرية والأدبية للكتّاب العرب داخل إسرائيل... وهل يوجد من باع نفسه للشيطان وراح يروِّج للمفاهيم التي تخدم السلطات؟

– أستطيع أن أقطع، بسهولة وبسرعة، بأن التيار التقدمي هو التيار الحاسم في حركتنا الثقافية. ومن دلائل هذه الظاهرة هو أن التيار الآخر لا يملك الجرأة الفكرية على مواجهتنا. إن التيار الرجعي عديم النفوذ، وقد

شاءت الصدفة المدهشة أن تكون العناصر الرجعية فقيرة المواهب. لنأخذ الشعر، مثلاً، وهو وجه الأدب العربي في إسرائيل. إن كل الشعراء المعروفين والموهوبين، وبدون استثناء، ليسوا تقدميين فحسب، ولكنهم ينتمون إلى الحزب الشيوعي. إن المعركة عندنا تدور بين الشعراء التقدميين والسلطة المباشرة، والعكاكيز الثقافية التي حاولت السلطة الاعتماد عليها كانت أضعف من أية مواجهة. فنجمت عن هذه الحقيقة ظاهرة جديدة هي ظاهرة الصمت. إننا نجد فئة من الموهوبين تعاني أزمة فكرية ونفسية لوقوفها أمام أحد اختيارين: إما الكتابة، والكتابة عندنا يشقّ عليها الانفلات من الواقع الخشن، وإما الاحتفاظ بلقمة العيش والسلامة. وقد اختارت هذه الفئة الاختيار الثاني، فصمت البعض صمتاً تاماً، وتحفظ البعض من المواجهة.

أما العناصر الرجعية فإنها تسعى إلى ترويج فكرة عدم جدوى الأدب الواقعي، وإشاعة اليأس والتشكيك. ولكن منابر هذه العناصر تهاوت، فإن كل المجلات الثقافية الحكومية المدعومة بميزانيات ضخمة قد اضطرت إلى الاحتجاب، لا بسبب إفلاسها المالي وإنما بسبب إفلاسها الفكري وعجزها عن كسب الأنصار من الكتّاب والقراء. إن هذه الظاهرة. ظاهرة فشل المجلات الحكومية تثبت قوة نفوذ التيار التقدمي

في أدبنا الإنساني المعبر عن مشاعر الجماهير وتطلعها إلى حياة أفضل متحرراً من الشوفينية ومن العدمية القومية. ومن أشد الأدلة على ذلك أن صحفنا الشيوعية «الاتحاد» و«الجديد» و«الغد» ذات الموارد المالية الفقيرة تتمتع بتأييد القراء وعطفهم.

• ما هو الشعر، بالنسبة لك؟

– بصراحة: لا أعرف بالضبط!

• هل تقرأ كثيراً؟ ماذا تحب أن تقرأ بشكل خاص؟.. ولماذا؟

– في السنوات الأخيرة صارت قراءتي خاضعة لبعض التنظيم، فأنا أولي الدراسات النظرية والفكرية والسياسية المتعلقة بقضايا الحركة الثورية وهموم العصر المرتبة الأولى من الاختيار لأتمكن من شحذ سلاحي الثقافي ومعرفة العالم الذي أعيش فيه وإيجاد مبرر لكفاح الانسان. ولعل اهتمامي الخاص بالدراسات السياسية والتاريخية ناجم أيضاً عن طبيعة عملي الصحفي.

وفي الميدان الأدبي أحاول الموازنة بين حاجتين ماستين: دراسة الآداب القديمة وقمم الكلاسيك العالمي، وملاحقة التيارات الأدبية والفنية المعاصرة في العالم. وأنا مولع بمطالعة السير الذاتية لأنها تحتوي

على الفائدة والمتعة والكشف عن خبايا النفس. ولعلي أَحتار بين إيثاري للشعر أم المسرح، لأني مفتون بكل ما يتعلق بالمسرح وبالمناسبة، لا أرى الأفلام السينمائية ولا أقرأ عنها رغم ما أتعرض له من نقد الأصدقاء وسخريتهم، وأعتبر نفسي جاهلاً في هذا الموضوع. وأحب أن أكون حريصاً على مواكبة الأدب العربي الحديث والأدب العبري الحديث.

- هل لك تجارب، غير الشعر، في العمل الإبداعي؟.. رواية... قصة... مسرحية. أي شيء... حدثنا عن هذه التجارب سواء نشرت أشياء منها أم لم تنشر؟

– لم أحاول كتابة القصة أو الرواية، ولا يبدو لي أني سأحاول رغم شغفي الشديد بقراءتهما. ولكنني مشبع بالرغبة في محاولة كتابة مسرحية شعرية.

أحب كتابة الأدب الصحفي، والريبورتاج، وتسجيل انطباعات عن الكتب والأحداث والأمكنة، وقد كتبت مئات المقالات من هذا النوع. ولكنني في السنة الأخيرة لا أكتب إلا المقال السياسي أو التعليق، وأتمتع بكتابة الأخبار السياسية.

- ماذا تكتب الآن؟ وما هي مشروعاتك؟

– أكتب، في هذه الفترة، عن الحب الذي يولد

وسط قضية، فيحمل ملامحهـا وهمومها ويصبح جزءاً لا يتجـزأ منها. أريد أن أكسر الحائـط الذي يفصل بين العاشقين وبين الشـارع. فالعاشقان ليسا عاشقين فقط، ولكنهمـا ضحية واحـدة وأمل واحد وكفـاح واحد. لقـد تحدثنا كثيراً عن التحـام الخاص بالعام، لكن هذه الظاهرة أصبحت تأخـذ شكلاً تلقائياً عندي خاصة في الأغاني التي أكتبها الآن. إن طعم العلاقات بين العاشقين يحمل مذاق الواقع الخشن.

- أي دور تطمح أن تؤديه، في الشعر، وبواسطة الشعر؟

— ... أن أنقـل قضيـة شعبـي، بـكل أبعادها، إلى الصفحـات التي تستحقها في ديـوان الشعر الإنساني، فهذه القضية حلقة من صراع الإنسان المسحوق ليأخذ دوره الذي يستحق في الحياة وفي نشاط البشرية.

ومـن الظلـم أن أطالب غيـري بتأدية هـذا الدور. ومهمـا يكن حجم الآلة التي أعـزف عليها صغيراً، فإن لها مكانها في النشيد الإنساني الشامل.

إن أصـوات الشعـراء القادمـة مـن أنحـاء العالم، مجتمعـة، هي التي تؤلف هـذا النشيد. وتمسكي بهذه الآلـة الفلسطينيـة لا يتنافى مع وعيـي لشمولية الكفاح الإنساني. ومجموعة الأشجار هي التي تصنع الغابة!

القضية وشعر القضية [1]
في حديث شخصي

• قضيت في موسكو وبقية مدن الاتحاد السوفياتي 15 يوماً مليئة ورائعة. وكان أبلغ تلك الأيام في نفسي هو اليوم الذي احتشد فيه القلب كله بكل مشاعر البشر والوطن حيث التقيت محمود درويش شاعر المقاومة الفلسطينية. ذلك اللقاء الحزين المديد، والذي شحن بأحاسيس ابن الوطن المقهور الغريب في وطنه المحتل، بأحاسيس ابن المنفى المعذب بالمهاجر الغريبة عبر اثنين وعشرين سنة سوداء.

(1) نص الحديث الذي أجراه أحمد سعيد محمدية مع الشاعر في موسكو، وقد نشرته مجلة «الهدف».

من حيفا جاء

مـن حيفا حيـث يسكن جاء محمـود درويش. سلم أمانة مجلة «الجديد» التي يرأس تحريرها إلى زميله سميح القاسم، وتـرك حيفا بعد مماطلة السلطـات الإسرائيلية، وبعـد أن كانت قـد مارست عليـه كل أنـواع العذابات النفسيـة والفكرية والجسدية، لعـل أقلها عدم السماح له بمغـادرة حيفا وعدم السماح له بالخروج من بيته إذا جاء الليل، وضرورة إثبات وجوده في المخفر كل ساعة.

قرر محمـود أن يستقيـم في موسكو سنـة وبضعة شهـور، ورأى ألا تكـون هـذه الفتـرة فتـرة راحة من المطاردة والملاحقة الصهيونية الفاشية يومياً وحسب، وإنمـا فترة إعداد ثقافي وفتـرة مراجعة وجدانية، وفترة محاسبـة فنية، ولذلك أختـار أن يحصِّل الآن – وكجزء مـن فترة إعـداد الـذات – دروساً في العلـوم التاريخية والاجتماعيـة يرسـخ بهـا من طـرف رؤيـاه العقائدية المتمثلة بالمنهج الاشتراكي العلمي، ذلك المنهج الذي اختاره أسلوباً لنضاله السياسي والاجتماعي.

وكان ثمـة موعـد بيني وبيـن محمود كـي ألتقيه، وكان مـن المستحيل أن يكون اللقـاء فوق أرض عربية فـإن الحقيقة الجارحة هي أن مواطني فلسطين المحتلة يحملـون جوازات سفر إسرائيليـة، ولم يكن ثمة مكان

أنسب وأقرب من موسكو له ولي، فجئته وأنا أحمل إليه أشواق المنافي الفلسطينية كلها، ولهفة الجماهير العربية وحدبها عليه، واحتضان كل القلوب التي آمنت بكلمته المقاتلة، تلك الكلمة الشعرية التي ناضلت وتناضل في ظل أقسى الظروف الإنسانية والسياسية.

كان الموعد الأول بيني وبينه أمام معهد الدراسات الماركسية اللينينيـة بالقرب من الفندق الذي أنزل فيه، وكنـت لا أعرف عن محمود شيئـاً إلا أنه طويل القامة ناحل العود أملس الشعـر أبيض البشرة، وأوصافه هذه أوصاف عامة يتصف بهـا معظم شبان موسكو، لذلك عندمـا أزفـت الساعة الرابعـة هممت بعنـاق أكثر من شاب مـن شبان موسكو، ظناً أننـي أعانق محمود، إلا أن الوقت مضـى ومحمود لم يأت فعـدت إلى غرفتي بالفندق وأنا أتلفت يمنة ويسرة علني أجد وجه محمود بين الوجوه القريبة.

وفي الساعـة الخامسة طرق محمـود باب غرفتي وهلّ عليّ بوجهه الدقيق الصبوح، وبرفقته ذلك الشاب الناحـل الصامت الذي بدأ اسمه يتوهج على أرض الفن الفلسطيني في الوطن المحتل: نبيل عودة.

أخذنا الشـوق المستبد عناقاً ودموعاً ولهفة، عناق الملتاعيـن الذيـن لم يعـرف إلا هم طعم الفـراق ولون

السنيـن العجاف السـود، عناق السجين فـي وطنه مع ابـن الوطن المنفي مـن أرض الوطـن، ودموع الغريب مـع الغريب فـي أرض الغربـة، ولهفة وشـوق الأرض للأرض... الأرض المقهورة مع الأرض المبتورة.

وتصورت نفسي ومحمـود وكأننا نعيش ذروة من ذرى التفاعـل بين الإنسـان والإنسان مـن أبناء الوطن الواحد، وإننـا نمثل في تلك اللحظـة الفارقة، الفاجعة الفلسطينيـة التـي سقطـت علـى عقولنـا وقلوبنا حتى طفحت حياتنا بها وبأحزان البشرية كلها من خلالها.

ورأيـت كأننـا شخوص روايـة أميل حبيبـي الفذة «سداسيـة الأيـام الستة» تلك التي باغتـت الفن العربي المعاصـر بمستواهـا المتفـوق، والتـي أرخـت أدبياً وبإيجاز شديد لنكبة ضياع بقيـة الوطن الفلسطيني في حزيران، والتي تحـرك أبطالها تلك الحركة المسحوبة فـي فلسطينهم المحتلة من النهـر إلى البحر ومن الجبل إلـى الصحـراء ليمثلوا العنـاق بيـن الفلسطيني المحتل والفلسطيني المنفي.

وعـدت إلى محمود لأستطلـع صورته وهو يتكلم بهـدوء وبساطـة، ورأيتـه – ليـس كما ظننـت – رأيته بسيطـاً، في غاية الانفراد، وأنـه ليس مكسواً بأية قسمة من قسمات الغرور.

ظننت من قبل أن العواطف الجماهيرية التي أعطيت لـه وهو ابـن الخامسـة والعشرين بعـد – عمر محمود درويشـ الآن 29 سنـة فهو من مواليـد – 1941 والتي رفعته من قاع النسيان البعيد إلى ذروة الاحتفاء والشهرة سوف تكسبه شيئـاً من الشموخ النفسي المبالغ فيه، أو شيئـاً مـن الإستعلاء الفني، إلا أنه لـم يكن كذلك، كان بسيطاً كفلاح فلسطيني خرج من قرية البروة لتوه، وكان ودوداً وناعم العبارة ومخلصاً في عواطفه للجميع.

وجـد محمود فـي غرفتي شاعـراً فلسطينيـاً أنجز رسالـة الدكتـوراة عـن أدب المقاومـة الفلسطينية من الثلاثينيـات حتى السبعينيات في جامعة موسكو، وكان يعرفه، وبدأ يسأله عن أحواله وعن زوجته الروسية وعن ابنـه مكسيم، وكان الدكتور – شوقي العمري – يجيب ويبدي لهفته وحنينه للوطن.

قـال محمود: «صحيح أن قضيـة الوطن هي قضية كبيـرة، وهي تمثل وجـود الإنسان الفكـري والنفسي والمزاجـي، ولكننـا أحيانـاً نـرى الوطـن فـي الأشياء الصغيـرة، يبدو لي أن العقيدة القوميـة التي تمثل رؤيانا للوطن تتوزع فـوق مساحة كبيرة خارقة الإتساع، تبدأ مـن أعلى قمـة يستطيع العقـل البشري الوصـول إليها تحليلاً وتعليلاً وتنتهي عند البسائط من الأمور.

وأمسك محمود درويش بمجموعة من الكتب التي أحضرتها لـه من بيروت، ومن بينهـا مجموعة دواوينه الستـة التـي طبعتها «دار العـودة» وهزه هـذا الاحتفاء الفنـي المتجسـد بالدواوين وخاصـة المجلد الكبير الـذي يجمع شعره كلـه، وبدأ يمسـك كل ديوان على حـدة بلهفة وكأنه أب يأخذ بين يديـه طفلاً من أطفاله، وبدأ يتطلع في قصائد كل ديوان على حدة، وكأنه يتطلع في مرآة نفسه ليرى صورة هذه النفس.

وارتفع صوته ليقـرأ لنفسه شيئاً من ديوانه «حبيبتي تنهض من نومها»، «آت إلى ظل عينيك»:

أنا آت إلى ظل عينيك... آتٍ
من غبار الأكاذيب... آت
من قشور الأساطير آت
أنت لي. أنت حزني وأنت الفرح
أنت جرحي وقوس قزح
أنت قيدي وحريتي
أنت طيني وأسطورتي
أنت لي. أنت لي... بجراحك
كل جرح حديقه!
أنت لي. أنت لي... بنواحك

كل صوت حقيقه.
أنت شمسي التي تنطفىء
أنت ليلي الذي يشتعل
أنت موتي، وأنت حياتي
وسآتي إلى ظل عينيك... آت!

كان صوته عميقـاً يخرج من أغـوار معذبة بعيدة، وكان فيه حنين العاشق.

الأرض حبيبتي

● قلـت: لم توقفـت عن الغـزل... عندمـا قرأنا محاولتـك الأولـى المتمثلة في «عصافيـر بلا أجنحة» تصورناك شاعراً يجب أن يحتل موقع أمير الغزل العربي عمـر بن أبي ربيعـة، أو أن يكون له طمـوح نزار قباني في الدخول تحت ثوب المرأة وداخل صدرها وتحليل مشاعرها؟

– كل ما أكتبه الآن غزل... إنما مفهوم الغزل اتسع وتعمق فأصبـح يشمل كل ما في الحيـاة... إن حبيبتي هي الأرض وأنا أتغزل بها... بالوطن والإنسان والقيم.

● ولكن شـكل الغزل يتوجه إلى امـرأة أحياناً... أليس كذلك؟

– إن المرأة تجسيد لكل المعاني التي ذكرت، ولا يمكن فصل صورة الأرض عن صورة المرأة... أليست الأرض هي الأم وهي المعشوقة؟

● ولكنني أرى أن عشقك الوطني مقترن بالفعل بعشق لامرأة، وإلا ما معنى تريدك لاسم «ريتا»... لقد ذكرت «ريتا» عدة مرات في قصائدك الأخيرة؟

ضحك ضحكة فيها طيبة القرويين، وأراد أن يقول شيئاً ولم يقل، وأحسست أنه أخفى قصته ولكنه عاد ليقول:

– انها إنسانة... ليست محددة.

وسألني عن آخر أحداث الوطن العربي، ماذا يجري الآن فيه، وعندما سألني كان يهرب من حالة فاستجبت معه، وقلت مما ترى وتسمع، لقد دب اليأس في قلوب المثقفين العرب، ولولا الفتيل الذي أشعله الشعب الفلسطيني بعد حزيران لكان اليأس قد امتد إلى الجماهير.

تفاؤل تاريخي

● قلت: كيف تبدو متفائلاً باستمرار وسط هذه المحنة؟

– إن تفاؤلي ليس تفاؤلاً بروح المرحلة الراهنة...

تفاؤلـي تاريخي ... إنني مؤمـن أن حركة التاريخ لا بد أن تتجـه في مسارها الطبيعـي، ولا بد بالتالي أن توضع الأشياء في مواقعها.

● كلامك عن الأمة العربية شبيه بكلام المستشرق جاك بيرك ولكن تفاؤل بيرك حضاري.

– إن حركة التاريخ التصاعدية هي حركة حضارية، وأعتقد أنه لا فرق بين ما يقول وما قلت.

● صوتـك المتفائل يبدو فريـداً أو يكاد... كيف يأتـي صوتك بعـد هزيمة حزيـران ليقـول أن العاصفة وعدتني بخمر ونبيذ كثير، والأمة العربية أقدامها تغوص في الرماد والوحل والدم والدموع؟

– صوتي ليس فريداً، وإنما هو نغم واحد من جوقة الشعـراء العرب المناضلين، هـذا بغض النظر عن بعض التفاصيل والملاحظات.

وأَكمَل:

«كوني موجود في صميـم لحم الوطن قد حررني وحـرر زملائـي أيضاً ممـا يسمى الوقوف طويـلاً أمام موضة القلـق العصـري، والمناقشـات الديوانية حول الشعر ورسالته. نحن نكتـب الشعر، وليس مهماً كثيراً أن نعرف لماذا وكيف نكتب... إننا نصرخ وننزف...

وليس لدينا وقت للسقوط أو الانكسار أو الانهزام النفسي... إننا نخوض المعركة. إن لم نتسلح بتفاؤل تاريخي وبحوافز تشد العضد في معركة التحدي فكيف نمضي؟ إننا نعيش في المعركة لحظة تلو لحظة، وتكاد ألا تمضي دقيقة من عمرنا إلا ونحس أننا أمام التحديات الكبرى المستمرة، إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى... لأننا نقاوم ترجمة الوطن كله إلى العبرية لغة، وإلى الصهيونية أرضاً وتقاليداً وزاداً.

اختلف هنا وجه محمود درويش الرقيق وبدت تقاطيعه حاسمة وقاطعة، وأربد الدم في وجهه حتى تصورته حقيقة في لحظة التحدي المستمرة.

تحديات

● قلت، وأنا أحاول أن أسحب من قلبه مزيداً من شعاع الأمل لنا نحن الذين نكاد نسير بلا طريق: ما هو أهم ما يواجهك في معركتك من تحديات؟

قال بسرعة:

– التحدي الأول والأساسي هو أن أبرهن لنفسي، ولنفسي أولاً هل هذا هو وطني أم لا...

كل يوم أواجه تحدي الإيقاع بيني وبين وطني.

إنني أنظر فـي كل شجرة وحجر وشارع ولغة ونغم فلا أجد نفسي... لا أجـد ماضي، لا أجد شعبي، ولا أجد وجهي، ولا أجد يدي وأحياناً لا أجد لساني.

فمـن أنا... إن البلاد بـلادي، ولكن الواقع يحاول إقناعي بأن هذه الحقيقة تنتمي إلى الماضي، والمستقبل الآن مليء بالوعود.

أنـا الآن واقـف في هـذه الدوامـة، دوامـة أصالة الماضي، وطـراوة الجرح وحاضـر السكين، والعنف والتحدي واللا منطق.

إن العالـم يمتحن علـى الأرضـ الفلسطينية القيم. أو مـا اصطلحنا علـى تسميته قيماً في مـا يتعلق بالحق والمنطق.

● إن ما أنت فيه حالة قلق يا محمود؟ أنا أعرف ماذا تريـد أن تقول؟ ولكن أظـن أن الأمر في قلبك قد حسم رغم هذا الواقع الذي ترى فيه حيفا وبقية فلسطين؟

التحـدي هنا ليس سهـلاً... ليس سهـلاً كما يبدو للوهلـة الأولى... إنه فـي منتهى القسـوة... أن تكون حبيبتـك خنجـراً ليس سهلاً، وأن تختـار الخلاص من الخنجر فستكون بلا وطن ولا هوية ولا إنسانية.

وصمـت محمود قليـلاً كأنه يستبطـن نفسه ليرى

صورة الجرح الفلسطيني أكثر فأكثر، وعاد يقول ووجهه يتخذ ملامح أكثر صرامة وحدة:

وطني يتخذ الشكل التالي: «إنه سكين يحفر في داخلي فأشعر بالألم واللذة، فأحتار. إذا أردت التحرر من الألم بسحب السكين من لحمي فسأفقد اللذة، وإذا حافظت على اللذة فسأرضى بالألم... وهكذا يتزاوج الألم واللذة تزاوجاً غير عادي، ولكنه حتمي وليس لي منه مفر... وهكذا ترى أن تفاؤلي ليس تفاؤلاً ساذجاً لأننا نعيش حالة تحد تاريخي وحضاري وسياسي وأخلاقي.

في ظل تمثال ماياكوفسكي.

قال محمود: هل نذهب إلى مكان خارج الفندق؟ واستجاب الجميع، الدكتور شوقي ونبيل عودة وأنا.. اتجهنا إلى مطعم في ساحة ماياكوفسكي... حيث ينتصب تمثال الشاعر السوفياتي الكبير. وقفنا إزاء التمثال، وقف محمود يتأمل الوجه المنحوت بإزميل مبدع، والقامة المشدودة على قاعدة برونزية، وبدأ يردد قليلاً من شعر ماياكوفسكي الثوري الذي يتحدث عن الأمل والجرح، وعن المستقبل والجماهير، وعن الثورة التي تجرف كل شيء إلا القيم النبيلة والحب والسلام.

● قلـت: لقد فاتتني فرصة أن ألتقط لك صورة في ظل تمثال ماياكوفسكي... إنه من الرائع أن تنزل صورة شاعر الثورة الفلسطينية مع شاعر الثورة السوفياتية:

احمرَّ وجه محمود بتواضع غريب... وبدا لي كأنه لا يعـرف ماذا يريد أن يقول ليـرد الثناء وهو الذي يشبه نجيب محفوظ في هذه الخصلة... عندما تمتدحه.

– وقال محمود: إنني أحب ماياكوفسكي كثيراً.

● هل تأثرت به؟

– لـم أقرأ كل شعره ولكن الذي قرأته قد وصل من نفسي الأعماق.

● وبمن تأثرت من الشعراء العرب؟

– مـن الصعب أن أقول إنني أبايع أو أنني أعلن ولائي التـام لشاعر عربي واحـد... إنني شديـد الإعجاب بأبي فراس الحمداني من الشعراء القدامى وببدر شاكر السياب مـن المعاصريـن. ويعجبنـي شعـر البياتي وصـلاح عبد الصبور وخليل حاوي ونزار قباني ومعين بسيسو وسعدي يوسـف، ويلفت نظري في المـدة الأخيرة شعر أمل دنقل وشعر فواز عيد وأنا مفتون أيضاً بعبد الرحمن الأبنودي.

● قلت: وأدونيس؟

– لم أقرأه للأسف: وبودي لو أقرأ كثيراً من شعره.

ودخلنا المطعم بعد أن انتظرنا دورنا على الباب مدة نصف ساعة في الصف الطويل مثل بقية أهل موسكو، وعندما اتخذنا مكاناً قصياً ومنفرداً قال الدكتور شوقي العمري:

لماذا هذه الوحدة... ألا يكفي تفردنا بالعذاب والاغتراب... كانت أصوات الأصدقاء السوفيات تأتي إلينا من الموائد القريبة نشوى، وكل مائدة ترفع أصوات أصحابها بغناء روسي موقع... حتى إذا طربت المائدة قام من عليها ليراقصوا بعضهم بعضاً، ولأن النساء في موسكو أكثر عدداً من الرجال فإن الكثيرات من النساء يرقصن مع النساء.

● قلت: موسكو مدينة كبيرة الداخل إليها يضيع فيها... لقد نمت يوماً على الرصيف لأنني لم أعرف كيف أعود للفندق. أنا مثل بقية العرب أحب المدن الصغيرة التي فيها ألفة!

قال محمود والحديث يمضي بنا على من نحب من الأدباء:

– هل نشرب نخب شاعر عزيز على نفسي وأعرفه شخصياً هو صلاح عبد الصبور!

قال ذلـك وأردف: ولكننـا نريد أن نشـرب أيضاً نخـب فلسطيني لا أعرفـه شخصياً ولكننـي أعرف أنه إنسان وأديب رائع... غسان كنفاني.

وقلـت والحديث ما زال يقفـز بنا من موضوع إلى آخر:

وصلنا أنك بصدد الهجرة من حيفا؟

قـال: مكاني حيفـا... أنا مزروع فيهـا ومصلوب أبـدي على خشبتها وأنا بـاقٍ هناك... باقٍ في حيفا في موقعي الصغير... أعمل ما أستطيع من صفحات مجلتنا المتواضعـة «الجديد» ومن جريدتنـا «الاتحاد». ولن أخـرج من حيفـا إلا إذا سدوا كل الثغـرات التي أتنفس منها، وإذا منعوني من العودة[1].

رفاق النضال

● قلـت له: وأنا أقفـز معه إلى رفـاق نضاله الذين يقاومـون العـدو بالكلمـة الصابـرة يوميـاً: حدثنا عن إخوانك الذيـن يقفون معك في خنـدق واحد: سميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وإميل حبيبي؟

---

(1) مـن المعـروف أن السلطـات الإسرائيلية سحبت وثيقـة السفر من محمود درويش، وبالتالي منعته من العودة إلى حيفا.

● سميح هـو صديقي وزميلي منـذ نشأتنا الأدبية إلى درجـة اختلطت فيه الزمالة بالصداقة، فأنا لا أعرف هـل زمالتنا كانت مقدمـة للصداقـة، أم صداقتنا كانت مقدمة الزمالة؟

إن سميـح من أعـز زملائـي، وأعجـب بحماسته الشديدة للشعـر، وإيمانه العميق جـداً بفعالية القصيدة وهو شاعر موهوب جداً ونشيط.

نحن نعيش معاً، ونعمل معاً، ونأكل معاً، ونتخاصم ونتصالـح كأفضل ما يكون الأصدقـاء، ولكننا نادراً ما نتحدث عن الشعر مع بعض.

– إميـل حبيبـي صاحـب أذكى وأعمـق وأجمل قلم لدى عـرب فلسطين المحتلة، ويبـدو لي أنه يعاني ازدواجيـة شخصية، فهو سياسـي محترف وهو هاوي أدب، وهو بارع في الجانبيـن، ولكن الأدب المعاصر سيربح كثيراً لو انعكست الآية أي لو أصبح إميل حبيبي أديبـاً محترفاً، وسياسياً هاوياً، ولكن إميل مع هذا ينجح فـي أن يأخـذ من نشاطـه السياسـي ساعـات للكتابة، أصبحـت وستصبـح ثمينة للغايـة على وجـدان القراء العرب، ولكن المواطن العربي لا يعرف أن إميل حبيبي خطيـب لامـع، إنه فنـان يستولي على مشاعـر العقول والقلوب لدى المستمعين وبشكل نادر.

– توفيق زياد وسالم جبران أقول عنهما ما قلته عن سميح فهما زميلان وصديقان وكل منهما يجهد لإقامة بناء الشعر النضالي المقاوم والمقاتل في أرض الوطن.

وبهـذه المناسبـة أذكر باحتـرام وحـب حقيقتين الصديـق الشاعـر راشد حسين الـذي يعيش في المنفى الأمريكـي... لقـد خسرنـاه وخسـره العالـم العربي كلـه، بصمته فقدنا صوتاً من أصفـى وأبسط الأصوات وأجملهـا، ولكننـي أريـد أن أتفـاءل وأقـول إن صمته سينفجر بعاصفة عنيفة وعالية.

لماذا اخترت الماركسية؟

● قلـت لمحمـود وأنـا أحـس بالتزامـه الشديد وأخلاصه المتناهي للاشتراكية العلمية وسلوكه المماثل مـع إيمانـه الفكري: لمـاذا اخترت الماركسيـة طريقاً نضالياً ورؤيا سياسية.

– الإجابـة على هذا السؤال تحتاج أن أكتب إليك رداً طويلاً.

● قلت: أريد أن أعرف بإيجاز؟

– اخترتها نتيجة دراسة، وبحثاً عن حل أو حلول، لقضايا المجتمـع، وأعتقد أن الماركسيـة هي الفلسفة الوحيدة في عصرنا القادرة على حل قضايا المجتمعات

والصـراع الطبقي وتوفيـر الحرية الحقيقيـة والسعادة الحقيقية للإنسان.

● الناقـد المصري رجـاء النقاش أضـاف فصولاً جديدة في كتابه عنك، وقـال في فصل منها إنك لست ماركسياً خالصاً فشعرك قومي وليس ماركسياً؟

– هذه رؤياه لشعري، ورجاء ناقد ممتاز.

● قلـت: رؤياك الماركسيـة السياسيـة والنضالية وإيمانـك بالمنهـج الاشتراكـي قـد أثر فـي صياغتك وصورك... هل هذا الكلام صحيح؟

– فـي الصياغـة لا أعتقد... إنه تـرك أثراً حاداً في الجوهـر والمضمون، والمنهـج الاشتراكي ليس شكلاً إنه مضمون.

إن المنهـج الاشتراكـي العلمي أعطانـي ما يسمى بالتفاؤل التاريخي، أعطانـي الأسلوب أو المنهج لفهم التطـور الاجتماعي والتاريخي، وأغنـى رؤياي وآفاقي بالأمـل الواعـي، وفسر لي السـؤال الصعـب الموجه باستمـرار لكل البشرية، وهو: ما هو سر تحمل البشرية لـكل هذه الآلام، ومعنى استمرارهـا في السير مصلوبة علـى هذا الصليب الكبيـر؟ أعطاني مشروع حل قضايا الإنسـان المعاصـر، وفسـر لـي أيضاً جوهـر الإنسان الثابت، وأعطاني فهماً آخر للتاريخ.

● قلت وأنا أكرر أمامه ما قلته له قبل قليل: إن صوتك الفريد يجعل المتمزقين يحسون بالأمل والبشرى:

– قال بسرعة وهو يحسم قضية كثر فيها الكلام: إن صوتي ليس فريداً... أقول لك إنه جزء أو استمرار لكل الأصوات الواعية والإنسانية والمناضلة في الشعر العربي في مسيرته القديمة والمعاصرة.

إنك تمزج بين صوتي وبين موقف الناس منه... إن الطابع الخاص بالقضية الفلسطينية وخاصة بعد نكبة حزيران صب كل الاهتمام العربي في هذه القضية مما خلق عطفاً لا حد له، لكل ما يخرج من التربة الفلسطينية... ليس لنتاجي وحده، ولكن لكل نتاج، وبغضّ النظر عن نوعية وجدارة النتاج، وهذا ما يفسر الاهتمام غير العادي بكل ما تنبته هذه التربة.

● متى تكتب قصائدك؟

– ليس في مكان أو زمان محدد... كنت أعتقد أن ساعات الليل المتأخرة هي أفضل الأوقات للشاعر ولكن ليس ذلك إلا ضرباً من ضروب الخيال... القصيدة قد تولد في أي مكان وقد يأتي المخاض في أرذل الأوقات أو أرذل الأمكنة.

● لا أعرف ما هو السؤال الذي وضعته أمامه حتى سمعت صوته يقول لي:

- لا يمكن أن تنظر للشعر العربي أو لشعر أي شاعر من الشعوب كوحدة واحدة. المجتمعات العربية كأي مجتمعات أخرى... غير متجانسة، لكل طبقة شعراؤها الذين يعبـرون عن قضاياها... وهـذا لا يعني أن شعراء البورجوازيـة لا يتبنـون فلسفـة الطبقة العاملـة، ولكننا نحلم كثيراً إذا اعتقدنا أننا نستطيع أن نخلق من المجتمع العربي المتعدد الطبقات صوتاً شعرياً متجانساً.

عندما شربنا نحب الوطن انتفض محمود درويش عـن مقعده وسحـب من جيبـه «الروبـلات»، وأصر بحماسة القـروي الطيب المخلصـ أن يكون مضيفنا في موسكـو، واستجبت له وأنا أنظـر صورته أمامي، وأسمـع صوتـه الهامس القوي فـي أذنـي، وأستذكر معة قصة والده والأرض الطيبـة المسروقة منه، وأرى فيـه مثالاً متميزاً للحب، وأنظر إليـه مجدداً فأرى هذا الحـزن الغريب العميق الذي لا ينتهي، وأراه كأنه حلم أو نغم... وهو كذلك.

وعندما ودعنا بعضنا أحسست بمزيد من محبتي له.

مقابلة أدبية[1]

● فـي مقال لـك شهير بعنـوان «أنقذونـا من هذا الحب القاسي» أدنت محاولات الإطراء والثناء الكاسحة التي قوبل بهـا أدب المقاومة في إسرائيـل، فما كان أثر هذا النداء في النقد العربي وفي أدب المقاومة بالذات؟

– لم أتوقع لندائي مثل هذا الصدى. ولعل لهجتي لا تعبـر عن شكوى إذا قلت لك إن ندائي يعاقب بالشهرة، كنت أحاول، مخلصـاً، حماية شعرنا من مظاهر الحب الحماسـي، فإذا بتعبيـري عن محاولتي يقـع أسيراً لهذا الحب مرة أخرى. أعني... أن ذلك النداء الذي رجوت،

(1) نص الحديث الذي أجرته مجلة «الآداب» مع الشاعر.

مـن خلاله، تحريرنا من الدلال لم يحقـق من أهدافه إلا إعـلان نيتـي الطيبة التي ظنها زملائي مجـرد لعبة ذكاء. وأرجـو ألا يفسر حديثي الآن عن ذلـك الموضوع بأنه رغبـة جديدة مني في تكرار النـداء. لا... سأكون وقحاً لو استقبلت كل مظاهر الحب بالرفض. وسأكون ساذجاً أيضاً لو وقعت أسيـراً في قبضة هذا الحب. وأصارحك القول إنـي أتجنب، بأقصـى ما أوتيت مـن حيلة، إبداء ملاحظاتـي وانطباعاتي حـول الشعر الـذي يكتب في بـلادي. وفي حقيقـة الأمر، لـم يكن ندائـي المذكور موجهـاً إلـى النقاد العـرب وحدهم. لقـد كان موجهاً أيضـاً إلى الذين يكتبون الشعـر في بلادنا، وربما كان – بالإضافة إلى ذلك – نوعاً من الحوار الداخلي مع نفسي. وماذا كانت النتيجة؟ من الصعب أن نتوقع نتيجة لمقال. ولكـن بعض زملائي أصيـب بالدهشة، وقـال البعض: كيف ترفض هدية ثمينـة بمثل هذه الفظاظة؟ ولاحظت من ردود الفعل لدى الأوساط الأدبية العربية التي أتيحت لـي فرصة الإطلاع عليها – وهي قليلة – أن هناك أساساً قويـاً للأفـكار والمبررات التي قـام عليهـا ندائي، وأن شيئـاً يشبه قدسية القضيـة كان يضع الماء في أفواه الذين كانوا يوشكون على إبداء آرائهم بمعركة الحب الدائرة، ولكنهم يخشون أن تكون أصواتهم نشازاً.

هذا من ناحية...

ولكـن، هل نستطيع القول، من الناحية الأخرى، إن ردود الفعـل التي اتخذت جانب العـداء كانت استجابة مباشرة وبريئة لندائي؟ كلا. إن مجلة «شعر» مثلاً لم تكن تنتظر دعوتـي قبل إعلانها بأكثر مـن سنة، عندما قدمت أقسـى هجاء لحركتنا الشعرية بإصدارها عدداً خاصاً عن شعرنا تضمن أسوأ مـا كتب في تاريخ الأدب العربي عن شعر. إنـي أعترف هنـا، وبصوت مسمـوع، بأن مجلة «شعر» كانت جارحة الذكاء. إنها لم تكتب كلمة واحدة في طعن شعرنـا، وقد تظاهرت بأنهـا تنسجم مع حركة الاهتمـام العربية فأصدرت عدداً خاصـاً عن هذا الشعر يخرج القارىء الواعي منه بموقف شديد السخرية.

ماذا أريد أن أقول؟

أريد القول إن ندائـي المذكور لم يغير مواقف ولم يخلق مواقف. ربما كان حافـزاً لبلورة مواقف. وأنا لم أكن ساذجاً إلى الحد الذي يصوّر لي أن بوسع مقالي أن يغير شيئاً، ولكننـي أردت التعبير عن هواجسي وإعلان موقفـي. ونلاحظ الآن أن الجميع متفقون على ضرورة تخليص شعرنا من المداعبة ووضعه في مكانه الصحيح من حركـة الشعر العربـي المعاصرة. ومع ذلـك، فإننا نتحدث ولا نفعل. أي أن النقد ينقد ولا ينقد الشعر.

ثم...

دعنـي أعتقـد أنِ الإجابـة على السـؤال المطروح تستدعي تناول بعض الأفـكار الجديدة – ولعلها جادة – حول الشعر العربي الذي يكتب في بلادي:

ثمـة رأي يقـول إن هـذا الشعـر لا يمكـن اعتباره شعـر مقاومـة. إنـه شعـر معارضـة. وأنـا لا أعتبر هذا التحديـد إهانة، وإنما أعتبره اجتهـاداً، ولكنه يعاني من هوايـة التلاعـب بالألفاظ أو الأفـكار. إن صاحب هذه المقولـة – وهو كاتب جاد – يختار من مصطلح «أدب المقاومـة» المعنى الواسع للكلمـة بمعالجته ما يبدو له أنـه أدب مقاومـة في شتـى البلدان وفي شتـى الأزمنة، ولكنه يتنـازل عن هذا المعنى الواسـع ويتشبث بأضيق معانـي المصطلـح عندمـا يصل إلـى بلد ما فـي منطقة الشـرق الأوسط، فيصبـح الموقع الجغرافـي هو معيار تقويم المواقف، لأنه هو الذي حدد، موضوعياً، موقفاً سياسيـاً تفصيليـاً لهـذا الشاعـر أو ذاك، فتصبح فدوى طوقـان – علـى سبيل المثال – شاعـرة مقاومة لأنها لا تعترف بوجود إسرائيل. ولو عاش معين بسيسو – على سبيل المثال أيضاً ـ في مدينة عكا لما كان شاعر مقاومة لأنـه لن يكرّس شعـره للتصريح بأنـه لا يعترف بوجود إسرائيـل. أما محمود درويش ـ على سبيل المثال للمرة الثالثـة ـ فلو هاجر إلى الكويت لكان شاعر مقاومة، لأن واقعه هناك لن يدفعه إلى محاورة اليهود.

هل أنا شاعر مقاومة؟

لا أدري. ولا يهمني هذا السؤال كثيراً. إن ما يهمني – كشاعر – هو ممارسة مهمتي دون أن أعرف رتبتي. ولكنني أفهم عن شعر المقاومة أنه ملتحم بقضية دفاع عن وطن أمام قوى تقهر هذا الوطن. وأنا أدافع عن وطني، ولعل كل ما أكتبه – في نهاية الأمر – يتلخص في كشف نفسية الإنسان الذي يدافع عن وطنه بمختلف الأشكال والأزياء. وأنا أقاوم من يأخذ حقي وأرضي. والأرض عندي ليست مجرد أرض، والشجرة ليست شجرة ، والمساء ليس مساء. وأنا لست شاعر طبيعة. أنا شاعر وطن. ومعارضتي ليست معارضة جزء من كل. إنها معارضة الضد. وأنا أحاور سجاني لأني أريد أن أتكلم، وأشعر بالملل! وإذا كنت لا أكره زوجة سجاني، فإن ذلك لا يعني أني أنسجم مع سجاني.

هل أنا شاعر مقاومة فقط؟

ليس كل شعر مقاومة – بالمعنى الشائع للمصطلح – شعراً ثورياً، لأن المقاومة بمعناها الظاهري تعني الرفض. والموقف من عدو أو ظاهرة لا يصلح دائماً – وإلى مدى بعيد – مقياساً للثورية. هنا... نحتاج إلى تعميق مفهوم المقاومة ليشمل ما هو أعمق من الرفض الآنيّ ورد الفعل الميكانيكي. وهنا – من حقنا أن نبدي

بعض التـردد إزاء نماذج شعرية معنيـة خلقها رد الفعل المباشر غيـر الواعي. على هذا الأساس نطرح السؤال: هل شعرنا هو مجرد ردود فعل ساذجة؟ إن هذا السؤال ليسـ بسيطاً بالشكل الذي يتظاهـر به. الإجابة عليه قد تساعدنـا على التكهن بمستقبلـه: هل تكمن أهميته في كونه رداً ساخناً يفتر بانتهاء حركة الحدث الذي خلقه، أم يحمـل أهميته في ذاته... في القيم التي خلقها؟ وهل استطعنـا أن نضفي على الحدث الذي نتعامل معه أبعاداً مأساويـة مثلاً؟ وهل استطعنـا أن نمسك بلحظة شعرية لامعة من سنوات الظلم؟ لقد انصرفنا إلى حديث الفن، ولكننا نتحـدث عن ضـرورة تعميق مفهـوم المقاومة ليشمـل أكثر من الصمـود والإنتقـام والرفض، ليشمل الثوريـة الحقيقيـة... التسلح بالعلـم والممارسة لتغيير الواقـع تغييراً جذريـاً... تغييراً ثوريـاً. أو لنقل – لتكن المقاومة مقاومة ثورية تشمـل المعنى القومي والمعنى الاجتماعي فـي جوهرهـا. ولقد انصرفنـا إلى حديث الفكـر، ونحن نتحـدث عن الشعـر (والغلطة هنا ذات دلالة) مهمة الشاعر تصبح مزدوجة. إن ثوريته يحددها نشاطه داخل حركـة الفعل... داخل الجماهير بواسطة الشعر، هذا النشاط الذي يؤثر على نشاطه داخل الشعر نفسـه. والثـوري – إذا كان شاعـراً موهوباً – لا يكون رجعياً داخل الشعر وثورياً خارجه. والشاعر – إذا كان ثوريـاً حقيقياً – لا يكـون ثورياً داخـل الشعر ورجعياً

خارجه. و ماذا نعني بالثورية داخل الشعر؟ الموقف من التراث، والتجديد الدائم للعلاقات القائمة في القصيدة وتغيير هذه العلاقات. لا أعني بالتغيير التدمير أو الإبادة، أعنـي التطويـر. إن المحافظـة علـى ما هـو حيوي في القديم هي المحافظة علـى المقدمات لمتابعة الحركة. والجديد - كما نعلم - لا ينفي القديم كله. إننا نصادف موقفيـن خطيرين من هذه المسألة: وقف العبادة للقديم - وهو موقف متحجر ورجعي، وموقف الكفر المطلق بالقديم - وهو موقف فوضوي.

هـل استطعنـا الإجابـة على السـؤال: هـل الشعر العربـي الذي يكتـب فـي إسرائيل هو شعـر ثوري من هـذه الزاويـة؟ صحيح أن بعضـ نماذجه وهـي تقاوم الاضطهـاد الإسرائيلي تجد في الماضي - كل الماضي سنداً تاريخياً لها، فتقـع أحياناً في أخطاء التغني بكل ما في الماضي، وعندها يبدو أن بعض نقاط ارتكازها غير ثوريـة، ولكن الناقـد مدعو إلى تفسير هـذا الميل لدى الشعـوب المضطهدة التي تستنجـد بتاريخها لمقاومة من يعتـدي عليه. إنه نـوع من الدفـاع، ولكن الاتجاه العام لهذا الشعر لا ينحو على هذا المنحنى.

وأرجـوا ألا يفهم من كلامي أنـي أقدم دفاعاً شاملاً عـن «المنجـزات» الفنية التـي حققتها حركـة شعرنا. مازلـت أعتقد أن هـذه الحركة لم تبلور بعـد و لم تبلغ

النضـج الفنـي. وسيرتكـب أصحابها أخطـاء غبية لو أطمأنـوا إلـى أذواقهم الفنيـة، وكفوا عـن السعي نحو تحسينهـا. ومع ذلك، فإننا نحاول أن نكون ثوريين في الحياة وفي الشعر...

● هل تعتقد أن الشعر العربي الذي نشر بعد هزيمة حزيران استطاع أن يعبر تعبيراً كافياً عن آثار هذه الهزيمة في النفوس وأن يرهص بميلاد الإنسان العربي الجديد؟

دعنـا نتفق، أولاً، على أن القـول لا يساوي الفعل. على هذا الأساس دعنا نحرر أنفسنا من رياضة المقارنة. إن طـرح السؤال على هذا النحو ينطـوي، منذ البداية، علـى اتهـام الكلمة. استطـاع حزيران أن يقنـع الناس، للوهلة الأولى، بأن الحقيقـة الوحيدة الباقية في الشرق الأوسـط هي حقيقة الدم المسفـوك. كان الدم – ولعله لا يـزال – هو اللغة الأقوى فأي أدب يملك القدرة على الـكلام فـي حضرة الـدم؟! إن اللحم البشـري الذائب فـي رمال سيناء، لمن يراه أو يتخيلـه، هو اللغة الوحيدة القـادرة على التعبير عن مرارة المأساة... أليس كذلك؟ نحن مدعوون، إذن، لكي نعطي الأدب حق الكلام إلى إنقاذه من حرج المقارنة.

إذن. أنـت تسألني عن الشعر العربي الذي نشر بعد هزيمـة حزيـران كان يترتب على الامتنـاع عن الإجابة

لعدم اطلاعي المقنع على الكثير من هذا الشعر. سيبقى رأيي مجرد انطباعـات تركتها النماذج القليلة التي أتيح لي الإطـلاع عليها. ومـا دامت كذلك فهـي غير قابلة للتغير أمام نماذج أخرى تمنحني المزيد من المعرفة.

يبدو لـي أن بوسعنـا الحديث عما تمكـن تسميته بفتـرة الصدمـة الأولى، الشاعر العربـي، كأي مواطن، أصيب بمفاجأة مذهلـة، ولذلك كان صوته يصرخ في كل الاتجاهات. كان صوته يصرخ في كل الاتجاهات. كان الشعر لا يعرف لأنـه لا يعي شيئاً، وكان يشتم أول مـن يصادفه، وقد صادف وجهه أولاً، ومن هنا نرى أن هجـاء النفسـ كان يسم الكثير من قصائـد تلك الفترة: هجاء الكلمة، هجاء التراث، واللغة، والأمة، والحاكم، وكانـت حرارة العاطفة الجريحة والمهانة حتى الموت وشـدة الانفعـال تحـرق السنـة الشعـراء، فتضطـرب أصواتهم بسبب اختلال التوازن والموقف. وباختصار، كانت الفوضى تعم كل شيء. وأكاد أشك كثيراً في قدرة أكثرية قصائد تلك الفترة على البقاء.

ولـو نظرنـا إلـى الموضوع مـن النافـذة السياسية استطعنـا القول إن ما كتب في تلـك الفترة من شعر، أو أكثـره، كان شعراً مهزوماً، وكان، دون أن يدري، جزءاً من السـلاح المصوب إلى صدر قضيـة التحرر العربي لأنه شارك أعداءها حملة التشكيك في قيمها وتاريخها،

وأشـاع اليأس القاتل في صفوف أبنائها، وهذا ما يفسر اهتمام المراقبين الإسرائليين للأدب العربي بهذه النماذج وترجمتها السريعة إلـى اللغة العبرية في أوسع الصحف اليوميـة انتشـاراً، وبعض هـؤلاء المراقبيـن «الأدبيين» مـن الجنرالات ومن هنـا نخلص إلى التقديـر بأن شعر الفتـرة الأولـى بدلاً مـن أن يكـون انقـاذاً للأمل الذي تعرضـ للاغتيـال، كان شعر يأس. وبـدلاً من أن يكون شعـر مقاومة... مقاومة للهزيمـة وأسبابها وقواها كان شعـر هزيمة، وبدلاً من أن يكون شعـر صمود وإصرار علـى التمسك بأسباب التحدي التـي دفعت الإمبريالية إلـى التحرك لضـرب آفاق تطور حركـة التحرر العربية كان شعـر استسلام ولم يسهم في تفجير قوى المقاومة والطاقات القادرة على الصمود.

ولعـل هذه المسألـة تنطوي على أهميـة بالغة فيما يتعلـق بفهم الشاعر لدوره ومكانـه. عندما فقد الشاعر الإيمـان بطاقـات شعبه فقـد الشعر. وبوسعنـا أن نجد إضافـة جديدة إلـى هذه المسألة في تغيـر الاتجاه العام للشعـر في فتـرة لاحقـة، عندما أخـذ الشعـر الثوري والمقـاوم يتبلور اعتماداً علـى الإيمان بطاقات الشعب التـي لا تهزم. إننا نشعـر الآن بالفرح لأن بعض الشعراء العـرب البارزيـن انعطفوا نحو الاتجاه الـذي نعتقد أنه الأصح، إنهم، وباختصار، وجدوا ينابيعهم.

وبماذا تتميز القصائد اللاحقة التي أتيحت لي فرص الإطلاع عليها؟ بالوعي الثوري أو الحدس الثوري. إنها تحاسب مجتمعها وأنظمة حكمها وتراثها محاسبة تقدمية لا محاسبة فوضوية أو انتهازية. وفي الوقت نفسه تحاسب نفسها دون أن تنتحر. إنها تنزل إلى الشارع لتجد الجواب. وهي ليست دون أبعاد. ليس حزيران آخر الدنيا. شهور قبله وشهور بعده والنموذج الآن ليس الإنسان الغريب غير المتجانس مع الآخرين، وليس المسحوق بلا تمرد، أو الملعون بالكسل. النموذج الآن هو ذلك الذي يستأنف الموت برغبة دموية في الحياة.

وهل أرهصت بميلاد الإنسان العربي الجديد؟ هذا السؤال صعب، لست مؤهلاً للإجابة عليه. ولكن المهم أنها تستشف ولادة هذا الإنسان. ويبدو لي أن حزيران (على الرغم أنه ليس بداية تاريخ جديد، فالبداية ابتدأت قبل حزيران) يضيف برهاناً على حتمية انتماء الشاعر النقي إلى التقدم والمستقبل، ويأخذ مواهب ثمينة في الشعر العربي إلى هذا الميل، وحزيران– هذا العجيب – يزيح الغموض الذي اكتنف كثيراً من المفاهيم عن الحياة والفن. إنه شهر لا حياد فيه ولا من قائل: أبعد هذه الكأس عني. وسنعرف الآن أن الشعر هو رؤية ثورية للحاضر ورؤيا للمستقبل. ولماذا نكتب؟ لأننا جديرون بانتمائنا إلى الحياة و محتاجون إلى الإحساس الدائم بهذه الجدارة.

● ماذا تقول عن مجموعتك الشعرية الأخيرة «العصافير تموت في الجليل» وهل تعتقد أنها تثير بعض الأسئلة والتساؤلات عن تجربتك الشعرية؟

لعلك لا تعرف أن سوء التفاهم – الذي أريده أن يكون ودياً – بين القراء في بلادي وبيني، أخذ في التحول إلى خلاف قد يأخذ شكل القطيعة. وذلك أمر خطير يسبب لي أحزاناً حقيقية. الكثيرون من القراء قالوا لي إنهم كفوا عن قراءتي. وعلى الصفحة الأدبية لجريدة «الاتحاد» دارت مناقشة أسبوعية استغرقت أكثر من ثلاثة شهور كانت قصائدي الأخيرة محور الاتهام فيها، لم أقرأ من آلاف الكلمات التي كتبها القراء كلمة واحدة تدافع عني. لن أروي هنا كل الآراء الخطيرة والمهينة أحياناً المطروحة في تلك المناقشة الهامة والحيوية – على الرغم من سطحيتها – إنها تعكس حاجة القراء إلى الإحساس بأنهم مسؤولون عن شعرائهم، وبأن هؤلاء الشعراء خاضعون لمراقبتهم الصارمة. دعنا نعتبر الأمر - في آخر المطاف علامة عافية ودليلاً على العروة الوثقى بين مبدع الكلمة ومتلقيها. ولكن خلاصة البحث تواجهك بأسئلة صارمة تهزك حتى النخاع.

هل أنا شاعر رمزي؟ لا أعتقد. إن قصائدي الأخيرة تزيد اعتمادها على الرمز أو تستخدم الرمز، بمعنى أن

الرمز يخضع للقصيـدة وينصهر فيها. وليست القصيدة هي التي تخضع للرمز وتذوب فيه. وكنت أشرت كثيراً إلـى أن الرمز يخدم واقعيتي ويغنيها، ومن هنا فأنا لست شاعراً رمزياً بالمعنـى التاريخي لمدرسة الرمزية. وكما أن الشاعـر الثـوري يـزاوج بيـن وعيه الثـوري والغناء الرومانتيكي فإنه قادر أيضاً على استخدام الرمز دون أن يفقد جوهره الثـوري. إن الرمز في الشعر– كما نعرف – يضيـف أبعـاداً أخـرى للقصيـدة أو يمنـح أجنحتها مزيـداً من الريش، ولعل الرمز هو من أهم ميزات الشعر العربـي الحديث ومن أكبر القيـم الفنية التي حققها. ثم إن الأسطـورة – في جوهر الأمر – تلعب دور الرمز في القصيـدة الحديثة. من هنا، أعتقـد أن حملة القراء عليَّ منشأهـا سوء الفهـم، إذ انطلقت أغلبيتهم مـن التسليم المطلـق بأني غيـرت انتمائي وانتقلت مـن الواقعية إلى الرمزية.

وهل أنا شاعر غامض؟

إن الرمز هو الذي يخلق مثل هذا الانطباع الأولي، فالقصيدة الحديثة لا تستسلم للقارئ من أول لقاء. كان القاموس قادراً – إلى حد بعيد – على فك أسرار وأزرار القصيدة القديمة، أما القصيدة الحديثة فهي أكثر تعقيداً وتركيبـاً وتشكيـلاً نتيجة تعقـد الحياة نفسهـا. الحياة المعاصـرة لا تسمح لنـا بأخذ أي مظهـر من مظاهرها

بـكل بساطـة وسذاجـة. والتناقضـات صـارت أكثـر انفجـاراً وتداخـلاً. وإن ما يعوزنا في هـذا العصر لعله اليقين. لقد كتب الصديق «ابن خلدون» في «الاتحاد» في معرضـ التعليق على المناقشـة: «تشتد الحاجة إلى أساليـب فنية جديدة، ألف مرة، إذا أصيبت الحقيقة بما يشبه الانقلاب... بحيـث تغيرت صورها دون أن تغير ماهيتها الجوهرية»

ولكن، هل يكون الغموض هو أحد هذه الأساليب الفنيـة الجديدة؟ كلا. إنـه ينتج عنها. وهنـا، يجب أن نميز بيـن شكلين: الغموض الذي يشبه السحابة الرقيقة الناتجة عن علاقة الشمسـ بالأرض، والغموض الناتج عـن وداع الشمس للأرضـ، وهو ما تتميـز به مدرسة شعرية عربية حديثة تحترف الغموض احترافاً.

وهل أنا شاعر متشائم؟

إني شديـد الإحساسـ بإنسانيتي. وأنا أقـرأ العالم وأراه. بوسع العالم أن يكون أجمل، أو بوسعنا أن نجعل العالـم أجمل. كل ما نصادفـه أمامنا... كل حجر، كل بنايـة، كل مصنـع، كل مدينة، كل نشيـد، وكل آلة كما نراهـا الآن ذات تاريـخ دمـوي، لقد قطعـت الإنسانية طريقاً طويلاً مـن العذاب لتحقق أبسـط نجاح، ولكن ملايين من الناس ما زالوا جياعاً وملايين ما زالوا عبيداً.

وإن المهندس الفرنسي الذي قضى أربعين عاماً من حياته يبني واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم في بطرسبرغ لم تنفذ وصيته، لم تسمح السلطة القيصرية بدفنه في الكاتدرائية التي بناها لأنه كاثوليكي وهي أرثوذكسية!

نعرف الآن أن للعمال السوفييت العاملين في البناء أولوية الحصول على الشقة. هل تغير العالم؟ نعم. ولكننا لا نطمئن إلى هذا الجواب لأن الظلام والجوع والعبودية وكل الأشكال المنافية لجوهر الإنسانية ما زالت تسيطر على أجزاء واسعة من العالم. العدل ما زال ناقصاً، والحرية لا تزال ناقصة لأن بيتنا المشترك – الكرة الأرضية – ليست حرة كلها. لقد عرفنا الخلاص أو طريق الخلاص، وذلك مصدر تفاؤل تاريخي، وكل خطوة على هذا الطريق هي بمثابة برهان جديد على شرعية هذا التفاؤل. من هنا – وجهة النظر الجوهرية – أنا متفائل.

ولكن تفاؤلي ليس غبياً. أنا لا أقرأ العالم بفرح، فإن مسيرة تفاؤلنا التاريخي ليست آمنة دون حدود. إن أعظم ما حققته الطاقة البشرية من تقدم تكنولوجي لا يكرس كله لخدمة الإنسان – وبوسعه أن يحيل الكرة الأرضية إلى جنة. إنه يهدد الإنسان ويهرس أعصابه، لأن دولة كبرى مثل أمريكا تملك حظ الثروة الطبيعية والعلمية ولكن أيديها حمقاء وهي بلا روح وبلا إنسانية، وهذه هي آفتها وآفتنا معها.

وهيروشيما ليست مجـرد ذكرى. عندما أقبّل حبيبتي تطلع لـي من الحائط صورة هيروشيمـا. هل أقول إن مـا يفسد لذتي مع حبيبتي هو الحمق الأمريكي؟ وهل أستطيـع الهروب من هذه العلاقـة المتناقضة. لا، إني أعتـرف بالقلق والحزن والخـوف على مصير العالم، وحين ألتقي بالعامل السوفييتي أشعر بالأمان، وجهان لعالمنا، ومن الوجه المضيء استمد تفاؤلي التاريخي، ومن الوجه الأسود يأتيني القلق من الحرب والإصرار علـى الرفضـ. وهكـذا فتفاؤلـي ليس ورديـاً وليس بمنجى من المحاذير.

ومن أين يبدأ العالم؟

إنـه يبدأ من بيتـي، وكانت علاقتي الأولـى بالعالم عدائية، لأني أنتمي إلـى بيت يحوي أهلاً. لا بيت الآن ولا أهـل. شعب كامـل يعيش بلا وطن في هـذا العالم الـذي يجعل القمر وطناً آخر. كيف أحاور الحقيقة... وما هي الحقيقة؟ العالم يطلب من الضحية البرهنة على أنها ليست القاتـل. والقاتل الحقيقي يتظاهر بالبكاء... والقضـاة؟ من هم القضاة المخوَّلـون بإصدار الحكم؟ دم على كل الطرقـات وفي كل الحدائق... وعلى مرايا العالم، والحقيقة تأخذ شكل المذبحة. والضحية مطالبة بإثبات براءتها، ولا قاض إلا الموت. هل استطاع وطني أن يملـك إلا حريته في أن يموت كما يشاء؟ الموت هو

البطاقة التي يقدم بها وطني نفسه إلى العالم. فاتخذ لك موقفاً من الموت الاختياري. إن مجموعة «العصافير تموت في الجليل» غارقة في التعامل مع الموت الذي ليس موتاً في جوهره، فهل يعني ذلك أني متشائم؟

وهل أنا شاعر ذاتي؟

يجب أن نقيم فاصلاً بين معنيين لهذا المفهوم. على المستوى الفلسفي وعلى المستوى الفني، أظن أن ما يميز الشعر عن سائر أشكال الوعي الاجتماعي هو أن الذات تشكل محوره. ولكنها ليست معزولة عن الآخرين مهما تظاهرت بالاستقلال النسبي. وهي - بهذا الاستقلال. تنفرد بصفات خاصة هي التي تحدد الطابع الفني المستقل لكل شاعر. وأنا أحب أن أعتقد أن السمة المميزة لشعري تتمثل بالخصوصية، لأني على الرغم من كل عيوبي شاعر صادق. ومفهومي للشعر يقنعني بأن الصدق هو جوهر الشعر. ولكن، من أين تشكلت ذاتي؟ الجواب الواضح على هذا السؤال يحل ما يبدو أنه تناقض.

وإني متشرب حتى النخاع بالإحساس بالحصار. والحصار ليس فكرة ذاتية اخترعتها وليس وهماً يأمرني إنه واقع يعيشه شعبي، وعندما أكشف نفسيتي المحاصرة أكشف، في الوقت ذاته، نفسية شعبي.

وبعد... إني أتكلم على هامش الشعر، على هامش تجربتي في «العصافير تموت في الجليل»، ولا أتكلم عن الشعر نفسه.

● هل تشرح لنا خلفية الحوار الذي يجري بينكم وبين الأدباء اليهود في إسرائيل، والذي كان لك فيه نشاط واضح؟

– قد لا أرتكب خطأ فادحاً إذا تصورت أن هذا الحوار سيتحول إلى ظاهرة. وقد لا أرتكب خطأ آخر إذا لاحظت واقعين مختلفين –لا متناقضين– لتحريك هذا الحوار. هل تم نتيجة رغبة متبادلة في ممارسة رياضة فكرية؟ كلا. إن الكاتب العربي في إسرائيل حريص على إجراء الحوار لأنه حريص على طرح قضيته وإنقاذها من ركام الزيف الذي أهالته عليها الدعاية الصهيونية، وحريص على إنقاذ الحقيقة من التعذيب اليومي. وهو يريد أن يهز الكاتب العبري «المحايد» ويضعه في الاختبار. ويريد ألا تكون المناقشة همساً. إنه يحاور، من خلال الكتاب، أوساطاً واسعة من الرأي العام.

ولماذا يريد الكاتب العبري الحوار؟ نحن نتحدث عن الفترة التي أعقبت حرب حزيران. ومع ذلك، يجب أن نتابع أشكال الشخصية العربية ومكانتها في الأدب العبري.

كانـت هذه الشخصية متأخـرة ولا تشكل موضوع اهتمـام، ثـم أصبحت عند بعض الأدبـاء الذين جاءوا إلى فلسطين يحملون بعضـ الأفكار الاشتراكية الديمقراطية تشكل مسألة أخلاقية، فنلاحظ عندهم ملامح من العطف الإنسانـي علـى مصيرها، ولكنه لا يصـل إلى حد تأنيب الضمير، لأن تحقيق القيم الصهيونية هو المسألة الأولى، والصدام ليسـ بين حقين، بل تحقيـق الحق الأوحد مع الحـد الأدنى من إيذاء الغيـر. ويمكن التعايش مع العربي الفلسطينـي في إطـار إذابته، لأن بقـاءه يحمل صفة من طبيعة الشرق (القهـوة السوداء، الكوفية والعقال، المرأة المحجبة، الدبكـة) وكان هذا العربـي يعمل في مزارع اليهود. ونلاحظ في بعضـ الروايات العبرية – مع تطور الصراع فيمـا يعد – موقفاً باهتاً يقول: لو أحسنا معاملته لكان الوضـع أفضل. وعلى كل حال، فالمسألة تبقى في حدود النظرة الأخلاقية. ثم تأتي فترة حرب السويس بما سبقها وما أعقبها، فيأخذ العربي شكل العدو الذي يعكر المزاج. ولكنه لم يتحول بعد إلى هم حقيقي لأن الإنتصار عليه مضمون دائماً. ثـم... نصل إلى حرب حزيران... ونلاحظ بهجة النصر والإحساس بالطمأنينة الأبدية وراء السلاح القوي، فتعم الغطرسة القومية والفرح الحيواني بقتل العرب والإحساس بتوقـف التاريخ. كان حزيران، بالنسبـة للرأي العـام الإسرائيلي. هـو خاتمة الحروب، والسـلام بعده على قاب قوسيـن أو أدنى. وجلس الناس

مع وزير دفاعهم ينتظرون المكالمة التلفونية العاجلة من القاهرة لتعلن: استسلام العرب وحلول السلام. وفوجىء الناس، بعد طويل الإنتظار، بأن الخط التليفوني معطل. وبدلاً منه خطوط دفاعية قوية على امتداد قناة السويس. وصارت الأطر السوداء في الصحف تزاحم الخرافات لسانها لتصريحات الجنرالات ووزير الدفاع. وتسيطر على الرأي العام الإسرائيلي الآن علامات بارزة من التساؤل والقلق. مرت مرحلة الطمأنينة كالبرق، وامتدت الأيام الستة إلى مئات الأيام. وماذا بعد؟ هذا هو السؤال... وأين الأمن؟ وأين السلام؟ وهذا الشعب العربي الجريح يقف على قدميه ويحاربنا ويقتلنا... والأدهى من ذلك أنه يسقط الفانتوم على الرغم من أنها تحمل نجمة الملك داود!

لقد وصف أحد النقاد اليهود شخصية العربي في الأدب العبري بعد حزيران بأنها تطورت إلى كابوس... وناقش المواقف الأخلاقية السابقة الموحية بأن كل شيء يتوقف علينا ولو عاملناه بشكل أحسن لكان الوضع أفضل، قائلاً أنها مواقف ساذجه. لا. «المسألة ليست بمثل هذه السهولة. إن الصراع قدر ولا مفر». وكتب لي روائي بارز ترجمت إحدى قصصه: «إنك، يا محمود درويش، قد تخدع قراءك وشعبك إذا حاولت الاستفادة من القلق الذي نعانيه،

وترتكب خطأ إذا حاولت برصدك مظاهر القلق والتشاؤم في أدبنا. البرهنة على تفكك مجتمعنا. ولكني أريد أن أقول لك: حذار من دفعنا إلى اليأس، لأن اليأس يجعلنا أكثر عناداً وخطراً!». إن ما يعنيه هذا الكاتب الموهوب هو النشاط الذي قمت به في الآونة الأخيرة لرصد اتجاهين متعاكسين في الأدب والفكر الإسرائيلي: الأول، علامات التساؤل والقلق وإعادة النظر على اختلاف منطلقاتها، فبعضها مثالي وبعضها حريص على طهارة الصهيونية وبعضها حائر وبعضها واقعي. ولكنها تتفق على إبداء التشكك ومحاولة البحث عن مخرج آخر، وتتفق على أن طريق السياسة الرسمية الحاكمة لا تؤدي إلى أي سلام وإلى أي أمن، ولا تحقق إلا الحرب الدائمة.

والاتجاه الآخر، القائل إن الصهيونية وإسرائيل ليستا مسؤولتين عن سفك الدم، وإن العرب هم المسؤولون. وإن هذا الوضع المأساوي قدر لا مفر منه.

هذه هي الخلفية التي قام عليها الحوار بين الكتاب العرب واليهود. ومن الصعب تلخيص موقف موحد للجانب العبري من الحوار، فهو ليس متجانساً إلا بالقلق ومراجعة الحساب (حساب النفس هو الذي يميز الآن مجموعة ملحوظة من الأدباء والمفكرين اليهود في إسرائيل). ولكن الجميع يطرح هذا السؤال:

ما هو البديل الذي تعطيني إياه حركة التحرر العربية؟ وأعتقد أن المفكر العربي مدعو إلى مراقبة التغير الجاري لدى هذه المجموعة وإلى قراءة حساب النفس هذا وتطويره نحو الخلاصة الصحيحة. ليس المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً متجانساً، والقبول بفكرة أن كل الإسرائيليين وحدة سياسية واجتماعية هو ما تريده الصهيونية وقيادة إسرائيل. من المفيد أن يصغي الرأي العام العربي إلى نواقيس التحذير التي تدق في إسرائيل مهما كان صوتها خافتاً. وتزداد الحاجة إلى ذلك إزاء ارتفاع موجة العسكرية والارهاب الفكري في المجتمع الإسرائيلي. فلا ينبغي أن تبقى الأصوات الصحية معزولة. من الضروري أن تشعر بسند أخلاقي وأدبي وربما سياسي لها من الجانب العربي، ولتعميق التناقض والبرهنة للناس في إسرائيل حقيقة الصهيونية وأخطارها عليهم هم أنفسهم.

وأحب أن أشير إلى أن حوارنا القاسي لم ينته بنتائج عملية ذات أثر، ولكن صاحب القضية العادلة لا يخشى المناقشة. نحن لا نحاول ابتزاز موقف إنساني من أحد، ولا ندفع ثمن الحوار التنازل عن حقوقنا ومبادئنا. وأظن أن هذا الحوار، كما قلت في البداية، سيتطور إلى ظاهرة يتوقف حجمها على شعور الإسرائيلي المتزايد بأنه لم يربح الحرب.

● عن جائزة اللوتس؟

– لا أعرف إذا كنت أستحق جائزة «اللوتس» فعلاً. ولكنني أرحب بها بامتنان وفرح. إني أرى فيها عطفاً أدبياً على قضيتي وتشجيعاً على الاستمرار في طريقي. إن ما يبهجني في الجائزة هو أنها تفتح نافذة صغيرة في الحصار المضروب علينا. ولعل صوتي وصوت زملائي قادر الآن على الوصول إلى مزيد من الآذان الأسيوية – الأفريقية. وإن ما يخيفني في الجائزة هو المسؤولية الجديدة التي تلقيها علي.

● عن المشاريع المنتظرة؟

– لست شاعراً محترفاً. والشعر لا يحتل من وقتي إلا ساعات معدودة. وأنا كثير الصمت. يحدث ألا أكتب قصيدة واحدة طيلة عام كامل إن للشعر عندي مواسم، وهكذا بعد صمت طويل أراني أكتب بغزارة ثم أتوقف. لا أكتب إلا إذا عشت تجربة جديدة. ونفسي كثيراً ما تصاب بالركود وبما يشبه العقم. ومن هنا، لا أخطط المشاريع. الآن مثلاً، لا أكتب شيئاً... ولا أعرف ماذا سأكتب، ولكنني أهجس بكتابة قصيدة عن عبد الرحيم محمود... الشاعر والمقاتل. وقد بدأت عدة أعمال... وتوقفت فجأة. ولا أعرف متى سأنهيها.

بيان[1]

«أريد أن أعلن منذ البداية أنني أعتبر مسألة وجودي في القاهرة مسألة شخصية أتحمل وحدي مسؤولية اختيارها من دون تحويلها إلى موضوع للمناقشة والأخذ والرد. وكان من الممكن وربما من الأفضل حصرها في حدود ضيقة غير أن ظروف القضية التي قدمتني للناس ربطت اسمي بقضية عامة. هذه القضية هي العنصر الأساسي الذي يدفعني إلى اتخاذ موقع جديد وعنصر جديد للجبهة التي أحارب فيها.

(1) نص البيان الذي ألقاه الشاعر في القاهرة بعد وصوله من موسكو حيث منعته السلطات الإسرائيلية من العودة إلى حيفا في الوطن المحتل.

إنني لم أعد أنتمي إلى شعب يطلب الرحمة ويتسول الصدقات ولكنني أنتمي إلى شعب يقاتل.

إنني أتمزق مرتين. مرة على شعبي ومرة على المواطنين اليهود الذين يقودهم حكامهم إلى كارثة. وأنا كاتب لا أتفرج على الحياة ولكنني أندمج فيها. ويصعب هنا وضع حد فاصل بين الأدب والحياة والوطن عندي ليس حقيبة وليس جبلاً أيضاً. إن وطني قضية أدافع عنها من أي موقع. ولست أول مواطن أو شاعر يبتعد عن بلاده ليقترب منها.

إنني أشعر الآن بطين التربة التي أنبتتني ولأني أعيش مع شعبي وأعمل بالمفهوم الأوسع فإن أهمية ما أكتبه ينبغي ألا تستمد من المكان الذي أكتب منه ولكن من القضية التي أكتب فيها أينما كنت. ورحيلي الذي أرجو أن يكون مؤقتاً عن وطني ليس تغييراً لموقف أو قضية لكنه تغيير لموقع واختيار لموقع راسخ ووطيد حمَّله التاريخ مسؤولية تاريخية هي مسؤولية الحركة التحررية في المنطقة العربية وهذا الموقع هو القاهرة.

أنا مواطن فلسطيني

أنا مواطن فلسطيني لاقى شعبي من العذاب والقهر الجسدي والمعنوي مالا يوصف. وأنا لا أدير أسطوانة. إن مسألة نفي واقتلاع شعب كامل وإلقائه إلى التيه ليست

مسألة فلسطينية بل هي خنجر في ضمير كل العالم. لقد أصبحت أرى منازل أهلي يسكنها غرباء وأسمع من شبابيكها أغاني انتصار الفاتحين وهم يطاردون الضحية، لقد رأيت كيف تتغير أسماء الشوارع والقرى والمدن وكيف يحرث الناس في أجساد الأخرين ويستخرجون منها القمح والتفاح.

لقد رأيت كيف يزيف التاريخ وكيف تجري عملية التنفس من رئات الأخرين. ورأيت أكثر من ذلك، كيف تطالب الضحية بالاعتراف بأنها القاتل، فما زالت إسرائيل حتى الآن تقدم شعبي إلى العالم في زي القاتل وهي الضحية. ولم يكن شعبي يحسن إلا الاستجداء والتسول ولم يكن يقدم نفسه إلا ببطاقات الإغاثة.

إن البكاء على ذكرى وطن مغتصب حق، والوقوف أمام المحاكم الدولية حق، والقرع على أجراس الضمير العالمي حق. والحق ليس حقاً إذا كان صاحبه ضعيف. وهكذا الدنيا.

لقد تغيرت الآن صورة شعبي ولم يعد يقدم نفسه ببطاقة الإغاثة، ولكن ببطاقة الموت والاستشهاد. هذه هي المقاومة وهذا هو الحل. فأين أقف؟ إن شعبي اجتاز سراديب الموت فعرف طريقه إلى الحياة ولا مستقبل لقضيتي إذا لم تعرف مكاناً صحيحاً.

وإذا سمح لي بالتحدث عن مشاعري الخاصة فإنني أقول إنني أشعر بالتأثر البالغ الإحساس للمرة الأولى بالعلاقة المباشرة مع أبناء شعبي الذين أزورهم للمرة الأولى منذ طفولتي، وأشعر بأن كتفي تتطاولان ورئتي تتسعان وأجد أسباباً كثيرة للتفاؤل العلمي والوجداني.

أنا مواطن عالمي و جزء من الحركة الثورية العالمية وأفخر بأنني عضو في الأسرة التحريرية والاشتراكية التي تدعو إلى تغيير العالم تغييراً جذرياً وأشعر بالسعادة لأنني أنتمي إلى الجانب المضيء من عصرنا، وأشعر بفرح لا حد له لصداقتنا مع الاتحاد السوفييتي الذي يقف معنا في جبهة الصدام الأولى مع أعداء الإنسان ومعوقات التقدم. ولقد عشت طوال العام الماضي في الاتحاد السوفييتي، وأنا مدين له بكل شيء، ابتداء من الخبز حتى الأمل والتفاؤل. وإنني واثق من أن حبي للإنسان والمجتمع السوفياتي الذي يخوض تجربة خلاص البشرية من العذاب لا حد له.

قادم إليكم من الحزب الشيوعي

من المعروف تماماً أنني قادم إليكم من صفوف الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي يقود معركة ضارية مليئة بالغنى والشرف في جو خانق من العنصرية

والاعتـداء الصلـف علـى أبسـط حريـات الإنسـان. ومعـروف أن هذا الحـزب يضم في جبهـة واحدة كل العناصـر المناضلة من المواطنين العرب واليهود ويشير إلى إمـكان التعايش والحياة المشتركـة السعيدة ورفع شعـار «مع الشعـوب العربية ضـد الاستعمار وليس مع الإستعمـار ضـد الشعوب العربية» ويحـذر من الهاوية التـي يقـود الحكم الإسرائيلـي المواطنيين إليهـا إذا ما استمر في تنكره لحقوق الشعب الفلسطيني.

إننـي أعلن أن رحيلي عن بلادي ليس نابعاً من رغبة فـي الانسلاخ عـن انتمائي السياسـي والفكري وأعلن أن الحـزب لا يحمل مسؤولية قدومـي إلى القاهرة ولا علم له بذلك، ومن حقه أن يتحفظ عن سلوكي الفردي الذي يخالـف أبسط قواعـد التنظيم. وأرسـل تحياتي الحـارة إلـى الشيوعييـن العـرب واليهود فـي إسرائيل الذيـن يشكلـون حلفاء أمنـاء لحركة التحريـر العربية. وأقدم عميق الشكـر للجمهورية العربية المتحدة رئيساً وشعباً، حكومة وتنظيماً، لأنها فتحت صدراً واسعاً لي وغمرتني بالحب والفـرح والأمل، وبالمؤونة المعنوية العظيمـة التي جعلتني أشعر بأننـي لم أغادر وطني، إنما انتقلت من الوطن الأصغر إلى الوطن الأكبر.

إنني أحدق في أعماق نهر النيل وأرى رحلة التاريخ الصاعدة دائمـاً، وأسمع خرير الأردن وبردى والفرات

في نغــم واحد تتدفق برغــم الركود المؤقــت الذي لن يستمر طويلاً.

إنــي أجد في موقعي الجديد في القاهرة إمكانات واسعــة للعمل مــن أجل القضية التي أعمــل لها، وإنني اختــرت القاهــرة، لأنهــا القاعــدة الأساسيــة لكفاح الشعوب العربية من أجل التحرر والاشتراكية والسلام. وأرجــو أن يغنــي موقعــي الجديــد نضالــي بمزيد من الطاقــة والانطلاق من أجل القضية التي نحيا من أجلها ونموت من أجلها.

الأعمال النثرية



محمود درويش

يوميات الحزن العادي



القمر لم يسقط في البئر

- ماذا تفعل يا أبي؟

□ أبحث عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة.

- وهل تجده هنا؟

□ أين أجده إذن! أنحني على الأرض وألتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات، في تشرين، حبات الزيتون.

- ولكنك تلتقط حصى!

□ شيء كهذا يمرن الذاكرة والبصيرة. وما أدراك، قد يكون هذا الحصى تكلس قلبي. وإذا لم يكن - أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدي عن شيء حين ضاع ضيّعني. وإن مجرد البحث عنه دليل على أنني أرفض الاندماج في ضياعي. وعلى

الطـرف الثاني من المحاولة دليل علـى أنني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته.

– وماذا تفعل أيضاً يا أبي؟

□ أعثـر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة إلـى كلمـات تجعلني في حوار مـع البلد البعيد. نصيـر لغة قابلة للتجسيد.

– ألا تقول كلاماً آخر؟

□ أقول لكنني لا أفهمه، وتصير المرأة التي أخاطبها غربة ثانية.

– حين كنت صغيراً.. كنت تخاف القمر؟

□ يقولون ذلك. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال يخافون القمر دائماً.

.. لـولاه لكنـت يتيما قبـل أواني. لم يكـن قد سقط فـي البئر. كان أعلـى مـن جبيني وأقرب مـن شجرة التـوت التي توسطت دار جـدي. وكان الكلب ينبح عندما يقتـرب. وحين دوّت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء. وحين ساقوني إلـى القافلة الطويلـة رافقنا القمر إلى طريق عرفـت فيما بعد أنها طريق المنفى. ولولاه – كما قلت لك – لضعت عن والدي.

– ماذا تذكر أيضاً؟

□ أذكر أنـي تعلمت السفر وحدي في سن مبكرة. سافرت أمي

إلـى عكا فغضبـت لأنها تركتني. وكم كنـت أحب عكا! كانت أبعـد نقطة في العالم قبل سنيـن. وصارت الآن – ويا للمفارقة – أبعد نقطة في العالم مرة أخرى. كنت أحمل خمس سنين وأمشي على الشارع الأسود في اتجاه عكا.

– وكيف عرفت الاتجاه؟

□ كان الشـارع المعبّد السائر نحو الغرب لا يعني إلاّ السفر إلى عكا. كان الحـرّ شديداً فبكيت من الشمس والعطش. وجلست مراراً لأستريح. فكرت بالعودة فخجلت من الهزيمة.

– ماذا كانت تعني الهزيمة لك؟

□ أن أطلب شيئاً ولا يتحقق. أن أبدأ ولا أكمل. وأكملت طريقي إلـى عكا. ووقفت عند مدخلها أمام مفترق طرق. كان استخدام الاتجـاه الذي جئت منـه ساقطاً مـن حسابي. جربـت الاتجاه الجنوبـي فأوصلني إلى هضبة رملية تطل على البحر. ليست أمي هناك. فعدت إلى المفترق. جربت الاتجاه الشمالي، فكان يقود إلـى بيروت. وليست أمـي هناك. فعدت إلـى المفترق. جربت الاتجاه الغربي فأوصلني إلى قلب المدينة. دخلت مكاناً وطلبت ماء، فأسقوني وسألوني عمن أبحث فقلت: أبحث عن أمي.

– كيف يبحث طفل قروي عن أمه في مدينة مزدحمة؟

□ كمـا فعلـت أنا. كنـت واثقاً مـن أننـي سأجدها بيـن آلاف الوجوه، ولولا خوفي من المساء الذي صار يقترب لما عدت إلى القرية وحدي. ولكن طفلاً في الخامسة لا بد من أن يهزم. عدت

إلـى مفترق الطـرق واستعملت الاتجاه الذي جئـت منه خائباً. خشيـت من الليل القادم من السهـل فوقفت على حافة الشارع. وقفت سيارة شحن وسألتني إلى أين أنا ذاهب، فقلت إلى البروة. كانت أمي في البيت، وكان أهل البيت والجيران يبحثون عني في كل آبـار القريـة. حين يضيع الطفل فلا بـد أن يكون قد سقط في بئـر. بكت أمي وبكيت معها، وحيـن أكملت فرحتها ضربتني، فأخذني جدي وأعطاني حلوى.. وانتهى سفري الأول.

هـذا هو طعم عـكا الأول. دائماً أبحث فيها عـن شيء لا أجده. فتشت فيها عـن أمي، فكانت قد عادت إلـى القرية. وبعد سنين فتشـت فيها عن حبيبتي، فكانت تزف إلـى رجل آخر. وفتشت فيهـا عن عمل، فكان الفقـر يلاحقني. وفتشـت فيها عن شعبي فوجـدت الزنزانـة والضابط الوقـح. كانت آخر حـدود العالم، وأولى المحاولات والخيبة. وكان سورها يتآكل مع الزمن.

- تذكر شيئاً آخر عن بداية العالم؟

□ أذكـر شكلاً غامضاً ساعدني علـى الاستعانة بالخيال والحلم. كان الواقـع يتعرض لعملية انقطاع قبـل أن يأخذ شكله النامي في وعيي. وفي ظـروف لاحقة كان لزاماً علـيَّ أن أعود اليه لأحتفظ بوجـودي، فكان الحلـم هو المكمّل. وهذا مـا يجعلني في حالة حلـم دائم محدوداً بمبررات الضـرورة، لا منطلقاً بأجنحة الوهم المتـرف. تصير الأرض صخرة وعصفوراً فـي آن واحد. فالواقع على حالته الراهنة - حتى وإن لم يكن قانونياً - لا يعود جزءاً منك بدون رباط الحلم الذي يصير أكثر واقعية من شجرة ثابتة. والحلم علـى حالته العامة - وإن لم يكن مترفـاً - لايعود حافزاً لك بدون

ارتباط بصخرة مهما تغيّرت أشكالها. صحيح أن الأشياء لا تكون مقدسـة إلى هذا الحـدّ إلاّ إذا كانت حالتها محـكاً لانتمائك إلى الوجـود، إلاّ إذا كانت موضع صراع، ولكن كونك محروماً منها ليس هو الحيوية الوحيدة لثمنها العزيز إلى هذا الحد. وإلاّ، فكيف نفهم إقدام فقراء البلدان المستلبة على الموت في سبيل العودة إلى فقـر قديم؟ ثمة شـيء ننساه في زحمة التسابـق على حفظ الجُملِ الثورية الجميلة. هذا الشيء هو الكرامة البشرية. ليس وطني دائماً على حق. ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقاً حقيقياً إلاّ في وطني.

– لماذا تتحاشاني.. هل تبتعد عن الأيام القديمة؟

□ لأفسر لك أنـي لا أدافع عن سعادة قديمـة، ولا أتغنى بتعاسة ماضيـة. ليس للعمال وطن؟ ولكن للمحرومين من الوطن وطناً. ومـن حسن حظنا – ربما – أن وطننا حـق وجمال. إنه لم يأخذ هـذا الشكل اللاذع فـي جماله من إسقاطـات حرماننا عليه. إنه حلـم في واقعه وواقع في حلمـه. نحن لا نشتاق إلى فقر. ولكننا نشتاق إلى جنة. نشتاق إلى ممارسة إنسانيتنا في مكان لنا.

– قف عند هذه النقطة!

□ لقـد وقفت حياة آلاف الضحايا والشهـداء عند هذه النقطة. لم يكونوا مخدوعين. بعضهم ما رآه، فمات من عدوى الحب. ولكن الخارطـة ليست علـى خطأ دائماً، وليس التاريـخ على خطأ دائماً. لماذا اجتمع الأنبياء والفقراء والغزاة على حبه حتى درجة القتل؟ إن الرقصة الجنسية التي يمارسهـا البحر الأبيض المتوسط مع خاصرة الكرمل تنتهي بولادة بحيرة طبريا. وهناك بحر، سموه البحر الميت

لأنه ينبغي أن يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملّة. ومـن شدة ما ازدحم الجليل الأعلـى بالغابات، كان لا بد أن تبرهن القدس على أن الصخـور قادرة على امتلاك حيويـة اللغة. هذا هو وطني. ولم يكن والد صديقي المقيم في بيروت يبالغ حين شمَّ تفتّح أزهار الليمون في بيارات يافا في موعدها.. ومات.

– هو الفردوس المفقود؟

□ احـذر هـذا المصطلـح. لأن القناعـة بـه تسليم بحالـة قانونية ووجودية بلغت حدّ النهايـة. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلـق وبين الفردوس المفقود بالمعنـى الفلسطيني هو خلو حالة الحنيـن والانتمـاء النفسـي والشرعي مـن منطقة الصـراع. ما دام الصـراع قائماً، فـإن الفردوس لا يكون مفقوداً، بـل يكون محتلاً وقابـلاً للاستعادة. لا أعني الارتكاز علـى مفهوم خسارة المعركة، وعـدم خسارة الحـرب الذي ينطوي علـى دفاع عـن النفس أمام خسارة المعركة. ولكني أعني أنـه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنـه بهـذا المفهوم، كمـا يعامل العـرب الأندلس، وكمـا ينتظر المؤمنون الجائـزة. إن بين فلسطين والأندلـس فرقاً يشبه الموت. وإن بعضـ السيـاح الثوريين ممن ينظـرون إلى المسألـة من زاوية التشابـه حسـن النيّـة وسيـئ النتيجة ينطلقـون من موقـع الجمالية الشكلية وضبط التضامـن. إنهم سيبكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين الملهم. ولكن حين يلجـأ الحنين إلى البندقية تعبيراً عن بعـد المسافة بين فلسطين والأندلـس، فستجد هـؤلاء السياح المغرميـن ببكائيات الشعوب القديمة يحتجـون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي. إن فكرة الفردوسـ المفقود تغـري المفتقرين إلـى موضوع مؤثـر ولكنها

تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة، لأنه يشبهها ولأنه ممكن.

– ألم تقف، يوماً، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة؟

□ قبل هذا، لا تملك الطفولة دعوى في المكان. ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائماً وطنك، إلاّ إذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية. إذا كانت الولادة فردية واصطناعية، فإن المكان يكون صدفة. وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن. أن يتناسل غزاة في أرض الآخرين لا يؤلف حقاً وطنياً لهم. ولكن أن يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها. والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع الآن، بسبب النفي، لا تغير شيئاً حاسماً في تركيب الأشياء. أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم إلاّ إذا كان نتيجة زواج الشعب والأرض والحق. الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة. ومن هنا، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة.

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة. وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الإحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني، لأن رحيلي لم يكن اختيارياً. لم يكن سفراً. كان نفياً وطرداً. ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها ومقاومتها من داخلها بل في العودة إلى جذوري.. التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني إليها. نحن الآن في سن أكبر،

وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني إلى ظروف المنفى الداخلية وحدها، فذلك يشكل انتصاراً لأسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم أن يوقع بين الجرحى وإدارة المستشفى. لا أقول هذا لأشيد بحسن الإدارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة يجب ألا يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا.

لم تكن قادراً على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك إلى أنك فلسطيني، وليس من حقك أن تتفوق في الدروس. كانت تلك الإهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات، تفهم عندها أن قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة. ولكنك في السن المبكرة إياها تلمست، بشكل غريزي، أن خلاصك من الإهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الإهانة. وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري - لا الصدفي - بعالمك الأول. فتحولت قريتك الغامضة ذات الأزقة الضيّقة الواقفة على مرتفع صغير في سهل عكا، إلى حلّ لمشكلة لا تفهمها. ومن هنا، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها، أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين، وأدلة على امتلاكك لشروط إنسانية لا تشكل سبباً لتعرضك إلى الإهانة. وكان إحساسك بهذا البرهان يلتهب، بشكل خاص، في أيام الأعياد. كان الأطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد. وكنت تقف مع أبيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره.

– متى حدث ذلك؟

□ في عام 1949. بعد عام على الرحيل.

– ولماذا لم يحدث في عام 1948.. في عام الرحيل؟

□ آه. كنا سياحاً يومها. كان جدي يحمل كيساً كبيراً من النقود، وينزهنا في لبنان. يأخذنا إلى كروم التفاح لنختار الفاكهة المعلّقة على الشجر، ويأخذنا، كل أسبوع، إلى بيروت التي كانت أول مدينة أراها بعد عكا. لم تكن هجرة.. كانت سفراً ونزهة. كنا ننتظر انتصار الجيوش العربية على الغزاة خلال أسابيع ونعود بعدها إلى البروة. لم نسكن مخيماً، مررنا في رميش، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية. كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت. الليلة الأولى كانت في أحد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من «الضيوف» بيضاً مقلياً من إناء واحد. وفي جزين – حيث أقمنا – رأيت السواقي التي تسكن البيوت، ورأيت الشلال. وحين اشتد البرد هناك انتقلنا إلى الدامور وعبرنا كروم الموز، ولعبنا على الشاطئ، وسبحنا في البحر. عبرت الشارع الواسع يوماً قبل أخي الذي لحق بي، فضربته سيارة لم تصبه بجروح ولكنها أصابته بذهول لم ينج منه إلاّ بعد سنين. وكان جدي قارئاً جيداً للصحف التي وعدته بالعودة القريبة. وكنا نتحلق حوله وهو يقرأ الأخبار بنبرة عالية ونظارة نازلة. وكانت الجريدة تنقله من حزم الأمتعة إلى التريث قليلاً ومن ثم إلى الانتظار، حتى لاحظنا وهناً بطيئاً يزحف إلى نبرته التي أخذت بالانخفاض ونظارته التي أخذت بالارتفاع إلى مكانها الطبيعي. وفي ليالي الشتاء كان

إخوان الغربة والسمر يتبادلون الرأي حول المعارك الدائرة على أرض فلسطين، وقرأوا عن سقوط البروة.

– ألم تسقط من قبل؟

سقطت ليلة واحدة، ثم حرّرها أصحابها الفلاحون بأسلحتهم البدائية وبمساعدة من القرى المجاورة. وفور تحريرها استعدوا لجمع الحصاد الذي كان ينتظرهم على البيادر. ولكن جيش الإنقاذ استولى على القرية، بعد تحريرها، ولا نعرف كيف استلمها اليهود بعد ذلك.

بعد عشرين سنة، وبعد سقوط مدن عربية كثيرة لم تعجب آرائي التي عبّرت عنها بلغة عبرية لصديقي، رجلاً كان يجلس في المطعم، فانبرى للدفاع عن الظلم الإسرائيلي بذريعة ظنّها مفحمة. قال لي إنك لا تعرف العرب ولو كنت تعرفهم لما تكلمت عن العدل بهذه اللهجة. طلبت منه أن يزيدني علماً، فقطّب حاجبيه وسألني إن كنت قد سمعت بقرية اسمها البروة، قلت: لا، فأين هي؟ قال: لن تجدها على سطح الأرض، فقد نسفناها ومشطنا أرضها من الحجارة ثم حرثناها وأخفيناها تحت الأشجار. قلت: لإخفاء الجريمة؟ احتجَّ مصححاً: بل لإخفاء جريمتها تلك الملعونة. قلت: وما جريمتها؟ فقال: لقد قاومتنا.. حاربتنا. كلّفتنا خسائر كثيرة واضطررنا إلى احتلالها مرتين. في المرة الأولى، كنا نتناول طعام العشاء، وكان الشاي ساخناً، ففاجأنا الفلاحون واستردوها منا. كيف نقبل هذه الإهانة؟ أنت لا تعرف العرب وها أنذا أقول لك.

حين أخبرته أنني عربي وأنها قريتي حاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام. ثم دعاني لزيارة دكانه الذي يعرض فيه للمزاد العلني الأمتعة والأدوات المنزلية المسروقة من مدينة القنيطرة.

بعد أيام، كانت مستوطنتان يهوديتان تحتفلان باليوبيل الفضي لنشوئهما على أراضي البروة. وكنت أتحدث في مؤتمر صحفي عن الظلم اللاحق بالعرب، فتصدى لي مراسل صحيفة «الاستيطان». لوّحت له بنبأ الاحتفال، فحاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام.

هكذا هم.. يرتكبون الجريمة وينفونها. وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام إلى السلام.

«وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها. ومدناً لم تبنوها، فأقمتم بها، وكروماً وزيتوناً لم تغرسوها، وأنتم تأكلونها».

– وهل حدث أن زرتها بعد ذلك؟

□ حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفراً ولا نزهة، وأن الحرب انتهت بسقوط كل شيء، وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود، وهي تتحول في يده إلى بطاقة الإغاثة، بدأ يشعر أن الخروج خطأ. صار يعي الغربة والنفي، فلجأ إلى استرداد الآمال المعلّقة على الجيوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي إلى أرضه بحضور عملي. هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون – وأنت أعزل إلاّ من الحق، خلقت «وعي التسلل» إلى الأرض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة، من أجل تحقيق الحضور والتخلص من الإهانة. تسللنا

فـي الليل الوعـر تحت خطر الموت. لم نذهـب سوية خوفاً من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين إلى الخطر. التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك. ها نحن مرة أخرى في فلسطين. هذه هي العودة. لم نعرف أننا سنستبدل اللجوء في لبنـان باللجوء في الوطن. ولم نعـرف أن حضورنا الجسدي في الوطـن هو غياب في القانـون الذي وضعه الغـزاة بسرعة بالغة. سمونـا «الحاضرين الغائبيـن»، كي لا يكون لنا حـق في شيء. ولكننـا عرفنا أن آلافاً مـن العائدين كانوا يوضعـون – فور إلقاء القبضـ عليهم – في شاحنات عسكرية ويقذف بهـم إلى الحدود كمـا تقذف البضائع الفاسدة. وكنا نعـرف أن مئات منهم قتلت بالرصاص كي تكف عن محاولـة التفكير بالعـودة. وعرفنا أن زوج خالتـي – مثـلاً – تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن. أيهما أكثـر إيلاماً: أن تكون لاجئاً في أرض سواك أم أن تكـون لاجئاً في أرضك! هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الإسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحـراث الإسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده، لاستخراج الحنطـة والعنب مـن أجل القادميـن من كل أنحـاء العالم، وهو يمنـع من مجرد الحج إلـى أرضه، هل يكون التـراب قدسياً إلى هـذا الحـدّ؟ بالنسبة للفلسطينـي نعم. تحاط القـرى بسياج من الأنظمة العسكرية يكلف اختراقهـا سجناً وغرامة. والقرى التي عوقبت بالهدم – وهي عشرات – إما بسبب خصوبة أرضها وإما بسبب مقاومتها السيف الطالـع من التوراة – يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغييرات على سياج الأمن الإسرائيلي. من هنا، كان الوصول إلى القرية مستحيلاً. اكتشفنا أن العودة لم تكن حلاً لمسألة معيشية ولا حلاً لاغتراب نفسي. ولكنها كانت تعميقـاً للحضور الذاتـي وبديلاً للنفي الاختيـاري ومجازفة في

الاقتراب من أصول الحق والهوية. هذه هويتي وما أشد اغترابي. ولكـن اغترابي هنا إيجابي لأن مصدره خارج عن إرادتي ولأنني حاضر. والحرقة التي تشحـن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحـول إلى طاقة للرفض. وعلى الطريق مـن دير الأسد إلى عكا تقف البروة على الهضبة إياها. لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسماً آخر. دلّتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين. ودلّتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين. ليس المكان مساحة فحسب. إنه حالة نفسية أيضـاً. ولا الشجر شجر. إنه أضـلاع الطفولة. كان البكاء ينهمر مـن أطراف أصابعـي أيضاً. ومرّت سيـارة الباص بسرعة. وعند العـودة تجددت أحـزان طفولتي . هـذا الحلم الواقـف أمامي، لمـاذا لا أرتديه مرة لأقول وصلـت إلى اللذة القاتلة؟! إن الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون؟

– وهل ناموا.. ودخلت؟

□ حدث ذلك في وقت لاحـق. لم يعد البكاء لائقاً بمن هم في مثـل سني. كنـت أختبر قدرتي على مواجهـة الطفل الذي تركته هنـا في السابعة مـن العمر. صار الشوك أطـول مني ومنه فضعنا معاً. لم نعد نعرف أيّنا سيعثر على الآخر. ولكنني لم أر، من قبل، عصافيـر بمثل هـذه الألوان الخضراء والزرقـاء. جرحتني شوكة حادة، ففرحت لأنها نقطـة الوصول. كنت غارقاً في الإحساس بالحـج، ولكن لم أجد الكعبة. مـن أعطى الأرض هذه الوحشية إلاّ الهجـر؟ كبـرت أشجار الصبّـار التي رمى الإنجليـز أبي فيها وقطعوهـا عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب مـن جلده مائة شوكة غيـر التي اختفت في اللحم. من أكثر حظاً يا أبي؟ ذاك الذي أكل

الشوك وواصل تربية الأرض، أم ذاك الذي جاء إلى الأرض فلم يجد إلاّ الشوك؟ وهـذا الراعي الصغير الذي أدهشته تحيتي: من أين أنت؟ من اليمن؟ أخبرتـه أنني من هذه القرية، فظنني رومانياً لأنه يعتقد أن هذه الأطلال آثار قرية رومانية.

«وإذا رحلنـا إلى منطقة فيها مـن الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعوّديـن عليه، مثل الأفاعـي الكبيرة، سأستخـدم أهل البلاد – قبل أن أعطيهم أعمـالاً في البلدان المجاورة – ليقضوا على مثل هـذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيـرة لمن يأتي بجلد الأفاعي وبيضهـا» هكذا قال هرتسل.. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني أبحث عن أفعى.

واصلت طريق الشوك والحجـارة القديمة بحثاً عن الطفل الذي تركتـه هنا. لم أجد شجرة التوت التـي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها. لاشيء.. لا شيء إلاّ هيكل كنيسة ضاع منها الجرس. دخلت الكنيسة، فكانت الأبقار تجترني بكسل. ما عاد بوسعي أن أرضى بالأطلال تجسيـداً للحلم، لأن انتمائي لم يعد غريزيـاً.. صار أكثر وعياً، وصار مضمون الحلم – لا انفجاره – هو قضيّتي.

– لـم تقل لي لماذا خرجتم. لمـاذا لم تصلوا إلى هذه القناعات إلاّ بعد هذه الخسارة؟

□ أبي يقـول إنهم لم يفهموا ماذا يحـدث. كانت معركة عابرة مضمونـة النتيجة كما تصوروا. كان الخروج من القرى تخليصاً للجسـد من الموت دون أن يقابله معنـى التنازل عن الأرض. لم

تكن فكرة الوطن تحتاج – على ما يبدو – إلى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط. لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين، ولم تكن الدعوة إلى البقاء – على ما يبدو – جزءاً من المعركة لأنها لم تكن محددة القوى والأبعاد، هل يعني ذلك أن الحسّ الوطني كان رديئاً؟ كلاّ. بدليل أن الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء أنفسهم وبدوافع وطنية خالصة. ولكن التنظيم كان هو الرديء. وكان الانطباع الشائع – أو الخديعة إذا شئت – يقول أن الخروج مؤقت، لأيام معدودة. فلماذا يموت الأطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني إذا كان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معاً؟ إن الإسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حسّ الانتماء إلى الوطن والافتقار إلى الجدارة بوطن تخلوا عنه بسهولة. والإسرائيليون لا يخدعون إلاّ أنفسهم حين يصدقون ادعاءهم، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التي أضافت سبباً قوياً لدفع العرب إلى الخروج. ووضعوا أمامهم الاختيار التالي: إما الموت، وإما النزوح لعدة أيام، وإن تفريغ فلسطين من العرب لم يكن إجراء طارئاً استدعته ظروف، بل كان خطة ثابتة في استراتيجية العمل الصهيوني قبل إنشاء إسرائيل، وخلال الحرب، وبعدها. وقد نفّذوها بالعنف المسلّح، ووجدوا فتوى دينية في مثال يهوشع بن نون وفي أن «يوم الرب هو يوم إرهاب» ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم. ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة إسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين، وقتها، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي: إما أن تخرجوا وإما أن يحدث لكم ما حدث في دير ياسين. وفي كل القرى التي احتلوها، فيما بعد، كانوا يجمعون السكان في

الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم أمام الاختيار ولكي تصل أنباء المجزرة إلى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا أحقادهم التاريخية المكبوتة. ووجد الإسرائيليون أيضاً فتوى قانونية تقول أن العرب باعوا أراضيهم. ومن المؤسف أن تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه الكذبة الإسرائيلية، دون أن يحاول أصحاب هذه القناعات معرفة أن اليهود لم يملكوا حتى عام 1948 أكثر من 6 بالمائة من مجموع أراضي فلسطين.

- وأنتم.. ماذا فعلتم بأرضكم؟

□ اسأل عما فعلت بنا الأرض؟ قتلت جدي من القهر والانتظار. وشيبت أبي من الكدح والبؤس. وأخذتني إلى الوعي المبكر بالظلم. كان جدي ملاكاً موفور الحال. وحين حدث ما حدث، وصار هو «حاضراً غائباً» كان يقضي أيامه أمام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر إلى مدينة عكا لا لشيء إلاّ ليرى أرضه من خلال نافذة سيارة الباص. يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات.. وينتظر. هو الذي رباني وكنت أحبه أكثر من أبي الذي كان مشغولاً بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر. علّمني جدي القراءة ومساحة الأرض وأعمار الزيتون. وكان يشتري لي كتباً من عكا ويأخذني إلى أصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم، ولا يخطئ إلاّ في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية إلى أن ينام. وفي الصباح أذهب إلى المدرسة التي لا تسجل اسمي لأن أبي غير مسجل في ملفات الحكومة. من ذهب إلى لبنان

وعـاد بعد عام أو عامين لا يعود مواطناً. ومن جاء من وارسو بعد ألفي سنة يملك الحق والوطن!

وفـي ساعـة متأخرة مـن الليل يـدق ضابط الشرطة بـاب البيت الطيني بعصاه، ويوقظ الأسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والأبنـاء الأربعة – وكلهم مكدس فـي غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبـخ. يتوجه الضابط إلى الجدّ ليسأله: هل عاد أبنـاؤك من لبنان؟ يعتـرف الجد «بالجريمـة»، ويسوق الضابط الأب والعم إلى الاعتقال بتهمة التسلل إلى بلادهما!

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الأمل، فانتقل إلى قرية أخرى قريبة مـن أرضه. وذات صيف احتال على القانـون، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه. وهكذا أتيحت الفرصة لصاحـب الأرض أن يشتري مـا تنتجه أرضـه. وكان جدي قليل الدراية بالتجارة، فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلـة في حقله القديـم. وشرح لي، تحت الشمـس، تاريخ هذا التـراب الذي لا تجد فرقاً بسيطاً بينه وبين جلده. كان تعلق جدي بشـكل الانتماء الوطنـي المتجسد في ملكية التـراب وحنينه إلى إعادة الصلـة المقطوعة، قانونياً، والمتلاحمة، تاريخياً ووجدانياً، أقوى من البؤس المفاجئ الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقـه. فلو كان انتمـاؤه معيشياً لحل المشكلة بفـك هذا الانتماء الـذي سيضمن له الرخاء. ولكنه آثر الحرمان على بيع الأرض، لم تعد الأرض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل أن تتحول إلـى شرط الكرامة. صارت تعني لـه الآن، بعد مصادرتها، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى. وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من ساحة

الجريمـة والعذاب «لن أبيعهم أرضي حتى لـو مت جوعاً»، وقد أورث هذا المعنى لأبي الذي كان امتحانه أقسى وأعنف. إنه يعيل أسرة من ثمانية أفراد تسكن بيتاً من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل. ولا مصدر رزق للأسرة الكبيرة التي تطالب بالأكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة، يصحو فـي الخامسة صباحاً ويعود في الخامسة مسـاء إلى النوم ليصحوا قادراً علـى مواصلة العذاب اليومي. كان المقلـع بعيداً في منطقة سموهـا منطقة منـاورات عسكرية، وكان الوصـول إليها يقتضي التوقيـع علـى وثيقة الموت التـي تحمل تنازل حاملهـا عن حياته وإهدائها إلى دولة إسرائيل في حالة تعرضه للموت.

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله «لن أبيع ولو مت بين الصخـور». كان يقول دائماً: ليس العمل الأسود عيباً ولكن الضمير الأسـود هو العيـب. كنت في السنة الأخيرة مـن المدرسة الإبتدائية حيـن ألقيت قصيدتي الأولى على جمهور كبير جمعه أعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام إسرائيل. قلت كلاماً ضد الحكومة والانتصـار وضـد الظلـم والاستعمار، فجـنّ جنون مختـار القرية المسـؤول عن الاحتفال وقال: هذا الصبي جـاء ليخرب بيتنا بعدما خرب بيتـه وبيت أهله. لمـاذا لايراعون أصـول الضيافة..؟ وغيره مـن الكلام الـذي نسمعه الآن. وفي اليوم التالـي استدعاني الحاكـم العسكري واسمه دوف، فوبّخنـي وضربني فما بكيت. وحين قال لـي: سأمنـع أباك من العمل فـي مقلع الحجارة وأقطـع عنه تصريح الموت، بكيت في طريـق العودة إلى البيت، لأن هذا معناه أن أزداد جوعاً وبرداً، وإلاّ أنتقل إلى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة، فليسـ التعليم مجانياً كما يظن البعض. وفي البيت شجّعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والأمل ولم يزل.

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر. واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم. لا يعطينا أحد ماء بالمجان إلاّ السماء أيام الشتاء. فكانت أمي تقضي نصف نهارها في انتظار امتلاء الجرة من عين الماء التي تعطي قطرات بخيلة. كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت. وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين إلى أشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية. لم تذهب يوماً إلى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب إلى جنازة في القرية والقرى المجاورة. عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء. وبارعة في السخرية.

وكان عمي ينفّذ وعد هرتسل، فيعمل أجيراً عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الأعمال السوداء «التي لم يتعود عليها اليهود» ولا يحصل على جائزة لأنه لم يحمل لهم جلد الأفاعي وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقوداً من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود. وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة.. حبة.

هكذا، آثروا جميعاً، بالفطرة والكرامة، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته، لأنه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد، على أن يستريحوا قليلاً مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم.. وليس لأعدائهم، ولكنه لأبنائهم.

- وماذا أخذتَ عنهم؟

□ المعاني ذاتها ولكن في إطار مختلف. كان انتظارهم سابياً، وكانت الأرض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش. أما بالنسبة لأبناء جيلي فإنها تعني – بالإضافة إلى ذلك – ساحة صراع ومستقبل. فالحنين طاقة إنسانية غير متحركة. إنه سلاح سلبي. وقد أخذ الصراع أشكالاً متدرجة أولها الرفض والإيمان بالقدرة على التغيير، ثم الصراع ضد القوى والظروف التي جعلت مواطناً بلا وطن، في إطار عمل جماعي لا يحاصر نفسه بالذكريات، بل يطلقها باستشراف حياة أخرى عن طريق الممارسة اليومية. الانتماء إلى الأرض – الوطن لا يحقق فعالية إلاّ إذا ارتبط بانتماء إلى قوة من قوى الصراع. هكذا أدركنا في جيل مبكر.

– كان هذا ممكناً؟

□ في إطار الاختيارات المحدودة.

– من أين كان يأتي الأمل؟

□ من الخارج.. من الخارج دائماً، إن الأسرى يصارعون ضمن إمكانياتهم. ولكن تحطيم السجن كلياً لا يأتي إلاّ من النافذة: وكانت النافذة أوسع في البداية، لأن الأخوة كانوا أقرب.

– من أين يأتيك الحزن؟

□ من مسام جلدي.

– ومن أين يأتيك الفرح؟

□ من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين إلى الجنة.

– تذكر متى افترقنا؟

□ حين مات جدنا ولم يدفن في قبر اختاره. ولم تخجل الإذاعة.

– ولماذا تذهب إلى العالم دائماً؟

□ أنا لا أذهب إلى العالم. ولكن العالم هو الذي يأتي إليَّ دائماً.. ويحاصرني.

– متى نلتقي ثانية؟

□ حين يدق جدار صدري وتقفز منه لتجلس في مواجهتي كعادتك. ولكن لا تكثر من زياراتك.. أرجوك. لا ينقصني حزن وبراءة.

– تقتلني؟

□ حين يقتل الإنسان طفولته ينتحر. وأنا بحاجة إليك كشهادة على جيل. لا تأتِ كثيراً لأن البشاعة تملأ المدن. وأصدقائي يموتون كثيراً هذه الأيام.

– لا تنسني.

وعاد إلى صدري ليتسلق جذع شجرة التوت في ساحة البيت القديم، ويقطف القمر الذي لم يسقط في البئر.

الوَطن... بَين الذاكرِة وَالحقبَة

1

□ ما هو الوطن؟

الخريطة ليست إجابة. وشهادة الميلاد صارت تختلف. لم يواجه أحـد هذا السؤال كما تواجهه أنـت. منذ الآن وإلى أن تموت، أو تتوب، أو تخـون. قناعتك لا تكفي، لأنها لا تغير ولا تفجّر ولأن التيه كبير. ليست الصحراء أكبر من الزنزانة دائماً. وما هو الوطن؟ ليس سؤالاً تجيب عنه وتمضي. حياتك وقضيتك معاً، وقبل ذلك وبعد ذلـك – هو هويتك. مـن أبسط الأمور أن تقـول: وطني.. حيث ولدت. وقد عدت إلى مكان ولادتك ولم تجد شيئاً. فماذا يعنـي ذلك؟ ومن أبسـط الأمـور أن تقول أيضـاً: وطني.. حيث أموت. ولكنك قد تموت فـي أي مكان، وقد تموت على حدود مكانين. فماذا يعني ذلـك؟ وبعد قليل.. سيصبح السؤال أصعب.

لمـاذا هاجرت.. لماذا هاجرت؟ منذ عشريـن عاماً وأنت تسأل: لماذا هاجروا؟ ليست الهجرة إلغاء للوطن. ولكنها تحويل المسألة إلـى سـؤال. لا تؤرخ الآن. حين تفعل ذلـك تخرج من الماضي. والمطلـوب هـو أن تحاسب الماضي. لا تـؤرخ إلاّ جراحك. لا تـؤرخ إلاّ غربتك. أنت هنا.. هنـا. حيث ولدت، وحيث يأخذك الشـوق إلى الموت. وما هو الوطن؟ ولكنك جزء من كل، والكل غائب، ومعروض للإبادة. ولماذا صرت تخشى القول: إن الوطن هو المكان الذي عاش فيه أجدادي؟ لأنك ترفض ذريعة أعدائك. هكذا يقولون.

– ماذا تعلمت في المدرسة؟

□ «سلام على العصفور العائـد من بلاد الشمس إلى نافذتي في المنفى. أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي».

– والأغنية السابقة؟

□ ألغوها.

– ماذا كانت تقول الأغنية التي ألغوها؟

□ عليك مني السلام.

يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام

وطاب إنشادي.

لا فارق كبير بين الأغنيتين، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب. كلتا الأغنيتين تعلن الحب للأرض ذاتها. وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء إلى الأجداد. الأولى – لشاعر يهودي عاش في روسيا. والثانية – لشاعر عربي عاش في فلسطين وما رأى المنفى وما سمع به. بعد قليل، تغلبت الأغنية الأولى على الثانية، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد. وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم. وصار طريقهم إلى المستقبل مرهوناً بإتقان أغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا. والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة إسرائيل وبتهمة اللاسامية. ثم كبرنا قليلاً، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة، ولم نأخذ من المتنبي إلاّ «فيك الخصام وأنتَ الخصم والحكم».

هم الخصوم والحكام..

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«تخرج مع موسى من مصر هارباً. تضرب البحر بعصا. ينشقّ البحر. يمر بنو إسرائيل، ثم يلتهم البحر أعداءهم. تبقى في صحراء سيناء أربعين عاماً. تتصالح مع الرب. وتعود..».

هم الخصوم والحكام.

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«جلس تيودور هرتسل وفكّر بمصير شعبه المضطهد. أَلَّف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد إلى أرض الخلاص الوحيد.. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي إلاّ بالعودة إلى وطن الأجداد.. إلى فلسطين».

وحين تسـأل المدرس عن مصير الشعـب العربي الفلسطيني وعن وطنه، يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسيـة التاريخ. ولكن، حين يكـون المدرس يهودياً يترجم لك ما قالـه حاييم وايزمن في مجلس السـلام في باريس عام 1919: «إن أرضـ إسرائيل يجب أن تكون يهودية كمـا أن إنجلترا إنجليزية». وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك إلى أن وايزمـن قد أضاف: «أن الصهيونيين لـن يدخلوا أرض إسرائيل كالغزاة. لن يطردوا أحداً».

لن يطردوا أحداً..

2

لا تسأل أستاذ التاريخ. لقمـة عيشه يأخذها من الأكاذيب. وكلما ابتعـد التاريخ، عادة، كلما اقتربت الكذبـة من البراءة، وقلّ أذاها. وأستـاذ التاريـخ هـذا يعرفك جيداً. علـى بعد خمسـ دقائق من المدرسـة يخرج شارع من عكا إلى الشرق في اتجاه صفد. وفور خروجك من عـكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضـر. على هذه الرابية، ولدت قبل قليل. ما زالت طفولتـك قريبة من كل شيء.. مـن الرابية من السهل ومن الشارع الأسود ومن طلقات الرصاص الأولى. لولا القمر، ليلتها، لفقدوك

إلى الأبد، واستبدلوك بشيء آخر، كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر. هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئاً حسبته طفلها وقفزت إلى أقرب زورق. في البحر الذاهب إلى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة ومن يومها، أصيبت بالجنون. كم طفل تحول إلى وسادة، وكم وسادة تحولت إلى طفل. وما هو الوطن؟ وطن الأم طفلها ووطن الطفل أمه. «والفلسطينيون باعوا أراضيهم وهاجروا» – هكذا يقول الأصدقاء والأعداء على السواء. الموت ليس استشهاداً حين يكون بالمجان. ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن. أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة. والذين يقولون الآن أن الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة. وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة.

وليلتها، لم تفهم شيئاً، سألت أباك، فنهاك عن السؤال لأنك صغير، وضعوك في قرية مجاورة. وذهبوا. وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحداً. وفي جنوب لبنان تصبح لاجئاً تأكل من وكالة الغوث، وتنتظر العودة. وفي جنوب لبنان تعرف، للمرة الأولى، ما هو الوطن. هو هذا الشيء الضائع. هو هذه العودة المنتظرة. وحين تعود بعد عام أو عامين إلى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعاً.

لا تخبر أحداً أنك كنت في لبنان.

أين كنت إذن؟

في مضارب البدو شمال فلسطين.

بعد قليل، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة. اسمها إسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه.

– وماذا لو قلت إني جئت من لبنان.

لأنك عدت متسللاً والدنيا تغيّرت. لن نحصل على بطاقة هوية. في كل أسبوع جنازة في القرية. الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص. وأستاذ التاريخ يقول لك إن اليهود لن يطردوا أحداً... وحين تسأله: كيف تكون إسرائيل يهودية كما تكون إنكلترا انكليزية دون أن يطردوا العرب، ينهاك عن الأسئلة ويقول لك: التاريخ تاريخ، والسياسة سياسة. وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية، يخرج شارع من عكا إلى صفد. هذا الشارع، بالنسبة إليك، ليس طريقاً ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك. الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن. في اللحظة التي وصلوا فيها إلى أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم. وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك. في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئاً. إذا وطئت قدماك هذه الأرض – أرضك ساقوك إلى المحكمة، ومن المحكمة إلى المنفى. وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حيناً وبالخيال حيناً آخر. وهنا، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن؟ هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والأرض. ليس الوطن أرضاً. ولكنه الأرض والحق معاً. الحق معك، والأرض معهم. وحين امتلكوا الأرض بالقوة صاروا يتحدثون في

الحـق المكتسب. كان «حقهـم» تاريخـاً وذكريات. وصار أرضاً وقوة. وأنت بلا قوة – فقدت التاريخ والأرض والحق.

3

«اسمع.. يأتي المهاجرون، ويأخذون هذه الأرض، وتصير جميلة.

«نفتـح حانوتاً، ونبني مدرسـة، وكنيساً. وستكـون هنا أحزاب، وسنتناقش حول عدة أمور. سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها. وتحيـا خزعة العبرية! ومـن سيتصور أن خربـة خزعة كانت هنا. طردناهم وورثناهم. جئنا، أطلقنا النار، حرقنا، نسفنا، ونفينا».

ليسـ هذا كلامـاً عربياً. إنها صرخـة ضمير نـادرة أطلقها أديب إسرائيلـي قبل أكثر من عشرين سنة، تعطـي تحديداً دقيقاً لحقيقة مفهوم الوطن. تـرد على التاريخ وعلى أستـاذ التاريخ. هكذا قام «الوطـن» الإسرائيلـي: لا بالحق، ولا بالتاريـخ، ولا بالهرب من الاضطهـاد. بالعنـف وحـده: طردناهـم وورثناهـم. – أحرقنا ونسفنـا ونفيناهم. ولكـن الصرخة نادرة وسـط ضجيج الدعاية والأكاذيب. وحين تسيـر، معهم، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون. ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم: لا مفر. وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء إلى حق يعتاد عليه الناس.

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد. فلسطين كلها ترجمت علـى هذا النحـو، أن الإسرائيلي يسكن بيتـاً مسكوناً بالأشباح، ولكن انصرافه إلى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صدّ كل ما يعيـق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميـره من التساؤل عن فظاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته. ومع مرور الأيام، تنكمش صورة

العربي وتذوب. كانت عبئاً على الضمير، ثم تحولت إلى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من إبادته، ولا حق لها بالوطن.. لا حق على الإطلاق.

خلال حرب حزيران/ يونيو، فوجئ كثير من الجنود الإسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة. وبأنهم يتذكرون وطناً ضاع. وأكثر ما فاجأهم هو أن الأطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن. وروى جندي إسرائيلي أنه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد أن السكان لايزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة. إنهم موزعون وفقاً لما كانوا عليه. القرية ذاتها والشارع ذاته. وقد اهتاج الجندي.

لماذا ؟

– كنت عاجزاً عن الفهم. لقد مرّت تسع عشرة سنة ومازالوا يقولون: نحن من بئر السبع!.

وقال لي جندي شاعر إنه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوماً واحداً في حياته إلاّ حين دخل إحدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الأخيرة. كان في الزيّ العسكري. ورأى طفلة في الشارع تنظر إليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال. من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك أنه محتل. لم يخفِ الجندي دهشته من رفضِ عيون الطفلة. قال: هذه الطفلة.. من أين جاءت بالذاكرة؟ ومن علّمها أن لها وطناً.. من علّمها!

صراع بين ذاكرتين!

الذاكرة اليهودية تشكل إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق

في فلسطين. ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الآخرين في التمتع بحاسة الذكريات. والإسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة. على الرغم من أن أحد شعاراتهم القومية شعار: «لن ننسى». ومن قضايا التعليم الإسرائيلي الأساسية والأولى في سلّم الأولويات الصهيونية إبقاء الوعي العام في حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية، كانوا يقولون دائماً: «لتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم». وبعد الكارثة التي تعرض لها يهود أوروبا على أيدي النازية أصبح الشعار الأساسي عندهم: «لن ننسى.. ولن نغفر». وفي كل عام، يحيي الإسرائيليون ذكرى ضحاياهم. تتعطل كل مرافق الحياة في إسرائيل. وهناك متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكير الجيل الجديد بالكارثة. وفي كتاب «الإسرائيليون» لعزريا أيلون فصل خاص عن هذا الموضوع، يقول فيه: «إن إحياء ذكرى الكارثة يُقر، في نظر الجيل الصاعد، إحدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية، وهي أن اليهودي بدون وطن سيبقى حثالة بشرية وفريسة للحيوانات الشريرة» ويعترف الكتاب بأن السياسة الإسرائيلية تستغل الكارثة لأغراض ابتزازية.

إن الثقافة الإسرائيلية تلحّ على إشباع المواطنين بذكريات كارثة أوروبا لتعميق إحساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم. ويشكل هذا الإحساس عنصراً جوهرياً في بنية النفسية والمزاج الإسرائيليين. ومن هنا، تكون تنمية الذاكرة الإسرائيلية مكرّسة لغرض سياسي محدد: الإلحاح على الإسرائيلي بأنه دائم التعرض للإبادة، وأن العودة إلى «أرض إسرائيل» والصمود فيها هو الأمان التاريخي والسياسي الوحيد، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين.

ليس من واجب اليهودي، وحده، ألاّ ينسى مذابح النازية. كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية إحياء الذكرى واستخلاص العبرة. وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وبين حركات عنصرية في عالمنا اليوم. ومهما بلغت درجة العداء الإسرائيلي – العربي، فليس من حق أي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه، لأن النازية عدوة كل الشعوب. هذا شيء.

ولكن تمادي إسرائيل في تفريغ أحقادها بشعب آخر.. هو شيء آخر. فالجريمة لا تعوض بالجريمة. وأن يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن أن يكون تعويضاً عن الكارثة. إن الإسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة في التاريخ، حتى حوّل هذه الصفة إلى ميزة وامتياز. ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزاً كل العجز عن إدراك هذه الحاسة لدى الآخرين. وليس من القسوة أن نقول إن سلوك الإسرائيليين الصهيونيين ضد شعب فلسطين الأصلي هو تطبيق متشابه للممارسة النازية ضد اليهود أنفسهم. وليس من القسوة أيضاً أن نقول إن سلوك الإسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة أنها تتاجر بدم الضحايا اليهودية. بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمناً لضحايا النازية تقتل شعباً آخر. ومن هنا، ليس من القسوة أيضاً القول أن الطريقة التي تحيي بها إسرائيل ذكرى ضحايا النازية تتّسم بالابتزاز، لأن الهدف السياسي من إشباع الإسرائيلي بحسّ الكارثة مكرّس لإشباعه، في الوقت ذاته، بالحاجة إلى الانتقام لا من قاتله.. بل من ضحية أخرى هي الشعب الفلسطيني. إن الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي – إذا صحّ الرقم – قد أعطاه وطناً!

4

لا يعترفون بحقك.. ولا يعترفون بذاكرتك

ذهبت إلى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر. وأعلنت أنك موجود. قال صديقك: تعال إلى مغامرة. إن اقتحام الجمال مغامرة حقاً. إلى الجنوب من حيفا – على الشارع المحاذي للبحر الأبيض، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها إلاّ في جرحك المفتوح. تنحرف السيارة إلى الشمال قليلاً فتجد نفسك في كنز. على المدخل لافتة بالعبرية تقول «هنا عين هود». اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة. يسقط الوطن، ولا يسقط حرف. وما هي عين حوض؟ بيوت عربية باقية من الخارج كما تركها أصحابها. كل بيت يختبئ في غابة ويستقل عن العالم، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقاً صغيراً إلى البحر. السكان الأصليون نقلوا إلى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي. لماذا هذه السادية؟ يرون إلى بيوتهم وسكانها الجدد وإلى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة. وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم.

لصديقي صديق رسام إسرائيلي يقيم في هذه القرية. أصرَّ على الاحتفاظ بالبيت العربي القديم على حاله. «ديكور جميل يذكرني بالشرق» هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية. سألناه عن علاقته بالأرض التي يسكنها الآن. فأجاب بأنه يحبها. ذكرناه بأن مجرد حاجته إلى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الأرض، ويعطيه صفة السائح. قال: ليس لي مفر. ثم دلّنا على التشابه التاريخي بين العرب واليهود. إن صفة

اللجـوء تجمع بينهما. والآن، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الآخر. قلنا: إن ما يجمعهما هو، في الوقت ذاته، نقطة الصراع بينهما. لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر إلى نقطة الدائـرة ذاتها. وهكذا تكون المعادلـة متناقضة. حين تجد نفسـك تلغيني من وجـودي، وحين أتمسك بوجـودي تتحول العلاقـة ما بيني وبينك إلى صراع. لا لأني أعترض على خلاصك وعلى احتمـال المشاركة في الوجود، ولكـن لأني أعترض على إلغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك.

لا تنتهـي المناقشة في مثل هذه الحـالات، لأن الاعتراف بالحق نفـي. فعلـى بعـد خطوات منـا يجلسـ أهـل القريـة الأصليون وينظـرون.. وليست صهيونية عربية – كما يدّعون – أن يتمسك العربـي بذاكرته عقدين من الزمن. إن طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هـو ضعف إسرائيلي أكثر من كونه ذريعة. فالاحتكام إلى الذاكرة يبطل الدهشة الإسرائيلية الناتجة من تمسك الفلسطيني بذكريـات طازجة. إن الذي أباح لنفسـه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع فـي الوهم. واحتكار البكاء – إذا جـاز التعبير – ليس صفة قومية تدعو إلى الاعتزاز. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو – وفي ساعة محددة في الصباح – تنطلق صفارات الإنذار في كل أنحاء إسرائيل لتعلن الوقوف حـداداً على الذين سقطوا فـي «حرب التحرير». السائر يتسمّر أينما كان. والسيارات تقف. والأعمال والماكنات تتوقف إعلاناً للحداد الذي يسبق الاحتفالات والفرح. وماذا يفعل العربـي؟ يبكي فـي القلب أو ينفجر من الضغـط. إن إعلان ميلاد إسرائيل هـو في الوقت ذاته إعلان وفاة الوطـن الفلسطيني. هذه اللحظة، إذن، هي الزمن الفاصل بين حالتين. ولكنك ممنوع من

التذكر والذكرى. تكـون محاربة الذاكرة الفلسطينية، إذن، هدفاً صهيونياً ومطلبـاً قومياً من الدرجة الأولـى. لا. ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك. وفي هذه اللحظة – المفارقة تلتقي دمـوع الأضداد. أنت تبكي على وطن ضـاع. وهم يبكون على من ضاعوا بحثاً عن «وطن» وُلِد.

تقـف في الشـارع الذي يلتهمـك ويلتهـم الغيظ والقهـر. ما هو الوطـن؟ أن تحتفـظ بذاكرتـك – هـذا هـو الوطـن. إن أحزانهم كثيـرة. كل أعيادهـم حزينة. ولكنـه حزن الذكريـات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجـم الكون. في الليل يرقصون بجنون، يقبلـون على الحيـاة بجنون. لمـاذا تطالبهم بـأن يفهموك. كنت تقـول دائماً: ليتني أكتـب مقالاً واحداً دفاعـاً عنهم.. وأموت. لا يبـدو أن النفط العربي سيتيـح لك تحقيق هذه الأمنيـة الخبيثة. إن أحـزان المنتصرين نفاق وخداع، وليست دليـل رقيّ بقدر ما هي دليـل نقص. لقد حملوا أحزان التاريـخ وأفرغوها بك أنت. وأنت مطالـب بألاّ تحـزن. ممنوع من الحـزن يا عربـي!.. هم يحيون ذكرى الحجـارة والمومسات وأبطال العـدوان، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقيـة، وأنت ممنوع من إحياء ذكرى أحد أو شيء. أكثر مـن ذلك: يدعونك إلـى الاشتراك في احتفـالات انتصارهم عليك. وإذا رفضت عوقبت. لم يسمحوا لك بإحياء ذكرى ضحايا كفـر قاسم. إن ضحاياهم – كل ضحاياهـم سقطوا بأيدي سواك. وضحايـاك – كل ضحاياك سقطوا بأيديهم. حين تأتي ذكرى كفر قاسم يحاصرون القرية والمقبرة، ويمنعون الناس من الدخول، لأن الحزن ممنوع. وأكثـر من ذلك: يصادرون مزيداً من الأراضي في الجليـل.. يترجمون الجليل من جديد بمدينـة يهودية «كرمئيل». يتظاهـر سكان ثـلاث قرى عربيـة سلبت أراضيهـم. يحاصرون.

يعتقلون، وتنتصر «كرمئيل». ويختارون يومِ الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفر قاسم بالذات. لا استفزازاً ولا سادية ولا استهتاراً فقط بل مظاهرة قدرة على القهر أيضاً. هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين. فماذا يعني قولك – يا صديقي الرسام – أن تشابه اللجوء يجمعنا؟ لا شيء.. لا شيء إلاّ الابتزاز. اللاجئون الذين شرّدتهم النازية وجدوا وطناً لهم في فلسطين. واللاجئون الذين شرّدتهم الصهيونية.. أين يقيمون..أين؟

5

ذلك الطفل الذي أسلمته رحم أمه إلى الأرض، وأسلمته الشرطة إلى المنفى، وأعاده الحنين إلى أرض مفترسة، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الأشياء، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة. لماذا تكون قدرتك على تحديد «ما هو وطنك؟» برهاناً على شرعية انتمائك إلى هذا الوطن. الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن. أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطناً. إن إحساسك بالحاجة إلى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة. فتلك الصخرة، بالنسبة إليك، اجتهاد فكري. وهي، بالنسبة لصاحبها، سقف وجدار. والصخرة لا تكون صخرة إذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات. الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية. وماذا تقول لي أيضاً؟ كانت صحراء هذه البلاد! لا تذهب بعيداً في الأكذوبة. فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الأيام. لا يحق لك أن تحاسبني

علـى الجدارة. فلست محامياً للرمـل أو الحدائق. ما جئت لتدافع عـن حق الرمل في الماء ولا عن حق الشجر في الخضرة، لو كانت بلادي كذلك لما أغرتك باحتلالي.. وحرقي.. وطردي. ولم نبلغ، حتـى الآن، مرحلة الوقـوف أمام دائرة الطباشيـر لأننا لم نحتكم. ومـن هو القاضي؟ أنت! كيف تكون الخصـم والحكم في آن معاً إلاّ إذاكنـت حبيبي. وعلاقتي بـك ليست علاقة حب. كنت تدّعي علاقة القربى والدم والآن تدّعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائـرة الطباشير. أنت ترسم الدائرة حيناً وتمحوها حيناً آخر. فأنت لا تعتـرف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن، وتقول إنها علاقة طارئة قابلـة للزوال. وبأية وسائل برهنـت؟ بالعنف وحده، بالقوة وحدها. هكذا الدنيا.. ذريعة القوي، دائماً، أقوى. بالقوة وحدها حددت شكل علاقتك بوطني، وشكل علاقتي بهذه العلاقة.

«العرب موجودون في فلسطين في علاقة «أنا وهو».

«أما اليهود، فموجودون في فلسطين في علاقة «أنا وأنت».

هذا صوت الفيلسوف الوجودي مارتين بوبر.

يقول: إن الإنسان يرتبط بمـا حوله عن طريقين: طريق «أنا وهو» وطريـق «أنا وأنت». علاقة «أنا وهـو» توجد في المكان والزمان وتخضـع لقانون السببية. وفـي هذه العلاقة لا تظهـر الحرية، بل الضرورة. أمـا علاقة «أنا وأنت» فتوجد خـارج الزمان والمكان وهـي مستقلة عن قانون السببية، وتظهر هنـا الحرية لا الضرورة. علـى هذا الأساس، يكـون الوجود غير الحقيقـي للإنسان عندما يوجد فـي علاقة «أنا وهو». والدين اليهـودي هو الدين الحقيقي

الوحيد القائم على أساس علاقة «أنا أنت». ولأن اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي، فإن الشعب اليهودي هو الشعب المختار. وبناءاً على ذلك، فإن دولة إسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين. فإن علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها، لأن العرب موجودون في فلسطين بعلاقة «أنا وهو» ولذا من السهل قطع هذه العلاقة ومن الممكن نقلهم إلى أمكنة أخرى..

ولكن أديباً إسرائيلياً آخر كان أكثر اقتراباً من الحياة والواقع يخرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة إلى مستوى التطبيق العملي، وتخلق حالة نادرة من حالات الإحساس بالإثم. فالأيديولوجية غالباً ما تبدو نظيفة لأصحابها وهي مجردة، وحين تترجم إلى ممارسة تأخذ شكل الجريمة. في قصته التي أثارت جدلاً يصور أبراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام «براءة» الإيديولوجية الصهيونية مع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر. لقد ألصق النقاد الصهيونيون بالكاتب تهمة التخريب والدعوة إلى الانتحار، والتماثل المازوكي مع العدو. القصة تدور في حرش من أحراش «الكيرن كايميت» موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل، وأقيم على أنقاض قرية عربية. بطل القصة طالب إسرائيلي لا اسم له، يبحث عن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية. وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الأحراش أن يعمل حارساً للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف إلى الحرش المعزول، لا يربطه بالعالم الخارجي إلاّ منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز الإطفاء. ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحاً لقصته حرشاً أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز إلى تحقيق الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز إلى مأساة الشعب العربي الفلسطيني الناتجة

من تحقيق الحلم الصهيوني. وليس صدفة أيضاً أن يكون موضوع أطروحة الطالب «الحروب الصليبية» التي تحمل شيئاً من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر.

لم يكن الطالب الإسرائيلي وحيداً في الغابة أو الحرش. هناك فلاح عربي سابق قطعوا لسانه في الحرب «نحن أم هم، هذا لا يغير شيئاً» وقد بقي العربي مع أنقاض قريته يعمل عاملاً في الغابة ومعه طفلة صغيرة. الثلاثة يقيمون في مكان واحد، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد - على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين «لويس شفارتس من شيكاغو»، «ملك بوروندي»، وفود رسمية، سيّاح، وزوار، يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين. تقول إحدى الزائرات: نريد أن نسأله سؤالاً بسيطاً. نريد أن يبتّ الأمر. أين تقع بالضبط القرية العربية المشار إليها على الخارطة؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة. ينظر إليهم الطالب - الحارس بدهشة. قرية؟ كلا. لا توجد هنا قرية. الخارطة على خطأ.

كان الطالب، في البداية، يقضي الليل والنهار بحثاً عن علامات حريق في الغابة. يجرب صفارة الإنذار. يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام. ثم يتضح تدريجياً أن الطالب - الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة. لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض. ولكن المحاولة تفشل. ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة. الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية. والعربي الأبكم يصدر أصواتاً وحشية ويجيب بحركات يديه. «يريد القول أن بيته هنا وقريته

هنا. وقد أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة».

عندما يشعل العربي النار في الغابة، يشتعل الطالب حماسةً وسعادة. ويشاركه العملية. إنه لا يطلب النجدة. سواه استصرخ رجال المطافئ، ولكن بعد فوات الأوان. ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق. ورويداً رويداً تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة، «تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماض زال»... يقول عزريا ألون صاحب «الإسرائيليون»: من الواضح أن الغابة ترمز إلى المجتمع الإسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر. ويقول المؤلف في حديث صحافي إن قصته ليست أيديولوجية ولكنها وصف وضع قائم في البلاد، حيث أقيم شيء على أنقاض شيء آخر. ثمة إحساس بالإثم.

تجد بعض النماذج من تجلي الإحساس بالإثم في الأدب العبري الحديث لدى تناول موضوع بناء المجتمع الإسرائيلي والصراع على «وطن» واحد بين الإسرائيليين والعرب. ولكنه إحساس بالإثم صادر عن الثقة بالنفس. إنه نوع من أنواع اعترافات القوي في حالة صفاء إنساني. يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والإنسانية بعد فوات الأوان وانتهاء المذبحة. ولكنه ليس في أي حال من الأحوال تعبيراً عن توبة أو ندم. إنه شديد الشبه بمحاورات القاتل الداخلية بعد إتمام العملية. فالأديب الأمريكي مثلاً يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم.

يستغرب كاتب إسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والإحساس بالإثم لدى الطرف العربي. وهذا الاستغراب، بحد ذاته، دليل على

الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية. يطالبهما بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة: تعاسة المنتصر الذي كسب وطناً ولم يسلم من ارتكاب الظلم، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطناً ويطلب عدالة المعاملة ممن أخذ وطنه. كيف يحاسب العربي نفسه؟ وكيف يشعر بالإثم؟ إذا شعر بالإثم، فإنه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجاه الذي هزمه واحتل وطنه ونفسيته.

لن تسأل بعد الآن عن معنى الوطن..

الخارطة ليست إجابة، لأنها شديدة الشبه بالرسم التجريدي. وقبر جدك ليس إجابة لأن غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه. وأن تبقى بجوار الصخرة – ليست أيضاً إجابة كافية لأن اغترابك ليس شيئاً مادياً فقط. لم يحتلوا الأرض والعمل فحسب لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتسائل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الإحساس بحقيقة أنك محتل أحياناً. مواطن من الدرجة الثانية؟ ليس هذا السؤال. لن تكون قضيتك ديموقراطية ولا إنسانية فحسب. وليس عذابك الشخصي ناجماً عن سلوك شخصي.

«اهدأ – تسلم» ليست نصيحة بريئة. هي دعوة إلى نفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسماً. سحبوا الأرض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك. عذبوك، فلم تعترف إلاّ بمزيد من الحب المجنون لأسباب عذابك. لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الأمان. تحمل صليبك وتمضي إلى ميعاد انتحارك. ولا تقول «نعم». والاغتراب الذي يأتيك من كل الأيام يتحول إلى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية. وفي السجن تمتلئ بالوطن

أيضـاً. الصراع هو الإجابـة، إذا صارعت انتميـت. والوطن هو الصـراع. بين الذاكـرة والحقيبة لا حلّ سـوى الصراع. الحق – والحريـة – والانتماء – والجدارة لا تعلن إلاّ بالصراع. لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء. يريـدون أن يستولوا أيضاً على انتمائك لتكـون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والألم. ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد، ولن تجد الراحة بعيداً عن هذا العبء، ولن تجد الفرح خارج هذا الألم. الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم «العائدة».

يوميات الحزن العَادي

1

● انحني، ياحبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

– من شدّة الانحناء صار ظهري قوساً، فمتى تطلق سهمك؟

[تمد يدك إلى يدك، فتجد حفنة طحين]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

– من شدّة الانحناء صار ظهري قنطرة، فمتى تعبر؟

[تحاول أن تحرك رجلك، فلا يتحرك الحديد]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

– من شدة الانحناء صار ظهري علامة استفهام، فمتى تجيب؟

[المحقق يدير أسطوانة عليها تصفيق كثير].

* * *

حين شتّتتها العاصفة، كان الحاضر يصرخ بالماضي: أنت السبب. وكان الماضي يحول جريمته إلى القانون. أما المستقبل فقد كان شاهداً محايداً.

وحين هدأت العاصفة، كانت الانحناءة قد اكتملت، وتحولت إلى دائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها.

2

– ضع فاصلة وراء كل تنهيدة، وقل لنا: من أنت؟

وحين أفاق من الغيبوبة كان دمه قد جفّ.

□ أنا من الضفة الغربية.

– ولماذا عذبوك؟

□ وقع انفجار في تل أبيب، فاعتقلوني.

– وماذا تفعل في تل أبيب؟

□ أعمل في البناء.

لـم تكن حالة عمل العمال العرب من الضفة الغربية أو قطاع غزة فـي المدن الإسرائيلية قد تحولت إلى ظاهـرة عامة. ولعل الرأي العـام العربي، بعد الهزيمة الأخيرة مباشـرة، كان يطالب العمال العـرب بالمجاعة تعبيراً عن الصمـود ورفض الاحتلال، دون أن يفكر أحد من المسؤوليـن بالاهتمام بمسألة تأمين سبل المعيشة للسكان الواقعين تحت الاحتلال من أجل ضمان استمرارهم في الصمود وعدم التعاون مع الغزاة.

□ عندما تسكت المدافع، من حقي أن أشعر بالجوع.

مـاذا تقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل؟ ليس بوسعنا أن نطحن الأناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها إلى خبز.

إن أخطـر شيء هو أن يتحـول الوطن، تحت الاحتلال الأجنبي، إلـى رغيـف خبز. ولكـن السيئ أيضاً هـو أن يدفـع المواطنون الواقعـون تحـت الاحتـلال إلـى المجاعة فـي حالـة الصمت العسكري والسياسي السائدة.

□ فـي حالة الحرب والمعارك لا نفكر كثيراً بمستوى المعيشة. أعلنوها معركة أو حرباً وخـذوا منا كل التضحيات. ولكن حين تسكت المدافع، فمن حقنا أن نشعر بالجوع.

ولماذا تنسى أو تتناسى أن إسرائيل بنيت بسواعد عربية.

يا للمفارقة.. ويا للعار!

3

يقدمون لك تفاحة حمراء، ويسألون: هل ذقت التفاح السوري.

ما أجمل التفاح في السجون. هو الشيء الوحيد الذي يحول لون الرماد إلى لون النار.

تقول لهم: إن التفاح السوري يملأ الأسواق الإسرائيلية. وأن التفاح السوري يهزم التفاح الإسرائيلي.. أكبر، وأجمل، وأرخص. يشتريه اليهود بلا حرج، على الرغم من احتجاج الكيبوتسات التي هبطت قيمة تفاحها، لأنه أكبر.. وأجمل.. وأرخص!

– وماذا جاء بكم هنا أيها الأشقاء السوريون؟ كنا نعد العدة للقائكم في بيوتكم لا في السجون.

□ لقد ألقوا علينا القبض بتهمة التسلل من دمشق إلى القنيطرة.

– كل عودة تسلل. هذا هو حظ العرب.

□ .. وقالوا إننا جئنا للتجسس!

– تجسس على المنازل والكروم؟!

□ شيء كهذا.

– وهل اتهموكم بأنكم تسرقون تفاحكم؟

□ لم يقدموا لائحة الاتهام بعد.

– كم قضيتم في الاعتقال؟

□ أحد عشر شهراً وأسبوعاً وثلاثة أيام.

ويسألونك فجأة:

أنت تعرفهم، فهل تظن أنهم سيتهموننا بأننا سوريون؟

– ألستم – كذلك؟

□ نعم. نحن سوريون.

– وهل هي تهمة؟

□ لانعرف...

4

– من أين أخي؟

□ من غزة.

– ماذا فعلت؟

□ ألقيت قنبلة على سيارة الغزاة، فانفجرت بي.

– و

□ ألقوا عليَّ القبض، واتهموني بالانتحار.

– اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم إن محاولة الانتحار لم تنجح. ولذلك حرّروني من الرحمة وحكموا عليّ بالسجن المؤبد.

– ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار؟

□ يبدو أنك لا تعرف غزة. المسافة هناك شيء وهمي.

– لا أفهمك جيداً.

– يبدو أنك لا تعرف غزة، فمن أين أخي؟

□ من حيفا.

– ماذا فعلت؟

□ ألقيت قصيدة على سيارة الغزاة، فانفجرت بهم.

– و

□ ألقوا عليّ القبض، واتهموني بالقتل الجماعي.

– اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم بأن محاولة القتل نجحت. ولذلك أعطوني الرحمة، فاستجابوا إلى طلبي، وحكموا عليّ بالسجن لمدة شهرين.

– لاأفهمك جيداً.

□ يبدو أنك لا تعرف حيفا. فالمسافة هناك شيء وهمي.

جاء الحارس. وضعه في زنزانة. وأطلق سراحي!

5

– اذهبي.. وتعالي، ريثما أصحو من اللذة.

وابتعدي عني قليلاً، لكي ينفصل الحلم عن عظامي.

أنا علّمتك التدخين. وأنت علّمتني مرافقة الدخان.

اذهبي.. وتعالي!

– وماذا قلت لها أيضاً؟

لـم أحدثها عن الحـب. كان كلامي غامضـاً ولا أفهمه إلاّ حين تنـام. وكانت تغني كثيـراً، ولا أفهم غناءهـا إلاّ في الحلم. وهي جميلة.. جميلـة. يوم رأيتها سقط الغيمٍ علـى دماغي، فخطفتها إلى البيت، وقلت لها: اعتبري ذلك حباً.

تضحك.. تضحك في أحلك الساعات.

وكنت أناديهـا باسم مستعار لأن ذلك أجمل. أقبّلها، وبين القبلة والقبلة أشتهيها وأشعر أنها ستضيع مني لو توقفت عن القبل.

بين الرمل والماء، قالت: أحبك.

وبين الشهوة والعذاب، قلت: أحبك.

وحين سألها الضابط عما تفعله هنا!؟ أجابت: من أنت؟ فأجابها: ومن أنت؟

قالت: أنا حبيبته، وجئت أودعه حتى باب السجن أيها المجرم. ماذا تريدون منه؟

قال: اعلمي أنني ضابط.

قالت: وأنا سأصبح ضابطة في العام القادم أيها المجرم!

.. وأبرزت شهادة الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية. فحيّاها الضابط بابتسامة وسحبني من ذراعي إلى زنزانتي.

وفي العام القادم كانت الحرب. وعدت إلى الزنزانة من جديد. وفكّرت بها: ماذا تفعل الآن؟ كانت في مدينة نابلس أو في مدينة أخرى واحدة من الفاتحين.. تحمل بندقية خفيفة. ولعلها تلك اللحظة كانت تأمر الرجال برفع أيديهم أو بالركوع على الأرض. أو لعلها كانت تشرف على استجواب أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنها.. وفي مثل جمالها السابق.

لم تقل وداعاً

ولم تقل لها: اذهبي وتعالي.

لقد علمتها التدخين، وعلمتك مرافقة الدخان.

6

– نكتب مسرحية مشتركة؟

□ نكتب.

– نبحث عن نقطة التقاء؟

□ نبحث.

– نطرح القضية بكل حدّتها؟

□ نطرح.

– ليكن بيت متنازع عليه هو عقدة المسرحية.

□ ليكن .

– نلتقي بعد شهر؟

□ نلتقي.

في تلك اللحظة، كانت خديجة تودع ابنها في المخيم، وتسلمه مفتاح البيت الذي اشتهر في حيفا باسم «البيت الأحمر».

وفي تلـك اللحظة، كانت ساره، المقيمة فـي «البيت الأحمر»،

تـودع ابنها الذي لبّى إشارة فـي الراديو تأمره بالالتحاق بوحدته العسكرية.

التقى الشابـان القادمان من اتجاهيـن متعاكسين في نقطة ما من الغابة، واشتبكا وليس مهمّاً أن نعرف أيهما قتل الآخر.

- هل أكملت الفصل؟

□ أكملت.

«فـي المهجر، لـم يعلّمني أبـي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن يهوديتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك فقد علمني الحياة».

- وأنت ماذا كتبت؟

□ «في المهجر، لـم يعلمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلـي عـن فلسطينيتـي. لقد ربانـي على أنني خلقـت لأكون مطارداً، ومع ذلك، فقد علّمني الحياة».

- هذه نقطة التقاء هامة.

- والبيـت الذي يستقطب مصيرنا، هل هـو نقطة لقاء أم نقطة وداع؟

□ إنه نقطة صراع.

- كيف تحله المسرحية؟

□ لنقل: إن الحق لا ينبع من الإرث، بل من الحاجة والجدارة. وعلى أساس ذلك، لا يكون الرجل الذي بنى هذا البيت منذ خمسين سنة صاحب الحق فيه الآن، لأن رحيله عنه – تحت أي ظرف من الظروف – هو بمثابة تخل عن حق لا يحتاجه. أما المالك الحالي، فقد بذل جهداً في السيطرة على هذا البيت الذي لايملك سواه.

– وأين العدل في المسرحية؟

□ العدل.. العدل. لنبحث عن العدل معاً في اللحظة الراهنة. لنجعل حالة تأنيب الضمير مناخاً سائداً في البيت ريثما يفعل الزمن مفعوله. ليكن التعبير عن الشعور بالإثم لدى اليهودي تعويضاً عن ضياع البيت بالنسبة للعربي.

– نلتقي بعد شهر لأضع صيغة أخرى لعدل أكثر عدالة؟

□ نلتقي.

وفي تلك اللحظة، كانت بيوت أخرى في مدن أخرى، تستبدل سكانها. وكانت مفاتيح جديدة تتكدس فوق المفاتيح القديمة في المهاجر العربية التي تضيق مساحتها حرباً بعد حرب. وفي الليل، يحمل شبان مفاتيحهم ولا يعودون!

7

لماذا هذه الغطرسة؟ لقد ورثت ديني وقوميتي، ولم أواجه لحظة اختيار واحدة. والآن أسألكم: من اختار منكم أن يكون يهودياً..

من؟

□ هذا هو الفرق بيني وبينك: أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت أن أكون يهودياً.

– كيف؟

□ تلك مسألة غير قابلة للشرح. اليهودية لا يفهمها إلاّ اليهودي. وهذا هو مصدر اعتزازي الذي تسميه غطرسة.

– إنني أفهم أن تكون أنك اخترت أن تكون صهيونياً.. أن تكون إسرائيلياً. فهل تعني ذلك؟

□ لا أعني ذلك تماماً. أعني اخترت يهوديتي والتزمتها.

– وكيف يتجلى هذا الالتزام؟

□ بالوطن التاريخي.

– وما هو هذا الوطن التاريخي، هل هو غامض كانتمائك. هل اخترته أم ورثته؟

□ غامض وواضح معاً. اخترته وورثته معاً.

كان المتحدث كاتباً. وكان يتمرد على الفواصل التي يضعها البعض بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية. ويعتقد أن اليهودية لا تتجلى إلاّ بالصهيونية، والصهيونية لا تكرس إلاّ بالإسرائيلية. ومن هنا، يكون التخلي عن الصهيونية تخلياً عن اليهودية.

وحين تسأله عن التحديد العملي لمصطلح الوطن التاريخي، يذكرك بالحوار الشهير الذي دار بين بن غوريون ومفكر عربي سنة 1936، أيام كانت فلسطين حلماً صهيونياً. سئل بن غوريون عن ذلك الوطن التاريخي، فأجاب أنه المنطقة المفتوحة للاستيطان اليهودي.

– وما هي تلك المنطقة؟

□ أرض إسرائيل.

– وما هي حدودها؟

□ حدود أرض إسرائيل معروفة في التاريخ.

– ولكن الحدود أمر مصطنع. تكون اليوم هنا، وتكون غداً هناك.

□ أرض إسرائيل هي تلك الأرض الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط غرباً، والصحراء شرقاً، بين سيناء جنوباً، ومنابع الأردن شمالاً.

– إنك تضم عبر الأردن أيضاً!؟

□ بالطبع، فالأردن ليس حداً لأرض إسرائيل. إنه نهر في أرض إسرائيل.

وكان حاييم وايزمن يقول: «إنني أعرف أن الله وعد بني إسرائيل بأرض إسرائيل، ولكنني لا أعرف الحدود التي عيّنها الرب».

في ذلك الوقت، كانت ملايين العرب تضحك ساخرة من أحلام

وايزمن، وبن غوريون. وحين تنظر اليوم إلى الحدود السرية «التي عيّنهـا الرب» والتي تجـاوزت فلسطين إلى ما هـو أبعد ترى أن «الواقـع الإسرائيلي» أوسع من «الحلـم الصهيوني» ومن التاريخ اليهودي، وتذكر ذلك الكاتب الذي قال لك: «هذا هو الفرق بيننا وبينكم. أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت يهوديتي».

فهـل تضحـك مرة أخـرى، كما ضحـك العرب قبـل خمسين سنة، أم تورث أحلامـك إلى الأطفال الذين يولدون على حراب الاحتلال!

8

تريد أن تستمتع بالشارع؟

□ يـا حبيبي، في عيد ميلادي، أرجو أن تكون هديتك لي دبابة، أو مدفعاً، أو أي سلاح من صنع روسي.

– سأهديك دبابة ننام فيها معاً يا عزيزي. لنجرب وضعاً آخر.

□ لا. سأنام معك في الهواء الطلق، على ضفة قناة السويس.

– ها.. ها.. ها.

□ ها.. ها.. ها.

تمشـي فـي الشـارع. تجلس فـي مقهـى. تسافر فـي أوتوبيس، وتسكت. لست مدعواً للإعلان عن هويتك. إن صمتك يقول كل

شـيء. هو الموقف الوحيد الذي يتـاح لك أن تتخذه حين تستمع إلى هذا الغزل الإسرائيلي. انتهى عصر الكلمات العذبة. سأهديك غـزالاً وقمراً. لا. ما أبعد الفارق بيـن الخيال السابح في الصحراء والخيال المصنوع مـن التكنولوجيا والنصر. كلمات الحب الآن منسجمـة مع آخر أحـداث الساعة وأحدث مبتكـرات السلاح. واللذة لا تتناغم مع أشياء الطبيعة.

هكذا أصبح العربي في إسرائيل متخلفاً حتى في ممارسة الحب. لقـد احتاج إلى وقت طويل لكي يعـرف كيف يخاطب صديقته بالورد. فكـم من العصور يحتاجها هـذا المخلوق لكي يتدرب على هذا الغزل: يا عزيزتي.. سأهديك دبابة.

وبمـاذا تفكر؟ كيف ينامون فـي الدبابات! وكيـف ينجبون أطفالاً في الدبابات! وكيف يتنزهـون في الدبابات! على رسلك.. هذا هو البيت الإسرائيلي المأمون. هذا هو عش الحب. وهذا هو المستقبل!

9

وفي عيد رأس السنة، ماذا تفعل؟

تنـزل إلى الشـارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلهـا إلى صديق. فماذا تجد؟ لا صورة لوردة واحدة، ولا رسماً لشاطئ أو عصفور أو امرأة. لقد اختفت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائـط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة إلى هـذه البطاقـات. وحين تلمح غصـن زيتون تجـده مرسوماً على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي.

وحيـن ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح. وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي، فيقع قلبك على الأرض. ولا يبقى لك إلاّ أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم، لتفسح المجال أمام آلاف الأيدي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة.. ترسلها إلى يهود العالم تعبيـراً عن فرحة البعث التاريخـي، وعودة الأسطورة. وأنتَ لا تبعث إلى أصدقائك إلاّ صمت القلب الذي لا يصل.

ويفاجئـك الكرنفال فـي الشارع. ينقض عليـك الضوء كما كان ينقض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة. وأسراب من الأطفال – الحمائم مدججة بالسلاح. اللعبة سلاح. والمتعة سلاح.

وأنت؟ ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي..

10

تريد أن تنام؟

في الساعـة الرابعة صباحاً. يوقظك جرس البـاب. تعرف الزائر. لكـن النعاس أقوى من الشرطة. فـي التاسعة صباحـاً تذهب إلى مكتبك لتعمل. تستمتع بنصف فنجـان القهوة قبل قراءة الأخبار. يأتيك الزائر المعتاد ويقول: تعال معي! تسأله: اعتقال.. أم تحقيق؟ يقول: لا أعرف. تسأله أن تأخـذ فرشاة أسنانك وأدوات الحلاقة وملابس داخلية، فيرد عليك: لا وقت!

تجلس أمام الضابط.

يقول لك بأدب، من تحت صورة هرتسل: يشرفني أن أعتقلك.

تجامله: ويشرفني أن أمنحك هذا الشرف. ولكن، هل تتفضل وتقول لي ما هي تهمتي؟

يقول لك: أنت متهم بتفجير بطيخة عند مدخل السيرك، وبالمس بأمن الدولة.

البطيخة، والدولة، والسيرك – انسجام نادر.

تنتهي مدة التوقيف القانونية. كل شيء هناك قانوني. تتوقع أن يأخذوك إلى المحكمة، فتستمتع برؤية مدينتك المفتونة بنفسها، من خلال قضبان سيارة البوليس. أو تتطرف بالأمل، كعادتك، وتتوقع أن يطلقوا سراحك.

– انتظر قليلاً.

تحتج على حافة القانون فيقولون لك: لن نحتفظ بك ساعة واحدة بعد انتهاء مدة التوقيف.. ماذا تظن؟ هنا قانون. هنا إسرائيل، وليس العالم العربي.

تفكر بالعالم العربي، فتختلط الغصة بالحلم.. وتنتظر. ماذا تنتظر.. ضابط التحقيق أم العالم العربي؟!

ثم يدخلونك إلى غرفة أخرى. تجد ضابطاً وامرأة عجوز. يسألك أحد الضباط إن كنت تتقن اللغةالعبرية، ثم يتلو لائحة الاتهام: أنت متهم بالعمل على تدمير دولة إسرائيل. تسأل: تقصد الدولة أم البطيخة؟ تقول تلك المرأة القبيحة: احترم المحكمة. تعلن دهشتك: أية محكمة؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع: هذه محكمة، وأنا

قاضيـة. عندها، تفهم أنهم احترموك ونقلـوا المحكمة إلى السجن مـن أجلك. ولكنك ترفض تكريمهم: كلاّ يا سيدتي. لا هذا المكان محكمة، ولا أنت قاضية. هذا سجن، وأنت سجّانة.

تنتهي الجلسة بتجديد مدة التوقيف.

11

تعود إلى البيت بسيارة أجرة؟

تتكلـم مع السائـق بلغة عبرية سليمة، وشكلـك لا يعلن هويتك. يسألك السائق: إلى أين يا سيدي؟ تقول: إلى شارع المتنبّي.

تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لأنه مهذب. يقول فجأة: قل لي، إلى متى هذا القرف... لقد سئمنا.

تظـن أنه سئم حالـة الحرب وارتفاع الضرائـب وسعر الحليب. فتقول: الحـق معك.. لقد سئمنا. يتابع: إلـى متى تحافظ دولتنا علـى هـذه الأسماء العربيـة القذرة! يجـب أن نمحوهم ونمحو أسمائهم مـن الوجود. تسأله: من هم؟ يقـول باستنكار: العرب طبعاً. تسأله عن السبب، فيقول: لأنهم قذرون.

تعرف من لهجته أنه مهاجـر من مراكش. تسأله: هل أنا قذر إلى هذا الحد؟ وهل أنت أكثر نظافة مني مثلاً؟

يندهش لسؤالك: ماذا تقصد؟

تسأله أن يكون ذكياً، فيدرك ولكنه لا يصدق: أرجوك.. كفّ عن المزاح!

عندما يرى بطاقتك يصدق أنك عربي. يقول: لا أقصد المسيحيين – أقصـد المسلمين. تقول لـه إنك مسلم، فيقـول: لا أقصد كل المسلميـن.. أقصـد القروييـن. تقول لـه إنك من قريـة متخلفة هدمتها دولته كما يشاء ومحتها من الوجود كما يشاء. يقول: كل الاحترام للدولة!

تنزل من السيارة، وتقرر العودة إلى البيت مشياً. تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع. فعلاً، محوا أسماءها. صار صلاح الدين شلومو. وتتساءل: لماذا حافظوا على اسم المتنبي!

وعندما تصل إلى شارع المتنبي تقرأ الاسم، لأول مرة، باللغة العبرية فيخيّل لك أنه «المونت نقي» وليس المتنبي كما كنت تتصور!

12

تريد أن تسافر إلى القدس؟

ترفع سماعة التليفون، وتطلب ضابط المهمات الخاصة في دائرة الشرطـة. تعرفه جيداً، فتسأله عن أحواله وتمازحه. ثم ترجوه أن يعطيك تصريحاً للسفر ليوم واحد بدون نوم. يقول لك: قدم طلباً خطيـاً. تترك عملـك وتقدم الطلب الخطي علـى ورق صقيل.. وتنتظـر الجواب، يومـاً.. يومين.. ثلاثة أيام. ثمـة أمل لأنهم لم يقولوا «لا» كالعادة. ولكنك تنتظر، وميعادك في القدس يقترب. تسألهـم.. ترجوهم.. تتوسل إليهم أن يقولوا أي شيء. أن يقولوا

«لا» لتصبح في حل مـن الميعاد. لا يقولون. تخبرهم أن أمامك ساعات معدودة، يقولون: تعال إلينا بعد ساعة لتتسلم الجواب.

تذهب، فتجد المكتب مغلقاً. تتساءل ببراءة: لماذا يخجلون مني؟ لمـاذا لم يقولوا «لا» كعادتهم دائمـاً. تغضب وتقرر – بغباء – أن تنتقم من «أمن الدولة».. وتسافر.

فـي اليوم التالي يستدعونك للمثول أمام محكمة عسكرية عاجلة. تنتظـر دورك وتسمـع حكايات: امرأة عربية تعمـل في كيبوتس. ينصـ التصريح على منعها من النزول في أيـة محطة على الطريق. لسبب ماضطرت للنزول، فاعتقلوها. شباب انحرفوا عن الشارع الرئيسي فاعتقلوهم. والمحكمة لا تبرئ أحداً. سجن وغرامات. وتذكـر حكايـة الشيخ والحمـار والتصريـح: كان الشيخ يحرث الحقـل. علق عباءتـه على شجـرة. والتصريح في جيـب العباءة. اكتشف أن حماره قـد ابتعد عن أرضه ودخل أرضاً أخرى. خفّ للحاق بالحمار، فاعترضته الشرطة العسكرية واعتقلته، لأنه دخل أرض الدولة بلا تصريح. قال لهم: معي تصريح.. في جيب العباءة المعلقة على الشجرة هناك. اعتقلوه وحاكموه.

وتذكـر تصاريح الموت، حيث كان الفلاحون يوقّعون على نص يحملهم المسؤولية عـن موتهم لو انفجرت ألغام في منطقة كان الجيش يستخدمها للمناورات. هذا النص يعفي الدولة من تحمل المسؤوليـة. ولكن الفلاحيـن كانوا يفكرون بلقمـة العيش ولا يفكـرون بالموت. وفعلاً، مات منهم مـن مات وعاش منهم من عاش ويئست الدولة من الأحياء والأموات فصادرت الأرض.

وتذكر أيضاً الطفلة التي ماتت في حضن والدها أمام مكتب الحاكم العسكري، حيث كان الأب ينتظر تصريحاً للسفر من قريته إلى المدينة لمعالجة طفلته المريضة.

وتشعر بالسعادة لأنهم حكموا عليك بالسجن لمدة شهرين فقط. وفي السجن، تغني للوطن.. وتكتب رسائل إلى حبيبتك، وتقرأ مقالات عن الديموقراطية وتقرأ رواية «الحرية أو الموت» فلا تحرر نفسك.. ولا تموت.

13

تريد أن تسافر إلى اليونان؟

تطلب جواز سفر، فتكتشف أنك لست مواطناً، لأن أباك أو أحد أقاربك قد هرب بك أثناء حرب فلسطين، وقد كنت طفلاً. وتكتشف أن أي عربي ترك بلاده في تلك الفترة، وعاد إليها متسللاً، قد فقد حقه في الجنسية.

تيأس من جواز سفر، وتطلب جواز مرور. تكتشف أنك لست مقيماً في إسرائيل، لأنك لا تحمل شهادة إقامة. تحسب الأمر نكتة، فتسرع لترويها لصديقك المحامي: «لا أنا مواطن هنا — ولا أنا مقيم. أين أنا ومن أنا». تفاجأ بأن القانون معهم، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك. تقول لوزارة الداخلية: أنا موجود أم غائب؟ أعطوني خبيراً في الفلسفة لأثبت له أنني موجود.

ثم تدرك أنك موجود فلسفياً، وغائب قانونياً.

تفكر بالقانون. ما أشد براءتنا حين نظن أن القانون وعاء للعدل

والحق. القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم، أو بدلة يفصلها على قياسه. وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي. وترى مرة أخرى أن الحق أمنية تقترب من الوهم إذا ابتعد عن سند القوة، وأن القوة تحوّل الوهم إلى واقع. وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الإسرائيلية.

وتسعى من جديد. أمرك لله وللقانون. تحصل على شهادة تثبت أنك موجود، وتحصل على جواز مرور. ولكن من أين تمرّ؟ أنت مقيم في حيفا، والمطار قرب تل أبيب. وتسأل الشرطة تصريحاً للسفر من حيفا إلى المطار فترفض. يتدخل المحامي وأعضاء برلمان، ولكن الشرطة ترفض. ثم تظن أنك أكثر خبثاً منهم ودهاء، فتغيّر طريق مرورك، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول إلى الميناء. تبتهج لذكائك. تشتري تذكرة، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك أحد. وقرب السفينة يلقون القبض عليك، ويقدمونك إلى المحاكمة. وما زلت مصرّاً على أن القانون معك هذه المرة.

وتكتشف في المحكمة أن ميناء حيفا جزء من دولة إسرائيل وليس جزءاً من مدينة حيفا، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في أية منطقة من دولة إسرائيل خارج حيفا. والميناء – في القانون – خارج حيفا – وتدان...

تقول لهم: أريد أن أدلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون: يا سادة! أنا أسبح في البحر كل يوم، والبحر تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لمدينة حيفا، وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول البحر.

وعندي اعتراف آخر: أنا أستمتع بالمناخ في مدينة حيفا. والطقس تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول المناخ. والسماء التي أراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً للجلوس تحت السماء.

ثم تطلب منهم تصريحاً للإقامة في الريح، فيبتسمون!

14

تحتفل بعيد ميلادك؟

آه من الاحتفالات. يهجم عليك التاريخ بشراسة. هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة، والعرب يحتفلون بكل أيامهم. وتتساءل: أيامنا تمحو أيامنا من فرط المناسبات والأعياد. ألم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر. كل الأيام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة، وكلها أعياد مقررة. عندها تجد سبباً لاستمرار هزيمتك: حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد.. سننتصر.

والليلة عيد ميلادك – الثالث عشر من أذار – وأنت تريد مناسبة لانتزاع المرح الكاذب من جهامة الأيام الصارمة. تدعو أصدقائك.. تتآمرون على الكآبة بالكأس والموسيقى والنكات الجارحة. يرتفع صوت الموسيقى وترقصون. تصل ضحكات الفتيات إلى نوافذ الجيران. وفي منتصف الليل يأتي البوليس. يتحقق من هويات الحاضرين ويهددك بالاعتقال: كونوا مهذبين. كفى بربرية! تسأل عن السبب فيقول لك إن الجيران قد استدعوه ليحافظ على هدوء البناية من مرحنا. تقول له: عيد ميلاد. يقول: لا يعنيني.

ويا أيها الجيران الطيبون! لماذا لم تنبهوني إلى أن فرحي يؤلمكم؟ لماذا تنهمر موسيقاكم المأخوذة من لحمي على نوافذي كل ليلة، ولا أحتجّ. متى تخرجون من حلقي أيها الجيران، متى؟

وحين تأوي إلى الفراش لتنام، تقتنع بأن الجيران كانوا على حق. في الصباح تعتذر لهم قائلاً: لا يحق لي أن أحتفل ما دمت جاركم. سامحوني أيها الجيران، فقد تبت عن الاحتفال.

15

تريد أن تستأجر شقة؟

تقرأ أبواب الإعلانات في الجرائد. وتقفز إلى التليفون: سيدتي.. قرأت إعلاناً عن شقتك، هل لي أن أراها؟

تصل إليك ضحكتها وسعادتها فتمتلئ بالأمل: الشقة ممتازة يا سيدي، على الكرمل. تعال واحجزها فوراً.

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية، وتسرع إليها. تعجب بك السيدة، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسلم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة: ماذا عربي؟ عفواً يا سيد... اتصل غداً!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وفي كل مرة تعود خائباً تقرأ شرفات المنازل، وتسأل عن أصحابها الغائبين في رياح الهجرة والمنافي. كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه. إن أصحاب هذه المنازل ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها في جيوبهم وقلوبهم في انتظار

العـودة. العودة إلى أين؟ لوعاد أحدهـم إلـى منزله فهل يسمح له باستعمال مفتاحه؟ أوهل بوسعه أن يستأجر غرفة واحدة في بيته. ويقولون لك: «إن الصهيونيةلم ترتكب إثماً. كل ما في الأمر أنها أحضرت شعباً بلا وطن إلى وطن بلا شعب».

وتسألهم عمن بنى هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك وينجبون مزيداً من الأطفال في بيوت مسروقة.

16

تريد أن تزور أمك في العيد؟

من شهور طويلة لم تـزر أمك وأباك وأخوتك في قرية لا تبعد عنك أكثـر من ساعة. تجتهد في اختيـار الكلمات التي تتضمنها رسالتك إلى البوليس هـذه المرة. تكتب: «أتمنـى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعـر الإنسانيـة الخالصة التي آمـل ألاّ تروا فيهـا، هذه المرة، تصادمـاً مـع حرصكـم الشديد على صيانـة متطلبات أمـن الدولة ومقتضيـات الدفـاع عـن سلامة الجمهـور. وأرجـو، بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلي في العيد، أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضاً للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس».

يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقـى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد. وتبقى وحدك.

الحـل في البحـر. في الصبـاح الباكر تذهب إلـى الشاطئ وحدك وتطفئ نارك في المـاء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك

أن تعـود وحدك. تتمـدد على الرمل الساخن فـي الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر المـوج؟ الشمس كثيـرة والرمال كثيـرة والماء كثيـر. ويتكلمون حولـك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك. بمناسبة.. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون وهم يمزحـون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبـك. أليس بوسع البحر أن يمنحهـم لحظـة صفاء وحـب، فينسونك قليـلاً؟ كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطئ! تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطئ. تشرب البيرة وتصفـر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظـرات، تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثـم تشتري ذرة صفراء وتأكل وحدك. تتمنى لو تقضـي اليوم كله على الشاطـئ لتنسى أن اليوم عيـد وأن أهلك ينتظرونـك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة فتتذكر كل شيء. وتشتعل زرقـة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك. وتسير..

عنـد مدخل دائـرة الشرطة ينتظرك أخـوك الصغير، ويقول لك: أسـرع. أثبت وجودك بسرعة. أمك تنتظـرك في غرفتك. تنسى قلمـك ورواياتك وتعود لاهثاً. رفضـت أمك أن تأكل طعام العيد بدونك، فجاءت وأحضرت لك كل شيء.. حتى الخبز والأطباق والقهـوة أحضرتها معها من القريـة.. حتى زيت الزيتون والملح والتوابل.

تودعـك أمك في المساء. تقبلها وتغلـق الباب خلفها. لا تستطيع مرافقتهـا حتى الشارع لأن الشمس قـد غربت. ودولة إسرائيل لا

تسمح لك بمغادرة المنزل بعد غروب الشمس حتى لو كان السبب وداع أمك. تجد نفسك وحيداً في العيد من جديد. تجلس على كرسي قديم، تستمع إلى كونسرت رقم 1 لتشايكوفسكي، فتبكي فجأة كما لم تبكِ طفلاً.

من سنين طويلة تحمل هذا البكاء الذي ينهمر الآن. يا أمي! ما زلت طفلاً. أريد أن أحمل أحزاني وأركض بها نحوك كي أصبها في حضنك. أريد أن أقطع المسافات لأبكي في حضنك.

فجأة تناديك الجارة لتقول لك إن أمك ما زالت مسمرة خلف الباب. تخرج إليها، وتحقق أمنيتك في البكاء بين يديها!

17

أحيانا، يلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ولو فكرت ملياً، لما وجدت تهمة أخرى. فهذه الكتابة وهذه الخطابة ليست إلاّ مظهراً من مظاهر تجلي الحلم في لغة. ما الفرق، إذن، في نظر القانون بين الحلم الصامت والحلم الصاخب.

– كنت تنوي أن تقول كلاماً آخر.

– كنت تنوي أن تفعل شيئاً آخر.

ويدهشك أيضاً أنك مستعد دائماً للإجابة عن تهمة لا تعرفها. وإذا لم يتهمك أحد بادرت إلى اتهام نفسك.

– ماذا فعلت من أجل أي شيء؟

– ماذا في وسعك أن تفعل من أجل أي شي؟

تصعـد، يوم السبت، إلى الجبل ولا تـدرك الفجر أبداً. تدهشك العلاقة النادرة بين الشمس والسجون. هذه الشمس – متى رأيت ولادتهـا لأول مرة! لا تكذب ولا تقل أنك بحثت عنها في نزهة أو معركـة. أيقظوك في ساعة مبكـرة ووضعوا زنديك في حديد جديـد، وأخرجوك إلـى ساحة السجن. وهنـاك شاهدت ولادة الشمس لأول مرة. لا تكذب ولا تقل إنها لم تكن جميلة، وإنك لم تشعر بالحياء.

تصعـد، يوم السبت، إلى الجبل. لا ليس هذا جبلاً، فالكرمل مئذنة الله. تطل منها أشجار تغطي مدافع مضادة للطائرات والجمال. لو وقف هنا مؤذن وهمس: حي على الصلاة، لامتلأت مساجد دمشق بالمصليـن. ويمرعنك العشاق والجنود «هل كان البيت، والقرية، والحياة، التي نخلقها هنـا.. هل كانت عزيزة وحقيقية وعادلة إلى هـذا الحد قبـل الآن» – هكذا يقولـون بعد الحـرب والانتصار. وهكـذا تقول أنـت أيضاً بعـد الحرب والهزيمـة. ويقولون: «مع كل خطـوة على هـذه الطبيعـة تتراجع الظلال وتحتلـك الخضرة والأمـل». وهكذا تقول: «مع كل خطـوة على هذه الطبيعة يسقط قلبي وتحتلني الخضرة والأمل والغزاة».

ويلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

– ماذا كنت ستفعل لو انتصرتم في الحرب!؟

تجيبهم: أصعد إلى الجبل. أختار أية صنوبرة. أجلس. أمد قدمي

فـي البحر الأبيض المتوسط. أضع يدي على شعر السماء. وأتابع الحلم كما أفعل الآن تماماً.

– ما هكذا يفعل المنتصرون.

– لـم أنتصـر مـرة واحـدة فـي حياتي لأعـرف كيـف يسلك المنتصرون.

وتشعـر أنك لم تعـد مواطناً. تاريخـك أحلام تتمـزق كأوراق الجرائد. وكل حلم فجيعة.

ماذا تنفعك اليرمـوك والقادسية والمعارك السابقة؟ ولماذا أنت! لمـاذا أنت! جميـل هو الكرمـل.. وقريبة هي السمـاء، والنصر بعيد. وماذا فعلت من أجل أي شيء؟ لاشيء. تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج إنسانيتك.

هكذا تصبح شجرة أو حجراً أو أي شيء في الطبيعة!

من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً

هنا ينامون. أسماؤهم كثيرة وموتهم واحد. كانوا متعبين وكان الغروب صغيراً، فسقطوا بسهولة ولم يقولوا شيئاً لأن الموعد كان مفاجئاً. وماذا لو أحيطوا علماً؟ فالوصايا معهم.. والعائلة كلها عائدة من العمل، والعالم ليس لهم.

هنا ينامون. نالوا عقاباً على جريمة غامضة. لم يخرجوا في مظاهرة واحدة، ولم يدافعوا عن الحياة والتراب إلاّ بالصلوات. كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر. وكانوا ينتظرون المطر، فجاءهم الموت في غزارة المطر.

هنا ينامون. ويكبر الغروب، ويتحول إلى غابات من الشجر الجاف. لا وقت لذكراهم ولا مناسبة ولاموعد. الحجارة هي الوقت، وامتداد الغروب الذي لا لون له هو الوقت. وماذا نسميهم؟

ليست مذبحة كفر قاسم يوماً للذكرى. وليست مرحلة يغلبها النسيان. إنها تاريخ كراهية ممتد منذ استل هرتسل سيفه من التوراة وأشهره في وجه الشرق. فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد ولو كان عدواً متطوعاً. لم يقاتلوا إلاّ الطبيعة القاسية والبؤس الأسود. فمن أجل ماذا ماتوا؟ لم يموتوا من أجلنا كثيراً. هم ضحايا لا شهداء. وتلك هي مأساتهم المزدوجة، وذاك هو حزننا المزدوج عليهم. في وسعنا أن نقول لهم ماتوا من أجل أن نعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب. ومن أجل أن نعمق عبادتنا للأرض. ولكننا لا نحتاج إلى هذا البرهان الضاري. إننا قادرون على تنمية حاسة الحب والكراهية بدون هذا الموت المجاني. فمن أجل ماذا ماتوا إذن؟

ليس من أجلنا، بل من أجل القتلة. لكي يمتلئ الصهيوني بالإحساس بأنه قادر على أن يمثل دوراً في التاريخ غير دور الضحية. من أجل هذا البرهان يتلذذ بالقتل. «إما أن أكون قاتلاً وإما أن أكون قتيلاً». هذا هو الخيار الضيّق الذي وضعه لنفسه.

في المحكمة ـ المسرحية، استجوب المحامي جندياً إسرائيلياً من الذين اشتركوا في المذبحة:

ـ هل صحيح أنك تعمل في البلاد، وأنه طيلة حياتك أدخل إليك الشعور بأن العرب هم أعداؤنا؟

الجندي: نعم.

المحامي: هل صحيح أنك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب في إسرائيل والعرب خارجها؟

الجندي: نعم. ليس عندي أي فرق.

المحامي: هل صحيح أنك شعرت بأنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربي في كفر قاسم إذا رأيته خارج بيته، فإنك تكون قد خنت الروح التي تربيت عليها في الجيش وفي حرس الحدود؟

الجندي: نعم.

المحامي: لو كنت تسير، أيام الحرب، في أحد شوارع يافا مثلاً، ولقيت عربياً، فهل تطلق الرصاص عليه؟

الجندي: لا أعرف.

القاضي: لو جرى معك في كفر قاسم ما يلي: بعد الساعة الخامسة نادتك امرأة، وكنت متأكداً من أنها ليست خطرة ولا تهدد الأمن. فقط نادتك وأرادت أن تسألك سؤالاً أو تطلب منك السماح لها بالعبور إلى بيتها. ولنفترض أن هذا كان في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة مثلاً، فلو كانت هذه المرأة تبعد 10 أمتار عن بيتها وهي تطلب منك السماح لها بدخوله. ماذا تفعل؟

الجندي: لا أسمح لها.

القاضي: ماذا كنت تفعل؟

الجندي: إذا كانت في الشارع.. أطلق عليها الرصاص.

القاضي: ولكن لم يكن أي خطر. كل ما في الأمر أن شخصاً ما، بسبب خطأ ما، أو بسبب أنه لم يعلم بأمر منع التجول

توجـه إليك وأراد، بإذن منك، قطـع الشارع. السؤال هو: أنـك، رغم ذلك، كنت ستقتـل كل واحد أم أنك كنت تميز وتمتنع عن القتل في حالات معينة؟

الجندي: ما كنت أميّز.

القاضي: هل كنت ستقتل كل واحد؟

الجندي: نعم.

القاضي: حتى لو كان ذلك الشخص امرأة أو طفلاً؟

الجندي: نعم.

القاضي: كنت تقتل كل من تراه.

الجندي: نعم.

وهذا ما حدث فعلاً..

طفل عمره ثماني سنوات، واسمه طلال شاكر عيسى. هربت عنزة مـن ساحة داره إلـى الشارع. لا الطفل ولا العنـزة يفهمان بأن أمر منع التجول قد أصبح ساري المفعول في القرية منذ دقائق معدودة. ركض الطفل وراء العنزة، فانهمر رصاص بندقية وأرداه قتيلاً.

لحق به أبوه، فاستأنفت البندقية مهمتها.

ركضـت الأم نحو زوجها وابنهـا، فاستأنفـت البندقية مهمتها. لحقت الابنة نورة بوالديها وأخيها، فاستأنفت البندقية مهمتها.

وماذا كانت مهمة البندقية؟

عشية الهجوم الثلاثي على مصر عام 1956، دعا اللواء شدمي الرائد مالينكـي إلى مقر قيادتـه، وأبلغـه بالمهمات الملقـاة على الوحدة الخاضعـة له. كانت إحدى هـذه المهمات التـي ألقيت على عاتق حرس الحدود في المنطقة الوسطى فرض منع التجول وبقاء السكان داخـل بيوتهم فـي قرية كفر قاسم والقرى المجـاورة لها، ابتداء من الساعـة الخامسـة مساء حتـى السادسة صباحـاً. ودار بين القائدين الحوار التالي كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

شدمـي: يجب أن يكون منع التجـول حازماً جداً، وتتم المحافظة عليـه بيـد قويـة، لا بواسطة اعتقـال المخالفيـن، وإنما بإطلاق النار عليهم. ومن الأفضل قتلهم بدلاً من تعقيدات الاعتقالات.

مالينكي: وما هو مصير المواطن الذي يعود من عمله خارج القرية، دون أن يعلـم بأمر منع التجـول، ومن المحتمل أن يقابل في مدخل القرية وحدات من حرس الحدود؟

شدمي: لا أريد عواطف. اللـه يرحمه!

وبانتهـاء الحوار السريع والحازم، قدم مالينكي إلى ضابط قوات الاحتياط التابع لفرقته أمراً يتضمن العبارة التالية: «لا يسمح لأي ساكـن أن يترك بيته خلال منع التجول. ومن يترك بيته تطلق عليه النار. ولا تكون اعتقالات».

ودار الحـوار التالـي بيـن مالينكي وبيـن جنوده، كمـا ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

جندي: ماذا نفعل بالمصابين؟

مالينكي: يجب عدم الاهتمام بهم. أو يجب عدم نقلهم. أو لن يكون هناك جرحى. [حسب الشهادات التي وردت في المحكمة].

قال أحد الأقسام: وماذا بشأن النساء والأطفال؟

مالينكي: بدون عواطف.

القائد نفسه: وماذا بشأن العائدين من العمل؟

مالينكي: حكمهم كحكم الجميع. الله يرحمهم. هكذا قال القائد.

وفي اليوم ذاته، وفي الساعة الرابعة والنصف، أي قبل سريان مفعول منع التجول بنصف ساعة فقط، كان رقيب من حرس الحدود يبلغ مختار قرية كفر قاسم بفرض منعٍ التجول ابتداء من الساعة الخامسة مساءٍ وحتى السادسة صباحاً. وحذره بأن منع التجول سيكون حازماً ويتضمن خطر الموت. وطلب منه أن يعلن ذلك في القرية. فأخبره المختار أن أربعمائة عامل من كفر قاسم موجودون، في هذه اللحظة، في أماكن عملهم خارج القرية. قسم منهم في أماكن قريبة. وقسم آخر في أماكن بعيدة مثل يافا واللّد. وأنه من المتعذر عليه إبلاغهم بأمر منع التجول في مثل هذه الفترة القصيرة. بعد المناقشة وعد الرقيب المختار بأنه سيسمح للعائدين من العمل بالمرور على عاتقه وعلى عاتق الحكومة!

وعلى عاتقه.. وعلى عاتق الحكومة، تمّ في الساعة الأولى من منع التجول.. بين الخامسة والسادسة مساء قتل سبعة وأربعين مواطناً عربياً من قرية كفر قاسم على أيدي حرس الحدود. ومن

بين القتلى سبعة أولاد وبنات وتسع نساء.

بعد عشر سنين من المذبحة التي روت عطش الإسرائيلي إلى الدم العربي الأعزل روى أحد الذين نجوا من المذبحة بأعجوبة (صالح خليل عيسى) للشاعر توفيق زياد على شهادته على المجزرة:

«في ذلك اليوم كنت أعمل في بيارة مع اثنين من أبناء عمي. أنهينا العمل بعد الساعة الرابعة بقليل، وركبنا دراجاتنا عائدين إلى القرية. في الطريق التقينا بعمال آخرين قالوا لنا إن في القرية منع تجول وإطلاق رصاص ولا أحد يعرف لماذا. هكذا سمعوا. بعد تردد قررنا مواصلة الطريق. كان عددنا يزداد حتى أصبح خمسة عشر عاملاً. صرنا على بعد كيلومتر من القرية. لم تكن لدينا مخاوف جدّية. احتمال واحد كنت أفكر به.. وهو أن يتعرض لنا ضابط قوة الحدود «بلوم». ربما سيشتمنا ويضربنا قليلاً كالعادة. ولم أفكر بشيء آخر.

بعد قليل سمعنا صوت إطلاق رصاص. بدأت أحسّ أن المسألة خطيرة. قلت لابن عمي: فلنرجع. راح يشجعني. وكان معنا شيخ في حوالي الستين راح يشجعنا بآيات قرآنية. واقتربنا حتى صرنا على بعد مائة متر عن أقرب بيت في القرية.

فجأة.. ظهر رجل من حرس الحدود واعترض طريقنا: قفوا! وحتى تلك اللحظة، فإن ما كنت أتصوره هو الضرب.. لا الموت.

نزلنا عن الدراجات. وأمرنا الجندي بالوقوف في صف:

- من أين أنتم؟

□ من كفر قاسم. صحنا بصوت واحد.

– وأين كنتم؟

□ في العمل.

ابتعد عنا نحو خمسة أمتار، حيث كان اثنان من زملائه يحمل كل واحد منهم مدفعاً رشاشاً وصاح:

– أحصدوهم!

ولم أصدق إلاّ عندما راح الرصاص ينهمر في اتجاهنا. الرشة الأولى على أرجلنا. والثانية أعلى قليلاً. وسقطت مع الآخرين. كانت بجانبي عربة خيل كانوا قد احتجزوا صاحبها وأطلقوا عليه الرصاص معنا. سقطتُ خلف العربة، لا أعرف كيف. شعرت أنني ما زلت حياً فقط بعدما سقطت. وهذا كل شيء. وابتعد عنا الجنود الثلاثة حوالي عشرة أمتار.

وجاءت، بعد لحظات، سيارة شحن. أوقفوها. أمروا ركابها بالنزول. كان فيها كثيرون (عرفت فيما بعد أن عددهم كان ثلاثة وعشرين) من عمال شركة أساميا للزراعة.

تقدم منهم الآمر نفسه الذي أصدر الأمر بإطلاق الرصاص علينا، وأمرهم بالنزول والاصطفاف خلف السيارة. وبعد أن اصطفوا خلف السيارة ملتصقين، ابتعد عنهم ذلك الآمر ثم صرخ:

– أحصدوهم!

هرب البعض. وسقطت الأكثرية.

وعـاد القتلة الثلاثة حيث كنت وباقـي ركاب الدراجات القتلى، وأخـذوا يكومونهم في كومة واحدة على بعـد ثلاثة أمتار مني. كانوا يستعملـون بطاريات ويطلقون الرصاص، إنهم يجهزون على الجرحى.

واقتربـوا مني. سحبوا العربة بعيداً. دولابها الحديدي مشى بكل ثقله على قدمـي. كنت أصرّ بأسناني حتـى لا أصرخ. تظاهرت بأني ميت. سحبوني ووضعوني على الكوم.. وابتعدوا.

بعدما كوّموا قتلى سيارة الشحن على بعد عشرة أمتار منا، جاءت سيارة شحن أخرى كان فيها شخصان. قتلوهما. وسمعت هدير سيارة جيـب آتية من الطريق الشرقي.. مـن ناحية القرية. كانت مطفـأة. سمعت لغطاً ورأيت شخصـاً ينزل منها. لم أفهم الكلام إذ كانوا علـى بعد عشرين متراً مني. ثم عادت السيارة من حيث أتت.

وسادت فترة هدوء.

ورأيـت القتلـة الثلاثة يسيرون ثـم يجلسون على بئـر القرية. ثم جاءت سيارة شحن. [لعلك لاحظت أنهم كانوا يقتلون كل فوج جديد على بعـد بضعة أمتار من الذي سبقه في الاتجاه المعاكس للقريـة، حتى لايرى الفوج الجديد مصيـر سابقه] ولكن السيارة التي أشرت إليها مرت على أكوام القتلى. ويبدو أن القتَلَة ماعادوا يكترثـون بأن يلاحظ الضحايا الجـدد مصير الذين سبقوهم أم لا يلاحظـون. ومرت السيـارة من جانب كوم القتلـى الذي كنت

فيه. سمعت أصواتاً نسائية. كان في السيارة كما عرفت فيما بعد ثلاث عشرة امرأة من اثنتي عشرة سنة فما فوق، وأربعة رجال.

وفجأة، ركض القتلة الثلاثة وراء السيارة، وأوقفوها، وأنزلوا ركابها.

وفكـرت. السيارة تبعـد عني من عشريـن إلى خمسـة وعشرين متـراً. وشعرت بقوة هائلة تنفضني. ووقفـت ورحت أركض. لم أدر كيـف قفزت عن سيـاج أمامي. كنت أركض فـي اتجاه موازٍ للسيـارة دون أن أعي. ومثل المطر، انهمر الرصاص في اتجاهي. واختلط صوت الرصاص بزعيق النساء وأصوات ارتطام أجسامهن بالأرض. وأحسست بالرصاص يخترق ثيابي. عندها فقط عرفت أيـن أنـا. انبطحت. ثـم رحت أحبـو على يدي ورجلـي في كرم زيتـون. كنت أتصـور الزيتون مملوءاً جيشـاً وسيارات عسكرية، وأنه مـن الممكن أن أصطدم بهم فـي كل لحظة. وخلف صخرة كبيـرة، تحت زيتونة، اختبأت وأنا أفكـر بالموت الذي يمكن أن يغتالنـي في أيـة لحظة. بقيت هناك حتى الصبـاح والدم ينزف من جرحين في يدي ورجلي. وفي الصباح اكتشف موضعي جنديان، ونقلت إلى المستشفى».

في صباح اليوم التالي، بحث المجرمون عن وسيلة لدفن الجريمة. أحضـروا أشخاصاً من القرية المجـاورة – جلجولية – إلى مقبرة كفـر قاسم، وأمروهم بـأن يحفروا سبعة وأربعيـن قبراً. لم يعرف المكلفون بحفر القبـور شيئاً عن الجريمة. كان عليهم أن يحفروا وكفى.. ومن يومها، كبرت مقبرة كفر قاسم وصارت مزار شعب، ودليلاً على «طهارة» السلاح اليهودي في إسرائيل!

لم تنته الجريمة بدفن الموتى. لم تنته المجزرة بجفاف الدم. فلكي تستكمل عملية القتل شروطها الإسرائيلية، كان لا بد «للضمير الإسرائيلي» المشهور بالحساسية تجاه أي خدش يصيب أي يهودي في أي مكان من العالم، من دخول تجربة الاختبار الإنساني. كان لا بد من البحث عن حقيقة وجود هذا الضمير الحساس. كان الضمير غائباً.. غائباً لأن ضحايا المجزرة عرب. ويبدو أن شرعية قتل العرب أو عدم الاكتراث تجاه قتلهم أصبح حالة تلقائية سائدة في المجتمع الإسرائيلي الذي ربي على غريزة العداء لهذه المخلوقات التي تعكر صفو «النقاء» اليهودي في فلسطين. كان الصمت السادي أو المبتهج سائداً. ولم تخرج عن قانون الصمت إلاّ بعض الأقلام التي آلمها انتهاك شروط السمعة الطيبة للسلاح اليهودي التي يروّجها دعاة الجرائم الصهيونية. لم تكن قصيدة الشاعر الإسرائيلي البارز ناتان الترمان دفاعاً عن العدالة الصريعة على مدخل كفر قاسم، بقدر ما كانت دفاعاً عن سمعة مجتمع الاغتصاب الإسرائيلي:

«لا ينبغي الكتابة عن شيء آخر.

لا كتابة قصة ولا قصيدة، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذي جرى في إسرائيل.

هذه هي طبيعة هذه اللغة. وهذه صفتها.

يقولون: ستجري محاكمة – وينتهي الأمر. سيتكلم العدل ويصدر حكمه.

يقولون: لنترك ذلك للإجراءات القضائية. أولا يكفي ذلك؟

– لا. ذلك ليس كل شيء.

إن القضاء أبجدية مفـروغ منها، لأنه لا يمكن للجريمة ألاّ توقظ القانون.

لكن قبل المحاكمة وبعدها – سيظل ينقص هذه القضية مبدأ كبير.

لا يمكـن أن يقوم مجتمـع إنساني حدثت فيه مثـل هذه النذالة، دون أن تثور فيه رعشة وغضب.

غضب جماهيري يحمل السخط الإنساني والفردي

سخط الرجال والنساء.

ذلـك لأنه بـدون هذا يكون القضـاء ردّ فعـل ديناميكي، مبرمج وآلي،

رد فعـل يـدور فـي فـراغ وليس فـي وسـط شعـب واعٍ متيقظ الحواس».

ولقـد دمّر الكاتب بوعز عبرون ادعـاء السمعة الأخلاقية والروحية التـي يـروّج لها دعـاة السلطـة الإسرائيلية، فكتب «منـذ الجريمة ونحن في امتحان. لقد وضعـت استقامتنا وإنسانيتنا وشجاعتنا في امتحان فشلنا في اجتيازه». وعدّد أربعة مذنبين: «الأول، الصحافة. فباستثنـاء صحيفتين أو ثلاث صحف مـن الشواذ، اتفقت الصحافة على مؤامرة صمت وأسدلت ستاراً على الجريمة. فبدلاً من الكتابة عـن القتـل والجريمـة فـي كفرقاسم، كتبـت عن «مصيبـة» وعن «خطيئة» وعن «الحادث المؤسـف». وحين كتبت هذه الصحف

عن ضحايـا المصيبة لم يكن واضحاً عمن تتحـدث: عن القتلى أم عن القتلة. «المذنب الثاني هـو القيادة الدينية والأوساط الدينية في البلاد. هـؤلاء الذين يطلبون سلطة لكـي «يسيطر الخلق اليهودي» و«روح جدنـا إسرائيل». هؤلاء صمتـوا بلا مبالاة كاملة. حتى ولا شخصية دينية واحدة هبّت لتنقذ شرف الديانة اليهودية». «المذنب الثالـث هو القيـادة الأكاديميـة. فباستثناء قليل مـن «المجانين» لم يوجـد تقريبـاً بروفسـور أو محاضـر واحـد يصرخ «هـذا قتل». «والمذنـب الرابع هو القيادة الأدبية – الفنيـة. فمنظمة الأدباء التي عرفت دائمـاً أن «تحتج بكل شدة» وأن «تتوجـه إلى ضمير العالم المستنير» صمتت ومازالت صامتة وستصمت». وأضاف الكاتب: «وماذا عـن الأحزاب التي كانت تجلس طوال ذلك الوقت كله في الحكـم ملوّحة بشعـارات السـلام والعدل وأخـوة الشعوب؟ أين كان الثوريون؟ وأين كنا نحـن.. المواطنين البسطاء الذين أحسسنا بالقرف والاحتقار، ونحن نشاهد رقصة الجن؟».

رقصة الجن هي المحاكمة.

وهي الفصل الثالث في الجريمة التي بدأت بالقتل ثم الصمت.. ثم المحاكمة. تمهيداً للمحاكمة – التي راوغت الحكومة في إجرائها – تجـري مصالحة مهينة بين حكومة إسرائيـل وبين ذوي ضحايا كفر قاسم!

خصصت وزارة الدفاع مبلغ مائة ألف ليرة ثمناً لخمسين ضحية عربية.

أرخص ثمن في التاريخ.

وتمـت التسعيرة بالشـكل التالـي: ألفا ليرة لمن هـو بالخامسة عشـرة. ألف ليـرة سعر ما دون الثامنة. المتـزوج وليس له أولاد ثمنه ثلاثة آلاف ليرة. المتزوج وله ولد واحد يساوي أربعة آلاف ليرة. المتزوج وله أكثر من ولد واحد يساوي خمسة آلاف ليرة. وبالوسائل الإسرائيلية، المعروفة وغير المعروفة، فرضت السلطة المصالحة والتعويضات.

ثم.. بدأت محاكمة القتلة، بعدما أدين القتلى!

بعد سنتين من وقوع الجريمة، أصدرت المحكمة التي استغرقت وقتاً طويلاً قراراتها. ما أجمل أن توزع السلطة العسكرية أدوارها بين قاتل وقاض وشاهد.

وفـي حكمهـا «العـادل» قـررت المحكمـة أنها وجـدت الرائد شموئيـل مالينكـي والملازم جبرائيـل دهان مذنبين فـي قتل ثلاثة وأربعيـن مواطنـاً. فحكمت على الأول بالسجـن لمدة سبع عشرة سنـة وعلـى الثانـي خمس عشـرة سنة. أمـا المتهم الثالـث شالوم عوفـر، الذي ارتكب بصورة رهيبـة أكثر عمليات القتل – كما جاء في كتـاب المحامي صبري جريس إستناداً إلـى قرارات المحكمة المركزية – فقد وجد مذنبـاً مع دهان بقتل 41 مواطناً وحكم عليه بالسجـن لمدة خمس عشـرة سنة. أما المتهمـان الرابع والخامس – الجنـدي مخلوف حريش والجنـدي إلياهو إبراهام – فقد وجدا مذنبيـن بقتل 22 مواطناً. والمتهمون السادس والسابع والثامن – العريف جبرائيل عوليل، والجندي ألبرت فحيمة، والجندي ادموند نحمانـي – فقد وجدوا مذنبين بقتـل 17 مواطناً، وحكم على كل واحد منهم ومـن الاثنين السابقين بالسجن لمدة – ثماني سنوات.

وبرأت المحكمة المتهمين الثلاثة الباقين.

ومع أن هذه الأحكام الخفيفة – التي تنطوي على تشجيع مزيد من القتل تحت غطاء التسامح القانوني – قد أثارت دهشة المواطنين العرب وقلقهم على مستقبلهم، فإنها قد أثارت سخط المتطرفين اليهود في إسرائيل الذين ادعوا أن القتلة قاموا بواجبهم القومي. ولم يتورع بعض الصحف الإسرائيلية عن المطالبة بإصدار العفو عن القتلة.

ولم يكن مدهشاً ومفاجئاً أن يستجيب المسؤولون الإسرائيليون إلى هذه المطالبة الشعبية، فقد وجدت المحكمة العسكرية العليا للاستئناف أن الحكم الصادر على القتلة كان قاسياً جداً ومن الواجب تخفيفه، فأصدرت حكماً بخفض الحكم على مالينكي إلى 14 سنة، وعلى دهان إلى عشر سنوات، وعلى عوفر إلى تسع سنوات. ثم تدخل رئيس أركان الجيش فخفض الحكم على مالينكي إلى عشر سنوات، وعلى دهان إلى ثماني سنوات، وعلى بقية القتلة إلى أربع سنوات.

وجاء رئيس الدولة ليعمق مبادئ عدالة القتل الإسرائيلي، فمنح كلاً من مالينكي ودهان عفواً جزئياً وخفض الأحكام عليهما إلى خمس سنوات!

لقد أخذت سلسلة التخفيفات هذه شكل المباراة في تقديم المكافآت إلى القتلة تقديراً لنجاحهم في القتل بدم بارد، فتبرعت «لجنة إطلاق سراح المسجونين» بخفض الثلث من مدة السجن لكل واحد من المحكوم عليهم. وأطلق سراح آخر واحد من

القتلة في بداية عـام 1960. ووجد المسؤولون الإسرائيليون أن جبرائيـل دهان الذي قتل 43 عربياً خـلال ساعة واحدة يستحق وظيفـة مدنية جديرة بصلات الدم التي تربطـه بالعرب، فأعلنت بلديـة الرملـة في العام ذاته أنهـا قبلت دهان للعمـل فيها بوظيفة «المسؤول عن شؤون العرب في المدينة».

وماذا عن اللواء شدمي الذي أصدر أوامره إلى مالينكي؟ وأوصاه بأن ينشر بين جنوده تعاليم «بدون عواطف»؟ وماذا عن المصدر الكبير الـذي تلقى منه شدمي الأوامر العليا؟ إن محاكمة شدمي، بصورة حقيقيـة، ستكشف النقاب عن المصدر الأعلى للأوامر. ولذلك، قدم شدمي أمام محكمة عسكرية صورية عيّن أعضاءها رئيس أركان الجيش.

تمـت المحاكمة بشـكل سريع. ووجدت المحكمـة أن شدمي مذنـب في «خطأ تِقَني فقط». ولهذا حكمت.. بتوبيخه. وبدفع غرامة مالية قدرها: قرش إسرائيلي واحد.

لعـل قرش شدمي أثمن عملة في تاريـخ الجرائم. ستطول شهرته كثيـراً مـا دام للجريمـة مـكان على سطـح الكـرة الأرضية. إن المسـؤول عن قتل تسعة وأربعيـن مدنياً بريئاً في قرية آمنة يعاقب بدفـع قرشـ واحد. هذا لا يحـدث كثيراً.. لا يحـدث كثيراً في التاريخ، إلاّ عندما يتعلم أبناء ضحايا النازية كيف يقلدون قتلتهم. هذا هـو الدرس الذي تعلمـه أصحاب التطبيـق الصهيوني على أرض فلسطين.

ومـاذا كتب آحـاد هعام ـ المفكـر اليهودي الـذي كرّس حياته

لدعوى الصهيونية ومقاومة اندماج اليهود في أوروبا الشرقية؟ ماذا كتب حين شاهد، بعينيه سلوك المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام 1891، وقبل أن ينشئوا دولتهم؟ كتب: «وماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين؟ كانوا عبيداً في بلاد الدياسبورا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها. ولقد ولد هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما تكون الحال عندما يصير العبد سيداً. وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الإهانات دون أي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف بوجه هذا الميل الخسيس والخطير في آن واحد». إذا كان آحاد هعام الصهيوني الكلاسيكي قد اشتكى من شراسة المهاجرين الأوائل، قبل أن ينشئوا دولة ويملكوا جيشاً وسلاحاً، فماذا من الممكن أن يكتب المراقب الآن؟

لم تكتف غريزة الجريمة لدى الحكم الإسرائيلي بقتل 49 عربياً في كفر قاسم، وتبرئة المنفّذين، وبعدم محاكمة المسؤولين لأن ذلك يعني محاكمة الكيان الإسرائيلي من أساسه. لم تكتف بذلك، وإنما امتلكت من السادية والنفاق قدراً جعلها تبتز من الضحايا اعترافاً بالشرعية وتأييداً للسلاح الفاتك، فبالوسائل الإسرائيلية ابتزت السلطة الإسرائيلية، بعد المجزرة مباشرة، تأييداً للحزب الحاكم في الانتخابات البرلمانية. فقد حصل الحزب الحاكم القاتل على الأغلبية الساحقة من أصوات الناخبين في القرية المنكوبة. فصارت الجريمة مزدوجة: قتلوهم.. وأرغموهم على إعلان الولاء. لقد استجوبوا الجثث، واستنطقوها لتقول للغزاة القتلة: نعم!

أراد القتلـة أن يصوروا ما حدث في كفـر قاسم بأنه حادث، فهل هو حادث.. أم هو طبيعة ملازمة للممارسة الصهيونية على أرض فلسطين، وسياسة مستمرة تجاه المواطنين العرب الواقعين تحت الأسـر الإسرائيلـي؟ لقد قالوا عن ديـر ياسين أيضـاً أنها حادث، فهل يكـون الحادث حادثاً إذا تكرر عشـرات المرات. إن القتل بـدم بارد، والعنف المسلّح هما فلسفـة إسرائيلية. وقد ملأ الفكر الصهيونـي صفحـات كثيرة لإعطـاء العنف شرعيـة مستمدة من الحاجـة إلى قيام إسرائيل والمحافظة عليها. وقد نلاحظ أن بعض الصهيونيين الليبراليين إنمـا يعارضون بعض مظاهر العنف عندما يضيـع الفارق بين العنـف الذي يرمي إلى تحقيـق هدف سياسي وبيـن العنف الذي يرتكب جريمة ليس وراءها هدف غير الانتقام الحيواني. وهذا ما يفسّر غضبة آحاد هعام الشهيرة، لأن الموقف المتكامـل من معارضـة العنف الصهيوني إنمـا يستدرج صاحبه إلى رفض القاعـدة القانونية التي نشأ عليها كيـان إسرائيل، وهي العنـف المسلّح. ولكن ما جـرى في كفر قاسـم يتجاوز مفاهيم العنـف المسلّح الذي يجد له تبريراً سياسياً لدى البعض. فلم تكن الجريمـة هناك مثل جريمة دير ياسين مثلاً. التي هدف الغزاة منها إلـى دبّ الفزع بيـن العرب لدفعهم إلى الرحيـل وحققت أهدافاً سياسيـة لمصلحـة التوسـع والانتصـار الإسرائيلييـن. ولم تكن الجريمة «وقائية» للمحافظـة على أي مطلب من متطلبات الأمن الإسرائيلـي، إذ لـم يهدد عمال كفـر قاسم وفلاحوهـا وأطفالها ونساؤهـا أمـن دولة إسرائيل، ولـم يعرقلوا اندفـاع جيشها نحو سيناء! الجريمة هنا خططت ونفّذت بدون «ضرورة» و«حاجة» إذا جـاز التعبير. إنها جريمة مـن أجل الجريمة. إنها أعلى أشكال الجريمـة التي تحركها غرائـز القتل والانتقام. وقـد عبّر عن هذا النـوع من العنف المسلّـح الإرهابي الشهيـر مناحيم بيغن، حين

كتب أن أساليب العنف التي لجأ إليها الصهيونيون قبل 1948 هي الطريق الوحيد الفعّال لتأمين الأهداف القومية في فلسطين، وأنها «أشبعت رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام». كان ذلك قبل 48، فلماذا في كفر قاسم 56؟ لعل فلسفة الوجود كما يفهمها الصهيوني الإرهابي «أنا أحارب إذن أنا موجود» تحتاج دائماً إلى ممارسة مستمرة وإلى برهان جديد. ولعل الصهيوني الإسرائيلي الذي يحمل رغبة مكبوتة – للانتقام – كما يقول بيغن – محتاج إلى تجديد وجوده بطريقة وحيدة هي الحرب، و إلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة لجدارة التفرد، وهي القتل والقتل والقتل. «كن أخي وإلاّ قتلتك». هكذا يضيف فيلسوف الجريمة. وليس في وسع العربي الواقع في الأسر الإسرائيلي أن يؤاخي قاتله. وهكذا تبقى حلقة القتل مفرغة بلا نهاية.

ليس في الفكر الصهيوني نهاية للمبررات التي لا تحصى للعنف المسلّح الذي لا يفتقر إلى استلهام الديانة أيضاً. ولهذا، صار يهوشع بن نون بطلاً إسرائيلياً معاصراً بسبب وحشية أسلوبه في التعامل مع الشعوب غير اليهودية. هذه الوحشية التي تشكل تشابهاً تاريخياً مع التطبيق الصهيوني اليوم يحتاج له أصحاب القرار السياسي في إسرائيل كمصدر وحي وإلهام، وكركيزة تراثية لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على اعتبار أن كل جريمة تصير شرعية وقانونية من أجل تحقيق الهدف الصهيوني. وقد بلغ التطرف باستحضار إرهاب يهوشع بن نون مدى دفع بعض «العقلاء» الإسرائيليين إلى الدعوة لتحريم تدريس يهوشع بن نون في المدارس لأنه يشكل إفساداً لروح الشباب يجعله عاجزاً عن التعود على الحياة، بسلام، مع العرب في حالة تغير ظروف العلاقات بين العرب واليهود.

إن ما تدّعيه إسرائيل من حساسية تجاه ما تعدّه ظلماً لاحقاً باليهود في أي مكان بالعالم، سرعان ما يتحول إلى عمل إنساني مشروع حين تمارسه ضد العرب. وإن ما كان يعتبر وحشية عندما كان يمارس ضد يهودي، سرعان ما يتحول إلى واجب قومي يهودي عندما ينفذ بالسلاح اليهودي «الطاهر» عندما يتم تطبيقه ضد العرب. وليس عربياً القائل إن الصهيونية «تعتبر العمل الواحد حقاً وصواباً إذا قامت هي به وخطأ غير مشروع إذا قام به غيرها». القائل هو موشيه سميلانسكي الذي قال إن القومية اليهودية في فلسطين مبنية على أنانية عسكرية تؤمن بالعنف وبعيدة كل البعد عن الإنسانية.

خلاصة القول أن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل ضد السكان العرب المدنيين والتي تمثل مذبحة كفرقاسم تجسيداً صارخاً لها، ليست ناشئة عن تطبيق «رديء» للتراث الصهيوني «الجيد»، ولكنها تطبيق جيد للتراث الصهيوني الرديء. وهذه النقطة بالذات هي التي تشكل صخرة صماء وعقدة مستعصية الحل أمام الذين يدافعون عن مبادئ الصهيونية «النظيفة» ويعترضون على التطبيق الإسرائيلي القذر لهذه المبادئ، أو الذين يعترضون على «الانتهاكات» الإسرائيلية «لقداسة» التعاليم الصهيونية. إن الاعتراض على الممارسة الإسرائيلية سيبقى محاولة لاجتراح المستحيل إذا بقي أسير الالتزام بفكرة الدفاع عن سلامة الأيديولوجية الصهيونية، وضرباً من ضروب خداع النفس وخداع الآخرين.

إن تراث الصهيونية وينبوعها «الصافي» هو الذي حلّل العنف والجريمة. كان جابوتنسكي واضحاً مع نفسه حين قال لمستشار الطلبة اليهود في فيينا: «تستطيع أن تلغي كل شيء:

القبعات، والأحزمة، والألوان، والإفراط في الشراب، والأغاني. أمـا السيف فلا يمكن إلغاؤه. عليكـم أن تحتفظوا بالسيف، لأن الاقتتـال بالسيف ليس ابتـكاراً ألمانياً، بل هو ملـك لأجدادنا الأوائل. إن السيف والتوراة أنزلا علينا من السماء».

ليس التحدي الـذي اختارته الصهيونية دائراً على القيم الإنسانية والتحـدي الحضاري كمـا تدّعي، ولكنه التحـدي حول أولوية الانتمـاء إلى العنـف المسلّح وإلى السيف. وقـد بلغت المنافسة حول هذه الصفة بمفكر صهيوني آخر هو جوزيف بيرديشفسكي حداً جعله يعترض على صحبة السيف والكتاب، فقال: «إن كلاً مـن السيف والكتـاب يناقض الآخـر بل ويقضي عليـه كلياً. إن الفتـرة التي يعيشها الشعب اليهودي هي فتـرة عصيبة. وفي مثل هذه الفترات يعيشـ الرجال والأمم بالسيف وليس بالكتاب. إن السيـف ليس شيئاً مجرداً أو بعيداً عـن الحياة. إنه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها، أما الكتاب فليس كذلك».

مثلما لا نجد نهاية، في الفكر الصهيوني، لمبررات الإرهاب والعنف المسلّح المستلهمة من الأحـكام السياسية والذرائع الدينية، وعقدة الكبـت التاريخي، كذلك لا نجد على الطبيعة الإسرائيلية نهاية لهذا التطبيق. دعا الرواد الأوائل إلى العنف، ومارسه الجنود الإسرائيليون وحرس الحـدود، وادعى الدعاة أن السلاح الإسرائيلي أطهر سلاح وأن الغزاة الإسرائيليـن هم أجمل الغزاة. وقد برهنوا هذه المزاعم، مـرات كثيرة، وأثبتوا «جمالهـم وطهارتهم» في كل طرائق تعاملهم مع السكان العرب، وبالذات مـع عمال كفرقاسم وأطفالها. بغرامة قرش واحد فقط يسدل الستار على ذبح 49 مواطناً.

وحين كنا نحاول دخول كفرقاسم لمشاركتها في إحياء ذكرى ضحاياها، كان حرس الحدود إياهم... القتلة إياهم يضربون حصاراً حول القرية الثكلى، ويمنعون الزوار من نقل التعازي. هؤلاء القتلة الأبطال لماذا يخافون ذكرى ضحاياهم؟ ليس تأنيب الضمير هو الذي يدفعهم إلى قمع الذكرى، بل الكراهية والسادية، والشعور بالحاجة إلى برهنة وجودهم... موجودون دائماً مع الجريمة، وكأنهم يجددون عملية القتل كل سنة بمحاولة قتل الذكرى. ولكننا نعرف كيف نحيي ذكرى ضحايا المذبحة... ولقد عرف الشعب العربي في فلسطين كيف ينتقم لأبنائه: شدّ على تربة الوطن بأظافره وأسنانه، وقال للغزاة: لن أوقع صك الغفران. ومضت السلطة في الانتقام من هذا الشعب، وبلغ الانتقام أوجه حين دشّنت مدينة السرقة «كرمئيل» على أنقاض أراضي ثلاث قرى عربية في الجليل في يوم ذكرى مذبحة كفر قاسم بالذات، لتظهر للعرب حقيقة نواياها تجاههم، ولتدلهم على حديْ السيف الذي تحاربهم به: القتل مرة، ومصادرة الأرض مرة أخرى.

لم تكن كفرقاسم ذات شأن في تاريخ فلسطين. ولا تستطيع الرؤيا الشعرية أن تستخرج منها لوحة جميلة. ولكن ذلك الغروب الواقف على حافة الدم جعل كفرقاسم المجهولة ملحمة شعب صابر. وحين وقفنا على مدخلها، ذات مساء، أحسسنا بضراوة الفرح المكبوت فينا. وعرفنا الجريمة التي ننال عليها كل هذا العقاب. وأدركنا أن الحجارة هي الوقت، فجلسنا عليها نغني للوطن.

الفرح.. عندما يخون!

1

علّموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تغـزوك الأيـام بذكريـات لا تشبهك. كنـت خارجـاً، للتوّ، من الخامس عشر من أيار/مايو. وكنت عاجزاً عن الالتصاق بالأشياء التـي ابتعدت عن مسـام جلدك. وقد مات جـدّك الذي أوصاك بمراقبة الرابية المطلة علـى مصادر موته. أخوك يحب الخطابة، فوقـف على الأطلال ووعـد الجنازة القادمة بأنهـا ستكون أكثر حظـاً من الأولى. لم تبلغ الثلاثين، ولكن محاذاة الموت تعطيك الحكمة. ومن الحكمة ألاّ تبدو عاطفياً في حضرة الآخرين.

تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسل من الجنازة الثانية وتعد أهلـك بالعودة لزيارتهم فـي جنازة قادمة. فهـذه هي المناسبة الوحيـدة للحصـول علـى إذن بالحركة. ما أشد العلاقـة بين الموت

والحركـة. وكنت خارجاً، للتو، من ذكـرى الخامس عشر من أيار/ مايو. كنت مسرعاً إلى البيت لا لتسبق الشمس الغاربة، وإنما لتهرب من الأضواء المتفجرة في الشوارع في عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

وفـي كل ليلة، من كل عام، فـي مثل هذا اليـوم يتحدد انتحارك الـذي لا يشعر بـه أحد. الانتحار غالباً ما يكـون تظاهرة. ولكن انتحـارك سرّ. يهبط عليك يوم، يثقب جلدك وينتشر في عظمك رويداً رويداً كزلزال صغير لا ينتهي، لا يكبر، ولا تنفجر.

الانفجار – هـذا ما يشغل بالك. تنتظر هـذه النهاية منذ عشرين سنة، ولا تأتي. لأن حالتك لا تفهم ولا تصل. ما أسهل أن تكتب قصيـدة تجهض الانفجار. وما أسهـل أن تحاور خصمك لتثبت ماذا؟ أن لك حقاً؟

وماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

ولـو أعطوك كل شيء، فماذا أنـت فاعل. هل ترضى؟ هل تكف عن البحث عن نقطة انفجار؟ وهل تأمن الفرح؟ إن من سلبك كل شيء لن يعطيك أي شيء. ولو أعطاك أهانك. «كن عاقلاً واذهب إلى الطين» هكذا قلت لنفسك، ولم ترد على سؤالي: لو أعطوك كل شـيء، فهل تأتمن الفرح؟ وتلتفت إلى أيامك وتصنف أجمل الشعارات التي حملتها وسرت بها إلى السجون:

تصريح سفر..

حرية تعبير..

مساواة..

وفجـأة تضحـك، تضحكك المسـاواة. وأنـت تناضل لكي لا تأتمن الفرح.. ولقد علمتك الأيـام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية، فمن أين يأتيك فجأة؟

2

تنتظر شيئاً آخر..

حالة الانتظار هي المبرر الوحيد لاقتناعك بمطالب تبقى صالحة، طيلة السنة، وتسفر عن سماجتها في منتصف أيار/ مايو دائماً.

لست مسؤولاً عن شيء مما مضى. ليس الماضي من صنع يديك وأخطائك. ولكنه ميراثك. هل ذهبت إلى طبريا مثلاً؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذه المدينة التي تحمل بحيرتها وتنزل إلى تحـت. وأنت لا تراهـا. هل تكون تافهـة رغبتك الجامحة فـي لقياها؟ وهـل يكون كفاحك رخيصاً لو طالبـت بالسفر إلى مدنـك؟ لا. ولكنك تنتظر. ولماذا ترى طبريا ما دامت المدافع العربية تطل عليها وتعدك بها؟

تنام وجهاز الراديو ساهر علـى سريرك. تعرف أسماء المذيعين في كل الإذاعـات العربية، ومواعيد نشرات الأخبار، وتلاوة آيات من الذكـر الحكيم، والأغاني والتمثيليات. وكلها جميلة. كل ما يفعله

العرب جميل لأنه ظهـرك. لا يعترض أحد على أصوات مضيفات الطائـرة، فكلهـا أصوات جميلة مـا دامت تعلن عـن قرب هبوط الطائرة فـي مدينة ما. وكل المذيعين والعاملين في الإذاعة وعدوك بسلامة الوصول إلى المدن التي تشتهيها. ليس من حقك، الآن، أن تعرف الحقيقة لأن الحقيقة قد تعني انتهاء حقك في الانتظار. ويوم ثار الجدل بيـن النقاد على تحديد شخصيـة «جودو» اللامعقولة، لـم تفهم دواعي الضجة، وكنت أذكى مـن كل النقاد ومن بيكيت نفسه. فمن انتظر عشرين عاماً يعرف جودو.

وهل ذهبت إلى قيسارية؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذا الشاطئ الذهبي، وتشعر بالنشوة. وحيـن كانت العرب تخطئ في نطق أسماء مدنك وقراك لم تكن تغضـب عليهم ولا تعاتبهم. كنت تلجـأ إلى دليل الأسماء العبرية وتفهـم. ثم تبتسم للأخطاء العربية كما يبتسم الأب لأخطاء طفله الذي يتدرب على النطق.

وكنت تتساءل أحياناً:

ما هي العلاقـة بين الغزاة وبين هذه الحجـارة و المياه و الأشجار؟ ولـم تفطن إلاّ في وقت لاحـق إلى أن أدبهـم السياسي والوجداني شديـد الالتصـاق بها بشـكل يثيـر الدهشة، ويتعامل مـع جزئيات وأشياء لا تراها. ليس هـذا ذنبك. فمنذ بلغت الصبا حددوا إقامتك وصـارت كتابتهم وسيلتـك الوحيدة للتعرف إلـى وطنك، مفارقة غريبة، أليس كذلك؟ باطل الأباطيل والكل زائل. ثم تفطن في وقت لاحق أيضاً إلى أن جانباً من جوانب صراعك هو التنافس الوجداني على حـب هذه الأرض، وليس الدعـوى الذهنية فقط. لقد زوجوا

الدعوى بالعاطفة. كيـف؟ هل يكون الغازي عاشقاً إلى هذا الحد؟ لم يكتب الفرنسيون والأميركيـون غزلاً في غابات فيتنام. ولكنهم يموتون وبدون حب. تخاف الفكرة، وتخشى أن يتحول المثل إلى حجة عليك، ولكن الجزائر تنقذك. فيهدأ بالك وترتاح إلى جدوى الانتظار.

وقد سألوك كثيراً:

خياليون.. خياليون أيهـا العرب. ما دام انتماؤكم إلى هذه البلاد حقيقياً وعميقاً فلماذا لا تكتبون شعراً في الطبيعة؟

الطبيعـة.. ماهي؟ تخرج إلـى الشرفة فيسرقـك المساء ويعيدك الحارس. ومن ثقـب سيارة الشرطة تعطي عينيك للطبيعة. كيف يجتمـع الأزرق والأخضر والبرتقالي فـي إناء واحد ولا يختلط؟ تحافـظ الألوان على استقلال جمالها وتجانسها المشترك: ينزل الكرمل إلى الشاطئ ليبدأ البحر. ينتهي البحر ليبدأ المساء. ينتهي المساء ليبدأ التحقيق:

- خياليون.. خياليون أيها العرب.

□ لماذا؟

- لأنكم لا تعترفون بالزمن!

□ ماذا تعنون؟

- مرت 19 سنة، وتطالبون بالأوهام.

□ تعلمنا صداقة الوهم منكم.

- ماذا تعني؟

□ مرت 2000 سنة، وتطالبون بالأوهام.

– هذه بلادنا.

□ وهذه بلادنا.

– نحن أقوى.

□ خياليون أيها الإسرائيليون.. خياليون.

– لماذا؟

□ لأنكم لا تعترفون بالزمن.

– ماذا تعني؟

□ القوة لا تخلق الحق. ونحن أقوى من الزمن.

– ولكنها بلادنا، سندافع عنها.

□ بلادنا وسندافع عنها.

– نحتكم إلى السلاح إذن.

□ لقد احتكمتم. ونحن لم نحتكم بعد.

وكان حزيران/ يونيو خلف الباب

كنت تنتظر

وكانوا ينتظرون.

كن متفائلاً، واذهب إلى حزيران/ يونيو.

من هنا، جاءك الفرح فجأة. وقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية.

3

صار الإسرائيلي العادي متأرجحاً بين النص والخبز. كان يقول «عدت» إلى أرض الميعاد تحقيقاً لرسالة البعث التاريخي للأمة اليهودية العظيمة. وفي حالات أقل مثالية كان يقول «جئت» إلى أرض الأمان لأنجو بجلدي من الاضطهاد النازي. «للغربان وطن وليس لي وطن». وفي حالات أكثر واقعية يقول «أعيش» على أرض إسرائيل، وليس لي من هدف إلاّ الأمن والعيش بسلام. ولم يقرأ الحكمة القائلة «عدلت، أمنت، فنمت».

ولقد خفّ الإحساس الوطني الإسرائيلي، قبل حزيران/ يونيو، عندما واجه حقيقة الفارق بين «أرض الميعاد» في أناشيد الطلائع «أرض السمن والعسل وحلّ المشكلة اليهودية» وبين الواقع الذي أخذ شكلاً شديد القسوة في أيار/ مايو، عندما وصلت البطالة والغلاء ذروة خطيرة. وصارت الهجرة من إسرائيل لا إلى إسرائيل هي القضية المطروحة، وانتعشت حاسة السخرية اليهودية لدى الإسرائيلي الذي يقول: «يرجى من المسافر الأخير ألاّ ينسى إطفاء النور في مطار اللد». والتهمت الكتب التي تتندر على رئيس الوزراء كل الكتب الصهيونية القومية. فأرض السمن والعسل ليس فيها خبز وزبدة. ثم التقت الأزمة الاقتصادية الخانقة بالتوتر الشديد على خطوط الهدنة، فتأرجح الإسرائيلي العادي، هذه المرة، بين المطلب الاقتصادي والجسد وصارت الصحف الإسرائيلية تتهم العمال المضربين عن العمل بالعمالة للمنظمات الفدائية الفلسطينية. وصار في وسع المراقب أن يلاحظ أن نقمة الإسرائيليين على مؤسستهم تصرف إلى الحدود.

الأمن – أولاً، والخبز – ثانياً. والمؤسسة الإسرائيلية تنمي حاسة

الخـوف اليهـودي باستمرار لتحقـق أكثر من هـدف: امتصاص مطالـب الناس الاقتصاديـة، وتوظيفها في مسألـة الحرب. اندفع الإسرائيليون إلى القتال بشراسة تحت غطاء «الدفاع عن النفس من خطر الإبادة». وإيهـام العالم الخارجي بمدى الخشية الإسرائيلية من الغزوة العربية.

وكان رجل الشارع خائفاً. خائفاً حقاً.

وكان أصدقاؤك الإسرائيليـون يزورونك كل مساء. يشربون حتى الثمالـة كأنهم يشربون الحيـاة. «من يدري، فقـد تنشب الحرب غداً، وقد لا نعود»، كان الوطن يتحول عندهم إلى كارثة، من أجل هذه النهاية جئنا؟

لم يعد الإسرائيلي الحي خيراً من اليهودي الميت. وكنت تتساءل: كيف استطاعت المؤسسة الإسرائيلية أن تشحنهم بكل هذا الخوف المسرحـي. كانـوا فعلاً يمثلـون، ربما دون أن يـدري معظمهم، مسرحيـة المسافرين إلى الموت. اليأس... اليأس. إن اليأس طاقة تفجيريـة. وكانـوا يسألونـك: كيـف ننجو؟ وكنـت تكلمهم عن حقوق الآخرين، فيضيقون ذرعاً، ويقررون: ليس أمامنا إلاّ القتال. لا مفـر. لـن نموت بلا سـلاح. الموت في ميـدان القتال خير من الموت في البيت. وتتفجر فيهم حاسة مسادة الانتحارية ويشربون بشراهـة كأنهم يشربـون الحيـاة. ويتصالح العاشق مـع عشيقته. وتتحـول العذارى إلى أمهات بسرعـة مدهشة. ويعود المطلّق إلى زوجته. وتأتلف الأحزاب المتعارضة وتنشأ جبهة قومية، ويبحثون عن بطل قومي.

ويودعونك ولا يعودون.

4

وحين تسير في شوارع المدينة، تكون وحدك. لا لونك يعلن هويتك، ولا مطاردة البوليس لك. إن الشارع نفسه يطارك ويعلنك. لأنك الشاب الوحيد. ومن يمشِ في الشارع في تلك الأيام يكن عربياً. ويلعنك الأطفال والشيوخ. فتخجل من السير في الشوارع. أكشاك الفلافل والسندويشات خالية. دور السينما خالية، البلاد كلها خالية من الشباب. صحف كثيرة لا تعرف من يقرأها ومن يوزعها ولكنك ترى أن أولاد المدارس الصغار هم الذين يوزعون زجاجات الحليب والبريد.

وعلموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. فمن أين جاءك فجأة؟

يقترب الانتظار من الانفجار. وتسألك أمك أن تعتني بسلامتك. والمصير - كل المصير يأخذ شكل طلقة. ترى الحرب ولا ترى موتاً. تخرج منك الذكريات دفعة واحدة. ولا وقت للتصور القادم. تذكر، فجأة، أن فلسطين بلادك. يأخذك الاسم الضائع إلى عصور ضائعة. كأنّ هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن. حرموك من الأناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها. الاسم يعود.. يعود أخيراً من رحلة العبث. تفتح خارطتها كأنك تفتح أزرار ثياب حبيبتك الأولى لأول مرة: كان شيء يشبه الفضة - كانت طبريا. تصعد القدس إلى خصر إله. صفد طارت إلى أول قبلة. وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر. ترى إلى الخارطة وتصفر لحناً مرحاً مرحاً. وتنسى حيفا لأنك دائماً تنسى قلبك. تشعر بصداقة عميقة مع الأيام. لم تكن قاسية إلى الحد الذي تتصوره، ولكن مزاحها كان سمجاً أحياناً.

دنيـا! تمد أصابعك الطويلـة إلى أجزاء المـرأة الذكية النائمة على ورق صقيـل: الخصـر رفيـع يشربه البحـر وخطـوط الهدنة. ثم تقبّلهـا وتعانقها وتموت من اللذة - الوعد. ولا تقف على أرض، سابح... سابح مفتون بالغموض. وتذكر طفولتك القاسية وطفولة المستقبـل والأشجار. ثم تقطع شوارع عـكا، وتقف طويلاً عند شارع بيـروت. كنت تشعر بالمعجزة يـوم كان أصدقاؤك الكبار يخبرونـك عن رحلاتهم الأسبوعية إلى دمشق وبيروت والقاهرة. تأخـذ القطـار من حيفـا، يمر القطار فـي العريشـ ويوصلك إلى القاهـرة. تأخذ سيارة أجرة من عكا، وبعد أقل من ساعة تكون في ساحـة البرج. وتكمل السهرة عند ضفة بـردى الذي تصورته في حجم الفرح. تسألهم: هـل كانت بيروت والقاهرة ودمشق قريبة إلـى هذا الحد. كانـت... كانت أقرب. وكانـت فلسطين ملتقى الشرق. وفيها غنّى عبد الوهاب وأم كلثوم. لو وقفت على الأهرام وقذفت حجراً على فلسطين لوصل عصفوراً. والآن، ماذا؟ يخرج عصفور من فلسطين فيبيض سرباً من اللاجئين عند ضواحي دمشق. مزّقونا فتكاثرنا لاجئيـن. شيء في الداخل وشيء في الخارج. في الخـارج - ينمو الأطفـال على حليب وكالة الغـوث فيتحول في عروقهـم إلى دم فلسطينـي. وفي الداخل تأكل مـن قمح مرج بن عامـر وتصبح «مواطناً إسرائيلياً» وتقضي نصف عمرك لكي تجد اعترافاً واحـداً بأنك «مواطن فلسطيني» فلا تجد. ويوم هبط أول إنسـان على سطح القمر كنت مشغولاً بكتابـة رسائل عاطفية إلى البوليسـ الإسرائيلي ليأذن لك بالسفر إلى قرية أهلك! في الخارج يحسدونك لأنك في وطنك وهم لاجئون. تخبرهم أن منظر الماء لا يروي الظامئ بل يُدْميه. لا يفصلك عن أرضك الآن إلاّ شارع لو قطعته لاعتقلت، واتهمت بالتسلـل والاعتداء على أملاك الدولة. قف على رصيف الشـارع وتحول إلى شجرة يابسة. وبينك وبين الموت حافة سكين. وحين تراهم يحرثون أرضك ينزل المحراث

في كبدك، وحين تصرخ من الغيظ والألم يتهمونك بالعداء للسامية! هذا هو الشعر، والنهر بعيد. تؤثر الشعر على عبور النهر. فيحاسبك النقاد المترفون على اعترافات لم تعلنها ولم تخترها ولا شأن لك بها. الرفض العلني معناه النفي العلني. هكذا تصبح المعادلة مميتة: أن أرفض أعدائي، بهذا الشكل، معناه أن أرفض وجودي. تحايل على الصيغة لكي تحتفظ ببقائك. وهكذا تفضل الشعر على عبور النهر. فيتهمك النقاد المترفون بالخيانة القومية. ويتهمك أعداؤك بالعداء للسامية.

قف على رصيف الشارع، وتحول إلى شجرة يابسة. وحين تراهم يروون أرضك بالماء تنهمر الأفراح التي يبعثها المطر. المهم ألاّ تعطش الأرض. ولو متّ من الظمأ. هكذا كان يفعل جدك. قضى بقية حياته واقفاً على رصيف الشارع في محاذاة حافة السكين. وبين تحوله إلى شجرة يابسة وبين فرحه بالمطر ونزول المحرات في كبده توقف قلبه ومات. رثاه أخوك الذي يحب الكتابة ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. كنتم تدفنون الشجرة اليابسة – جدك في قبر ما تمناه. الأحياء محرومون من بيوتهم وأرضهم. والموتى محرومون من قبورهم.

وما عدت تخرج إلى شوارع المدينة في تلك الأيام. تجلس في الغرفة وتنفض الغبار عن أسماء مدنك. اكتشفت فلسطين اسمها، وعاودك الحب.

5

ابتدأ كل شيء.

وانتهى كل شيء.

وبين البداية والنهاية خانك الفرح الذي كنت تحذره دائماً. كل شيء يتحول من حجارة إلى أفكار. كنت في المخبأ معلقاً على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان. ليسكت الوطن قليلاً. لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها. يأخذك الزلزال ويطرحك أرضاً، عادوا إلى أورشليم: الجنرال، والكاهن، والزانية. «لن نخرج من هنا إلى الأبد». نفخوا في الصور وصلوا ودقّوا رؤوسهم بحجارة الحائط القديم، حتى سالت دماؤهم. لا حرب بلا دماء، ولم يخسروا دما كثيراً في الحرب، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعاً وتبرعاً لحجارة الهيكل. تسمع أصواتهم عبر الراديو. لقد وصلوا إلى الرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها. العنف مرة أخرى. العنف يعلن جدارته. وبدعاوي الحق لا تأخذ شيئاً ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء. أنت لا تبكي، عادة، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع. توقظك صلواتهم، ترفع ستار نافذة المخبأ، بعد يومين، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب... لم ترَ ناساً، قبل اليوم، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة. دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء كثيرة. لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان كما يعلنون أفراحهم الآن. لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبد الناصر إلى الوقوف. كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ... كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود. وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهباً للتحرير. يوم كان

جمال عبـد الناصر يقول: «أيها الإخـوة المواطنون» ويبدأ، كان سـكان الأرض المحتلة يعتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قـرب أجهزة الراديو. وكثيراً ما كانـوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويقبلونه في نشوة وطنية وإنسانية لا توصـف. والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطـن والتحرير مرتبطاً بعودة عبد الناصر. وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصاراً، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.

تتـرك أوراق الجريدة في المخبأ. ومـاذا كتبت؟ كنت تغطي أخبار المعارك وتكتب الجريدة، وتبوبها، وتصحح بروفاتها، لأن زملاءك في هيئـة التحرير قد اعتقلوا. دخلت مجموعة مـن رجال البوليس فـي ساعة مبكـرة من صباح ذلك الاثنين وتلـوا اسم زميل. وضعوا يديه في الحديد، وساقوه، على مرأى من الناس، إلى سيارة الشرطة. ثم عـادوا وتلوا اسماً آخر، حتى لم يبق غيـر رئيس التحرير وغيرك في المكتـب. والجريدة تصدر غداً في موعدهـا. المهم أن تصدر الجريـدة لتحمـل لوناً من الأمل إلـى قرائك الذيـن لا يحميهم من الحـرب النفسية سواكم؟.. التفت إليـك رئيس التحرير وقال: خذ أوراقـك واذهب إلى أي مكان. الآن دورك! وذهبت إلى أي مكان لتواصل كتابة الجريدة. وعلمت فيما بعد، أن زملاءك قادتهم الشرطة فـي شكل أسرى إلى ساحـة المدينة، على مرأى مـن الإسرائيليين، الذيـن رأوا الفوج الأول من أسرى الحرب. من قرر عملية الاعتقال الداخلية؟ في الرابع من حزيران/ يونيو وقّع قائد الجيش على لائحة المرشحيـن للاعتقال. كل شيء منظم. وفـي المخبأ لم تعرف شيئاً عن الحقيقة: العرب يعلنون عن تغلغلهم في فلسطين. والإسرائيليون لا يقولـون شيئاً. تسمع الذعر المنتشر خـارج المنزل. وتسمع عن هيجـان البوليس في القرى العربية المنتظـرة... الضرب والتعذيب

والسباب. ولكن الناس تعد عمـر سلاسلها باللحظات. هذه رقصة البجعة. وتسمع عن احتراق مصافي البترول منذ ساعات، وتسجل الخبـر. وتفطن، بعد قليل، إلى أن مخبأك مطل على الميناء، تسترق النظر عبر ستارة النافذة، فلا تجد حريقاً في مصافي البترول. الحريق في القلب. ثم، يأتيك نبـأ من البرلمان الإسرائيلي، في أول ساعات المعركة، بأن الـوزراء الإسرائيليين يشربـون الأنخاب. حمقى... يشربـون الأنخاب! كيف. يقولون إنهـم قضوا على أسطورة جيش عبـد الناصـر. وفي منتصـف الليل، يأتـي قائد الجيش فـي الإذاعة ليعلن حصـاد المعارك: تحطمت الطائرات عنـد الفجر. والقوات الإسرائيلية تقاتل عند مدخل رفح !!

وتعـود، من رحلة الأمل السريع، إلى حيفا. تعود إلى الحقيقة. من يعطيك الحقيقة؟ العدو؟ لقـد وعدني أهلي بالوصول، فانتظرت. ذهبـوا من أماكنهم، فانتظرت الأمل. أخذتني الأناشيد والإذاعات والانقلابات إلـى الحقول التي أحلم بها. أخذتنـي إلى إنسانيتي، وتركتني في منتصف الطريق. أيها العرب! لماذا تكذبون عليَّ. لم تكتـب هذه الخواطر في الجريدة. كتبـت أشياء أخرى. حتى عبد الناصر يذهب، الآن، ويتركني. بلا وطن، وبلا عبد الناصر أيضاً؟!

هكذا ابتدأ كل شيء،

وهكذا، انتهى كل شيء.

– أين كنت؟

□ هنا، في البيت.

– لماذا لم تفتح الباب منذ ستة أيام؟

□ لأني لا أستقبل الزوار أيام الحرب.

– ولماذا فتحت الآن؟

□ لأن السجـن أفضل من البيت. ولأنـي ألغيت كل مواعيدي. جاهز للاعتقال... جاهز. خذوني!

كانوا ضابطاً، وشاويشاً، وبوليساً.

حيـن كنت تهبط الدرج إلى سيـارة الشرطة، وكنت تودع البيت وعيون الجيران خلف النوافذ، لم تشعر أنك تودع الحرية. كنت تعتقـد دائمـاً أن سيارة الشرطـة تأخذك إلى حريتـك الحقيقية، تحب تسمية الأشياء بأسمائها وهذا هو الاسم الحقيقي للسجن. في السجن لا تقول: انتهى كل شيء. في السجن تقول: ابتدأ كل شيء والبداية هي الحرية. –

ابتدأ كل شيء...

زملاؤك يندفعـون إليك، في السجن، ليعتصـروا منك خبراً آخر. كانـوا منقطعين عن الأخبار إلاّ ما يذيعه العدو. ولا يصدقون شيئاً، ويريـدون منك خبـراً واحداً. وليس عندك شـيء. أيها الأصدقاء! يؤسفني أن أقول إن ما بلغكم هو الحقيقة! يغضب بعضهم وتتهمك عيناه باليأس وينصرف عنـك. والسجن جميل، دائماً تنتظر شيئاً. وتشغل نفسك بمتطلبات صغيـرة. وساعة في اليوم، ترى السماء التـي تعيد إليك صداقتـك المهزوزة مع الحيـاة. إن قطعة واحدة مـن الزرقة تبهج قلبك، ويـوم تخرج ستلتهـم الأرض كلها. وفي السجـن، صرنا كلنا خبـراء في المسألة العسكريـة. ووجدنا سبباً واحـداً للهزيمـة: الخيانة. ومـن كان يجرؤ منا علـى الشك بهذا السبب كان يتهم بالانحراف.

ولكن، كيف يبدأ كل شيء وفي أي اتجاه: إما أن يتعمق إحساسك بأنـك «مواطن عربي فـي إسرائيل» وإمـا أن، يتعمق رفضك لهذا الانتمـاء الذي لا خيار لك فيه. الحالـة الأولى تكون رد فعل على خيبة الأمل التي ألحقها بك العرب، وتعزيزاً لاستمرارك في العمل السياسي المتواضـع الذي تمارسه ضمن دائرة الممكن وفي إطار القانـون الإسرائيلـي «كل شـيء يبدأ مـن الداخل، مـن المطالب الديموقراطيـة القائمـة على الاعتـراف بالأمر الواقـع». والحالة الثانية تكون رد فعـل على العنف الإسرائيلي لاستمرارك بممارسة انتماءاتك الحقيقية كما تختارها أنت «كل شيء يبدأ من الخارج، بدون هزيمة عسكرية تلحق بإسرائيل، لا يمكن أن تحدث تغيرات جوهرية داخل المجتمع الإسرائيلي».

ثمة فارق بين الحالتيـن، ولكن لا تناقض عميق في ما يترتب عنها في مثل ظروفك الراهنة من ممارسات ما دمت موجوداً في الداخل والخارج معاً.

لقـد هزم العامل الخارجي حقاً، ولكـن انتماءك إليه لم يهزم. لأن هـذا الانتماء ليس وجهة نظر وليس رأياً قابلاً للمناقشة. إنه حقيقة تاريخيـة. وتشعـر بصدمـة تناقض معنـوي مباغتـة. إن أقصى ما تستطيـع ممارسته من كفاح، ضمن دائـرة الداخل، يقتضي منك الانطواء تحت راية «الوطنية الإسرائيلية» التي تتناقض مع انتمائك القومي الـذي هو حقيقة تاريخيـة. ومن هنا، بـدأت تهتز بعنف وصـرت تنشق. لا يعوزك البحـث عن عزاء. ليـس العزاء قضية. تستطيع القول مثلاً: إني لـم أختر ظروفي. وتستطيع القول مثلاً: هـذا التناقض قائم، ولكنه ليس القضية السياسية المطروحة الآن. سينفجر التناقض ذات يوم. وإن هذا الانتظار يشكل عقدة نفسية.

ومسألة تحقيق الانسجام مع النفس شرط بعيد المنال.

ولكنـك تترك السؤال معلقـاً. والشعر هو لغتـك. واللغة الشعرية تتلافـى مواجهة السـؤال القاتـل. الشعر يقول ولا يقـول. الشعر يقول الحقيقة ولا يعلنها. هذا وطنك، والرد على الغزاة – مزيد من الحـب لهذا الوطن. لأن أي وهن فـي العلاقة بينكما منفذ للغزاة. يضعـون فلسطين في جيـوب بزّاتهم العسكريـة. وتبقى فلسطين وطنك.. خارطة، أو مذبحة، أو أرضاً، أو فكرة. إنها وطنك. ولن يقنعك الخنجر بأنها لهم. إن التحدي وهذا السجن يحميانك من إعادة النظر. شكراً للسجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة. شكراً للقيد الذي يذكّر زنديّ بأنهما محرومان من معانقة الشجر. وتكتـب إلى حبيبتك الوهمية: «أتمنى لك اليأس، يا حبيبتي، لكي تصيري مبدعة. اليائسون هم المبدعون. لا تنتظريني، ولا تنتظري أحداً. انتظـري الفكرة ولا تنتظري المفكر. انتظري القصيدة ولا تنتظري الشاعر. انتظري الثورة ولا تنتظري الثائر. المفكر يخطئ. والشاعر يكذب، والثائر يتعب. وهذا هو اليأس الذي أعنيه».

لم تعانق ظلالاً لتندم.

والفـرح الذي فاجـأك هو الحالة الطارئة. كانـت خيانة قاسية. لا بأس. تواصـل حياتك وعملـك وتمزقك وتناقضـك. وقبل كل شيء تواصل رفضك. لن تقول نعم لشيء. لقد خرجت من الفرح بهزيمـة، وخرجت من الهزيمة برفض جديـد ليس للعدو وحده. هـل صار وطنك فكرة؟ التصق بالفكرة. والطريق من حيفا إلى تل أبيب هو المعجزة الجمالية الحقيقية. البحر الأبيض المتوسط على يمينـك، وسلاسل الجبـال على يسارك، وسلاسـل الحديد حول زنديك. والوطن، أجمل ما يكون عبر الأسلاك.

وفي المحكمـة يتحقق التكافـؤ بين القانـون والمدفع. لن يقف القانون معك، مـا دام مدفعك ساقطاً. والقتلة دائماً يتحدثون عن الأخلاق بأشكال مختلفـة. يأتيك جنود «ليندموا» على عمليات القتل والتخلص مـن الأسرى ويقولون «لا مفر». وتأتيك صديقة قديمـة بحفنة لوز من الضفة الغربيـة. ما عادوا يشعرون بالخوف – مـا عادوا يهود. وفي عكا، ترى أسرى مصريين، يسقط قلبك. جـاءوا يحررونـك فوقعوا فـي الأسر. ويأتي العـرب الذين كنت تنتظرهـم. اللاجئون يعودون.. يعـودون سياحاً وأسرى. تخفت الأناشيـد العربية، وتعلو الأناشيد العبرية. والإسرائيلي يتحول إلى أسطـورة. وفلسطين تنام مرة أخرى في جيـوب الفاتحين وعلى ضفـاف الأنهار البعيـدة. فلسطين وسينـاء، فلسطين والجولان. لـم يقتلوا الحرية، والتقوا في الأسـر. وفلسطين تنام على ضفاف الأنهار البعيدة، لا تستحم بالماء ولكنها تستحم بالدم القادم. هل تكون ولادة جديدة؟ هكذا يجب أن تكون. لا بد من ولادة. هل يصقلنـا الموت؟ هكذا يجب أن يكـون. لا بد أن يصقلنا الفرح. ستبدأ المقاومة. ستبدأ المقاومة. انتهى كل شيء. وتبدأ المقاومة. وإذا جاءك الفرح، مرة أخرى، فلا تذكر خيانته السابقة.

ادخل الفرح.. وانفجر!

تقاسيم على سورة القدس

اليوم، علقت على خشبة.. من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب الساعة، تصبح القدس زماناً، والمكان هـو عيوننا. كل شـيء خارجنا – المدن، الدمـوع، المساء الذي لا ينتهـي. وفـي داخلنا تستقـر المدافـع المضادة للطائـرات ولحنين الأنبيـاء. لقد سمينـا القدسـ كل الأسماء التـي لا تلائمهـا. وأعلنّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت. لـم يخرج منا «ارميا» واحد يتجول في شوارعها وفي عيوبنا.. يلعننا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة فلن نصل إلى الصواب.

وإذا لم تبلغنا المراثي فلن نذوق النعمى.

لتسكت .. لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس.

ولنبحث عن لون آخر لدموع الغـد. فليس لنا فيها حائط. والقدس عاصمة الخيام البعيدة، ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين. لتسكت.. لتسكت دموع اليوم حتـى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفاً من الشجاعة.

حـدث مرة واحدة في حياتي أن رأيـت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أيضاً أن تحولت صخرة إلى جندي.

حدث ذلك في القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي.

ومنـذ الآن.. منذ هـذه اللحظة صارت الجنة أقـرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علّمني هذا الصمت؟ ومن علّم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟

مـن علّمنـي كل هـذه الشجاعـة؟ ومن علّـم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطـن انتماء الظل إلـى الشجرة، ولا انتمـاء النصل إلى

الغمد، كلا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

لم يكن لقاء. ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعظم – هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس.

تهجم على باعة الصحف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة.. تهجم عليهم في نشوة انتحار، تأخذ أشياءهم، وتصيح تصيح بأعلى صمت: من يشتري صدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة؟! ثم تبتسم للغزاة.

ينحني ظهرك. كقوس عربية أيام كان العرب فرساناً وأيام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة! تتردد.

ليت ظهرك معدن كي لا ينكسر.

وليت صمتك معدن كي يصدر صوتاً أو رنيناً.

ثم يأخذك الحلم إلى مداخل المدينة: من يشتري تاريخك بلحظة

انتصـار من أجل الزينة.. من أجل الزينة. وأنت أمير المؤمنين بأن الجهاد حق، والموت حق.

لـم تكن القدس لي في يـوم من الأيام. أنا بائـع الصحف في كل زمان ولغة.. وأصحـاب القدس يبيعوننـي ويستقبلون الفاتحين ويتكلمـون فـي الحضارة وعلـم الأجناس. لم تكـن القدس لي فـي يوم من الأيام. أعطوني صحفـاً أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.

[هكذا قال بائع الصحف]

لا تطلّ نوافذها على شيء.

مفتوحة، تأتيها الهضاب التي لا تحصى أيام الحرب. أيام الحرب لا يحصـى إلاّ الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كتبوا عليها «يا أورشليم من ذهـب».

وعلـى مرمى حلم صغير، رأيتني خارجـاً من زنزانة الكرمل التي حجبت عني شكل الحرب. هـل رآني أحد وأنا في القدس لكي أعتذر له؟ لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلّ على شيء يعنيني.

أوقفتني جنديـة صغيرة وسألتني عن قنبلتـي وصلاتي. اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حرب، وعلى ذراعي اليسرى آثار رب، لكنني لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية: وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها.. ماذا تفعل بك لو ربحت؟

قلت: أشتري لوناً لعيني حبيبتي.

حسبتني الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

[المتكلم – محمود درويش]

كنز من الصخر، والهزيمة، والشجر النادر..

لوكانت مدينتي الآن معـي لتنازلت عن حنجرتي، وشربت الماء المثلج من جدول يسكن جبلاً.

لـو كانـت مدينتي الآن معـي لاعتذرت عـن كل مواعيدي، حتى مواعيد الموت التي حددتها وكنت أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكبيرة، والهزيمة الموحية.

فـي البدء لم يكـن الفعل، ولم تكـن الكلمة. في البـدء كانت.. الهزيمة.

لو كانـت مدينتي الآن في حقائبي لرحلـت. من رآني خاصمني وقتلني لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يولد حتى الآن. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي.

لوحـة مـن الصخر معلقـة على سبعة تـلال، وثلاثـة آلاف سنة، وخمسين نبياً، وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمسة قرارات من الأمم المتحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتد إليها ولا تصل..

وصلـتُ، يوماً، قبل يدي فترنحت علـى أحد الأرقام. لم أمسك بشيء لأني وصلت قبل يدي. وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دماً، وعيوناً، وتواريخ، وأحذية، ومراثي، وعروشاً، ومسامير، وأشعاراً.. تنهمر الأرقام وتقتلني لتزيد القتلى والعشاق وأسماء القدس. والمساء دائماً بطيء برتقالي. ويا أيها السادة – كنـت أكذب عليكـم. ليست القدس هذه المدينـة. هذه المدينة ليست القدس.

[هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة].

صمت من أجل غزة

تحيط خاصرتها بالألغام.. وتنفجر. لا هو موت، ولاهو انتحار.

إنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة.

منذ أربع سنوات، ولحم غزة يتطاير شظايا قذائف.

لا هو سحر، ولا هو أعجوبة.

إنه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها، وفي استنزاف العدو.

ومنذ أربع سنوات، والعدو مبتهج بأحلامه، مفتون بمغازلة الزمن.. إلاّ في غزة. لأن غزة بعيدة عن أقاربها ولصيقة بالأعداء، لأن غزة جزيرة. كلما انفجرت – وهي لا تكف عن الانفجار – خدشت وجه العدو، وكسرت أحلامه، وصدته عن الرضا بالزمن. لأن الزمن في غزة شيء آخر.. لأن الزمن في غزة ليس عنصراً محايداً. إنه لا يدفع الناس إلى برودة التأمل، ولكنه يدفعهم إلى الانفجار والارتطام بالحقيقة. الزمن هناك يأخذ الأطفال تواً من الطفولة

إلى الشيخوخة، ولكنه يجعلهم رجالاً في أول لقاء مع العدو. ليس الزمن في غزة استرخاء، ولكنه اقتحام الظهيرة المشتعلة. لأن القيم في غـزة تختلف.. تختلف.. تختلف.. القيمـة الوحيدة للإنسان المحتل هي مدى مقاومتـه للاحتلال. هذه هي المنافسة الوحيدة هنـاك. وغزة أدمنت معرفة هذه القيمة النبيلـة القاسية. لم تتعلمها من الكتب ولا من الدورات الدراسية العاجلة ولا من أبواق الدعاية العالية الصـوت ولا من الأناشيد. لقد تعلمتهـا بالتجربة وحدها. وبالعمل الذي لا يكون من أجل الإعلان والصورة.

إن غزة لا تتباهى بأسلحتها وثوريتها وميزانيتها. إنها تقدم لحمها المر، وتتصرف بإرادتها، وتسكب دمها.

وغزة لا تتقـن الخطابة. ليس لغزة حنجـرة... مسام جلدها هي التي تتكلم عرقاً ودماً وحرائق.

من هنـا، يكرهها العدو حتـى القتل. ويخافها حتـى الجريمة.. ويسعى إلى إغراقها في البحر أو في الصحراء أو في الدم.

من هنـا، يحبها أقاربها وأصدقاؤها على استيحاء يصل إلى الغيرة والخـوف أحيانـاً. لأن غـزة هي الدرس الوحشـي والنموذج المشرق للأعداء والأصدقاء على السواء.

ليست غزة أجمل المدن..

ليس شاطئها أشد زرقة من شواطئ المدن العربية الأخرى..

وليس برتقالها أجمل برتقال على حوض البحر الأبيض.

وليست غزة أغنى المدن..

(سمك وبرتقال ورمال وخيام تخذلها الريح، وبضائع مهربة، وسواعد تباع للشاري).

وليست أرقى المدن. وليست أكبر المدن. ولكنها تعادل تاريخ أمة. لأنها أشدنا قبحاً في عيون الأعداء، وفقراً وبؤساً وشراسة.. لأنها أشدنا قدرة على تعكير مزاج العدو وراحته. لأنها كابوسه. لأنها برتقال ملغوم، وأطفال بدون طفولة، وشيوخ بلا شيخوخة، ونساء بلا رغبات. لأنها كذلك – فهي أجملنا وأصفانا وأغنانا وأكثرنا جدارة بالحب.

نظلمها حين نبحث عن أشعارها. فلا نشوهن جمال غزة. أجمل ما فيها أنها خالية من الشعر، في وقت حاولنا أن ننتصر فيه على العدو بالقصائد.. فصدقنا أنفسنا، وابتهجنا حين رأينا العدو يتركنا نغني.. وتركناه ينتصر. ثم جففنا القصائد عن شفاهنا، فرأينا العدو وقد أتمَّ بناء المدن والحصون والشوارع.

ونظلم غزة حين نحولها إلى أسطورة، لأننا سنكرهها حين نكتشف أنها ليست أكثر من مدينة فقيرة صغيرة تقاوم. وحين نتساءل: ما الذي جعلها أسطورة؟ سنحطم كل مرايانا ونبكي لو كانت فينا كرامة. أو نلعنها لو رفضنا أن نثور على أنفسنا.

ونظلم غزة لو مجّدناها. لأن الافتنان بها سيأخذنا إلى حدّ انتظارها. وغزة لا تجيء إلينا. غزة لا تحررنا. ليست لغزة خيول ولا طائرات ولا عصي سحرية ولا مكاتب في العواصم. إن غزة تحرر نفسها من صفاتنا ولغتنا ومن غزاتها في وقت واحد. وحين

نلتقي بها – ذات حلم – ربما لن تعرفنا. لأن غزة من مواليد النار ونحن من مواليد الانتظار والبكاء على الديار.

صحيح أن لغزة ظروفاً خاصة وتقاليد ثورية خاصة.

(نقول ذلك لا لنحلل، وإنما لنتحلل).

ولكن سرها ليس لغزاً: مقاومتها شعبية متلاحمة تعرف ماذا تريد (تريد طرد العدو من ثيابها)، وعلاقة المقاومة فيها بالجماهير وهي علاقة الجلد بالعظم، وليست علاقة المدرس بالطلبة.

لم تتحول المقاومة في غزة إلى وظيفة.

ولم تتحول المقاومة في غزة إلى مؤسسة.

لم تقبل وصاية أحد، ولم تعلق مصيرها على توقيع أحد أو بصمة أحد.

ولا يهمها كثيراً أن نعرف اسمها وصورتها وفصاحتها. لم تصدق أنها مادة إعلامية وأنها فوتوجنيك. لم تتأهب لعدسات التصوير، ولم تضع معجون الابتسام على وجهها.

لا هي تريد.. ولا نحن نريد.

ولم يتحول جرحٍ غزة إلى منبر للخطابة. من جمال غزة أننا لا نتحدث عنها كثيراً، ولا نعطر دخان أحلامها بعبير أغانينا النسائي.

من هنا – تكون غزة تجارة خاسرة للسماسرة. ومن هنا – تكون

كنزاً معنوياً وأخلاقياً لا يقدر لكل العرب.

ومن جمال غـزة، أن أصواتنا لا تصل إليهـا، لا شيء يشغلها. لا شـيء يديـر قبضتها عن وجـه العدو. لاشكل الحكـم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر، أو على الجانـب الغربي من المريخ حين يتـم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعـد في المجلس الوطني. لا شـيء يشغلها. إنها منكبة على الرفض.. الجوع والرفضـ. العطش والرفض. التشرد والرفض. التعذيب والرفض. الحصار والرفض. والموت والرفض.

قـد ينتصر الأعداء على غزة. (قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة).

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها..

قـد يوزعون الدبابات في أحشاء أطفالهـا ونسائها. وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزاة: نعم.

وستستمر في الانفجار.

لا هـو مـوت، ولا هو انتحـار. ولكنـه أسلوب غزة فـي إعلان جدارتها بالحياة..

ذاهِبٌ إلى العالم
غريبٌ عن العالم

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب العالم إلى غرفة النوم.

لقد كان يومه حافلاً. وكان الصفاء يغمر الأرض: ما زالت أدوات الحضارة الغربية تصارع الإرادة البشرية في آسيا. التراب الآسيوي يموت والإنسان الآسيوي يموت. ومياه الأنهار تجرف من فاتهم أن يلتقوا بأدوات الحضارة. وقريباً من البحر الأبيض، مازالت الأحذية العسكرية، الغربية الصنع، تدوس الحضارة القديمة والإنسان الجديد.. وفي نشرات الأخبار العادية، العادية جداً، يباد حقل من الأطفال، لأنهم عرب ولأنهم قادرون على النمو.

وفي ساعة متأخرة من النهار، ينهض العالم من غرفة النوم إلى غرفة العمليات. لقد كانت ليلته صافية، وأحلامه متواصلة السعادة.

هكذا ينام العالم..

هكذا يستيقظ العالم..

وهكذا ينساني.

لا يذكرني إلاّ في حالتين: حين أجرب الموت، وحين أجرب الحياة. ولقد متُّ لمدة ربع قرن وشبعتُ موتاً.

واليوم، اليوم لم يذهب العالم إلى غرفة النوم. وقف على حافة الكرة الأرضية، وأمرني بالخروج من دائرة الإنسانية، لأنني حاولت أن أخترق الدائرة، حاولت الدخول.

- ماذا يعنيك من تاريخي أيها العالم.. ماذا يعنيك؟

□ التاريخ هو الماضي، وأنا أدرسه في المعاهد.

- وأين رأيتني أول مرة؟

□ كنت أراك دائماً على تراب فلسطين حتى خرجت، وعاد الصفاء والسلام إلى الأرض. فلماذا تعود الآن؟ لماذا تنكسر الصفاء؟

هكذا يفهمني العالم، وهكذا يريدني. لقد انتهى صراعنا ما دمت قد خرجت من فلسطين، وما عاد للنار حارس. واكتملت معادلة سلام العالم، وصار الأمن الدولي مشروطاً بغيابي عن فلسطين وعن الإنسانية.

لم أودع أحداً، ولم أودع شيئاً. دحرجني كعب بندقية من الكرمل إلى الميناء، وكنت أتشبث بخاصرة الله وأصرخ، حتى ضاع صوتي

ووعيي. ولكن العالم وعدنـي بصدقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس، لأن الهدنـة مع القاتل لا تتـم إلاّ بعد الهدنـة مع النفس. ولقد تصـدق العالم عليَّ: أعطاني طحيناً وثياباً وخياماً كثيرة لي ولأطفالي الذين لم يولـدوا مقابل أن أعطيه الوطن والأمن. وحين كنـت أشعر بالبرد فـي المنافي، كانت صحف الـرأي العام تقيني مـن الأمطار والارتجاف. وحين كنت أشعر بالجوع، كانت فقرة مـن ثلاثة أسطر في خطاب رئيس دولـة متحضرة تشبعني. وحين كنت أشعر بالحنيـن، كانت الأغاني الأجنبيـة، المنبثقة من راديو الجيران، تجعل الرحيل تجربة جميلة.

وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم.. وينساني.

– لا توقظوا الضحية، لئلا تصرخ.

– من أيقظها.. من المسؤول؟

□ ريح تهب فجأة، فتنعش الموتى.

– من أين تهب؟

□ من كل الجهات... من الوطن.

– ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة؟

□ شعراء يغنون على ربابة.

– اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فابتكروا لفظة أخرى – الحرية.

– من علمهم هذه اللفظة العاصية؟

□ ثوار حماسيون.

– اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فتعلموا كلمة أخرى – العدالة.

– من علّمهم هذه اللفظة؟

□ الظلم.. هل نقتل الظلم؟

– إذا قضيتم على الظلم، قضيتم على أنفسكم.

– ما العمل؟

□ نقتل الذاكرة.

وهكذا ينام العالم. وهكذا يصحو. هو مدجج بالسلاح، وأنا مدججٍ بالقيود. القوي متحضر، والضعيف بربري. وليس التاريخ قاضياً. التاريخ موظف. ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم. والذين يتباهون بالحضارة والتمدن هم غالباً ما يكونون القتلة.. القتلة. انظروا هذا الثلاثي: الأول – أباد شعباً في الماضي، ويبيد اليوم شعباً وتربة في جنوب شرق آسيا، ويفجر علامة تحضره الكبرى – القنبلة الذرية – في شوارع العالم.. يطالبني بالخروج من حلبة الإنسانية ومن الكرة الأرضية لأنني إرهابي. والثاني – ليس من الحكمة أن نذكره بماضيه. لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن، والآن يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليداً جديداً هو الثالث – فماذا ينتج عن زواج الإرهاب إلاّ الإرهاب! وجاء الثالث المدجج بالتوراة والسلاح، واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة إلى الحضيض. هذا الثلاثي يطالبني بالخروج من الكرة الأرضية لأنني إرهابي.

وماذا كان العالم يفعل؟

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب إلى غرفة النوم وينام.

القتل دائماً جريمة. فلماذا يتحول القتل إلى دعامة من دعائم الهيكل الحضاري.

إذا مارسه الأقوياء؟ وهل نشأت إسرائيل على وسيلة أخرى غير القتل والإرهاب. هكذا العالم دائماً – شديد الإعجاب بالقتل الجماعي، وشديد التنديد بالقتل الفردي. من حق الدول أن تقتل شعوبها والشعوب الأخرى، وليس من حق فرد أو شعب أن يقاتل من أجل حريته.

ومن هو هذا الرأي العام العالمي؟

نحن نستخدم هذا المصطلح مجازاً، فنطلب العدالة من القتلة إذا كان معنى المصطلح هو تلك الأجهزة الإعلامية التي يديرها أفراد متشابكون في المصالح والعقائد. فلماذا نعطيه مثل هذه القداسة؟ إن الرأي العام الحقيقي – الضمير الإنساني – لا نراه ولا نسمع صوته، لأن مؤسسة «الرأي العام العالمي» الغربية الرسمية قد خنقته وزيّفته. وإذا كان سلوكنا خاضعاً لمتطلبات كسب «الرأي العام العالمي» المعبّر عنه بالأجهزة الإعلامية الرسمية، فقد آن لنا أن نكتشف أننا نستمرئ عبوديتنا وضياعنا ونبحث لها عن أسباب البقاء، طالما أن هذا «الرأي العام» ملك أفراد فهل يصلح هؤلاء لأن يكونوا قضاة! حين نتحاشى الانتحار يقولون إننا جبناء. وحين ننتحر يقولون برابرة. حين ندعو إلى السلام يقولون إننا كذبة مراؤون. وحين ندعو إلى المعركة يقولون إننا متوحشون. وهل

نحن قتلة؟ من قتل من؟ هل سألوا هذا السؤال؟

ليس صحيحاً أن العالم فقد ذاكرته. وليس صحيحاً أيضاً أننا قادرون على إعادة الذاكرة إلى العالم عن طريق إرضائه. العالم يرتاح. العالم يريد أن يلعب ويريد أن يشرب.

– لماذا توقظ العالم من النوم؟

□ هذا ليس صوتي. هذا صوت ارتطام جثتي بالأرض.

– ولماذا لا تموت بهدوء؟

□ لأن الموت الهادىء حياة ذليلة.

– والموت الصارخ؟

□ قضية.

– هل جئت تعلن حضورك؟

□ بل جئت أعلن غيابي.

– ولماذا تقتل؟

□ لا أقتل إلاّ القتل. لا أقتل إلاّ الجريمة.

– اذهب إلى الجحيم.

□ أنا قادم من الجحيم.

للمرة الأولى، سأل العالم نفسه: من أخبره أنه قنبلة؟

– من كثرة ما ضربوه بالرصاص، تراكمت الشظايا على الشظايا، فولدت طاقة، وصار قابلاً للانفجار.

– أخرجوه من دائرة العالم.

□ لقد أخرجناه.. وعاد.

– انصبوا له كميناً على حافة الأرض، وادفعوه إلى الفراغ.

□ لا يمكن الاقتراب منه، لأنه مدجج بربع قرن من المأساة والغضب والانفجار.

– إرهابي؟

□ نعم. إرهابي ويائس.

ماذا يفعلون باليأس. اليأس صنو الموت. لا أريد من العالم شيئاً إلاّ أن يرفع سكينه عن عنقي. لقد كنت رهينة. أنا الرهينة منذ خمس وعشرين سنة في أيديكم، وأطلق اليأس سراحي. من يعيدني إلى الأمل غير إعلان يأسي! ومن يحررني من الأسر غير قدرتي على الانتحار! ليذهب العالم إلى غرفة النوم. أنا صمام أمان العالم – هذا هو الدور الذي حددتموه أنتم لي. وليس بوسعكم أن تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني. ليس بوسعكم أن تحددوا لي طريقة تخلصي من المجزرة المزمنة. ليس لي إلاّ أن أموت. فلأمت كما أشاء. لا أرضى بهذا الدور لا أرضى – فليست عبوديتي معادلة للأمن. سموني ما شئتم. جاء دوري الآن لأسمي نفسي ما أشاء، وأفعل ما أشاء. أقف في قلب العالم. أنتزع ذراعي. ألوّح بها في الهواء. أحوّلها إلى كرة و ألعب معكم.. أقذفها في شِباككم – يا قضاة الحضارة. ليس من أجل الوطن. ليس من أجل الشعب. وليس من أجل الانتقام هكذا، يطيب لي

– كحيوان آسيوي – أن أستخدم جسدي، أن أمرنه على الحركة بعد شلل دام ربع قرن.. أن أقطعه إرباً إرباً وأسليكم. هذه هي حريتي الوحيدة، فلماذا تعترضون على انتحاري يا خبراء القتل الجماعي. ويا من تحولون الأطفال إلى فحم! أنتم تقتلون.. إذن أنتم تعيشون. وأنا أنتحر.. إذن أنا أعيش. لن أسمح لأحد، بعد الآن، أن يقتلني سواي. هل تعرفونني؟ إن حليب وكالة الغوث لا يخلق دماً في الشرايين. إنه يخلق ديناميت. هذا غذاؤكم يعود إليكم. وحين رمتني أمي في شوارعكم طردتموني وقلتم: عدْ إلى أمك، وحين عدت إلى أمي ألقيتم عليَّ القبض وعذبتموني وقلتم: إرهابي. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أبحث عن أمي. وهل تعرفون أين وجدتها؟ كان جسمي يمطر دماً. وحين أفقت من الغيبوبة وجدت نفسي في بركة دم. حدّقت فرأيت ملامح سميتها وجه أمي. كان ذلك دمي ولم يكن دمكم يا قضاة العالم.

من حوّلني إلى لاجئ، حوّلني إلى قنبلة. أعرف أني سأموت، وأعرف أني أخوض معركة خاسرة اليوم لأنها معركة المستقبل. وأعرف أن فلسطين – على الخارطة – بعيدة عني. وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة. أعرف هذا كله. ولهذا أحملها إلى شوارعكم، وبيوتكم، وغرف نومكم.

ذاهِب إلى الجملة العربية في الخامِس عشر من أيار

1

تجلس في أيار، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

هـذا هـو أول الرحيل. وهذا هـو آخر الأرض. لكل شـيء أوانه إلاّ موتك، يأتـي مباغتاً ومكرراً وبلا مناسبـة كالمطر الاستوائي، فمن أيـن تلتقط برهة للياقة الاحتفال بذكـرى الموت الأول؟ مهزوم من الوريـد إلـى الوريد. وها أنـت تعبر بين الصـوت والصدى مسيحاً جديداً بلا طقوس. في الجملة العربية متسع لقارة من الخيام. أسكن إحداها وأحلم بصيف قليل الحر.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

الوطن ليس صخرة قديمة حتى لو كانت لها حرارة الجسد. ما أشد سذاجتك إذا حاصرت ذاتك ونارك بهذا الحلم البدائي المحدد. الوطن مطلق. فلا تسأل عمن أعطى الأرض هذا الضيق الواسع. من الماء إلى الماء ملايين من القلوب التي تؤويك وتسند ظهرك. اذهب إلى الجملة العربية تجد الذات والوطن. وفي الوقت متسع للحرب والسلام.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

وماذا تفعل لو خرجت من هذا الدور؟ هذه الصيرورة صارت تطعمك وتسقيك. يلقون على جراحك النقود والتبرعات، فمن أين تأكل لو التأمت! كل الذين جربوا الحرية قبلك لعنوها حين اكتشفوها وتاقوا إلى أيام البحث عنها. والدولة شرطة وضرائب، فهل تنفق هذا الدم من أجل بوليس وضريبة جديدة؟ مجد المسيح أنه مصلوب في عزّ الدعوة. تصور.. تصور لو ترجل المسيح ما يحدث في الدنيا! الفوضى والردة. سيتمرد عليه الكهنة والفنانون والفقراء. سيرغمونه على العودة إلى جراحه حافياً أو بحذاء جديد لكي تستمر حياة الآخرين. اذهب إلى الجملة العربية، واستمتع بهدير التأييد واحلم بسلامة الضاد. مرّ غزاة كثيرون (هل عرفت شعوب أخرى ما عرفنا من الغزاة؟) احتلوا الأرض، وشردوا الناس، ولكنهم ما استطاعوا أن يفترعوا حجاب حرف حلقي واحد!

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

ويا وطني الذي أعرف الطريق إليك ولا أعرفك. من ربع قرن وأنا ذاهب إليك عبر الجملة العربية الرسمية، وغريب عنها وعنك.

أعجبتهم شقائق النعمان، وحاولوا أن يسرقوا بندقيتي، فأطلقت النار على الهواء، فأصبت شقائق النعمان، فاتهموني بمحاولة الانتحار.. وساقوني إلى المحاكمة. فهل أصمت كي أقترب منك، أم أدافع عنك وعني بالجملة العربية ذاتها؟

2

انتهت حفلة الميلاد. ليس للمدينة المقدسة ذاكرة منتظمة. أمطرت السماء ماء وغزاة. وكان الجندي الجديد يتنزه في حارات التاريخ المفتوحة مع صديقته القديمة ويقول «إذا نسيتك يا حبيبتي تنساني ذراعي». وقد نسي ذراعه في صدرها، فنبهته إلى الخيانة «تحب أورشليم أكثر مني!». ضحكا وتابعا النزهة. كانا يستعيدان ذكريات عن الحرب الأخيرة ويندهشان من إمكانية الحياة بدون القدس، ويروي لها بطولة لم يمارسها.

ابتاعا فلافل من بائع عربي صار يتقن اللغة العبرية بلثغة بولندية.

«اعتادوا علينا. هل تعرفين أن الزمن ضابط في جيش الدفاع الإسرائيلي، يترقى عاماً بعد عام؟» خلعت حذاءها ومشت حافية. «تريدين أن أثبت لك ذلك؟» اشترى صحيفة من بائع عربي يروّج للطبعة الجديدة من صحيفة «المساء» بلغة عبرية سليمة.

«للقهوة العربية مذاق لاذع. كيف تكون حياتنا بدون هؤلاء السكان.. كيف؟ هل تتصورين أن بمقدورنا المحافظة على وحدتنا القومية إذا كنا نعيش وحدنا؟».

دخلا مسجد الصخرة، وتبادلا قبلة على مرأى من الأسطورة

«لتشهد الأسطورة على أن شعب إسرائيل حي» شعرا بالندم لأنهما، قبل سبع سنوات، تبادلا قبلة هنا للذكرى بإحساس السائح الذي لن يعود. وها هما يعودان كل سنة. «هذه القبلة ليست للذكرى، بل هي لاستفزاز الأسطورة».

كانت السماء تمطر. السماء تمطر دائماً في أعياد الميلاد. راقه أن يجري مقارنة – على الطبيعة – بين بوله والمطر، فانتحى زاوية وعاد يحدثها عن فارق طفيف في اللون. «للعرب طباع حميدة أهمها الكرم والنسيان». ردت بلا اكتراث: «لا أحبهم». اكتشف برهاناً جديداً: «لولاهم ما كنت عرفتك وأحببتك. ولكي يستمر حبنا ويثمر لا بد من وجود عرب». تذكرا خلافاتهما القديمة عندما كانا يدرسان في كلية الآداب، ولكن المساء أغراهما بالعناق فقبلها، وتابع: «إنهم جوهر وحدتنا. أنا من وارسو وأنت من بغداد. الذي صنع اليهودي هو التحدي وحاجته إلى التماسك. فما هو محور تماسكنا. العرب هم تحدينا المشترك، فإذا ذهبوا ذهبت وحدتنا، وانتقل التحدي إلى العلاقة بين القادم من وارسو والقادم من بغداد». ذكّرته بأنه سينام الليلة مبكراً ليبدو قوياً ونشيطاً في الاستعراض العسكري غداً.

في تلك اللحظة، كان عمال التنظيف يكنسون الشوارع من آثار صلوات الأسبوع الماضي. كان المسيح يتراجع إلى الوراء، وكانت المدينة المقدسة تخون ذاكرتها وتفتح شوارعها لعيد الغزاة الجدد الذين كانوا ينشدون «يا أورشليم من ذهب».

وفي تلك اللحظة أيضاً، كانت تصل إليهم هدية مفاجئة أو بطاقة معايدة: كان دم عربي غزير يسيل في شوارع بيروت، وكان

يتحـول إلى زيـت ينعش الأرز القديـم الذي أهـدي إلى الملك سليمان لبناء الهيكل!

3

من يوقف التشريد؟

كنا نتساءل قبل أيام: من يوقف الهزيمة؟ والآن نصرخ: من يوقف التشريد.. تشريد هذه المرأة؟

الصورة ذاتها تواجهنا دائماً في الصحيفة، وفي ضواحي المدينة، وعلى كل أرض عربية، ونادراً ما تواجهنا في الضمير.

الصورة ذاتها. تأتي بعد الرصاص دائماً: أم فلسطينية تجر أطفالاً، وتحمل فراشاً، وتمشي في الريح والمجهول. تلجأ من ملجأ إلى ملجـأ. فمتى تستقر في ملجـأ أخير غير القبـر؟ كأن الدعوة إلى العـودة أرجئت. من ربع قرن ونحـن نراها تخطو في العظم (من نحن لنتكلم بهذه الصيغة؟ - مراقبون) تخرج من مخيم في اتجاه خيمة أخرى أو صخرة منحنية. تلاحقها اللعنة والقذيفة والأقدار المكتوبة. سمّوها ما شئتم، فهي أمي.

- أقيمـوا لها خيمة من اسمنت، لكي تكف عن التشرد. دعوها تستقر في لجوء واحد.

- الفراش المحمول على الرأس.. والوطن المحمول في القلب مربوطان بخيط واحد. إذا استراح الفراش ضاع الوطن.

– ولعله أصبح اللجوء إعلاناً وزينة؟

لا ينتهـي الحـوار إلاّ بتدخل غـارة، مرة من الأعـداء، ومرة من الأشقـاء، فلا يبقى في الوطن العربـي (أو العالم العربي) مكان لا تصـل إليه القذائف بحثاً عن ظل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي. –

– لماذا تضربها الطائرات؟

□ لكي تخفي ظلها عن الأرض.

– ولماذا يؤذيكم ظلها؟

□ لأنـه ثقيل.. ثقيل تنـوء به أكتاف هـذه اليابسـة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

– إنها لا تطلب شيئاً إلا الوجود!

□ العدو لا يرضى بهذا.

– وأنتم.. هل يعنيكم رضا العدو.. أم حياة هذه المرأة التي هي دمكم؟

□ لا حيلة لنا بمصارعة العدو.

– لا تصارعوه.. دعوها تصارعه وحدها.

□ ليس على أرضنا. لأن العدو لا يرضى بهذا.

صـار بوسع العدو أن يمشـي أو يتنزه في الشوارع العربية التي لم يعلن عن احتلالها بعد. يشرب القهوة في المطارات أو المقاهي، يسهـر في البارات، ويعود بسيارة خاصة أو بسيارة أجرة في آخر

الليل إلى حدود فلسطين. وإذا تعب من السهر نام في فراشنا. ألم يطرد كما ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار من فراشهم!

غضب العرب من هذه الإهانة، فسارت ملايين في جنازتهم. وبعد أسبوع تبرعت الطائرات العربية - دفاعاً عن سلامة فراش النساء المستوردات - بضرب هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

- لماذا تضربونها؟

□ من أجل مصلحتها.. من أجل الدفاع عنها. نحن لا نستطيع أن نحميها من غارات العدو، فنحميها من الحياة التي تسبب لها التشرد وتسبب لنا فتور السياح. خير لها أن تموت برصاص الأشقاء من أن تموت برصاص الأعداء.

4

على شريط تسجيل، كانت الافتتاحية لصوت العصافير. العاشرة صباحاً، وليس للعصافير موقف ولا مصلحة. بعد دقائق انهمرت أصوات الطائرات (فجأة صرنا نحارب). بين الطلعة و الأخرى كانت العصافير تكمل زقزقتها.

- لماذا؟

□ لأنها لا تفهم السياسة.

- ألا تملك غريزة الخوف من الموت؟

□ تملك، ولكنها تعرف أن الطائرات لا تصيبها على هذه الشجرة.

– كيف؟

□ لعلها جاءت بأجنحة مزوّرة.

صدق! أولا تصدق. لقد سمعتها بأذني. وهذا هو الشريط.

– ماذا سمعت أيضاً؟

□ إن هونغ كونغ لا تكون أرض ثورة.

– لا أحد يطالب بهذا.

– أين جسدك؟

□ تحت ثيابي.

– وما هي حدوده؟

□ تواريخ: جنوباً – 15 أيار/ مايو 1948. شرقاً – تشرين الثاني/ نوفمبر 1956. غرباً – 5 حزيران/ يونيو 1967. شمالاً – أيلول 1970. هذه هي حدود جسدي.

– تحمل قنابل؟

□ لا.

– ماذا تحمل إذن؟

□ إنني مدجج بالغضب.

– لماذا تعيش؟

□ لأعود إلى وطني.

هذه هي المشكلة. ليس مهماً أن تحمل سلاحاً في الشارع أو في المخيم أو في البيت. مادمت تحمل هذا الجسد المدجج بالغضب – كما اعترفت – فإنك قابل للانفجار وتوريط العرب. ولا تنس أن هونغ كونغ ليست أرض ثورة. واسمح لي أن أقول لك إنك ما دمت موجوداً هنا فإن فلسطين موجودة هنا. وفلسطين ممنوعة من التداول العلني، لأن العدو يغضب.. يغضب.. يغضب. هل تفهم!

□ هذا اختياري وقدري. إذا تحررت من الاختيار فلن أتحرر من القدر.

– اذهب إلى الدول التي تقوم مبررات حكمها وشرعيتها على أولوية التداول بقضية فلسطين. وإلاّ، فما عليك إلا المتاجرة بالملابس الداخلية أو العمل بواباً في شقة مفروشة. لأن العدو يغضب.. يغضب. وبيتنا من زجاج.

□ لقد ولدت هنا. لست لاجئاً. من ربع قرن ولدت هنا. لست لاجئاً. هونغ كونغ ليست أرض الثورة. لست لاجئاً. ولكن لماذا تكون سايغون؟

□ لأن العدو يغضب.

– أين أذهب إذن؟

□ أذهب إلى الثورة العربية.

– أين هي؟

□ لا أعرف.

واستمعت إلـى بقية شريط التسجيل. كانـت أصوات الطائرات والقذائف تتداخل مع أصوات العصافير..

5

وقفت على هذه القـارة المحاصرة بالبحر والمحيط، وقلت: أنا قـادم من ذروة السقـوط. كانت هذه الأرضـ شبيهة بثور جريح يسقط من قمة الرجاء إلى قاع الهزيمة المتناسلة، ولكنه كان يرتبط بالكون بقرنه الحاد الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة. طافح بالنفط، والكسل، والشعوب الممنوعة من الممارسة والمجهّزة بنتائج استفتاء جاهزة «نعم».

[خلع الملك ثيابه الملكية، وارتدى بزة ضابط، واحتل الإذاعة، وأعلـن الجمهورية. وقال: كان الحكم البائـد متآمراً على قضية فلسطيـن، وقد قامت ثورتنـا المجيدة من أجـل تحرير فلسطين وتحقيـق الوحدة العربية. صفقوا له. انتقلـوا من حالة اليأس إلى حالـة اللايأس. وكان الملك يضحك في غرفة النوم سعيداً بنتائج الاستفتاء الشعبي «نعم»].

أغمدت القرن في صدرك، فكنت بين الجسم والجثة شكلاً ثالثاً قابلاً للتسميـة المشجعة. فسموك وصدقـت اسمك. وما كنت تدرك، جيـداً، أنك التوتر الباقي في أعصـاب المرحلة المترددة على مفترق الاختيار.

– دمك والنفط، هذا هو الصراع.

كانـوا يحتاجون هذه المعادلة من أجـل الضغط على المستهلك عبـر البحار. فصفقوا لك... وكان لون النفط أقوى من دمك في علاقتهما الأولى.

مادة للانفجـار ممنوعة مـن الانفجار. هذا أنت. لـك الأناشيد كلها. وأطنان من الخيام. وحائط الإعلان.

ثوريّ في قبضة ملك. هل تتقن اللعبة؟ وهذه الجماهير التي تمنحك آمالها وخبزها يخبئها الملك – باسمك – في عباءته البيضاء.

وهـذا الشيء الممتد من الماء إلى المـاء، ما اسمه؟ لا هو خارطة، ولا هو وطـن. ولكنه جسد ينتظر الزلزال القـادم من نبيّ لا شرط لنبوءته إلاّ أن يسمي الأشياء بأسمائها. ولست البديل ولا المخلّص، ولكنك الإشارة والبدء والقربان. فتحركت أشياء.

– دمـك والنفط. هذا هو الصراع الباقـي بعد سقوط التجارب السابقة والشعارات.

لماذا يزهو دمك إلى هذا الحدّ، ويصبح لونه أقوى من لون النفط؟ يرجوكم المستهلك عبر البحار أن تعيدوا النفط إلى صفائه القديم مقابـل وعد بإعادة قطعة أرض. فجاءوا إليـك ليعيدوك إلى قبضة الملك في لعبة لا تتقنها. وانتهى دورك لتعود إلى حالتك الأولى: لاجئاً وقضية. وقالـوا للجماهير هذا عدوك الداخلي الذي يؤلب عليـك العـدو الخارجي. وأعطـوا الأمان للعـدو المشترك، لأن المعادلـة تغيّرت، والتحم أمـن العدو بأمن النظـام. تركوا العدو يستريـح وقاموا بالدفاع عن أمنه وحدوده التي تشدد قبضتها على رقاب العواصـم. الدفاع عن الباب العالي يقتضي الدفاع عن نوم

الغـزاة وراحتهـم. وكان الطلبة قلقـون يتساءلون: مـا الفرق بين الغزاة القادمين من الخارج والطغاة الطالعين من الداخل؟ اختلفوا على فروق كثيرة واتفقوا على فارق واحد هو: أن الغزاة يشرِّدون والطغاة يقتلون من ينجو من أيدي الغزاة.

وأنت، ما زلت واقفاً على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط وتصـرخ: أنا قادم مـن ذروة السقوط، لأحمي قـرن الثور الذي مازال يطفو على سطح اليابسة التي هي... صدري!

6

تكبران معاً: أنت وأيار.

تكبر كتفـاك، وتكبر الصخرة. ويقدم أيـار/ مايو أوراق اعتماده إلـى الشهر الذي يليه. ويبقى الوضع سجالاً. من الصعب أن يبلغ أيـار/ مايو ربع قرن بمثل هـذه السهولة، ولا تتغير نتيجة الحرب الصامتة. هل يمزح التاريخ؟ بعد كل هذه الهزائم... بعد اختلاط هـذه الشهور تدور الحرب فـي شوارعنا ليتسنى للعدو أن يكمل احتفالاتـه. هل يمزح التاريخ؟ يخرج أيار/ مايو ليدخل حزيران/ يونيـو، والبنادق العربية تصوب إلـى كل الاتجاهات إلاّ الاتجاه الصحيح. إذا اشتكى العامـل، وإذا غضب الطالب تصبح بنادقنا شجاعة. كل الحـرب في الداخل ونغني للصمـود. ربع قرن... ربع قرن ونحن نلوك الجملة إياها، وحدود العدو تلاحقنا. مزيد من الخطابات مزيد من الهزائم، وأنت الشذوذ عن القاعدة.

– أيها الفلسطيني التائه! ضع حداً لهذه الفوضى.

لـم تسمع فساقـوك إلى مجزرة فـي شهر آخر أو فـي عيد ميلاد موتك الأول. لماذا؟ من أجل سلام وهمي.

تصير شبحاً. تصير كابوساً. تصير شرارة.

– اذهب إلى مكان آخر واتركنا بأمان.

□ أينما ذهبت يصير ظلي مكاناً.

حيـن سقط الحصـان في الملعـب الرياضـي، برصاص طائش، حزنت سيدات المجتمع وهواة سباق الخيل.

وحيـن سقط عشرات من الناس، في البيوت، وبرصاص مصوب لم يحدث حزن في المدينة.

ليس لقتلاك صور ولا أسماء، لأن الحصان الشهيد يغطي الكون.

لماذا يسقط الشهداء بهذه الكثرة المجانية، وفي مكان غير صالح للاستشهـاد؟ كثيـراً ما يتحـول الموت إلى مهنـة. فماذا يحدث لو أعلـن المرشحون للموت الإضراب عن هـذه المهنة... ماذا يحدث؟

□ نصير شعباً بلا شهداء، ويصير الشهداء باطلاً.

– ماذا أيضاً؟

□ يفلس الشعراء.

– ماذا أيضاً؟

□ يتلعثم الخطباء.

– وماذا أيضاً؟

□ تسقط الحكومة.

التصفيـة؟ لا نظن. هذه المشكلة داخليـة. علاقاتنا طيبة. ومن أجل السيادة والمراعاة المتبادلة للاستقلال الوطني – لا نتدخل. التصفية؟ لماذا ينبغي استخدام هـذا المصطلح؟ هذا يسمى تحريراً. والشعار المرحلـي المطـروح الآن ليس تحرير الأرض العربيـة المحتلة من الغزاة الإسرائيليين. الشعار الآن هو تحرير الأرض العربية من الذين يشكلون خللاً في معادلة الأمن الرسمي في منطقة الشرق الأوسط، ومـن الذين يذكـرون الناس بأن لهـم أوطاناً محتلة. وهـذا بالطبع ليـس تصفية. من المسؤول؟ ليـس شخصاً وليس جناحاً في سلطة. المسـؤول هو المناخ العربي الرسمـي. ففي ظل هذا المناخ الراكد يصبـح القمع الداخلـي أمراً مشروعاً ينطوي تحـت لواء المحافظة على السيادة الوطنية. وزن القضية أكبر من أي كتف فلماذا نحملها وحدنـا؟ هكذا يقولون. في ظل هذا المنـاخ العام يصبح كل اعتداء علـى الوجود الثوري – لا الفلسطيني فقـط – شأناً من شؤون البلد الداخلية.

إذا قتلتموهـم سرنا في جنازاتهـم. وإذا لـم تنجـح العملية بسرعة نجـد أنفسنا في مأزق ونضطر للتدخل مـن أجل المصالحة. فمن المسؤول؟ حالة السلم غير المكتوب في الممارسة العربية، وحالة الحرب المعلنة في الجملة العربية.

الأعمال الجديدة



محمود درويش

وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام



هذا الكتاب

هوامش حرب تشرين 1973...
كُتبت في مراحل الانتظار، والانفجار، والانتظار العائد.
يهديه المؤلِّف إلى دماء الشهداء والمقاتلين العرب
التي رسمت ملامح صورة جديدة للحضور العربي في العالم.
وذهبتْ، دون أن تسأل عما نفعل بعطاياها العظيمة.

أوّلاً:

حصانٌ يحبُّ غزالة ...

وطن بقلم رصاصة

● كانوا يقدمون له هدية السنة الجديدة. كانوا يزفون له بشرى: سينقل من غرفة التعذيب إلى الزنزانة. مسيح بلا مسامير. وفي الجدران نافذة صغيرة تطل على بحر.

لم يكن له زمن من قبل. الآن يرسم خيوطاً صاعدة هابطة، وفقاً لقدرة أصابعه التي صارت بلا أظافر. خيوط هابطة صاعدة يلتقي بعض أطرافها، سهواً، ليشكل افتتاحيات دوائر. وعلى سطح البحر نسمة تمارس اللعبة إياها. لم يكن له زمن من قبل. والآن يعرف: هنا الساعة الأولى من اليوم الأول، من الشهر الأول، من العام الأول.

– ماذا حدث؟

– أنتقل من مكان آخر إلى.. زمن آخر.

– وماذا يعني هذا الانتقال؟

- يعني أني أبدأ. أتحكم بالدوامة.
- ولكنك لم تنتقل. السجانون هم الذين نقلوك.
- هذا لا يغير شيئاً. القيد يصقل الزند. وهكذا أعرف.
- ماذا تعرف؟
- إن العصافير ليست حرة. وإن الوطن يولد في منفى. إني أروض حالتي وألتصق بالبعيد. وزندي يتحرر في قيدي.

● وكان الوطن كقدم طفل، محبوساً في حذاء حديدي. وكان سرحان لا يعرف أكثر من ذلك. هذا يكفي – كان يقول. لأن الاعتراف بما هو أبعد يفيد المحققين ويوسع العبارة.

كانوا ينقبون كل ذرة من ذرات كيانه، ويدخلون الأنابيب الدقيقة الحادة في مسام جلده، بحثاً عن فكرة الوطن. وحين كانوا يتعبون من النزهة في الجسد الضعيف، كانوا يسدون المسام المتسعة بافتتاحيات صحف تحتج على الانتهاك، ثم يغطونها بطحين جاء من كندا، ويخبئون الجسم كله، بما فيه من أسرار وغابات، بقماش متبرعين يحبون الكلاب ويعطفون على الناس المساكين.

كان الوطن كقدم طفل. وكانوا يبحثون بين المفاصل. وسرحان لا يفهم ولا يعترف لأنه، فعلاً، لا يعرف. «اذهبوا إلى الخارطة واتركوني.» ولكن حين أقاموا له خيمة في الزنزانة حوَّلها إلى خارطة. وكانت هوامشها يوميات. قالوا: «في الجنة أيضاً تجد خيمة». قال: «في الجنة أيضاً أُحولها إلى خارطة، وهوامشها مرثيات».

لم يجدوا الفكرة في لحمه المتفتت بين أصابعهم. كانوا يرسمون على جسمه خطوطاً هابطة صاعدة تلتقي أطرافها في دوائر تشكل خارطة. صرخوا من الألم كأن الخطوط التي رسموها قنبلة

تنفجر بهم. هب آخرون لنجدتهم وقالوا: وجدناها. وجدنا فكرة سرحان. ولكن الوقت كان متأخراً. ونقلوه، ثانية، إلى الزنزانة.

- حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من حارس

للحيلولة دون الزفاف.

- كانت عقارب الساعة تشير إلى: جبل، ورصاصة، وشهيد. ثم تحركت إلى سهول، ورصاص، وشهداء

ثم تحركت إلى بيوت، ورصاص، وشهداء، وقتلى، وأعراس، ومآتم

وصار لسرحان زمن.

- بين الليل والليل فاصلة أتربص بها. تفلت من أطراف أصابعي، وتسقط في الماء.

وهذه قطرة من دمي أُقدمها مساحة تفصل بين يومين فيتحولان إلى عهدين.

قطرة دم واحدة، منذ هذا التاريخ، تجعل اليوم الذي يسبقها عهداً ينزل إلى الماء لا ليغتسل بل ليغرق.

وهذه قطرة أخرى، أقدمها لكي لا تبقى الخارطة ورقاً بلا نبات وجداول.

وهذا دمي كله. أصبه كله للشجرة التي ما زالت نائمة في التراب، فتنبت الشجرة.. وأتحرر من دمي القديم الذي جاء من القمح الكندي والجبن الهولندي.

تخرج قدم الطفل المحبوسة في حذاء المنفى الحديدي..

يصير الوطن أصغر وأقرب..

يصير الوطن في حجم القبلة وفي مسافة الطعنة.

فليعبر نشيد دمي جسر الحيرة وخيانة السيف. ليعبر نشيدي أناقة الوزن، ويحقق الانسجام في الفوضى. ليعبر نشيدي خفيفاً كسكتة القلب، عنيفاً كرحيل السفن. ولتلتئم ذراعان ضاعت إحداهما في الغابات والأخرى في البحر. ليعبر نشيدي!.

● أنت مغامر يا سرحان.

– نعم.

– أين الفكرة؟

– خرجت مني وصارت صخرة.

– لقد نسفنا الصخرة. كانت معبأة فدائيين وماتوا. لقد نسفنا الصخرة.

– أعرف ذلك. ولكن الصخرة لم تمت.

– رأيناها تطير في الهواء ذرات.

– لقد خرجتْ من الأرض وصارت فكرة.

تعبوا منه. تعبوا كثيراً. وصار كل فريق مشغولاً بيومه. سرحان يحاول الإمساك باللحظة الفاصلة بين الليل والنهار. والسجانون يفتشون عن الفكرة في الصخرة، وعن الصخرة في الفكرة. ويحاولون الإمساك بالفارق بينهما. ثم يعودون إلى جسد سرحان الذي فرغ من الدم فتكاثرت حوله الفراشات.

● من هذه النافذة يبتدئ البحر، ويمشي دمي.

الصيف والشتاء ذراعان تنغلقان على وطن.

إذا فتحوا مسام جلدي، مرة أخرى، تحول الفراش المتطاير منها إلى أطفال يولدون.

نجوت من حوادث الطرق، لأني لا أمشي على طرق. حيث تحط قدمي تكون طريق.

لا ضجيج قبلي، ولا هدوء بعدي. يجب أن تحفظوا اسمي جيداً، فقد تصابون باسمي، قد تصطدمون باسمي فينفجر بكم.

الوقت هو زفيري وشهيقي. حطموا الساعات. واعرفوا مواعيد المطر من النحل الذي يحوم حول جراحي. وإذا جاءكم السنونو، في غير موعد، قولوا: تنفس.

كل شيء يتغير. وأنا أُدشن زمني، ويقفز إليَّ وطني كأسير في حضن زوجة.

وهذا سفر تكويني: في الساعة الأولى، من اليوم الأول، من عمر الرصاصة الأولى، كانت الصحراء تنزل عن عنقي وتتعلم الأبجدية. كانت تقرأ كتاب الشجرة بقلم رصاصة. وكان الجبل العانس يتزوج رصاصة.

كان الوطن كله يختبئ خلف رصاصة.

انطلقت... فآفاق.

ومن هذه النافذة يبتدئ البحر، ويمشي دمي.

● يذهبون إلى الحرب. كما يذهب الحصان العاشق خلف الغزالة الشاردة.

منذ تسع سنوات والحُبّ يتصاعد: أعراساً ومآتم. والزنزانة تذوب تذوب.

وفي هذه الليلة أين وصلت؟

– أعطيت الحلمَ قدمي، فسار معي. لم يعدْ وطني لا أمامي ولا ورائي.

– أين هو إذن؟

– يجب أن تفصلوا البحر عن الدم لكي تضعوا حدوداً بين جسمي ووطني. ألا تشعرون بالخوف!.

كانت أجراس الميلاد تدق. وكان المسيح يملأ الليلة والعالم. وكان حوار الصخرة والفكرة يجعل الصلاة نزيفاً، ويحول النزيف إلى صلاة.

مد سرحان يده إلى صدره، فأخرج منه القدس. وضعها أمامه. ثم قام ومشى على السور. «لم أتأخر كثيراً. دمي وصل».. كان يمتد من الزنزانة إلى الأفق، ويشكل قوساً نصف دائري. وكانت الريح تتحول إلى أسلاك تلتفت على حراسها وتجعل المسافة بين الحصان والغزالة رؤية واضحة.

حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من فارس

ليتم الزفاف.

محاولة رثاء بركان

اكتملت رؤياك، ولن يكتمل جسدك. تبقى شظايا منه ضائعة في الريح، وعلى سطوح منازل الجيران، وفي ملفات التحقيق.

ولم يكتمل حضورنا نحن الأحياء - طبقاً لكل الوثائق. نحن الأحياء مجازاً. وأنت الميت - طبقاً لكل الوثائق. أنت الميت مجازاً.

نحزن من أجلك؟ لا.

نبكي من أجلك؟ لا.

أخرجتنا من صف المشاهدين دفعة واحدة وصرنا نتشوف الفعل، ولا نفعل.

أعطيتنا القدرة على الحزن، وعلى الحقد، وعلى الانتساب. وكنا نتعاطى الحزن بالأقراص، ونتعاطى الحقد بالحقن، ونتعاطى الانتساب بالوراثة.

مرة واحدة أعطيتنا القدرة على الاقتراب من أنفسنا، وعلى الرغبة في الدخول إلى جلودنا التي خرجنا منها دون أن ندري. الآن ندري – حين خرجت منا.

من أنت يا غسان كنفاني!

حملناك في كيس، ووضعناك في جنازة بمصاحبة الأناشيد الرديئة، تماماً كما حملنا الوطن في كيس، ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الآن، وبمصاحبة الأناشيد الرديئة.

كم يشبهك الوطن!

وكم تشبه الوطن!

والموت دائماً رفيق الجمال. جميل أنت في الموت يا غسان. بلغ جمالك الذروة حين يئس الموت منك وانتحر. لقد انتحر الموت فيك. انفجر الموت فيك لأنك تحمله منذ أكثر من عشرين سنة ولا تسمح له بالولادة. اكتمل الآن بك، واكتملت به. ونحن حملناكم – أنت والوطن والموت – حملناكم في كيس ووضعناكم في جنازة رديئة الأناشيد. ولم نعرف من نرثي منكم. فالكل قابل للرثاء. وكنا قد أسلمنا أنفسنا للموت الطبيعي.

أيها الفلسطينيون... احذروا الموت الطبيعي!. هذه هي اللغة الوحيدة التي عثرنا عليها بين أشلاء غسان كنفاني.

ويا أيها الكتّاب... ارفعوا أقلامكم عن دمه المتعدد! هذه هي الصيحة الوحيدة التي يقولها صمته الفاصل بين وداع المنفى ولقاء الوطن.

لا يكون الفلسطيني فلسطينياً إلا في حضرة الموت. قولوا للرجال المقيمين في الشمس أن يترجلوا ويعودوا من رحلتهم، لأن

غسان كنفاني يبعثر أشلاءه ويتكامل. لقد حقق التطابق النهائي بينه وبين الوطن.

أهكذا؟. نعم هكذا – حين تزول الفوارق بين الأجساد وبين الأوطان – ويصير الكل في كيس واحد، تنزل العودة من الأناشيد الرديئة إلى البندقية الجيدة، ولا تكون الحياة مجازية. وهكذا – تكون الهجرة شكلاً محوراً للعودة.

أُمجد موتك؟ لا.

ألعن حياتك؟ لا.

إني أُمجد السخرية التي كنت تواجه بها الحياة. نادر في تحايلك على الحياة. تنزفها تنزفها لا حباً لها بل بحثاً عنها. من خرج من عكا يوماً ولم يعد، لا يعامل الحياة إلا بسخرية.

إني أُمجد البسمة الكاذبة التي كنت تقابل بها الأشياء – وهي باطلة كلها – فمن عرف فلسطين تاب عن السعادة. وفلسطين التحمت بخلاياك. تبتسم لسواها كالعاشق المخدوع الذي يتحايل على الخيانة، ويحاول الهرب من قلبه.

لم تكن رجلاً.

كنت إنسانية.

ولم تحمل صليباً، كمتظاهر يحمل لافتة وراية.

صليبك لا يراه أحد. حتى أنت لا تراه. لأنه يأتيك من الداخل. لأنه يسكنك، كما يسكن البرق المفاجأة، وكما يسكن الكون الديمومة.

كان الصليب ينتسب إليك.

وكان الوطن ينتسب إليك.

وهما البديلان الوحيدان.

ليس جمال الموت ما يجعلك جميلاً، فبأي حق يستعيرك، ويتركنا بلا ندم؟

ليس جمال الموت، ولكنه حقيقة المأساة في لحم إنسان حقيقي وفنان حقيقي. الصدق اغتراب، فلماذا كنت مغترباً إلى هذا الحد؟

باعوا الضحية فاشتكت، فاجتمع الغزاة والطغاة على إخماد شكواها، لأن سلامتهم واحدة.

فلماذا ولدت عكا؟ لماذا ارتكبت هذا الإثم!. جرّب – يا غسان – واخرجٍ من اسمها. ستخدعك الحياة من جديد. وتموت. تضيق بها ذرعاً، ومن فرط العشق والغيرة تكرهها. ولكن، ماذا تكون من دونها! فلماذا ولدت في فلسطين؟ لماذا ارتكبت هذا الذنب؟. جرّب – يا غسان – جرّب أن تذهب في هواها إلى آخر الشوط؟ ستخدعك الحياة من جديد. وتموت من جديد.

الابتعاد عنها – قاتل

والاقتراب منها – قاتل.

وبين الاقتراب والابتعاد يتأرجح جسمك. الارتفاع يوازي الضياع. والنزول يحاذي الأفول.

وهذه هي المأساة.

وهذه هي قدرية العشق الفلسطيني.

لأن المعشوقة قاتلة بجمالها، ونسيانها، وقدرتها على الخيانة.

تكتبها. ترسمها. تغنيها. تغامرها. وهي تنام في أذرعة الآخرين.

وحين تقول: تعبت، تحاصرك كالجلد. ولعلك كنت تهددها، ولعلك كنت تؤنبها: حين أنام فيها سأرميها في البحر كقشرة برتقالة.

لا تعطيك هذه الفرصة... لا تعطيك.

أكثر من عشرين عاماً، وأنت تنتظر هذه الفرصة. لاتعطيك. ويا غسان كنفاني. للمناسبة، قل لي من أنت؟

غامض، وعاجز عن الاجابة، لأنك فلسطيني حقيقي. كلما اشتد وضوحك اشتد غموضك.

تنسى نفسك في البحث عن الوطن. وينساك الوطن في بحثك عن نفسك، ثم تلتقيان يومين في اليوم. في اليوم الواحد تلتقيان أمس وتلتقيان غداً.

وما الفرق بينكما؟. هو الفارق بين ظل الشجرة في الدم وبين ظل الشجرة في الماء.

فلسطيني حتى أطراف أصابعك، فلسطيني حتى الحماقة. وهذا هو مجدك إذا كان المجد يعنيك.

تسلم على السائح، فتصيبه عدوى فلسطين.

تقبّل امرأة، فتصير مريم المجدلية.

تعانق طفلاً، فيستكمل طفولته في إحدى قصصك.

وهذا هو مجدك إذا كان المجد يعنيك.

من أنت؟ غامض وعاجز عن الإجابة. فكلما اشتد وضوحك اشتد غموضك.

لم تمتشق قلماً...

لم تمتشق بندقية...

لم تمتشق إلا دمك. كان دمك مكشوفاً من قبل أن يُسفك.

ومن رآك رأى دمك. هو الوحيد الواضح. الوحيد الحقيقي والوحيد العربي. دق سقف الهجرة وعاد كالمطر الذي يهطل فجأة من سماء النحاس على أرض القصدير. فهل سمعنا رنينه؟ هل سمعنا صداه؟

سمعناه يا غسان، فكيف نثأر له؟. وحين نقول فلسطين، فماذا نعني؟ هل فكّرنا في هذا السؤال بمثل هذا الخجل من قبل؟ الآن نعرف: أن تكون فلسطينياً معناه أن تعتاد الموت، أن تتعامل مع الموت... أن تقدم طلب انتساب إلى دم غسان كنفاني.

ليست أشلاؤك قطعاً من اللحم المتطاير المحترق. هي عكا، وحيفا، والقدس، وطبريا، ويافا. طوبى للجسد الذي يتناثر مدناً. ولن يكون فلسطينياً من لا يضم لحمه من أجل التئام الأشلاء من الريح، وسطوح منازل الجيران، وملفات التحقيق.

ماذا نفعل... ماذا نفعل من أجلك؟

هكذا تساءلنا. ونسينا أن نتساءل عما نفعل من أجل ما ومن تبقّى منا.

وكنا نرد: نحرق مكاتبنا ونمضي... نمضي إلى أين؟ نمضي إليك... إلى الثورة. نخرجها من رحم الفكرة والأحلام والأناشيد، لأن دمك قد خرج. الذاكرة والخارطة والأغاني لا تحوّل المنفى إلى وطن. ولم يبق لنا غير الانتماء إلى الثورة وأخطائها. لا يكون العشق عشقاً إلا إذا بلغ حد الخطأ. فلنذهب إلى الخطأ جميعاً، لأنه فاتحة الصواب. ولنملأ الأطر التي تركها غسان، حتى لا يكون وحيداً ولا يتيماً ولا حزيناً. لقد تحول من شكل إلى رؤيا. فلندخل مرحلة التحوّل.

وطوبى للقلب الذي لا توقفه رصاصة. لا تكفيه رصاصة!

نسفوك، كما ينسفون جبهة، وقاعدة، وجبلاً، وعاصمة.

وحاربوك، كما يحاربون جيشاً...

لأنك رمز، وحضارة جرح.

ولماذا أنت... لماذا أنت؟

لأن الوطن فيك صيرورة مستمرة وتحوّل دائم. من سواد الخيمة حتى سواد النابالم. ومن التشرد حتى المقاومة.

حقيقي وشفاف...

وابتكار لأنهار منحوتة مياهها من دماء مهاجرة. خريرها دائماً محترق، يتمازج فيها ظل الزيتون الراحل بين الذاكرة والتراب.

لو وضعوك في الجنة أو جهنم، لأشغلت سكانهما بقضية فلسطين.

وجدان، وعاطفة، ووسامة.

وعكا تنتمي إليك

ولأن غيابك يجعل الوطن أبعد، فعندما ينسفونك... ينسفون خطى تتقدم – هكذا يحسبون.

ويا غسان، حدد شكلك!

من طول الرحيل سقطت ذنوبي. ومن بعد الوطن اقتربت من الحقيقة. وشكلي ضائع فيكم.

وما اسمك الآن؟

لاشيء... لاشيء. تبعثر اسمي مع أشلائي. حين تعثرون على أشلائي تعثرون على اسمي. ولن تجدوها ما لم تجدوا وطني.

وأين وطنه؟

لا تقولوا أنه محتل.

هو ضائع فينا... ضائع فينا... ضائع فينا. فمن يُخرج الوطن منا كي نراه؟ منا نبدأ، فكيف نبدأ، ومتى نبدأ؟ إسألوا هذا السؤال من جديد. واذهبوا إلى اسم غسان كنفاني واسرقوه، أطلقوا اسمه على أي شيء وعلى كل شيء. أطلقوا اسمه عليكم واقتربوا من أنفسكم، من حقيقتكم، تقتربوا من الوطن.

هاهم يتبارون في رثائك، كأنك شيء ذاهب. ولم يعرفوا أنك منذ رحلت – أتيت. قادم... قادم من الريح، ومنازل الجيران وملفات التحقيق ومن الصمت واستمراء الهزيمة ومناقبها.

هاهم يتبارون في رثائك، كأنهم يرثون فرداً

آه... من يرثي بركاناً!.

هذه لحظتك. فلا تجمع أشلاءك ولا تعد... لا تعد. لا تنتظرنا في المهاجر. كان يجب أن نراك... أن نعرفك... أن نسير معك قبل اليوم. ولكن الموت لم ينضج فينا.

نعزي أهلك؟ لا.

نعزي أنفسنا؟ لا.

نذهب إلى جبل الكرمل ونعزيه.

نذهب إلى شاطئ عكا ونعزيه.

نذهب إلى فلسطين ونعزيها.

هي المفجوعة. هي الثكلى.

نعزيها أم نهنئها؟ لا أدري.

فهي التي سترتب عظامك، هي التي ستعيد تكوينك من جديد. ونحن هنا، سنموت كثيراً. كثيراً نموت، إلى أن نصبح فلسطينيين حقيقيين وعرباً حقيقيين. ولكني أستأذنك الآن في البكاء قليلاً. فهل تأذن لي بالبكاء؟ هل تغفر لي؟. أما كنت تحبني يوم كنت هناك؟!

أكثر من الكلمات

● تلك اللحظة، لم يكن الشارع شارعاً في مدينة. وهذه محاولة وصف

كان كل شيء ونقيضه.

كان فاصلة تدل على الماء، وعلى الدم.

وكان ذبابة تأكل الحرف الفاصل بين الموت والحياة، وبين الوطن والمنفى.

كان مذبحة وحفل زفاف. ولم يكن لوركا عربياً تماماً:

«إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة.

الطفل يأكل البرتقال.

(من شرفتي أراه).
الفلاح يحصد القمح.
(من شرفتي أسمعه).
إذا متّ
فدعوا الشرفة مفتوحة».

كنا نسهر، ونحسبها قصيدة جميلة. وكان الرصاص يمشي في الشارع الآخر. يفتح باب كمال ناصر، يقتل العصافير في قلبه. ويعود من الباب ذاته، والشارع ذاته، والمدينة ذاتها. وكنا نسهر، ونعتبرها مجرد قصيدة جميلة، لأن لوركا لم يكن عربياً تماماً.

● أخيراً فعلها ومات. صدّقه الموت لأن الموت لا يمزح.

وكان كمال ناصر يبني تابوته مازحاً، ويستكتب مراثيه ضاحكاً. وفي أوج الفرح يمضي إلى الحسرة.

من أين جاءه هذا الموت قطرة قطرة حتى طفح وغطاه!. كيف سكنه كل هذه المدة ولم نصدق!.

الموت لا يليق بك يا كمال، كما لا يليق بفراشة.

كان يصر على أنه حامل بالموت. كيف نمت في هذه الحاسة ولم نشعر. وهل مات ليقنعنا بأن الحدس، فيه، لا يخطئ!.

● يقفز، كعادته، من الدمعة إلى الابتسامة. ولا يجد مكاناً يربّي فيه قلبه. خلقوا التوتر أولاً، ثم صبوا فيه جسد كمال ناصر.

كان مليئاً بالشعر، وخالياً من القصيدة.

كان طافحاً بالوطن، وخالياً من الأرض.

ولو كتب الملاحم الشعرية لانصرف عنها، لأن رياحه لا تتسع لها الحروف.

ولو وصل إلى فلسطين لمزقها، لأن الخارطة بموظفيها لا تستوعب هذا الطائر الجامح.

مندفع.. مندفع إلى أين؟

ضيِّق هذا الجسد المليء بالرخام والعصافير. والأرض أضيق من مسام الجلد الغاضب.

وهو أول من لا يعرف.

حين تفاجئه بسؤال: ماذا تريد؟ يتوتر التوتر في قبضة يده. ويتحول إلى خصلة شعر في ريح. ويقول كلاماً غامضاً كأنه فلسطين التي، من شدة ما علموها اللغات، لم تعد تتقن أية لغة.

● ليست القصيدة بديلاً لأي شيء في الكون.

هذا ما يعرفه كل الشعراء. وهذا ما يجهله كل الشعراء.

سأعود إلى الشعر، يقول حين يجلس على كرسي التعب. ولكن، من يضع المساء على مكتب ويأمره بالذبول!. كان حزيناً ومراً لهذا السبب «ضيِّعتُ زمان الشعر». ولم يكن يعرف أنه صار عاجزاً عن كتابة القصيدة، لأنه تحول كله إلى قصيدة، فكيف يقلِّد جماله!.

● من حدد له هذا الموعد مع الموت، فراح ينظِّم الجنازة، والمراثي، ويختبر حزن الأصدقاء، ويسجل صمته على شريط طويل خوفاً من الصوت؟

هو.. هو الذي حدد هذا الموعد.

حجز مكاناً في مركبة الرحيل العائد.

أعد الحقائب والشهادة الصحية والهدايا، وسافر في الدرجة الأولى.

كان الموت مطراً، طيلة ذلك العام. وصل الفلسطيني إلى

كل المواسم الدامية، ولم يصل إلى الحصاد. من يجفف هذا الماء الأحمر لتعرف السنبلة أنها نضجت!.

وكمال، كعادته، يبشَر ويفجِّر. حيوي كشظايا في أوج الانفجار. ورقيق كفراشة تداعب شفة ناعمة.

كيف يتزوج الواقع والحلم على يد هذا الكاهن الثائر؟. ضيَّق المسافة فتلاشت، ورأى أن فلسطين على أهبة الرحيل من القضية إلى الوصول، ومن البندقية إلى المحراث.

كان يسكن تفاصيل الواقع وجوهر الحلم، ويرى البشاعة زائلة. يقولون: ضحى بالشعر من أجل الواقع. لا. لم يضحِّ بالشعر. كان يمارسه، يمشيه، وكان يُطبّقه.

كيف يطبق الشعر؟

مرَّ كمال ناصر من هنا.

ليس الشعر نقيض الواقع. هذا ما يعرفه كل الشعراء، ويجهله كل الشعراء. فلماذا يضيع كمال ناصر في هذه الثغرة الوهمية بين الشعر والواقع. فيها وجد ذاته، لأنها منطقة التوتر والتمرد والتوحد والتجدد.

● دائم الإحساس بالخسارة والإحباط، ودائم القناعة بالوصول والتجلي.

هذه العتبة بين الحاضر الطاحن والمطحون، وبين اليوم الذي يتلوه هي التي كانت تهدم كمال ناصر وتبنيه، تكسره وتحييه. وهذه هي حيوية الشاعر وصلابة الثائر.

لم أنجز شيئاً.. لم أنجز شيئاً – هكذا كان يصرخ في ليله الشخصي.

إن هذا الاحساس بخسارة اليوم هو مصدر طاقة الثوري من

أجل إبداع الغد. وهو الذي يدفعه إلى المزيد من المحاولة والتجربة والاندفاع. هذه هي خلية الإبداع.

لم تكن فلسطين بعيدة عنه. كانت تتسرب فيه وتتشعب من أخمص قدميه إلى خصلات شعره.

ولم تكن فلسطين غريبة فيه، لأن الحالة الفلسطينية الجديدة بين يديه. كان ناطقاً باسم هذه الحالة الجديدة. وما تنشره التفاصيل اليومية من انقباض وارتباك، أحياناً، كان يزيد من غنى المذاق الفلسطيني المتصاعد من عملية إبداع فلسطين الجديدة.

كان يشتبك بالقناعات المختلفة أو المعادية ليبلور قناعته الفلسطينية.

وكان يخرج من كوابيس الليل الفلسطيني بحلم مصفى.

ومن هنا، كان ناطقاً باسم الحلم الفلسطيني الجديد.

- يسبح في التفاصيل ولا يغرق.

يعرف كل مسامير الصليب، ولكنه يراه في وحدته وكليته.. حديقة فلسطينية..

كان أحد صانعي الاسم الجميل للوطن، والصورة الودودة للأشياء.

كان يرسم الشعار ويغنيه، ويفرح به كطفل.

كبر، ولم يودّع طفولته، كان يحملها ويسافر، فلا يتعب ولا يصدأ.

وهل رأيتم حمامة تحمل مسدساً؟

كمال ناصر مرَّ من هنا.

وكما كان يربِّي طفولته ويدللها. كان يربِّي استشهاده ويداعبه.

ذهب الموت إلى البحر.. وظل البحر أزرق.

وكان كمال يمشي على حبل غسيل معلق على شرفة بعيدة. سقط الحبل، وظل كمال يمشي على تلك المسافة.

ولم يكن لوركا عربياً تماماً، ولكنه قال:

«إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة.

الطفل يأكل البرتقالة.

(من شرفتي أراه).

الفلاح يحصد القمح.

(من شرفتي أراه).

إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة».

- ذهب الموت إلى البحر. وظل البحر أزرق.

فتشوا الموجة، لا تجدوا شيئاً.

فتشوا بيوتكم تجدوا كمال ناصر يلعب.

فتشوا قلوبكم تجدوا فيها الفرح الذي ترك.

وتزحزحوا، قليلاً، عن الوراء تجدوه أمامكم يلعب. بماذا يلعب؟ بدمه يلعب.

ذهب الموت إلى البحر، وظل البحر أزرق.

بلغ الموت سن الرشد في كمال، فحمله وطار. وكان الرخام والمطر ينهمران بلا سبب. صار الموت هو الذي يلعب. وبقي كمال ناصر فينا، كما هو.

هو.. من؟.

ما مر من هنا. إنه يمر من هنا. فتشوا عيونكم تجدوا ظله البرتقالي. وافتحوا بطن فلسطين تجدوه يتأهب للولادة.

صار جزءاً من الوقت. انظروا إلى ساعاتكم تعرفوا أن لكم موعداً معه. وانظروا إلى أبوابكم، أو إلى أي شارع، تروه يأتي بلا موعد.

لكن. هذه المرة، لا يأتي وحده.

نحن من أمامه، والقتلة من ورائه.

ولا يعود وحده. نحن من ورائه والقتلة من أمامه.

إلى أين يعودون؟

كان واضحاً أن القتلة يعودون إلى بيوتنا القديمة – الجديدة. ولم يكن واضحاً أن شهداءنا يعودون. لقد ظلوا فينا، يسكنوننا، لنعود معاً.

ولم نكن نعرف أن حرب العودة، وحرب الدفاع عن العناوين والبحر ستندلع الآن، من هذا الدم الذي جعل الشارع غير الشارع، والمدينة غير المدينة.

ولكننا كنا نعرف أن دم كمال ناصر ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان ورفاقهم لن يذهب إلى البحر. سيصيب فينا لنحترق. وكنا نعرف أن المدينة تحولت، بصمتهم، إلى وقت. الآن تبدأ حدود فلسطين. من كل بيت تبدأ. من كل صدر تبدأ. من كل صرخة، ومن كل قطرة دم. ليس شهداؤنا أكبر من الكلمات. ولكنهم أكثر من الكلمات.

ما أجملنا شهداء.

وما أقبحنا لاجئين!.

ثانياً:

صبَاح الخَير أيهَا الفرح!

العرب قادمون

• إنتظرنا أيها العالم. إنتظرنا قليلاً. فإننا قادمون إليك.

مشغولون، الآن، ببناء الأيدي التي تصل إليك.

منكبّون، الآن، على تربية الأقدام التي تحملنا إليك.

غارقون، الآن، في عملية تركيب الجسور التي يعبر عليها صوتنا إليك.

إنتظرنا أيها العالم. إنتظرنا قليلاً. فنحن الآن نتعلم المشي على الأرض. مرة أخرى، نتعلم المشي. فلا تلعب كثيراً بالكرة الأرضية التي تهتز. لا تلعب كثيراً. فعما قليل يصير بوسعنا أن نعيدها إلى التوازن – إذا شئت. وعما قليل يصير بوسعنا أن ندفعها إلى الإنفجار إذا شئت.

نحن الآن نتعلم فن المشي.

● إنتظرنا أيها العالم!..

ها هو وجهنا يخرج من قاع النيل كحمامة كانت تغرق.

وها هي يدنا تخرج من فرن الصحراء كتحية كانت تحترق.

وها هي روحنا تعود من السبي، ترتدي جسداً من قمح وشمس.. وتعود.

– متى تذكرتم، متى؟ يسألنا العالم.

– حين نسيتنا تماماً – نقول للعالم.

ونواصل المجيء.

– ألا تعتذرون؟ يسألنا العالم.

– لن تعطينا المغفرة. إن موتنا، وحده، هو الذي يأخذ شكل المغفرة. ونحن نعتذر.. نعتذر لأننا تأخرنا في الرحم، ولكن الولادة عسيرة في هذه الأيام، والجنود الغزاة يحاصرون مدخل الرحم. وأنت الشاهد المحايد أيها العالم.

– القابلة تأتي مع الجنين، من الداخل تأتي القابلة.. من الداخل. وها أنتم تعرفون.

● إنتظرنا أيها العالم! إنتظرنا قليلاً، فإن الولادة العسيرة، تملأ المدن، ونحن قادمون إليك.

تأخّرْنا .. تأخرنا لأننا كنا نبحث عن طريق آخر، ولم تُخبرْنا أنّ دهاليز الدم الخصبة هي الدرب الوحيد الذي يُفضي إليك. لم تخبرنا أنّ باب الرحم هو فوّهة البُركان.

.. في طريقٍ آخر، سقطتْ أيدينا في النيل.

وفي طريق آخر، وقعت وجوهنا في ليل أغلقت عليه الباب.

وفي طريق آخر، ضاعت دمشق المكان عن دمشق الزمان.

وشاع العقم.

- أيها العالم! لا تصدق أنها حرب.

– ما هي إذن؟ يسأل العالم.

– إنها إعلان الحضور. وإنها طريق الوصول إليك. فللحرية صوت يشبه صوت الحرب، لكنها تختلف. وإذا كنت حراً أيها العالم، أو إذا كنت تحب الحرية، ستدرك أنها ليست الحرب، ولكنها ضجة الحرية.

إنتظرنا أيها العالم، إنتظرنا قليلاً، فإننا نتعلم المشي على سطح الكرة الأرضية، ونعيدها إلى التوازن.

حدّق في وجوهنا..

هذا الدم: فرح

وهذا الدخان: حمام

ومن فوهة هذه البندقية: ينهمر السلام على الأرض الحزينة.

الخروج الثاني من سيناء

اذهبْ إلى الحرب.. تصل إلى الولادة.

والآن، نولدُ، نتجدّدُ، ونبلغُ عمرَ الجدارة.

الآن نذهبُ إلى الموت الذي نختارُه لنتغلّبَ على الحياة الموروثة.

نقفُ اليومَ لإلغاء الهُدنة التي عقدْناها مع ريح الصُدْفة.

ننتمي إلى العالم حين نخالفُه. ننتمي إلى حياتنا حين نهدّدُها.

ننتمي إلى الوطن حين نستبدلُ صلواتِنا بالقذائف..

ننفجرُ، ونفجِّرُ ... هكذا تكونُ الأعياد.

ونحن الآن في اليوم السابع، اليوم "فرَغ الربُّ من عمله الذي عمل وبارك الله اليومَ السابع واستراح."

بارك الله اليومَ السابع. ودمُنا يباركُ هذا اليومَ السابع. فالآن

نرقصُ الموتَ، ونمدُّ دمَنا حبلاً إلى الوطن، والله يتنازلُ عن اسمه القديم اليوم، ويأخذ اسماً جديداً هو الوطن. الله هو الوطن..

نحن الآن في اليوم السابع، لا نرتاحُ من العمل، ولكننا نرتاحُ من الهزيمة. اليوم عطلةُ الهزيمة.

نحن اليوم نُقشِّرُ خرافةَ العدوّ، ونعيدُ تكوينَها كما يشاءُ دمُنا.

في البدء، بدئنا لم يكُن القولُ ولا الفعل - في البدء كانت الهزيمة.

وفي اليوم الأوّل من هذا التاريخ الذي يكتبه دمُنا، في سِفْر تكويننا الجديد، كان عيدُ الغُفران عند أعدائنا الذين لم يُكفّروا عن خطاياهم، فقمْنا بدَلاً منهم بالتكفير عن خطايانا بحقّ الوطن الذي لم يتحرّرْ، وبحقّ الطفل الذي لم يُولَدْ، وبحقّ المُستقبَل الذي لم يصِلْ. إنه يومُ غفراننا ويومُ جنونهم.

واليوم، تبدأ الخرافةُ مرّةً أخرى في أسبوع واحد تنازلها عن مواقعها. الخرافةُ تستسلم. ففي هذا اليوم، اليوم اليوم، يحتفلُ الأعداءُ بعيدٍ ثانٍ في أسبوع واحد هو عيدُ المظلّة: وهو يومُ خروجهم من سيناء الأولى.

اليوم خرجوا من سيناء في الأسطورة.

واليوم يبدأ خروجُهم من سيناء بقوّة الجُنديّ المصري.

التاريخ لا يعودُ إلى الوراء، ولا يُكرّرُ نفسَه.

ولكنّ الذين يربطون مُستقبلهم بالخرافة، ويُقلّدون الخرافة، وينتمون إلى الخرافة، ويُراهنون بالخرافة - يُعيدُهم التاريخُ إلى الوراء، إلى الوراء، ويجدُ نفسَهُ مُضطرّاً لتكرار نفسِه.

حتى الخرافة تنقلبُ عليهم.

ونحن نذهبُ إلى الحرب فنصلُ إلى الولادة.

وطن آخر

أبعد من سيناء، وأبعد من الجولان، وأبعد من فلسطين – هذا الذي يحدث.

ضع نقطة، وابدأ سطراً جديداً. بوسعك الآن أن تستعمل مفكرة:

هؤلاء الجنود لا يخوضون حرباً. ولكنهم يشعلون ثورة.

وهم لا يحررون وطناً مرة واحدة. ولكنهم يحررونه مرتين.

وهم لا يكتفون بطرد الغريب عنه، ولكنهم يطردون عنه الاغتراب.

هذا الاغتراب كان حصان طروادة. لقد اغتربنا عن الوطن كثيراً، واغترب عنا الوطن كثيراً. وصلنا ذات يوم إلى نقطة خطيرة: كأنه ليس لنا. وكأننا لسنا له، وكاد يتحول إلى ميراث بلا مستقبل.

من الآن.. من هذا الزلزال يجب أن نعرف أنه لنا حقاً وحقيقة.

وليس لأحد فضل على آخر إلا بهذا الدم الذي يجرف جدار الاغتراب مع حصون الغزاة.

– لا تتورط في الفرح كثيراً! هكذا يقول أصحاب العواطف الموضوعية الذين قد يخشون على صحة أفكارهم أكثر من خشيتهم على وطن.

– ولكن فقراء الوطن يموتون الآن من أجل تكوين هذا الفرح الذي قد لا يكون كله لهم. الفقراء يموتون ببهجة. وماذا كان الوطن يُعطيهم غير الحقّ في الموت أيّام الحرب! الفقراء يموتون بدلاً منا ومن أجلنا.

– العبيد يصنعون قيودهم

– والعبيد يكسرون قيودهم الآن، ويصنعون المساواة غداً. لقد تدربوا على فن الحرية، وسيكون الوطن لهم، لأنهم حرروه مرتين، وبنوه مرتين.

ضع نقطة، وابدأ سطراً جديداً. بوسعك الآن أن تستعمل مفكرة:

وطن آخر خلف المتاريس.. وطن آخر، لا ينقسم الناس فيه إلى فريقين: فريق يتورط في الفرح، وفريق يتورط في الحزن..

– هذا كلام سابق لأوانه – يقول أصحاب العواطف الموضوعية الذين يفقدون الثقة بالمعركة إذا لم يصدر بلاغ عسكري كل خمس دقائق.

– من أجل هذا تعرضنا للغزو: لعرقلة سعينا إلى تطبيق العدالة، وللحيلولة دون تحولنا إلى حياة جديدة ذات نظام اجتماعي جديد..

– وماذا أيضاً؟

– افتح النافذة غداً على ميدان الأيام العادية. إذا رأيت جياعاً وعراة فاعلم أننا انتصرنا في الحرب. ولم ننتصر في الثورة. واعلم أننا لم نكرم أولئك الشهداء الذين جعلونا نفتح أبوابنا كل صباح ونقول:

صباح الخير أيها الفرح!.

أزرق.. أزرق..

«رأيت مياهاً كثيرة في حياتي، ولكنني لم أرَ ماء في مثل هذه الزرقة الداكنة.

وشاهدت رمالاً كثيرة فسيحة، ولكنني لم أُشاهد رملاً ممتلئاً بالوضوح والغموض معاً مثل هذه الرمال الشرسة.

وعشت أماسي كثيرة تحاذي المجهول، ولكنني ما عشت مثل هذا المساء الذي يتناوب علاقة عجيبة مع المجهول.

ورأيت جنوداً كثيرين في حياتي، ولكنني ما رأيت، قبل الآن، كيف تقف عيون التاريخ على أصابع هؤلاء الجنود.

وعرفت الصبر والقهر والغيظ، ولكنني أقرأ الآن، لأول مرة، صدر البركان المتأهب للانفجار.

وتعرفت على أنواع كثيرة من الصمت، ولكنني لم أر صمتاً أكثر حكمة وقسوة من هذا الصمت الرابض، كالأعجوبة، على قناة السويس.

نحن نثرثر في كل مكان، ابتداءً من غرفة النوم حتى المذياع، ونكتشف في أنفسنا مواهب مفاجئة في فن الحرب والعذاب والبسالة. ولكن الحقيقة الوحيدة تبقى هناك.. على ضفاف قناة السويس. وموقفنا من هذه الحقيقة الدامية هو، وحده، الذي يمنحنا حق الكلام أو يحرمنا من حق الكلام عن الوطنية والقومية والاشتراكية وغيرها من القيم التي أوقفتها التطورات المفجعة على مفترق طرق خطير، على ضفاف قناة السويس. ذلك لا يعني أن قيمنا أُصيبت بالشلل أو يجب أن تصاب بالشلل إلى حين الخروج من مفترق الطرق هناك، ولكن يعني أن العلاقة بينهما صارت أعمق وأخطر مما قد يتصور البعض، وأن التأثير المتبادل بينهما يترك آثاراً قد تتشابه في العمق والمدى: لن نتمكن من التقدم بقيمنا نحو التنفيذ الجاد ما دمنا عاجزين عن التحرك هناك. ولن نتمكن من التحرك هناك ما دمنا عاجزين عن التقدم بقيمنا.

والحرب هناك لا تكتب بالحبر والمزاج. إنها لغة الموت الحقيقية. وهي ليست قصفاً إذاعياً يعقبه نشيدُ الختام السلبيّ. إنها الصمت الفاعل الذي يعقبُه انفجار البارود واللحم البشري. إنها مهارة الموت الذي يرد إلى التاريخ نكتته الممجوجة التي أطلقها ذات يوم عندما كان شغوفاً بالمزاح.

«أن زرقة السويس تشطرني شطرين».

هذه السطور كتبتها قبل حرب تشرين بعامين ونصف عندما زرت مدن قناة السويس، ووقفت ساعات طويلة على أنقاض مدينة بور توفيق برفقة الجنود المصريين الذين كانوا ينتظرون اندلاع العاصفة النارية بصبر أسطوري. أسجلها الآن وأقبل الأيدي التي صافحتها فأعطتني مجداً لا أستحقه!.

بطاقة إلى دمشق

ساعي البريد ينتظر،

والفراشة تحارب،

ولا تنتهي رسالتي إليك يا دمشق.

كأن الأغاني أُصيبت بحنجرة لا تغني، منذ انتصبت على أصابع الشهداء.

إلى أين، إلى أين؟

ليس في المدى مكان، لأن زمانك يرتدي ملابس الميدان،

فيتدلى المدى خيطاً من ثيابك.

إلى أين؟ واسمك المتوتر لا يحتمل المزيد، فقد يصبح المجد عادة يومية، أو بواباً في الجامع الأموي..

دمشق.. يا دمشق!

تدخلين الحرب كما تدخل الفتيات ليالي الزفاف..

وتخرجين من الحرب كما يخرج الأطفال من البحيرات.

وحين تقفين، يا دمشق، تتحول الجداول إلى قامات.

وحين تمشين، يا دمشق، يتجمد الغروب على حافة الأفق.

وإلى أين يا دمشق؟

كأن الأغاني أُصيبت بحنجرة لا تغني،

والشعراء يتعلمون الأبجدية من حجارتك الصغيرة.

كوني أي شيء يا دمشق، فلن تكوني إلا دمشق.

كوني سكيناً وقشريناً، يتدفق منا بردى الذي يبقى كما كان: مواطناً عادياً يدفع الضرائب، ويقصف بالقنابل، ولا يرحل عن البيت.

كوني أي شيء يا دمشق،

فلن تكوني إلا دمشق التي لا تنزل عن الأشجار، ولا تنحني.

إلى أين.. إلى أين؟

ليس في المدى مكان، لأن زمانك يرتدي ملابس الميدان، فيتدلى المدى خيطاً من ثيابك.

دمشق.. يا دمشق!

ساعي البريد ينتظر،

والفراشة تحارب،

ولا تنتهي رسالتي إليك يا دمشق..

مسّادة تسقط

إنهم يحملون الوفاة منذ جاءوا إلى هذه الولادة.

لقد توحدوا بالخرافة، وأقنعوا أنفسهم بأنهم يعيدون التاريخ إلى سن الطيش.

مسّادة.. مسّادة.. تسري في شرايينهم وتسكرهم وهماً وغطرسة «مسّادة لن تسقط مرة أخرى. مسّادة لن تسقط» ولم يتعلموا من الإبادة إلا التدرّب على إبادة الآخرين. لأنها الوسيلة الوحيدة لتشكيل ذاتهم الجديدة.

وفي عيد الغفران، لم يحاولوا التكفير عن ذنوبهم كما أوصاهم الرب، الذي لم يأخذوا من وصاياه الكثيرة إلا ما قاله على أسوار أريحا. في عيد الغفران كانوا، بدلاً من ذلك، يحتفلون بسقوط أعدائهم.

ولكننا نحن.. نحن الذين اندفعنا، في يوم غفرانهم، للتكفير عن ذنوبنا التي ارتكبناها في ثلاث حروب رخيصة، فصار يومَ غفراننا العظيم عن آثام ارتكبناها بحق تراب كدنا نشك بأننا جديرون به، وبحق أطفال كدنا نشك بأننا آباؤهم.

كان الحزن يتصبب من مسام جلودنا.

وكان الفرح يتصبب من أحذية جنودهم.

وفي يوم الغفران كفّرنا عن هذه الخطيئة.

لم يتعلموا شيئاً. وكانوا يتقنون لغات كثيرة أنساهم النصر الرخيص إياها، وما عادوا يفهمون إلا هذه اللغة التي نخاطبهم بها اليوم. نشكرهم أم نرثيهم؟ فمهما تكن النتائج.. مهما تكن، لن تكون إلا أننا أتقنا الآن لغة الجدارة بالحياة والوطن والعالم، وحرمناهم منها.

لقد انتصرنا، انتصرنا في اللحظة الأولى التي أطلقنا فيها النار عليهم وعلينا في آن واحد. لقد قتلنا أوهامنا القديمة ولغاتنا البائدة. لقد انتصرنا على الغزو الداخلي المتغلغل فينا قبل تغلغل الأعداء في أراضينا. لقد حررنا ذواتنا من الاحتلال المعنوي والنفسي، وحررنا شرفنا من التسكع على أرصفة الحياة، وحررنا جلودنا من الغزاة الذين يرقصون تحت جلودنا.

هذا هو النصر الأول والأكبر - تحرير الذات والإرادة، ثم يكون تحرير الأرض سهلاً كهذا الموت الشائع في هذه الساعات التي نعيد فيها التاريخ الشرقي إلى سن الرشد.

«مسّادة لن تسقط. لن تسقط ثانية». لم يتعلموا شيئاً مرة أخرى. لم يتعلموا شيئاً يحميهم من خطيئتهم ومن غضبنا. لم يتعلموا إلا التشبث بأسباب اغترابهم عنا وعن العالم. ومسّادة ليست، بالنسبة

لهم، قصة تاريخية تتحدث عن حصن قديم دافع عنه مقاتلوهم القدامى حتى الموت. لقد حولوها، منذ جاءوا إلى فلسطين، إلى حالة نفسية وإلى عقدة. عقدة يحملونها وينتحرون.

يحاربون وينتحرون.

ينتصرون وينتحرون.

يتوسعون وينتحرون.

إن مسّادة التي آمنوا بأنها قوتهم لم تكن، في واقع الأمر، إلا مصرعهم. فإن اختيار حالة الحصار حلاً لحالة الاغتراب عن المنطقة لا يكون في آخر الأمر إلا ضرباً من ضروب الانتحار. وعلى هذا الأساس، فإن كل انتصار إسرائيلي هو انتحار إسرائيلي في الوقت ذاته، وعقدة مسّادة هي الانتحار التاريخي البطيء، حتى لو أوهمتهم حروب رخيصة، لم يقاتل فيها العرب بأن التاريخ قابل للتعديل الخاطئ.

لقد دكت الخرافة. الخرافة دكت من أركانها في أعماق النفسية الإسرائيلية. والتجربة التاريخية على الطريقة الإسرائيلية أثبتت فداحة أخطائها. وإذا كان هذا ما حدث للنفس والخرافة، فما قيمة الحجارة القديمة التي حولوها إلى حالة نفسية وإلى عقدة؟ لم تسقط مسّادة؟ صحيح. ولكن الرمز والمعنى والأسطورة تهاوى. انكسر اليقين المطلق. وقع الشرخ بين الواقع والخرافة. تغلغل الشك بالقيم التي كانت مناقشتها محرمة. اقتنع الجسد الإسرائيلي بأنه قابل للجرح. التقى الموت بالضريبة فصارت مسّادة قابلة للكسر. ومهما تكن النتائج، مهما تكن.. فقد وقع الخلاف بين الإسرائيلي وبين قناعاته. واهتزت مسّادة من أركانها.

ماذا يعني ذلك؟

يعني، بالنسبة إليهم، أن التباهي بحالة الحصار هو مباهاة

بالجنون. ويعني أن أسئلة كثيرة.. كثيرة جداً ستضمن شرعية الطرح: هل كانت التجربة صواباً أم خطأً؟ وهل كان المؤرخون يكذبون حين قالوا أن فلسطين ليست وطن كل اليهود، وأن إقامة إسرائيل ليست حلاً للمشكلة اليهودية. سيكون بوسعنا أن نتساءل بعد مدة: أليس إصرار الصهيونية على إنشاء دولة يهودية في فلسطين رداً على الكارثة التي حلت بهم - كما يقولون - هو مواجهة كارثة بكارثة أفدح؟

هذا هو السؤال الذي كان ينبغي عليهم أن يطرحوه في يوم غفرانهم الذي صار يوم غفراننا. كان ينبغي عليهم أن يتركوا خلفهم جسراً للعودة، أن يتعلموا شيئاً من تاريخهم ومن تاريخ غيرهم. فوقعوا ضحية أنفسهم، ضحية غرورهم واستهتارهم بهذه الشعوب العربية التي أذلوها حتى القتل. لم يعرفوا أنهم - في آخر الأمر - غرباء عن المنطقة. غرباء بلا جذور. لم يحاولوا أن يقيموا جذراً حقيقياً واحداً لهم. استبدلوا الجذور بالنابالم. والنابالم لا يستطيع كسب حق في نبتة صغيرة. ليسوا أكثر من سفينة في بحر. كيف تستطيع سفينة طائشة أن تستفز البحر إلى هذا الحد؟ لقد خدعهم هدوء البحر العربي الذي تحرك الآن لمعاقبة السفينة الطائشة.

مهما تكن النتائج - مهما تكن، فإن شيئاً واحداً تاريخياً قد حدث. هو أن البحر الهادئ قد نطق حركة وفعلاً وغضباً، وأن السفينة الطائشة قد أدركت أنها تطفو على سطح ماء متحرك، وأنها هي التي اختارت أن تقطع الصلة باليابسة.

يقول البعض - من فرط الدهشة - أنها مسرحية، وأنها حرب تسوية لا حرب تحرير، وأنها مقدمة للمفاوضات مع العدو. ومهما تكن الأقوال ومهما تكن النوايا - مهما تكن، فإن بطولات

الجنود العرب واستردادهم ثقتهم بالنفس، وبرهنتهم على عمق الوطنية تمزق النص - الافتراء هواء هواء على مرتفعات الجولان وعلى رمال سيناء.

إن مرحلة بأكملها تسقط الآن، على الجانب العربي وعلى الجانب الإسرائيلي. صارت نوافذنا أوسع وتطل على عالم جديد. فمنذ أطلت فوهة المدفع العربيِ على العدو، كانت في الوقت ذاته تفتح ثغرة واسعة.. واسعة جداً في الأفق العربي المسدود، وكانت إطلالة على عالم جديد.. عالم لنا.

نحن نقاتل.. وهم يقامرون

أن تطول الحرب... أن تطول - معناه أننا قادرون على هزيمة العدو، بعدما هزمنا الهزيمة في نفوسنا منذ اللحظة التي احتكمنا فيها إلى النار.

.. النار هي القرار الوحيد الوحيد الذي يؤدي تنفيذه إلى استرجاع شرفنا الإنساني من مهانة ربع القرن.

.. النار هي المحكمة الوحيدة الوحيدة الجديرة بأن تشرع العدالة بيننا وبين مثل هذا الطراز من الأعداء.

والنار، هي التجربة الضرورية لاختبار معدن هذا الإنسان العربي، الذي لم يمارس اختباره منذ مدة طويلة فكاد يتوحد في الشك.

وأن تطول الحرب... أن تطول - معناه أن تكتمل عملية

التحقق من أصالة هذا المعدن، وأن تنضج عملية صهر الإنسان العربي في قيم مختلفة وقناعات جديدة.

نحن لا نخوض معركة من أجل انتصار سريع ورخيص، فمثل هذا الانتصار - إذا كان ممكناً - سيكون ملامساً لممارسة الجماهير وليس معجوناً ببخار دمها وتحرر إرادتها.

وأن تطول الحرب... أن تطول. معناه أن تتلاحم عمليتان تاريخيتان: انعتاق إرادة الجماهير العربية في خوض تجربتها الذاتية من ناحية، واستنزاف العدو وتقليم اظافره من ناحية اخرى.

وأن تطول الحرب... أن تطول - معناه أننا نكسب حليفاً قوياً استطاع العدو - فيما مضى - أن يجنده في قواته المقاتلة. هذا الحليف الخطير هو الزمن، الذي يدفعه طول الحرب وصمودنا من منطقة الحياد إلى الانخراط في صفوف جنودنا وشعوبنا. وفي هذه العملية، وهي بمثابة نقطة تحول هائلة - يأخذ انحياز الزمن إلى جانبنا كل الطاقات العربية المتفرجة والسلبية، يأخذها من مقاعد المتفرجين إلى منطقة البركان المشتعل، فيثبت طول الحرب.. يثبت من جديد وحدة هذه الأمة المترامية من طنجة إلى عدن، ويثبت اصالة التحام لغتها وتراثها وترابها وأحلامها.

وأن تطول الحرب... أن تطول في المكان والزمان - معناه أن نعتاد مرافقة مجرى التاريخ، وأن نعرف أن لا شعب... لا شعب عبر التاريخ قادر على الانتصار بلا تضحية وبلا ثمن، وأن المعارك لا يديرها أفراد جيوشنا الشجعان وحدهم. فلنستعدّ لاستقبال الحرب في بيوتنا، وفي أسرَّة أطفالنا، وفي مصانعنا. فهذه هي الحرب.

وأن تطول - معناه أن يأخذ الفارق التاريخي الواسع.. الواسع

جداً بين طاقاتنا وبين طاقات العدو مداه الكامل. نحن قادرون على امتصاص الخسائر وتعويضها. نحن قادرون على التكاثر. وهم عاجزون عن ذلك إذا طالت الحرب. لقد بدأوا الآن يدركون أن انتصاراتهم كانت طارئة في المقياس التاريخي، وأن قناعاتهم العنيدة ضرب من ضروب الجنون والاقتراب من الانتحار.

وأن تطول الحرب، أخيراً - معناه أننا سندرك أننا نقاتل.. نقاتل. وسيدرك الأعداء أنهم يقامرون بكل شيء حتى بالمستقبل.

وهذا هو الفارق بيننا: نحن نقاتل، وهم يقامرون.

الريح والشرارة

أصحاب الأناقة الوطنية يسألون:

أين الفلسطيني في الحرب؟

ولا يجدون من يرد على أناقة السؤال، لأن المقاوم الفلسطيني ملتحم بحوار الموت مع العدو، بعيداً عن أبصارنا ومسامعنا وآلات تصويرنا..

إنه هناك ينفجر ويفجر في أعماق العدو. ويستأنف الثورة التي لم تتوقف يوماً، ومنعت غيرها من التوقف الطويل.

في المعركة، لا يجوز الحديث إلا عن المعركة. ولهذا ينبغي الحديث عن المقاوم الفلسطيني لأنه المعركة الدائمة أمس واليوم وغداً. لأنه حاضر في كل ومضة نار، في كل رصاصة، وفي كل خطوة نحو الصراع. ولأنه غائب دائماً عن أية سكينة، وعن أية هدنة، وعن

أية مهادنة مع مصارعة العدو. لم يكف المقاوم الفلسطيني عن مناشدة الآخرين لخوض المعركة، ولم يكن خلافه مع أحد من العرب إلا بسبب اندفاعه ومحاولة دفعه الاخرين إلى فتح المعركة المنشودة.

بهذه الحرب المشتعلة الآن، يحقق الفلسطيني ذاته المتجددة. ينمي حياته التي تعرضت للاغتيال. يجسد حلمه المتوتر. يوسع دائرة الصراع مع العدو الذي لم يبدأه الآن. ومن هنا يكون حضور الفلسطيني الآن، أشد تألقاً وتوهجاً وكثافة.

في أيام الهدوء النسبي، كان الفلسطيني المقاوم هو الذي يشكل خللاً في معادلة الأمن الإسرائيلي. كان المحرض، والمقلق، والنموذج الذي حول الهزيمة إلى حافز للرفض والتصدي والتحدي بدلاً من أن تصير حالة. كان رمزاً يحمي روح الأمة من الخمول وكان واقعاً يجعلها تضغط وتعد بالتضحية من أجل هذه المعركة.

كان صغيراً ومحاصراً؟ صحيح. ولكنه كان معنى كبيراً يفتح الآفاق. وكان توتراً فاعلاً في جسد السكينة.

إن المقاوم الفلسطيني يجدد حياته في اندلاع هذه المعركة. يحظى بشروط عمل ثوري أفضل. يصير حالة شعبية عامة. يصير حليفاً لجيوش وطنية قادرة على خلق إمكانية النصر. فلا يصير قابلاً للحصار في أسوأ الحالات، وقابلاً للرثاء العاطفي في أحسن الحالات. من هنا يرحب.. يرحب بالمعركة ويخوضها بإيمان أشد. إن شرايين العرب تصب في قلبه. وهو يصب في قلوب العرب. ولا يجد نفسه الآن «مخرباً» و«مورطاً» ومتطاولاً على «ظروف غير ملائمة». فالواحد يلتحم في الكل.

وجهه لا يملأ الصورة؟ صحيح، لأن ذلك دليل على وحدة الوجه

العربي للقضية. الفلسطيني المقاوم عربي. والعربي المقاتل فلسطيني. وجوهر المعركة مع العدو - بمعناها الشامل - هو الصورة الوحيدة: أبعد من قطعة أرض. أعمق من جواز سفر. ماذا؟ هل نسينا؟.

إن الفلسطيني المقاوم، إذ يبدو أنه ضاع في الصورة، فذلك تعبير عن تعريب فلسطين وفلسطنة العروبة. والفلسطيني يسكن قبضة النار أيام الحرب وأيام اللاحرب من أجل فلسطين ومن أجل العرب. إنه منطلق كالريح الخصبة في كل بقعة أرض محتلة. منطلق كالريح في القضية.. في النفسية.. في الأيام الراكدة.. وفي الأيام العاصفة.

... إنه الشرارة التي لم تنطفئ. ويسعد الشرارة... يسعدها كثيراً أن تكبر النار المولودة وتطغى على كل شيء. ليس باستطاعة عدسة آلات التصوير التقاط صورة للريح والشرارة. ولماذا ننسى؟ لقد مزق الفلسطيني صورته منذ قرر أن يمزق جسده من أجل أن تخصب الأرض والقضية.

وهـذه الحرب عرس فلسطيني، لأنها خطوة كبيرة نحو فلسطين، لأنها تجعل فلسطين أقرب. فلماذا يطرح أصحاب الأناقة الفكرية أسئلة توحي بأن فلسطين صارت أبعد؟ لقد كان الفلسطيني المقاوم قبل هذه الحرب، ويبقى بعدها. والحرب العربية ضد العدو وضد ما يمثله هي حرب فلسطينية. والثورة الفلسطينية على العدو وعلى ما يمثله هي ثورة عربية.

ماذا أصابنا؟ الم نتفق على ألا نتحدث في المعركة إلا عن المعركة. دعوا، إذن، المقاوم الفلسطيني يستأنف حوار النار مع العدو متحداً بالمقاتلين العرب. دعوه يجدد شباب الأمل والهدف. دعوه يكمل عناق الأرض الفلسطينية والعربية، فإنه يقاتل من أجلنا جميعاً.. أمس واليوم وغداً.

الحقيبة والمفتاح

« ليتني سمعت نصيحة زوجتي، وسافرنا إلى السويد ».

هكذا قال طيار إسرائيلي أسير في دمشق.

« أين مفاتيح البيوت؟ وأين الحقائب؟ ».

هكذا تسأل، الآن، عائلات عربية كثيرة كان الموت الإسرائيلي قد أجلاها عن منازلها في سيناء وضفاف قناة السويس ومرتفعات الجولان.

إن « حرب حقائب ومفاتيح » تجري الآن، بصمت، على طرفي الصراع. تظهر نتائجها بجلاء على الجانب العربي، وتتكون مقدماتها بحياء على الجانب الإسرائيلي.

المهاجرون العرب يعودون، ويجلسون الآن على الحقائب.

والمهاجرون اليهود يفكرون، الآن أيضاً، ويعيدون النظر بمصير مهتز وبوعد قابل للخيانة.

كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي الشرط الأول لقدرة الفكرة الصهيونية على التجسد في كيان مادي. ثم صارت في الأعوام الأخيرة هي الشرط الأول لقدرة الكيان الإسرائيلي على تكريس الاحتلال والتوسع وهضم الأرض.

ومن الصعب التسليم بالرأي القائل إن الحق الإنساني في هجرة الإنسان من مكان إلى مكان ينطبق على الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ليس هذا القانون مطلقاً، لأن هذه الهجرة الصهيونية جاءت وتجيء لاجتثاث حق الإنسان الفلسطيني من مكان على سطح هذه الكرة الأرضية، ولدفعه إلى الهجرة الدائمة – من جهة. ومن جهة أخرى، فإن هذه الهجرة – في ظروف الصراع – تعتبر هجرة أمنية لتثبيت الظلم والاغتصاب. والمهاجر اليهودي الذي اختار القدوم إلى أرض فلسطين قد اختار، بمحض إرادته الحرة، أن يكون جنديا في جيش الغزاة.

والآن، تنكسر الأرض المعدة لاستيعابه. يتبخر الأمان الموعود. تسقط حماقة المقارنة الصهيونية بين النظام الاجتماعي الاشتراكي وبين النظام الرأسمالي. هنا، تطرح جملة اعتراضية هذا السؤال القاسي: كيف يضحي بعض اليهود بالحياة في ظل الاشتراكية الآمنة، من أجل الحياة في ظل الاستغلال الرأسمالي والحرب؟ كيف.. كيف يحدث هذا؟

«إما أن نتكتل نتيجة الخوف. وإما أن نتفتت من الضعف».

هكذا يقول الإسرائيليون. وها هو التكتل الذي لا مضمون له

إلا الحرب - الخوف من العرب قد تنازل الآن لمظاهر الضعف التي تظهر في القلعة الإسرائيلية. هل هي بداية التفتت؟. من السابق لأوانه أن نجيب على هذا السؤال بيقين سهل. ولكن بوسعنا أن نلاحظ بوضوح أن سقوط التوسع سيؤدي إلى سقوط الهجرة.

وأن الحرب التي كانت مرادفة للحق وتكريس الحق - في نظر الإسرائيلي - لم تعد مضمونة النصر، فوجد «الحق» الصهيوني نفسه في العراء. وصارت الهجرة إلى «أرض الميعاد» سفراً إلى الجحيم.

لقد بدأت حرب الحقائب والمفاتيح.

فهل تتيقظ الآن حاسة السخرية لدى الإسرائيلي؟ هل يقول الآن ما كان يقوله عشية الخامس من حزيران (نتيجة الأزمة الاقتصادية والتوتر الأمني) هل يقول أنه يجب أن تنصب لافتة في مطار اللد.. تحمل الرجاء التالي:

« يُرجَى من المسافر الأخير ألا ينسى إطفاء النور في المطار ».

هل يقول؟.

عالم لنا

في دخان المعارك العظيمة، تصير الرؤية أوضح،

وها نحن نرى: ليس العالم معنا، وليس العالم ضدنا. لأن العالم ليس واحداً. فماذا نعني، ماذا نعني بهذا المصطلح الغامض «الرأي العام العالمي»؟

إن شعوب الاتحاد السوفياتي قد أعطتنا الدليل على أن قضية الحرية والنهوض الإنساني واحدة. كان بوسع هذه الشعوب الأصيلة أن تعمل ساعات أقل، وأن تتمتع بحياة أكثر ترفاً، ولكنها تقاسمنا نتاج عرقها من أجل أن تصير الحرية أكبر.

هذا العالم لنا.

وإن الولايات المتحدة الأمريكية تعطي الدليل على أن قضية

العدوان واحدة، وأن قربى الدم بين الغزاة لا تنفصم. كان بوسع الولايات المتحدة أن تجعل الشعوب أقل عذاباً، ولكنها تفعل كل شيء، حتى التضحية بالأمريكيين، من أجل أن تصير الحرية أصغر.

هذا العالم ضدنا.

وفي دخان المعارك العظيمة، تصير الرؤية أوضح.

ها هي قارة باكملها تقريباً تنفض يدها الضخمة من صداقة قديمة قامت على سوء فهم. إن افريقيا التي لم تكشف عن كل خصوبتها وطهارتها حتى الآن تجعل عالمنا أوسع.

وهذا عالم لنا أيضاً.

وهؤلاء الكتاب والمثقفون والفنانون في الغرب ليسوا لوناً واحداً. ليسوا كلهم معنا، وليس كلهم ضدنا. لقد أعلن شرفاؤهم هويتهم الإنسانية ولم يكونوا محايدين تجاه معركة الحرية الساطعة التي نخوضها. وأعلن أخرون انتماءهم إلى «شرعية» الغزو الإسرائيلي، وكشفوا مخزون العنصرية التي يكنّونها ضد الشرق. بعضهم مرتزق. وبعضهم بلا ضمير. وبعضهم يعاني من فقر قضية فتزوج الصهيونية التي كانت موديلاً أدبيا شائعاً بين بعض كتاب الغرب.

والبعض الآخر يحب الشفقة. يريدنا أن نكون مادة حزن ملهمة. إنه من هواة جمع بكائيات الشعوب الشرقية. وحين تلجأ هذه الشعوب إلى استخدام العنف لترد على «حضارة العنف» تصبح خارجة عن معادلة الانسجام البشري!

هؤلاء لن يفهمونا، لأنهن لا يريدون أن يفهمونا.

وها هو العالم يعلن هويته: أصدقاء الحرية أصدقاؤنا. وأصدقاء

العنصرية أصدقاء أعدائنا. ولعل الصراع العربي - الصهيوني كان محكاً لاختبار المعادن في الغرب. حين يتطوع الكاتب لخدمة الجريمة الصهيونية يكون قد أعطى ضميره لذئب مدلل، وخان.. خان أشرف ما يعنيه الإنسان. وخان الكتابة أيضاً..

فلماذا نقلق منهم، ولماذا نلعنهم طالما أنهم خرجوا من عالم الإنسانية، لأنه عالمنا.

هزيمة العدو في ذروة انتصاره

يمكن الظن.. ويمكن القول أن بذور هزيمة العدو قد نمت في ذروة انتصاره. في معارك الخامس من حزيران. وهنالك رأي عسكري يقول ان ثمة نوعاً من الانتصارات ينتهي بالمنتصر إلى القبر.

كان انتصار إسرائيل عيثاً ثقيلاً لا تقوى أكتافها المحدودة على حمله. ولا يستطيع التطور الطبيعي لشعوب المنطقة ابتلاعه. وكان بعض المفكرين والمؤرخين يتهم باللاسامية حيناً وبالشاعرية حيناً، عندما كان يحذر الإسرائيليين – الذين لم ينتصروا ولكنهم وجدوا أنفسهم يحظون بنصر بلا جدارة – من مفعول النشوة التي تعطل عمل العقل، وتدفع المصابين بها إلى الثقة المطلقة بقدرة ذاتية طارئة بوسعها أن تبطل مفعول قوانين التطور.

وهذا ما أصابهم:

لقد تغلغلٍ في الوعي الإسرائيلي ايمان غير قابل للمناقشة بأن الأقدار تدلِّلهم. وتجسدت هذه الأقدار، في نهاية المطاف، في أنّ طائرة «الفانتوم» مثلاً - حين تحمل نجمة داود - تشكل ضمانا ابديا لأمنهم المستحيل. لقد صار الارتكاز على اجنحة هذه الأسطورة العصرية من جهة، وعلى حائط المبكى الذي يمثل حيوية الأسطورة القديمة من جهة أخرى، صار بديلاً للاحتكام إلى وسائل أخرى أكثر منطقية للبحث عن مستقبل أقل تطاولاً على تاريخ المنطقة وأقل استفزازاً لشعوبها.

استبدلوا الواقع بالخرافة..

واستبدلوا التاريخ بالسحر..

ولم يعد يهمهم، ابداً، تحقيق ما وعدوا به أنفسهم من تشكيل ذات قومية جديدة ذات تقاليد مختلفة، تشكل تفرداً في هذا الشرق المتخلف!! بدلاً من ذلك، كرّسوا كل جهودهم «ذات الطابع الغربي» لبناء حضارة العنف والارهاب، ولإعطاء التاريخ برهاناً عصرياً على بطلان مفعوله. فكثيراً ما قالوا، علانية، إن هزيمة الصليبيين في المنطقة لا ترجع إلى حتمية تاريخية تفاعلت معها إرادة شعوب المنطقة، فإن الاسرائليين إذ يتعلمون من دروس هذه التجربة، مطمئنون إلى إن هزيمة زملائهم السابقين يمكن تلافيها بالتمسك بالأسباب التي عمقت اغتراب الصليبيين عن المنطقة وسببت هزيمتهم. إن الداء نفسه يمكن أن يصير دواء في صيدلية الفلسفة الصهيونية!.

لقد ارتاح الإسرائيليون، الذين قد يعتزون باعادة روح إسبارطة إلى الحياة، إلى الثقة المطلقة بنصرهم في الخامس من حزيران، دون ان تعنيهم معرفة أن هذا النصر السريع لم يحل مشكلة واحدة

من مشاكلهم الأكثر حيوية وهو قبول شعوب المنطقة لهم، ولكنها رسخت هذه المشاكل وكرستها، ودفعت العرب إلى التفكير بتوظيف المزيد من طاقاتهم في قضية العداء لإسرائيل. وأن حصول إسرائيل على المزيد من الاراضي التي تحتاج إلى المزيد من جهد حراستها والمحافظة عليها قد ألغى «الطموح اليهودي البريء» إلى التنمية وخلق طراز حياة أوروبي في آسيا، لأن المزيد من النصر يعني المزيد من استنزاف الطاقة الاقتصادية للمحافظة على هذا النصر.

ولقد اطمأن الإسرائيليون، الذين سحرهم العثور على قبور شخصيات التوراة، إلى اليقين المطلق بأن نتائج هزيمة العرب ستكون أبدية، وأن مقدرة العرب على مجرد التفكير بمحاربة من استولوا على أوطانهم ستكون نوعاً من الانتحار الذي لا يقوى عليه العرب. وحين سئل رئيس أركان الجيش الإسرائيلي قبل الحرب: هل يستطيع أربعة ملايين يهودي المحافظة، إلى الأبد، على توازن القوى ضد مائة مليون عربي، وفي ظروف متغيرة؟ أجاب بغرور: ممكن لعدد كبير جداً من السنوات. وبعد شهرين فقط وجد القائد الإسرائيلي نفسه في مواجهة لا يعرف نهايتها.

وصدق ديان أن طلعته الشهيرة، في المجلات والصحف الغربية، مجرد طلعته المحصنة ضد سوء الطالع، كفيلة بتفتيت طاقات العرب ومواردهم ومكانتهم التاريخية وقدراتهم البشرية. ودعا، قبل الحرب أيضاً، فوجاً جديداً من ضباطه إلى تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى حدود دائمة لإسرائيل. وأكد أن الإسرائيليين يستطيعون، بقوتهم الذاتية، الاستمرار على هذا الوضع

لسنوات طويلة طويلة. وبعد شهرين فقط يجد ديان أن «معجزة» الردع الإسرائيلي معرضة للهتك.

لقد فقدوا حاسة الخوف التي كانت تشكل جوهر وجودهم. واستبدلوها بحاسة الحظ الذي لا يخالفهم. فوجدوا أنفسهم، هذه الأيام، يسددون حساب الصلافة والاستهتار بالآخرين والتطاول على التاريخ.

وعاد السؤال المحرم إلى الوجود: هل تستطيع دولة أن تنام على الحراب؟ هل تستطيع مثل هذه الدولة التي تجمع طوائف وجماعات لا توحدها إلا الحرب مع العرب.. هل تستطيع البقاء؟. كانت الحرب – وما زالت – هي المضمون الوحيد الوحيد لسعي المجتمع الإسرائيلي إلى التبلور. وكان الانتصار الابدي المضمون في هذه الحرب يشكل محور التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين. فماذا يحدث.. ماذا يحدث حين يقع خلل في هذه المعادلة – القاعدة. هل تفقد إسرائيل ضرورة بقائها وهل يفقد التجمع الإسرائيلي مبرر وجوده؟

لم يكن الغرور الإسرائيلي يتحاشى هذا السؤال وحسب. ولكن كان باحتكامه إلى العنف المسلح وإلى الخرافة الدينية المسلحة يقمع محاولة التفكير لدى الإسرائيلي. ولعل التوقف عن التفكير بالمستقبل وإعادة النظر في محالفة القدر وانحلال الحس التاريخي فيهم بعد انتصارهم في حرب حزيران هو ما نعنيه حين نقول إن بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم، الذي أدى بهم إلى احتقار الفكر والمفكرين والاستهتار بالتاريخ والمؤرخين. سخروا كثيراً من مؤرخهم البروفيسور تلمون الذي خاف انتصار 1967 «لأن القوة لا تخلق الحق». وسخروا من توينبي الذي قال ببطلان

قيام إسرائيل - في المنظور التاريخي - لأنها قامت على الظلم، ولأنها عاجزة عن تقديم حل للمسألة اليهودية، وإنما تلحق الظلم باليهود أنفسهم ليس داخل إسرائيل فحسب، بل خارجها أيضاً إذ تجعلهم مزدوجي الانتماء. وسخروا من اسحق دويتشر الذي قال إن نصر إسرائيل العسكري سيتكشف في مستقبل قريب عن أنه كان في الواقع كارثة، وبالدرجة الأولى لدولة إسرائيل نفسها. لقد شاهد دويتشر - وهو من أصل يهودي ـ : «المشاهد التي تعرضها شاشة التلفزيون.. شاهد الفاتحين وهم يعرضون صور غطرستهم وتعجرفهم ووحشيتهم ومظاهر شوفينيتهم والاحتفالات الجنونية التي أحيوها إعلاناً عن نصر بلا مجد، كان ذلك كله يتناقض تناقضاً وحشياً مع الصور التي كانت تظهر آلام العرب وأحزانهم وصفوف اللاجئين وصور الجنود المصريين الذين ماتوا عطشاً في الصحراء. وتألمت كذلك أن أرى الحاخاميين بقاماتهم العائدة للقرون الوسطى يرقصون فرحاً أمام حائط المبكى. وكان يخيل إليَّ أني أرى البلاد وقد اكتسحتها نزعة الظلامية التلمودية. ها هم اليهود اليوم يمثلون في الشرق الاوسط دور عملاء المصالح الإمبريالية، إنهم بذلك يخلقون حقد جيرانهم وكراهيتهم، هؤلاء الجيران الذي هم ضحايا الإمبريالية. وهذا بلا شك أسوأ مصير يواجهونه. أما العرب، فسيعرفون كيف يستخرجون الدرس من هزيمتهم»...

ها هم العرب يعرفون...

وها هم الإسرائيليون يحققون شيئاً واحداً: لقد حولوا الخوف المصطنع من العرب إلى خوف حقيقي. وهم حين يسعون إلى نصر جديد، فإنهم يسعون في آخر الأمر - إلى هزيمة جديدة، لأن بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم.

ثالثاً:

مَاذا فعلت بالخريف.. يا سرحان!

ثلاث بطاقات من حيفا

- 1 -

مقهى صغير على الشاطئ:

أخيراً، أقول لأمي: وجدت الفرح.

أعيد لها مناديلها لأنني لن أضيع.. لن أضيع كثيراً في هذه الأيام. فالأمهات كثيرات.

تعال يا خريف! فقد كنت أقول دائماً لأصدقائي إني أحبك. وكنت لا أعترف أمام حبيبتي ولا أُطيعها إلا في الخريف. كانت كآبتي تصغر فيك وتذبل، لأن أوراق الشجر تخفيها عني وعن عيون الحراس الذين كانوا يأتون من الأمواج.

والموج، الآن، أمامي عصافير. والغروب البرتقالي يقف على

حافة الزبد ويشرب. وأنا في المقهى أنتقي ذكرياتي كما أشاء. إنها تجلس أمامي مثل عنقود العنب. أختارها حبة حبة، وأُلقي بالفاسد منها عبر النافذة المفتوحة.

كيف تتسع النافذة الصغيرة لكل هذا الأفق الواسع، ولعيون الشهداء الكثيرة؟ أدخل أيها البحر.. أدخل صدري المثقوب بسهم الفرح القادم من أحذية الجنود المفاجئين. أدخل أيها البحر.. أدخل خيمة البدوي الذي يقف الآن على مئذنة النخيل، ويدعو العالم إلى غسل خطاياه في جراح العرب.

تعالوا أيها الشهداء، طوبى للتراب الذي تطأونه لأنه يصير بحيرة. ويصير البحر بساطاً حين تجيئون. تعالوا واستحموا في مياه فلسطين التي تتبعكم بجراحها وتقول: أُغطيكم. أدخلوا أيها الشهداء نوافذ هذا الوطن حتى تطل على الجنة. مرروا أصابعكم على أشجاره لتصير الخضرة في لون النار الاسطورية.

وأخيراً، أقول لأُمي: وجدت الفرح.

وأُتابع زيارتي لهذا المقهى الجالس على شاطئ يفصل الخريف عن سائر الفصول.

وبوسعي الآن.. بوسعي الآن أن أكتب على ورق الشجر المتناثر، لأن الريح لن تضيع رسائلي!.

- 2 -

الزنزانة

يحدث هذا.. يحدث هذا أحياناً.. يحدث هذا الآن: أن تركب حصاناً في زنزانة وتسافر.

يحدث أن: تسقط جدران الزنزانة، وتصير آفاقاً لا حدود لها:

– ماذا فعلت بالحائط؟

● أعدتُه إلى الصخور.

– وماذا فعلت بالسقف؟

● حولته إلى سرج.

– وماذا فعلت بالقيد؟

● حولته إلى قلم.

غضب السجان. وضع حداً للمناقشة. قال إنه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة.

عاد إليّ في الصباح.. وصاح:

– من أين هذا الماء؟

● من النيل؟

– من أين هذا الشجر؟

● من بساتين دمشق.

– ومن أين هذه الموسيقى؟

● من قلبي.

غضب الحارس. وضع حداً للمناقشة. قال إنه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة.

وعاد في المساء:

– من أين هذا القمر؟

● من ليالي بغداد.

– ومن أين هذا الكأس؟

● من كروم الجزائر.

– ومن أين هذه الحرية؟

● من القيد الذي وضعته أمس.

صار السجان حزيناً. ورجاني أن أمنحه حريته.

– 3 –

والشارع لي:

وغابات الصنوبر أيضاً، وحبيبتي لن تحزن.

ليست الحرب نزهة ولا احتفالا. ولكننا كنا نُقتل بلا حرب ومن قلة الحرب.

لم تبتهج أُم بولادة طفل، كما تحتفل الأرض الآن بميلاد الأمة. عشرات السنين المكبوتة تستيقظ الآن من الحرمان..

وهذا موسم الزيتون، ولا نجمع إلا شظايا القذائف وعيون الشهداء

هذا مهر الأرض التي تزف إلى الرجال.

للصخرة شكل الكمثرى ومذاق الثدي.

والآن نحصي عدد الطائرات. وغداً نيأس من إحصاء عدد البطولات، وأمواج العصافير.

والآن نحصي عدد الخطوات الباقية. إن فلسطين تتشبث

بأقدام المقاتلين. تعالوا.. تعالوا لأن انتظاري طويل، وما عاد في جسمي موضع لتلقي مزيد من سياط الشرطة.

الفتاة تنام معي في الليل، وتحاربني في الصباح لأنها تصير جندية.

والشاعرة الحسناء تبكي على قدميَّ في الليل، وتدل الشرطة على آثار قدميَّ في الصباح.

لا تصدقوا إذاعة العدو.. لا تصدقوها! إن الحرب تدور في شوارع قلبي وفي أوردتي منذ ربع قرن، ولكن الشرطة تغطي الدخان المتصاعد من جلدي.

لا تصدقوا إذاعة العدو.. لا تصدقوها! فالجنود يحرسون لساني ولكنهم لا يستطيعون حراسة قلبي. هل وصلتكم مشاعري؟ هل وصلتكم. أم ضلت الطريق. واعتقلها حرس الحدود؟

تعالوا.. تعالوا! الأرض تغلي من الشهوة، والعاشق يرسف في الاغلال!

سرحان
يحب امرأة من فرح!

● بين يوم الغفران وليلة القدر، تحول جسم سرحان إلى جزيرة.

لماذا تختفي في الأشياء؟ سألناه.

لأنني أتوحد – قال.

وأضاف: إن الطين يرتديني لأرتدي الشجر. ألم تقولوا، دائماً، أن الوطن جسد وأن الجسد وطن!

– ولماذا تأخذ شكل الجزيرة. هل تكون بلادك جزيرة بين الأوطان؟

– كانت الحروب ماء. وكنت عائماً على ثلاث حروب. وكدت أغرق ولا أصل. والآن أمد جسدي للعبور. وتنبت لي أيدٍ كثيرة كأنها شواطئ الجزر. البحارة ماهرون على ما يبدو، والآن أقترب.

● كان الحوار على رحم الحرب.

لم يكن سرحان كاملاً، لأنه لم يصل تماماً. كان سرحان يؤلف نفسه. وفي هذه السن المبكرة، كان يعترف لنا بأنه يحب.. يحب امرأة من فرح.

أين قابلتها يا سرحان؟

– في الجحيم وفي الذاكرة.. في خطيئة أُمي وأبي.

وماذا كنتما تفعلان، أنت وامرأة الفرح؟

– كنت أكتب إليها رسائل من حزن. وكنت أُهدد العالم بالاغتيال. كنت أكتب إليها رسائل، وأُثبتها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة.

– وهل وصلت؟

– لم تصل إليها. ولكنها وصلت إليَّ. رسائلي وصلت إليَّ، وهذا كان كافياً لأن أتعلم المشي إليها.

● كانت امرأة الفرح التي يحبها سرحان خارج الزنزانة، تعد شيئاً من أجل عيد متوقع. كانت تهبط من الغيم المعلق على أصابع الشجر. وكانت الصحراء كالبحر، صالحة للرؤية. وكان شعراء كثيرون، وفرسان يتذكرون فلسطين، ويدعونها لحفل الزفاف.

وكان سرحان يؤكد لنا أن امرأة الفرح ليست هي فلسطين، وإن كانت تشبهها في الحالة الوجودية وفي الوعد. وكان الناس لا يصدقون، لأن سرحان – كما يبدو لهم – ممنوع من التفريق بين المرأة والخارطة. كل ما يحبه سرحان أن يكون فلسطين.

● سألناه عن الأمر، فأكّد لنا أن الرجل لا يتزوج تراباً.

– حتى لو كان سجيناً مثلك!.

ارتبك سرحان، وصارت مشيته الرضيعة ثقيلة لأن الأسئلة كانت شاقة، فآثر الحديث عن الحرب:

– من هي عروس الحرب؟

لم نرتبك، لأننا نتقن الحوار. وأجبنا دفعة واحدة:

أن يولد شيءٌ ما، أن يولد. هذه هي عروس الحرب.

– وماذا عن الأرض؟ وماذا عن فلسطين؟.

– هذا الشيء الذي يولد هو الأهم، لأنه قادر على أي شيء.

المهم أن تكتمل الولادة، فهي قابلة الأرض وهي قابلة فلسطين.

● وفي رحم الحرب، كانت تجري العملية الكبرى. وكنا نتغير. من شكل هلامي إلى جنين. كنا نتكلم لغة واحدة. ونموت معاً بلا مناقشة. كنا نولد. وكان الحلم الذي يشبه المرض سابقاً يتحول إلى طين ونار، فنرتديه ونذهب إلى الولادة.

وفي كل حرب، كان سرحان يجهض. يكتب رسائل ويعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة. كانت رسائله تصل إليه، فيتعلم المشي من جديد، ويعود إلى رحم الولادة من جديد:

لأنني لا أُريد ولادة مشوهة.

وبين يوم الغفران وليلة القدر، تحول جسم سرحان إلى جزيرة.

قال أدونيس: لا أحد يولد إلا من رماده. وقال سرحان:

هاهو رمادي يملأ الأرض والبحر. أطلت أعشاب كثيرة على الصحراء، وعاد الأسرى.. فإلى أين أعود؟

نصف الحرب نصف ولادة.

وما زلت معلقاً على مسامير الهواء.

قلنا: لا يولد أحد إلا من رماده.

● كانت شوارع كثيرة تترنح من المفاجأة. استعدنا القدرة على المفاجأة. وكانت شفاه كثيرة تتوقف عن القبل. وكان النصف. نصف معركة. نصف هزيمة. نصف انتصار. نصف طريق. كان النصف يقسم الناس إلى نصفين. وكانت الدهشة تملأ الطقس:

نفرح.. أم نحزن؟.

إن نصف الفرح هو نصف الحزن. ونصف الموت هو نصف الحياة. فمن أين تعالج الظواهر؟

من القلب دائماً.. من المستقبل.

ويعرف سرحان أن جسمه – الجزيرة عرضة للمد والجزر دائماً. لم يحزن ولم يفرح. ولكن كثيراً من الأيدي التي نبتت في جسمه بين يوم الغفران وليلة القدر قد اختفى أو تراجع. صار صعباً عليه أن يعانق المرأة التي يحبها بيد واحدة.

نصف عناق – قلنا له لكي يبتسم.

قال: إن زنزانتي صارت أضيق. وهذا حسن. كلما ضاقت الزنزانة كلما اتسع الأفق في الخارج.. وامتد الميدان.

● تساءل متشائم: أيهما أسوأ: هذا الفجر الغامض الذي ننتظر الآن، أم ذلك الليل الواضح الساطع الذي كنا نعرف أننا نسير فيه إلى اتجاهٍ ما؟.

قال آخر: في دخان المعارك نرى أنفسنا. وفي دهاليز السلام لا نرى شيئاً.

وقال متفائل: لم نخرج بعد من الليل الساطع إلى الفجر الغامض. المعركة لم تنته.

وقال صحفي يعرف الأرقام والخسائر: لماذا نقاتل؟ أليس من أجل السلام. تقولون أن السلام هو القتال، وقد قاتلنا.

– لم يهزم العدو.

– ولم ينتصر.

– نفرح أم نحزن؟

– هل هي وجهة نظر؟ هل تنتظرون قراراً بالحزن، وقراراً بالفرح. ما هذا السؤال؟

– السلام بشع إذا كان وهماً. وفي هذه الدهاليز لا نرى شيئاً.

– والحروب لا تكون جميلة إلا إذا كانت حرية.

– أشياء كثيرة تغيرت. أشياء كثيرة. المهم والأهم هو أننا تغيرنا وتحررنا من الأسر الذي اخترناه فاستبعدنا. تغيرنا. عرفنا أنفسنا. اكتشفنا ذواتنا، وصار لنا رأي. المهم والأهم هو أننا عرفنا طريق الولادة. مشينا على شارع البداية، فمن يردنا؟

– لن نعود إلى البيت وننتظر. لن نعود، لأن البيوت أسر، والشوارع حرية. لن نعود.. لن نعود.

● حين ضاقت الزنزانة كثيراً.. أي حين صارت أقرب من الجلد إلى الدم.. حين غاصت جدرانها في دمه، كان سرحان يمشي بين الشاطئ والصحراء لملاقاة امرأة الفرح التي يحبها. وعندما يبدو أنه آخر الطريق بين الشاطئ والصحراء كان الغموض يأخذ شكل حدود. سمع سرحان صوتاً من الخلف. التفت. رأى الصوت قادماً من شرفة الزنزانة إياها.. الزنزانة التي غادرها قبل قليل. كانت امرأة الفرح تكتب رسائل إلى سرحان وتعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة. كانت الرسائل تصل إليها فتتعلم المشي إليه.

صارت امرأة الفرح حزينة. وصار سرحان يعرف من أين لا يحزن، ويختار من أين يفرح.

واصل سرحان الطريق حتى تصير جدران الزنزانة أقرب إلى دم امرأة الفرح من جلدها، تماماً كما حدث له قبل قليل.

وبين الالتفافة إلى الوراء، ومواصلة السير إلى أمام، كانت قدماه ترسمان دائرة واسعة من الماء والرمل..

.. كيف أضعت الخريف؟

● لم يتعب سرحان من الفصول، ولكنه غيَّر رأيه.

هو، لا غيره، صار يكتب يوميات. لأنه أحس فجأة أن الريح المجاورة لنافذة الزنزانة تعامل السقف بطريقة مختلفة.

سيحدث شيء ما – قال وانتظر.

اجمعوا على أنه أُصيب بالجنون. فلا بد أن تسقط أوراق الشجرة التي رآها تطلع من سقف الزنزانة:

وماذا يبقى من اليوميات يا سرحان؟

– يبقى أن الريح لا تسقط شيئاً فلا أحتاج إلى ورقة لرسم المشهد.

وصار للأيام طعم.

لكل شيء سبب، إلا هزيمة العرب.

وأضاف سرحان: هذه المرة تختلف.

● لم يكن مصاباً بالجنون، كما تصوروا. كان مصاباً بالشهور. لم يعترف، ولا مرة، بأية صفات أخرى. استجوبوه سنين، ولم يبدل كلمة في ملف التحقيق: تاريخ الولادة هو تاريخ الوفاة. ويوم الوفاة هو يوم الولادة. أيار وحزيران بداية ونهاية. نهاية وبداية.

– ولكنك تحيا. ها أنت تحيا.

● تلك خديعة.

– ولكنك تموت. ها أنت تموت.

● تلك خديعة أيضاً.

في تناوب هذين الوجهين، كان دائماً يضيع ويُضيِّع المحققين. بين الوفاة والولادة لم يحصلوا من سرحان على تشخيص ينفع. وكان يومه القادم، بالنسبة لهم، شريط تسجيل مكرراً.

واستمر التحقيق..

ولم يتعب سرحان من الفصول، ولكنه أوشك على أن يغيّر رأيه.

● وهذا ما حدث:

اختفى شارع بطوله، هذا الخريف، في شرايين ساعد. إنني أمشي من جدار الزنزانة الغربي في اتجاه الجدار الشرقي. لم اسأل نفسي كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الطويلة. إني أبدأ فلا تسألوا. إني أتصبب، فيختلط العرق بالدم وبالجهات. صارت الرؤية أقل غموضاً. وأنا أكمل النزيف والرحلة، فأُشاهد المدن لأنها اختفت في لحمي المتطاير على هذه الصحراء. إني أبدأ، فلا تسألوا. انفجرت شظايا جديدة وقديمة بجسدي، فازداد اختفاء المدن في لحمي.

لقد خرجت من الخارطة إلى الأبد وتغلغلتْ فيَّ إلى الأبد. خطوة أخرى.. خطوتان، وخرجت من طور البداية الشاق. ومن هنا، من جدار الزنزانة الغربي صار يبدو لي أنني أقترب.. أقترب، فأرى ملامح غامضة من جدار الزنزانة الشرقي. استعملوا مفكرتكم، لأنني أقترب من الهدف. إنني أرى الآن بوضوح تام، أرى الجدار الآخر.

* * *

هذا ما حدث.

● هل تمثل دوراً يا سرحان؟

سأله سجان ساذج.

– إني أقطع الرحلة

● ولماذا تسفك دمك؟

– لأرد على سؤالك، فالدم لا يمثل دوراً.

● ماذا يفعل الدم على أرض هذه الزنزانة؟

– يخلقها.

● لمن؟

– للفارق ما بيني وبينك. إني أختبر دمي. ربما يكون قد فسد. إني أختبر دمي وأخلق منه شيئاً. كان ممنوعاً من الخروج، فتمرد على جسمي.

فجأة، سقطت ورقة أخرى من شجرة السقف، لم يكن سرحان بحاجة إليها، لأنه كتب يومياته بوسيلة أخرى. غطت الورقة بقعاً من الدم على أرض الزنزانة. حاول سرحان أن يمنعها من اخفاء التجربة. ولكن الحارس أطلق الرصاص على يد سرحان.

● عَمَّ تبحث الآن؟

– عن خريف آخر. رجل أضاع خريفاً، فماذا يفعل؟

لم يردوا على سؤاله. اختفت شجرة السقف. ولم يسمع صوت الريح المجاورة لنافذة الزنزانة.

كان يسمع صوت دمه. كان يحاور دمه. ولم يكن الحوار عتاباً أو ندماً. كان لغة تميزه عن الركود المجاور.

– لم تفعل شيئاً. لم تتحرك إلا داخل الزنزانة – قال له السجان.

– لقد قطعت مسافات ولكنك لا ترى – قال سرحان.

الدم لا يمثل.

إنه يفتح طريقاً. الدم لا يمثل.

وهل يذهب سدى؟ سأله صوت.

الدم لا يذهب سدى. إنه ينجب. كل قطرة دم نطفة حياة. ستعود شجرة السقف، وتعود الريح.

ولم يتعب سرحان من الفصول. لقد أضاعه أيار وحزيران وشهور أخرى لا يذكر أسماءها، فعثر على الخريف أخيراً. كان دائماً يحب الخريف ولا يثق به. الآن يشعر أنه هو الذي أضاع الخريف. الآن يشعر أنه قادر على الامساك به.

وتحول الخريف إلى عصفور.

وكان سرحان يسأل: رجل أضاع عصفوراً، ماذا يفعل؟.

وتذكر أنه كان يمسك الخريف – العصفور بإصبعين فقط.

أين أضاع سائر الأصابع؟ لا يذكر.

كم صار يحب زنزانته، لأنها شهدت العملية كلها، ولأن الدم فيها لايضيع. وكان يحزن لسؤال مفاجئ: هل كانت الحرب عصفوراً في قبضة يد وطار في منتصف الرحلة؟.

ولم يبق من يومياته إلا ورقة واحدة: الدم لا يمثل. الدم لا يمثل!.

وداعاً أيتها الحرب
وداعاً أيها السلام

● باب واحد لأكثر من زنزانة.

أو: باب واحد لكل الزنازين.

خرج، ولم يعجبه الأفق. قال: هذا تربة المتاهة لا انعتاق الرؤية. وقف ليبحث عن شيء يرميه فيكسر به روتين هذا الأفق، فكان القمر مندمجاً. لعنه: حتى أنت يا قمر. جمع الجهات في قبضة يده، فازداد لون الأفق خطأ. حاول العودة من حيث أتى، فكان الطريق (سابقاً) مسدوداً بالأحاديث عن الحرب البعيدة.

كأنه ينزل الآن من أمه. والدهشة عيب في الخارج. قالوا: هذا واحد من أهل الكهف المنسيين. ضحكوا منه، لأنه يستعمل كلمات مهجورة، ويسأل اسئلة أسرتها الحرب. إسم وطن، على

سبيل المثال، عورة لا يكشفها المهذبون في الشارع العام. وكثير من الجنود ماذا يفعلون الآن؟ يحرسون الأخلاق مثلاً.

كأنه غضب وقال: قادم من الكهف؟ نعم. ولكنكم ذاهبون إلى الكهف. مد يده والتقط حفنة وحل، وصاح: اعتبروها سؤالي: ألعيب في الخروج من العبودية، أم في الذهاب الاختياري إلى العبودية؟. وحين دقق الخبراء والشعراء الفاشلون في ذرات السؤال قالوا: سرحان يهذي. وكانت سوق البضائع مزدحمة بالمتفرجين. وكانت الأسعار مخفضة للأبطال ذوي الحناجر المصقولة. وكان الشهداء عراياً على الرمل. وكانوا، كعادتهم، صامتين.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

قال لهم: لا تقفلوه، لأن الأفق باب شديد الإحكام. والمدى مفتاح صدئ. كان من السهل على عينيه أن تخترقا البوابة الفولاذية المغلقة، ولم تكونا قادرتين على ملاقاة هذا الأفق المعاكس: «ليس هذا بخار الدم». ملوك يخرجون من المقاعد التي كسرها الغضب [سابقاً]. ولغات مهجورة تخرج من الكتب التي أحرقها الغضب [سابقاً] وتتجول في الشوارع والإذاعة والمكاتب الرسمية. وكل شيء للبيع. وحين حاول العودة اتهموه بالبحث عن السجن الاختياري، وقالوا: هذه حرية اختيار، فأعادوه مرغماً.

– كنت أريد هذا. أنا الذي طلب. وليس هذا عقاباً!.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

هو: باب الحرية.

دوّن الجملة التالية: وداعاً أيتها الحرب! فأحس أنها جملة ناقصة. وقعت منه جملة مرادفة: وداعاً أيها الوطن!

أعجبته العبارة، ولم يفهم المعنى، فحاول أن يملأها بأي معنى.

ثبت العلاقة بين الحرب والوطن، حتى تحولت إلى هاجس. إذا ودعت شيئا فلا بد من أن تعانق شيئا آخر. وداع الحرب معناه لقاء الوطن. فهل هذا ما حدث؟

شطب ما كتب. وحاول تركيب المعادلة من جديد: وداعاً أيتها الحرب!. فإلى أين يقودني هذا الوداع؟ هل هو طريق لقاء الوطن!. إذا ودعت شيئاً كهذا فلا بد من أن تودع نفسك.

أعاد النظر: آن للفكرة أن تسكن صخرة. وآن للدم أن يتحول إلى سنبلة. آن للوطن أن يترجل عن صليبه وعن تجريدي. آن له أن يعود من رحلة القصائد والمؤتمرات والتبرعات. وآن للوطن أن يصير وطنا!. عادياً، وبسيطاً، ومملاً ككل البلدان. آن له أن يكون تقليداً يومياً، لا إبداعاً شعرياً!. وآن له أن يصير شيئاً قابلاً للملامسة.. واللعنة!.

كان الحارس نائماً. وكان حلم سرحان يتجول، حرًّا، في فضاء الزنزانة:

من أجل هذا تكون الحرب. من أجل هذا يكون الموت. ونحن لا ننفق العمر كله، ونهدر الحلم والرؤيا إلا من أجل خيبة أمل واقعية واحدة. من أجل صدمة على حجر. ومن أجل أن نعرف كل العذاب، إلا عذاب الندم. أيها الوطن المتسكع بين الحروب! لم تكن جميلاً فحسب، ولكنك كنت قاتلاً في جمالك، وجميلاً في قتلك. فماذا صرت الآن؟ لقد حملناك من أول العمر إلى كل الحروب من أجل أن تكون فنكون. فماذا صرت الآن؟ لقد نزلنا من القصيدة إلى الرضا بالخيبة من أجل أن تكون. وماذا حدث،

حين كنت – لم نكن. وحين كنا – لم تكن. وفي الحرب قلنا: تكون. وها نحن نقول للحرب: وداعاً. فماذا تكون؟.

عثر على نفسه يبكي. اختلط الدمع بالكلمات وبالحلم، فتحول الوطن، أمامه، إلى لوحة غامضة. «لم تكن واضحاً إلا في القلب أيها الوطن».

وخاطب نفسه: يا سرحان! انتظر قليلاً. إن للجنون حكمة. ولكن ليس للحكمة جنون.

وحاول أن يعدل العبارة:

وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيتها الحرية!.

أعجبه التعديل، ولم يفهم المعنى، فحاول أن يغزوه، حاول أن يغتصبه.

واكتشف العلاقة بين الحرب والحرية، حتى تحول إلى هاجس آخر. وتذكر: حين جاءت الحرب كالفرح، هكذا كتب دقيقتئذ، غاصت جدران الزنزانة في لحمه، فحمله وسار إلى الشاطئ. ورأى من بعيد شعوباً تعثر على إرادتها وطاقاتها وتسير إلى الحرب لتبدع حريتها.

وفي منتصف اقتحام الحرية، أعادوا الشعوب إلى بيوتها وأسرها. وأعادوا الحرب إلى مؤسستها. وأعادوه إلى الزنزانة. (انتهت الحرية وأعيد الناس إلى واجباتهم الوطنية).

باب واحد لأكثر من زنزانة.

ومرة ثانية، كان سرحان يصب نفسه في مأزق. «أن أبدع مأزقي بيديّ خير لي من أن يعيروني فرحا بالأجرة من أجل أن يشرعوا الخطأ».

وكانت الشجرة تخرج من سقف الزنزانة إلى سطحها. وكان، هذه المرة، لا يراها.

قال السجان: هو الحلم.. يا سرحان؟

– كلا. أين الشجرة التي كانت هنا؟

– كنتُ عائداً من الحرب اليوم. ورأيت شجرة على سطح زنزانتك. هل هي شجرتك؟

– نعم. نزلت من سقف الزنزانة أيام الحرب. ألم تراها؟

– منذ عشرين سنة وأنا حارسك، ولم أر شجراً. الشجر لا ينمو في العتمة. الشجر ينمو على السطح.

– وماذا تفعل شجرة على سطح زنزانة، ماذا تفعل؟

– تجعل المنظر أجمل.

– للمشاهدين، لا للسجناء.

– ولماذا تغضب؟

– لا أغضب. ولكنني لا أفهم. أنا أول من رأى. رأيت بالقلب والعينين. أتذكر يوم اتهمتني بالجنون حين قلت ان الإسمنت يزهر من صوت رصاصة؟.

– ذلك انتهى. فغادرتك الشجرة. هكذا تريد أن تقول؟.

هذه المرة، لم يكتب سرحان: وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيتها الشجرة!

بقي واقفاً بين الوداعين في انتظار سجان آخر يشهد أن الشجرة تدلت من سقف الزنزانة.

كان مضرجاً بالوداع والكلمات الغائبة. ليس البركان ما يهزه؛ تحركه رغبة في الاشتباك بحبيبته الزانية، ليسترد منها الكلمات التي

كوّنت مصيره. لست نادماً على شيء أيتها القديسة الزانية. ولكني أرغب في أن تبلغك انفجارات روحي. أريد أن أقشرك كلمة كلمة لتكوني عارية مني. وأريد أن أحتسي دمي الساري فيك، قطرة قطرة ليعود منك اغترابي، وتكوني معدة للسلام بدون جنيني. أعيدي إليّ عذاب اللذة الدموية التي ملأت بها أحشاءك. أعيدي إليّ ذبذبات البرق التي كنت أصبها فيك. ثم افعلي ما تشائين يا حبيبتي. لم يحبوك ولم يخرجوا من دمك. وأنا أحبك، وترفعين دمي ستائر تخفي خيانتك عن الشارع. وكم أحبك يا حبيبتي.

أطل سجانه الجديد فجأة، كأنه خارج من خلف تلك الستائر. سأله سرحان عن الحبيبة، ورجاه أن يبلغها الرسالة.

– لا أهرّب الزلزال. ولا أحمل ورقة طلاقي. قال السجان الجديد.

– حدثني عنها أرجوك. حدثني عنها.

– كانت خائفة من الشيخوخة. وانتهت الحرب. وصارت تخاف السلام.

– هل تتكلم؟

– أحيانا، في أواخر العاصفة، وفي المطر الأول. وفي مطالع الحروب تكون بكامل شهوتها.

– استعدادا للعرس، أم للهرب؟

– استعدادا للصمت. هكذا يقول الشعراء.

– وماذا تقول أنت؟

– استعدادا للخيانة.

[لو استطعت أن أملأ البلاد بالسواد
وأن أهدم الساعات من البكاء
لفعلت ذلك من أجل أن أشهد أمام منزلك
مجيء الصيف بشفاهه المحطمة
ومجيء العديد من الأشخاص متشحين بثياب ميتة] (بابلو نيرودا)

— هل يصلها دمي؟

— يصل إليها برقوق كثير. يقولون إنه هدايا آخر الشتاء.

— قل لي: هل رأيت شجرة على سطح الزنزانة وأنت قادم؟.

— نعم. وتجمع حولها الصحفيون. وقالوا إنها بشارة السلام.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

أو باب واحد لكل الزنازين.

وحاول سرحان إقناع السجان بالهرب، لأن لزنزانتيهما باباً مشتركاً.

— أين زنزانتي؟ قال السجان.

— في البيت. هل أنت حر؟

— أنا حر هنا. وهذا واجبي.

— وماذا لو هربت وحدي؟

— أطلق عليك النار.

— يحدث شيء مدهش: تختفي الشجرة عن السطح وتطلع من السقف. لا يراها الصحفيون، وتختفي البشارة.

— وتكون لي. ولا يحرسني أحد.

— وماذا لو أطلقت سراحي وتجاهلت؟

– تكون زوجتي في انتظارك. ولا يبقى لي عمل هنا. أموت من الوحدة والبطالة والتفكك.

باب واحد لزنزانة سرحان وبيت السجان.

– ألا تستطيع أن تكون حرا بلا قهري؟

– لا أستطيع، والزوجة مشتركة.

– ما كنت تقول هذا الكلام من قبل. كنت تقول اني سارق.

– الحرب.. الحرب تغير.

دوّن سرحان عبارة جديدة في السطر الواقع بين وداعين:

وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيها السلام.

أَعجبته العبارة، وأعجبه أن لها معنى لا يحتاج إلى برهان. وتأهب لحوار طويل مع النفس: سرحان.. يا سرحان! لماذا أضعت السلام؟ كان السلام أيضاً في قبضة يدك. وكانت الحبيبة في أوج الصمت. لماذا ضاع منك السلام.

لأنـي أضعت الحرب. السلام لا يولد إلا من نهاية الحرب، ولا يسكن الحالة الواقفة بين حربين. رجل أضاع سلاماً، ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟ والحرب هاجرت. أو وضعت في زنزانة يحرسها الخصمان. يحرسها الخصمان.. ماذا يفعل؟

... لا يستسلم.

تدخل السجان قائلاً: ستأخذ شيئاً يا سرحان.. ظل الشجرة الطالعة على سطح الزنزانة ستكون لك.

– فوقي ولا أراها. مني ولا أبلغها.

القلب بعيد عن العينين ولا يلتقي بهما. هل يرفض القلب العينين؟

لا أرفض.. لكني لا أضع قلبي في صدر سجاني، وأعيش بالوساطة.

شجرة الزنزانة لي. أنا أبدعتها. وهي ليست هدية. والسلام شيء آخر.

شيء آخر، ولا أحارب سدى. وليس لحرب طهارة الينابيع مثل حربي. هي حرب الحب ليكون الحب سيد الطقس والشجر. تغسلني على ضفاف الأنهار البعيدة، تمشطني، تجففني، وتطهرني. ولا أقتل الخطيئة، وأخلص نفسي والهواء من خطأ يتكاثر.

وفجأة، جاءه الوطن متعبا. تصبب الضباب من اسمه الذي يغطونه، في الخارج، كما يغطون العورة. وأطلت الحرب خلفه بادية التعب كأنها تسير إلى جنازتها، وحولها ضباط يقلدون الابطال.

قال سرحان: وداعاً أيتها الحرب!.

ثم استدار الوطن إلى الخلف كأنه خارج من فضيحة، واختفى من ثقب الباب إلى الأفق الغامض المنهمر من كل الأطراف. قال سرحان: وداعاً أيها الوطن. وبكى كصفصافة. وحين مد يده إلى صدره، أمسك دقّات القلب الباقي، فصاح: إلى اللقاء أيها الوطن. وجلس كالنسر.

يوميات يوم عربي

(هذا ما كتبه سرحان ليلة عيد ميلاده).

● شجرة تخرج من غابة.. ماذا يحدث؟

تجلس على قارعة الطريق. تكون محطة العصافير المتعبة، واستراحة المسافرين.

تبقى وحيدة ونافعة، ولا تخسر الغابة شيئاً.

كيف؟

في الغابة لا تعرف الشجرة تاريخها. هناك لا يبحث الناس عن ظل. هناك يبحثون عن بقعة شمس، لأن الغابة ليست طريقاً.

هل تفهم؟

- متى وصلت؟

● في هذا اليوم.

- وهل يعنيك هذا اليوم كثيراً، هل يعنيك؟

● نعم ولا. خرجت أمي من الغابة، تركتني هنا. بقيت مسمراً في مكاني، ومسافراً في زمان الآخرين.

- وماذا تفعل على قارعة الطريق؟

● هي الشجرة. ويعرفون أن الزنزانة بلا سقف وجدران. يعرفون أنها طريق. وهذا ما يميزها عن البيت - الغابة.

- كيف تقضي الوقت؟

● عندما يقتلون العصافير أشعر أن العصافير تطير في دمي وعندما يقطعون الأغصان، أشعر أن كلماتي بقيت بدون بقية.

- شعر؟

● لا. هذا نزيف الوحدة. وصوت المساء المبكر.

- وعندما تنشب حرب؟

● أتذكر أمي. وأبحث عنها بين الاشلاء المتزايدة، فتزداد صورتها وضوحاً وبعدا.

.. كانت تعاقبني على الشكوى عندما أحمل إليها بكائي من آخر الطريق. وكانت تعيدني إلى الساحة التي تجمعت فيها الدمعة، لأجففها هناك وأعود اليها يابساً.

- وماذا تفعل في مثل هذا اليوم؟

● ماذا يفعل شخص في يوم ميلاده؟

- إذا كان مسافراً في الصحراء، يقرأ أبياتاً من الشعر البدوي، ويحول الكآبة إلى قمر.

وإذا كان مواطناً يضع الورد على قيوده، ويرقص للحرية الواقفة خلف الباب.

وإذا كان شريداً، بحرية، يطلب من القصيدة أن تحول حريته إلى حذاء للوصول إلى وطن.

وإذا كان سجيناً، مثلك، ماذا يفعل؟

● يحصي عدد الأيام التي قضاها في السجن، وينسى الأيام الباقية. اليوم الفاصل بين الأيام الماضية في السجن وبين الأيام الباقية هو العيد.

توقع سرحان سؤالاً آخر، ولم يسمع صوتاً. كان وحيداً وكلياً في تلك اللحظة. كان يحاور نفسه ولا يبلغ الحلم ابداً. اللحظة التي ولدت فيها صنو اللحظة التي تموت فيها. والليلة.. الليلة سلمته أمه إلى سجن العمر. لم يعش كما يشاء. ولا يبدو أنه سيموت كما يشاء. «حركني الحب فصرت اتكلم». وهذا اليوم يأتي في موعده كل عام ولا يتعب. كيف عرف الموعد؟ أحس سرحان بذلك الوجع السنوي الذي لا يصدر صوتاً ولا يدوم، فعرف أنه ولد الآن. ليس التاريخ على ورقة، فالأوراق مصادرة. حك دمه وهدأ. تماما كتلك اللحظة التي يفاجئه فيها الوجع السنوي الذي لا يصدر صوتاً ولا يدوم، ليذكر حبيبته الشريرة التي اختفت في أوج اللذة.

ذهب القمر إلى البادية ليتنزه، فضاع. كيف يدون يوميات يوم عربي بلا ضجة. وهذا هو يومه الشخصي.

وذهبت الطفولة إلى البئر لتشرب، فغرقت. كيف يدوِّن يوميات يوم عربي بلا حزن. وهذا هو يومه الشخصي.

كان منذ المساء يعد السرير والقلب ويستدرج الذكريات.

لم يضيئوا له شموعاً ليعرف سني عمره. وفي الزنزانة لا يوقدون الشموع. عد أضلاعه فوجدها ناقصة. لامس دقات قلبه فوجد الشهداء هادئين. وفي الوقت المحدد، في انفجار الوجع السنوي، تبعثر الوقت والذكريات وعلى قارعة الطريق لم يتوقف المسافرون، ولم تمر العصافير. وارتفع سرحان إلى خاصرة السماء.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يقتلون العصافير

أشعر أن العصافير طائرة في دمي.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يوقفون الرياح

أحس بأن كلامي بدون بقية.

هكذا قالت الشجرة:

والربيع يشردني

خارج السنة العربية.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يصل اليوم

تبتدئ المجزرة!..

نثر سرحان حفنة من الحصى، وحاول أن يحصي خسائره. فأحس بأنه موجود. وحين أراد أن يحصي منجزاته أحس بأنه غائب.

لست مسؤولاً عن حضوري - قال - ولكنني مسؤول عن غيابي. حرك قبضة يده لتحطيم الفارق فاصطدمت بسقف الأفق، وسقط غبار كثير.

لماذا يعنيني هذا اليوم؟ ألأنه يومي الشخصي، أم لأن القمر

ذهب إلى البادية فتبنته القبيلة، وحين حاول العودة رجمته؟

● ليس لحزني مأوى. وللفرح وطن واحد.

– كيف تقتل الوقت؟

● ليس مهما أن اقتل الوقت. المهم أن أحييه.

– وتبقى مشاعاً؟

● في الغابة لا تكون الشجرة. على قارعة الطريق أفضل.

– وفي الزنزانة؟

● شارع يخرج من ضلعي – أنا أردت.

ازدحم الشارع بالمارة وكان بينهم سجانون وجدوا عملاً – صدفة. هذه هي المسافة بين المسامير والخشبة. هذه هي المسافة. وهي ليست زنزانة.

وهنا أسكن.

هذه ليست مسافة – أخطأت.

هذه برهة تتطور. هذه هي.

– وأنت؟

● أختار ميلادي. أمي هي الصدفة. وشارعي – زنزانتي – شجرتي من صنع يدي.

«يا حبيبتي

تكونين لأنك تذهبين

أحبك، لأنك الوحيدة التي تجعل التوتر مشنقة صالحة للصعود والاقامة.

دقي جرس الباب، فلن أفتح. والجنة مأوى العاجزين أو الخائفين.

أسوأ ما في النساء أنهن بطيئات في الوداع. وأنت لا تأتين. ولكنك تذهبين بسرعة تجعلني ذاهبا في الوداع القصير.

هكذا، وبك.. استطيع معايشة الوطن. التوتر أو الركود. ولا يحب الوطن الجاهز الموروث إلا الكسالى أو النساء البطيئات في الخروج من السرير والوداع.

يعدون الشرطة، ثم يبحثون لها عن وطن للعمل. هذا هو الوطن الجاهز الموروث.

وأنا انتظركما معاً، أنت والوطن الآخر. فلا تأتيا قبل الوقت ولا تذهبا بعد الوقت.

أمي هي الصدفة، الجاهز هو الصدفة. وأنتما رغبتي، وخيبتي حين تصيبني لا يصيبني الندم.

- لم تكتب يوميات اليوم العربي كما وعدت؟

● لم يبدأ، فكيف أؤرخ الغد؟

- والحرب؟

● لمن يحارب، لا لمن يخطب، لا لمن يقلد الطغاة.

- ليل وينجلي. واليوم خير من الامس.

● والغد خير من اليوم إذا عرفت. ولا يكون اليوم يوماً إلا إذا كان غداً. احذر القناعة لأنها ذل لا يفنى.

- متمرد أبداً؟

● على يومي ليكون غداً. كل ما يصل لا ينفع. الذكريات للهرب لأن بقاءها يجمدني.

- من أين جئت؟

● من حيث لا أريد أن أعود.

– والجذور؟

● هي الرحلة في الأفق، لا النوم تحت الرضا.

– وماذا علمتك الحياة؟ هكذا يسأل الصحفيون.

● أن أرفضها كما هي. أن لا أرثها. أن أبدعها. هكذا تكون صديقتي. ثم أرفضها حين تكون كما أردت، ثم أعيد إبداعها. لأن الحلم متقدم ابداً.

– وماذا يحدث.. ماذا يحدث في لقاء الوطن والحرية؟

● يبقى واحد منا هنا

– لماذا؟

● لا بد من خطأ بعد تدمير الخطيئة، لا بد من خطأ. وهذا حسن.

آه، من أول العمر.. من أول العمر الذي لا أول له، أمشي في هذه الزنزانة – المكافأة، من أجل أن أصل إلى الزنزانة – العقوبة. قد يفاجأني ميلادي بهذه الهدية المفرحة، ولكنني اكون قد انجزت.. انجزت شيئاً. وماذا تكون الحرية غير اختيار القيد!. هذا هو العمر.

لم يحص سرحان خسائره كلها، لأنها انقلبت إلى أرباح حين وجد نفسه هنا. لم يحزن إلا لسبب واحد هو: أنه في يوم ميلاده لم يكن طازجاً كما توقع. ذهب القمر إلى البادية ولم يعد، فابتكر قمره الخاص. وذهبت الطفولة إلى البئر وغرقت، فابتكر طفولته الخاصة. ولكن الحرب ذهبت إلى الحرب فغاصت في الأعداء ولم تعد إليه ليحاسبها وليحاسب نفسه فيها. هل يكفي ان تغير الحرب أعدائي لكي تغيرني؟ سؤال مر بالبال ولم يعثر على إجابة. هل يكفي أن يبكي أعدائي لأفرح؟ سؤال مر بالقلب ولم يعثر على

إجابة. وهل يكفي أن يخسر أعدائي إصبعاً من يدي المسروقة لكي أملك يدي؟ سؤال مر بالضمير واستقر.

- يا سرحان! الحرب في يوم ميلادك؟

● وهل كان لي يوم واحد خارجها!

وغنى..

هكذا قالت الشجرة:

عندما يقتلون العصافير

أشعر أن العصافير طائرة في دمي.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يوقفون الرياح

أحس بأن كلامي بدون بقية

والربيع يشردني

خارج السنة العربية

هكذا قالت الشجرة:

عندما يصل اليوم

تبتدئ المجزرة.

في الصباح، وحين مات فوج آخر من العصافير، أحس سرحان بأنه لم يكن يحتفل بيوم ميلاده. ولم يكتب إلا مقدمة صغيرة ليوميات يوم عربي قادم. كان يحتاج، على ما يبدو، إلى أن يولد كُلّ يوم لكي يصل إلى هذا اليوم.

ماذا يعنيني من عيد ميلادي؟ أن أجدد ولادتي. أن أولد دائماً.. أن يكون عمري كله لحظة واحدة في يوم عربي جديد.

بيت مسكون بالأشباح

حدث شيء كثير، وعـادوا إلى طقوس البكاء القديم. هل تغيروا؟

ولم ينس محدثي المثقل بالأمل المتجدد أن يبدي اعتزازه بتفاصيل الذكريات. نفض الغبار عن الشريان الممتد إلى يافا. وقال: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادم من هناك. لقد اشتعل الربيع في فلسطين.

ومد يده ليقلد قامة العشب الذي رآه في الأسبوع الماضي في فلسطين الحزينة. كما هي.. كما هي: بساط أخضر يطلع من السر فجأة ويتفجر برقوقاً وكل الالوان.

يصبح الرجل طفلاً، دائما، حين يقابل أمه. وهذا الرجل العائد من العودة يحدثني عنها كأنه يصلي.

لم ير فلسطين منذ عام الخروج الأول. كانت تتجدد في الحلم وتتجلى في الرؤيا. وحين رآها كانت أجمل. هجمت عليه، بكليتها، فلم يمسك بأي طرف من أطرافها. كان يصف ويتلعثم. كل حديث عن هذا الوطن تأتأة. ومن يستطيع تنظيم عواطفه لا يكون عاشقاً. يكون محترفاً.

وسرقتها – قال.

لم ينتظر سؤالنا، وتابع: أخذت أفراد العائلة، وسرنا في أزقة يافا نبحث عن بيتنا القديم. تغير شيء كثير. ولكن حاستي لم تتغير. ووجدت البيت. لم يسمح لنا سكانه الجدد بالزيارة. ودار حوار:

– هذا بيتنا. جئنا لنزوره. لا لنسكنه. فلا تخافوا.

– نحن لا نفهم شيئاً. ولا نسمح للغرباء بالدخول.

– أنتم الغرباء.

– نعرف ذلك.

– وهذا بيتنا.

– نعرف ذلك.

– نلقي عليه نظرة ونعود.

– ممنوع.

– نلتقط صورة له من الداخل ونعود إلى غربتنا.

– ممنوع.

– ما هو الحل؟

– لا حل.

وانتهى الحوار. أغلق «السكان الجدد» باب البيت بذعر واضح. وانتشر أصحاب البيت على الدرج وفي الحديقة. انصرف

بعضهم إلى التعرف على أغصان الشجر وعلى التربة السمراء. وانصرف بعضهم إلى «سرقة» البيت والحديقة بالكاميرا و«سرق» البعض حفنة تراب للذكرى والطهارة وتجديد الروح.

هم يسرقون البيت

ونحن نسرق صورته. يا للمفارقة.

ولكن، لماذا رفض «السكان الجدد» تلبية رغبة أصحاب البيت بالزيارة؟

من الصعب العثورعلى إجابة واحدة عن هذا السؤال. ثمة عوامل نفسية وسياسية تشتبك في نفسية الساكن السارق. أهمها: اختلال التوازن النفسي في شخصية السارق عندما يواجهه الضحية بالعودة. لم يكن معداً لهذه المواجهة التي تشرط نظام أمانه اليومي والتاريخي، الشخصي والقومي. فقد اعتاد أن ينسى ان نسيج وجوده يبدأ من إثم وخطيئة هنا. واعتاد أن ينسى إدراك أن تحول غربته إلى مواطنة جرى على قناعة بقاء الحاضر - الغائب (العربي) غائباً. وهذه القناعة نمت على بقاء عجز الحاضر - الغائب أبدياً. من هنا كانت طمأنينته قائمة على حساب قابل للتغيير. هذا التغيير يعيد الأسماء الحقيقية إلى الأشياء.

ما كان لهذه العملية أن تتم بدون حضور هذا الزائر - الحقيقة، الزائر - المشكلة، الزائر - المواطن، الزائر - الجوهرة. كل خلايا الصراع العربي - الإسرائيلي تتيقظ في أقصرلقاء وأقصر حوار على عتبة هذا البيت - الرمز في يافا.

هل أعطى الزمن هذا الساكن الجديد حقاً في أن يكون؟ وهل خلع الزمن هذا الحق عن المالك وحدد له مصيراً في أن لا يكون؟. أن

الزمن – بشكل مطلق – قادر على تغيير معاني الحقوق. ولكن الزمن الصهيوني هو زمن العنف. والعنف لا يمنح حقاً. ولكنه قد يساعد على تكريس الإثم إلى أن تتغير موازين العنف في الصراع فتتعرى الظاهرة الصهيونية من دعواها ويسقط غبار الدعاية عن جوهرها السافر.

هذا هو صاحب البيت. وهذا هو سارقه. فكيف يواجه السارق هذه اللحظة الحادة؟ وكيف يرد على الأسئلة الناطقة أو الصامتة؟ كيف يجالس شبحاً أو كابوساً! الآن يعرف أنه يسكن بيتاً مسكوناً بالأشباح..

بعد حرب تشرين، انهارت قاعدة مادية كبرى من أعمدة هيكل الدعاوى الصهيونية. وصارت النفسية الإسرائيلية العادية تتوقع قدوم مثل هذا الزائر – السؤال. وصارت تعرف أن الزائر ليس سائحاً فضولياً. لكل بيت صاحب. وقد اقتربت مسيرة عودة صاحب البيت خطوة واحدة. فهل يكون إغلاق الأبواب حلاً لبلوغ الحق الفلسطيني سن المشي؟ وهل يكون إغلاق الأذان حلاً للأسئلة التي تشكل بلبلة في الطمأنينة الصهيونية؟.

في مكان آخر، فتحوا الباب

قال محدثي العائد من العودة:

سرقنا صورة البيت بالكاميرا، وذهبنا نبحث عن بيت زوجتي. تغيرت أشياء كثيرة في يافا، ولكن حاستي لم تتغير، فوجدنا البيت. كان مكتظاً بعائلات يهودية من أصل بولندي. كل عائلة مكدسة في غرفة. وحبال الغسيل في كل الممرات وعلى كل الشرفات. وتساءلت هل هذه هي جنة اليهود؟ هل جاءوا وخاضوا كل هذه الحروب من أجل هذا المصير البائس؟.

استقبلنا أحد السكان المسنين بقلق وأدب. قلنا له: لا تقلق. جئنا لنلقي نظرة على بيتنا. هذا بيتنا.

قال: لا تواصلوا التفسير. فقد شعرت بذلك. كنت لاجئاً، وأفهم مشاعركم. تفضلوا.

وتحولت زوجتي إلى دموع. كانت تحمل صور أمها في يوم الزفاف، هنا.. في هذه الغرفة. وكانت في طريقها إلى البيت تتوقع أن ترى أمها العروس جالسة هنا في أوج شبابها وزينتها محاطة بالزغاريد والعطر والرقص. ولكنها وجدت هذا المأتم.

قال الشيخ اليهودي: أعرف أن هذا ليس بيتي. ولكن ما ذنبي؟. الحكومة أحضرتني إلى هنا.

الحكومة أحضرته. أعدت له هذا المصير. الحكومة قالت له: هذا بيتك الأبدي. هذا بيت إسرائيل. الحكومة قالت له: لن يعود العرب.. لن يعودوا، لأنهم غير قادرين على القتال.

صار الوعي الإسرائيلي مسدوداً. لم يصلوا إلى هذا السؤال السهل: ولنفترض.. لنفترض أن العرب صاروا قادرين على القتال. ألا يكون هذا بيتي؟ وهل اكتشف أن حقي باطل. وهل كل شيء يتوقف على أن يكون العرب عاجزين عن القتال. ماذا يحدث لو حدث العكس.

وهذا ما حدث. الان صاروا يسألون. تحولت الأرض المحتلة إلى بحر من الأسئلة: هل قطعنا كل هذا الشوط من الخداع دون أن ندري؟ والصحف الإسرائيلية، بعد حرب تشرين، مليئة بتسجيل هذه الظاهرة: طرح الأسئلة عما حدث.. وعما يحدث.. وعما سيحدث.

أكبر الأسئلة كان: «هل لنا الحق في أن نحيا في هذه البلاد».

و «هل مشروع إنشاء الدولة صحيح أم خطأ» و «الحركة الصهيونية سلبت العرب أراضيهم وبيوتهم».

أسئلة صعبة ومحيرة يطرحها الناس العاديون والشباب خاصة. أسئلة تمس قدس الأقداس الصهيونية، منها التشكك بمشروعية المشروع الصهيوني: كل ما ندعيه من حق قام على مبرر واحد هو: الانتصار. فماذا يحدث لو هزمنا مرة. الأسطورة لا تعنينا. الأسطورة تعني أجدادنا. ولم يتبق لنا إلا المبرر الثاني: الحرب. وها نحن نكتشف بأننا معرضون للهزيمة. فما الحل؟.

حدث شيء كثير، وعادوا إلى طقوس البكاء القديم، فهل تغيروا؟

رداً على صعوبة الأسئلة وخطورتها، شكلت الحكومة الإسرائيلية، لأول مرة في تاريخها، وزارة للإعلام في محاولة لمواجهة تدفق الشك الذي جرح العلاقة بين الإسرائيلي وبين «الوطن». وقال وزير الإعلام إن وزارته «ستهتم بدعم حب البلاد».

ماذا يعني أن تنصرف وزارة إلى تعليم حب البلاد؟. معناه أن كثيراً من الإسرائيليين لا يحبون «بلادهم» لأنها ليست بلادهم.

وهنا. هنا، جوهر الخلل التاريخي العميق في مجمل المشروع الصهيوني. فالصهيونية لم تستطع طيلة تجاربها وتطبيقاتها أن تخلق علاقة الحب التلقائي بين الإسرائيلي وبين البلاد التي تدعى أنها وطنه. في أول محك صعب لهذه العلاقة سقطت قشرة الحب الاصطناعي، لأن السلاح – وحده – كان هو القلب. إنها لفضيحة صهيونية أن تقام وزارة لغرس قلوب اصطناعية للإحساس بالحب بين اليهود وبين أرض فلسطين.

ما أقسى التجربة! لقد شاعت العلاقة بين اليهودي وفلسطين وانتعشت في الزمان. وها هي تجد مقتلها في المكان. لأن العلاقة بين الزمان والمكان في الوعي الصهيوني علاقة مصطنعة. من السابق لأوانه القول، ولكن يمكن التكهن بأن إنشاء المشروع الصهيوني أفدح كارثة تلحق بالروح اليهودية التي ازدهرت في الزمان. وثمة مقدمات كثيرة تدل على أن إسرائيل تهدد الإبداع اليهودي والمساهمة اليهودية في الثقافة العالمية بأقسى الخسائر.

وأن الإسرائيليين العاديين أنفسهم لا يتحدثون عن «الوطن». إنهم يتحدثون عن «المشروع» الصهيوني. وثمة فارق شديد الاتساع بين الوطن وبين المشروع. ومن أحدث علامات تفسخ العلاقة بين الإسرائيلي وبين أرض فلسطين: تشكيل حركة جديدة في تل أبيب «حركة التغيير» أسسها مجموعة من أساتذة الجامعة وأصحاب المهن الحرة. وقد قال البروفيسور امنون روبنشتاين في الاجتماع التأسيسي للحركة، نقلاً عن إحدى الصحف الإسرائيلية، إن كل شاب من خمسة شباب في إسرائيل يدرس إمكانية النزوح عن البلاد.

أن تفسخ هذه العلاقة بين الإسرائيلي وبين الأرض الفلسطينية في أول ضربة عسكرية حقيقية يكشف عن زيف هذه العلاقة من أساسها، ويعيد إلى الأشياء أسماءها الحقيقية: هذا المواطن ليس مواطناً. إنه محتل. وهذه الأرض ليست وطنه. إنها وطن الآخرين. ولكن لم يكن بوسع هذه الحقائق أن تلامس الوعي الإسرائيلي بالمحاكمة الفكرية وحدها. كان لا بد من ضرب الأساس المادي للقناعة الإسرائيلية بصواب الخطأ. كان لا بد من خدش سلاحه الذي كون قناعته.

وماذا تقول يا صديقي العائد من العودة؟

● هل كانوا هكذا قبل الحرب؟ لقد فوجئت بأنهم عاديون.. عاديون جدا. ولم أر في طول البلاد وعرضها معالم الحضارة التي يقولون إنها التحدي بيننا. ولاحظت أن حياتهم شاقة. الغلاء فاحش. التنظيم الذي يتحدثون عنه فوضى. الخطوط التليفونية شبه معطلة. وسائل المواصلات غير مريحة. و.. وأين قوتهم؟ لقد وضعوا كل قوتهم في الجيش. ووظفوا كل طاقاتهم ومواردهم في الجيش. ليسوا دولة تملك جيشاً. إنهم جيش يملك دولة. وماذا يحدث حين يهزم الجيش.. ماذا يحدث؟

– ماذا رأيت أيضا؟

● قريباً من عكا.. رأيت منزلاً عربياً مهدوماً. قالوا إن السلطات الإسرائيلية نسفته لأن فدائياً فلسطينياً مر من هناك. وقد رفعوا على أنقاض البيت لافتات، بثلاث لغات، كتب عليها: «من أجل السلام. من أجل السلام. من أجل السلام».

وقال محدثي: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادمة من هناك: ما زالت الأرض كما هي: بساط أخضر يطلع من السر فجأة، ويتفجر برقوقاً وكل الأزهار وكل الألوان.

وهي لنا.

ذاهبان إلى البحر

ما كنت أبحث عن العلاقة بين الحزن والبحر. ولكن حزيران الهزيمة كان يرسلني إلى الشاطئ، لعل الأزرق الواسع يقنعني بأن هنالك في الكون شيئاً أكبر من الحزن وأجمل.. شيئاً غير قابل للهزيمة.

في تلك الأيام العربية الفلسطينية كنت أكتب:

«الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك، وتطفئ نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة، وتتساءل: لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك.

«بمناسبة.. وبغير مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون، وهم يمزحون، وهم يتبادلون القبل، يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة حب وصفاء، فينسونك قليلاً؟. كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطئ؟ كيف؟

«تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطئ. تشرب البيرة وتصفر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظرات. تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكل وحدك. تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطئ لتنسى أن اليوم عيد وأن أهلك ينتظرونك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة «لتثبت انك موجود» فتذكر كل شيء. وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك. وتسير»..(1)

هكذا كانوا يردوننا عن شاطئ حيفا، عندما كانوا ينتصرون بلا ثمن، وعندما كنا ننهزم بدون مقابل. ولماذا البحر؟ لماذا البحر؟

والآن، ماذا يحدث في الأيام الإسرائيلية على الشاطئ ذاته؟ لعل ذلك الجندي الذي جلس على الشاطئ، وشارك في منعنا من مواصلة يومنا على البحر، هو الذي كتب بعد تشرين:

«أنا ذاهب لأتأمل البحر. وآمل في أنه ما زال كبيراً وأزرق، وحيداً ومغلوباً على أمري جئت من الصحراء. وبت أشعر بالجفاء لكل ما كان قريباً مني ذات مرة. لذلك فأنا ذاهب لأتأمل البحر. الزبد الأبيض الذي يشير إلى أطراف الموج ينبئني بأكثر من كل تصريحات القادة، العلم، الوطن، الجريدة، الإذاعة، والتلفزيون. أنا ذاهب لأتأمل البحر، وليس من يقول لي شيئاً غير الحقيقة. مطر

يسقط على الماء، ولا حاجة بي إلى البكاء. البحر دموعي.

«أنا ذاهب لأتأمل البحر. سأجلس على الرمال مرتدياً معطفاً كبيراً، ولا تترحموا علي. يكفيني ترحمي على نفسي. أما أنتم، فتستطيعون المجيء والجلوس إلى جانبي. هناك متسع للجميع على شاطئ البحر. ولكن لا تذكروا لي من مات ومن عاش، ومن غلب ومن خسر ومن صدق ومن المذنب. هذا لا يهمني بعد. وما يهمني هو أن تصدقوني هذه المرة، لأنني لم أكن أقول الصدق دائماً. وهذه المرة أقول الحقيقة: أنا ذاهب لأتأمل البحر. ولست في حاجة إلى ما ليس بحراً.

«أنا حي. لكن الذي مات فيَّ لن تعيدوه إليَّ أبداً.. أنا حي وميت في آن. وفي فمي طعم زبل الخيل المالح. وكل أصدقائي تقريباً قتلوا أو جرحوا. ولاشيء يهمني أقل مما إذا كنا انتصرنا أو خسرنا. أنا لا أُريد أن أسمع النتائج. حياتي ليست كرة قدم. والآن أنا ذاهب لأتأمل البحر.. أنا حي، ولكن الذي مات فيَّ لن تستطيعوا إعادته إلى الأبد».(2)

ما الذي مات في هذا الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين وعاصر أربع حروب؟

إن الذي مات فيه هو الذي عاش في الشاب العربي الذي لم يبلغ الثلاثين وتلقى ثلاث هزائم.

إن هذين الشابين، في ذهابهما إلى المعركة، كانا يفترقان في لحظة المواجهة. مهما تكن نتائجها: كان الصهيوني يندفع نحو الماضي. في أوج انتصاره كان يندفع نحو الماضي.

وكان العربي يسير نحو المستقبل. في قاع هزيمته كان يصعد إلى المستقبل.

كان الصهيوني، المدجج بالنصر والسلاح، يندمج بالانتحار وهو لا يدري. وكان العربي، المقهور حتى العظم، يعيد صياغة ذاته وهو يدري.

في الحرب، التي أرادها الصهيوني التحدي الجوهري لجدارة أحد الطرفين، قامر بكل شيء لأن أي موت يلحقه فيها هو موت كلي. والموت العربي لا يكون إلا جزئياً. ومن هنا لم يكن العربي مقامراً. في أية حرب من هذا النوع يكسب العربي ذاته ويحيي الأطراف الميتة فيه. وكانت الحرب الأخيرة برهاناً على أن التحدي الوحيد الذي حددته الصهيونية لنفسها وللعرب كان قبراً لها. وأن أهم ما فعلته هذه الحرب هو أنها قتلت حرب حزيران، مرة واحدة، في التكوين الإسرائيلي وفي التكوين العربي على السواء. وأن التقاء هذا الفارق عند لحظة واحدة هو افتراقه التاريخي الحاد على مستوى الحاضر والمستقبل معاً.

كانت حرب حزيران هي الضحية الأولى لحرب تشرين. لقد فجع الإسرائيليون بسقوط حزيران. وانعتق العرب بزوال كابوسه.

هذا ما مات في نفسية الشاب الإسرائيلي.

وهذا ما عاش في نفسية الشاب العربي.

الآن، يذهب الإسرائيلي إلى البحرليسأل هذه الأسئلة التي تأخر كثيراً في طرحها:

«أنَّ عليك أن تذهب إلى الحكومة وإلى القادة وإلى الكنيست، لتشير إليهم باصبعك: كذبتم عليّ! إننا نسقط فقط بين كراسيكم. نسقط بين كراسيكم.

«الأمن كان العجل الذهبي. كلهم قالوا لا داعي للقلق، لأن عندنا جيشاً قوياً ومليون فانتوم. تكلموا عن أشياء كثيرة محررة (المناطق المحتلة) لا يمكن إرجاعها.

«بعد حرب الأيام الستة بدأت كبرى حفلات العالم. شعب إسرائيل لم يكن قط ملتفاً هكذا حول «الأنا». الجنرالات الذين كانوا، ذات مرة، يجوبون الحقول وهم يرتدون البنطلونات القصيرة بأرجلهم المغطاة بالشعر، بدأوا يدخنون السيجار ويقيمون حفلات السلام إلى ساعات الفجر. والجنود - الخدم يرتبون لهم الموائد. وإذا اندلعت الحرب مرة ثانية؟ كانوا يقولون: سنكسر عظامهم. سنقضي عليهم.

«الأعمال مزدهرة. الصناعة والبناء ينموان بصورة عجيبة. مقاولون أغنياء يشترون أرضاً للبناء في أمكنة سقط فيها شباب أمس. يشترون القطعة التي سقط فيها أعز أصدقائي بعشرين الفاً. ووحدهم الجنود الذين عادوا إلى بيوتهم لم يكن لهم بيت، لأن أسعار الشقق ارتفعت إلى درجة أن سماسرة الحرب فقط هم الذين يستطيعون اقتناءها. وما كنت أعلم أننا حاربنا من أجل المقاولين. افتتحوا الكثير من المطاعم الفاخرة، يلتهم فيها موظفو الحكومة وجنرالات الجيش أطايب البحر المتوسط. والدولة، اي أنا وأنت ندفع الحساب كله.

«يقولون لك، بسهولة، كلمات لا يستطيعون تفسيرها. وعليك أن تقاتل من أجلها، ربما تموت من أجل شيء لا تفهمه أبداً.

«أصدقائي يرقدون الآن في المستشفى، من دون أيدٍ وأرجل. وهناك من فقد عقله. هل هذا هو السلام الذي وعدتموهم به.

«أنا ابن ست وعشرين سنة. لي ولدان. وليس عندي بيت. الأمن والسلام شيئان رائعان أكيداً. لكن حياتي أهم بالنسبة لي

من كلامكم. وعندما أُقاتل أريد أن أعرف بالضبط من أجل ماذا أُقاتل. فإن كان السلام، فأي سلام بالضبط؟ هل هو سلام الاشهر الثلاثة؟ حتى يُجند إبني في الجيش ويحارب من أجل السلام ذاته. ان سلامي وأمني هما أن أعيش أكثر قدر الامكان».

لقد ماتت أشياء كثيرة في هذا الشاب (ابن شقيقة موشيه ديان). كان لا بد من موتها لكي يصبح قادراً على إحياء مثل هذه الأسئلة، ولكي يصبح قادراً على التفكير والاحتجاج على الذين يربونه للموت من أجل مقاعدهم «هذه هي موهبتهم الأساسية: احتلال الكراسي. هل هذا فريق اللصوص؟ وأية علاقة لهم بي؟ إن أصغرهم سناً يمكن أن يكون جدتي. وهم لا يتكلمون لغتي، ولا يهمهم ما يهمني». هل تجر هذه الأسئلة من الشاب الإسرائيلي الغاضب على قادته تساؤلاً منا حول اندلاع صراع الأجيال في المجتمع الإسرائيلي الذي يتكلم فيه الجيل القديم لغة لا يفهمها الجيل الجديد؟ ربما.

لقد سقطت الاجابات الصهيونية التقليدية التي قدمها الجيل القديم عن الأسئلة المصيرية فيما يتعلق بالصراع العربي – الإسرائيلي المزمن. «لماذا لا تتكلمون معهم أو تعملون شيئاً ما؟ دعك من هذا. إنك لا تفهم أنهم عرب وأن لهم عقلية اخرى. ونحن. أليست لنا عقلية؟ اغلق فاك ونم مع البندقية». هذا هو الجواب الجاهز الذي يُقمع به كل تساؤل، عندما كانت البندقية تقتل العربي وتؤمن النصر الدائم للإسرائيلي. فبماذا يجيبون الآن بعدما صارت البندقية تقتل الإسرائيلي أيضاً؟.

إن شرخاً كبيراً حدث في بنية القناعات الإسرائيلية. وحين استقالت غولده مئير لم تكن تودع حكومتها بقدر ما كانت تودع

عقلية جيلها التي قادت الإسرائيليين إلى أربع حروب في ربع قرن. فهل يقتنع الإسرائيليون بفشل هذه العقلية؟ وهل يستبدلونها بعقلية أخرى أم يحتاجون إلى حرب خامسة ليقتنعوا ببديهيات. والجيل الشاب حين يوصل ممثليه إلى السلطة، هل يكرر الأخطاء المميتة التي ارتكبها الجيل الذي يشكوه الآن؟ وكيف يواجه المأزق التاريخي؟ أسئلة.. أسئلة.. أسئلة، تختصر بسؤال واحد: ماذا استفاد الإسرائيلي العادي من إقامة هذه الدولة؟ ماذا أعطته غير الحروب!.

لقد مات شيء كثير في القلب الإسرائيلي الشاب.. مات شيء كثير.. «رأيت شباباً يموتون، ولا أحد منهم صرخ قبل أن يسقط.

«ما أجمل الموت في سبيل الوطن» أو «يعيش السلام والأمن». لقد بكوا كالأطفال، دون أن يعرفوا إذا ما كانوا حققوا السلام والأمن». لقد وقع الخلاف بينهم وبين «الوطن» الذي سرقوه من شعب آخر. وحين يموت المرء، دون أن يعرف لماذا يموت، أو حين يعرف أنه يموت من أجل سرقة، فإن موته يكون بلا مجد وبلا شهية. هذا ما مات فيهم. وهذا ما ازدهر في نفسية الشاب الفلسطيني العربي الذي يذهب إلى الموت كما يذهب إلى الزفاف. وهذا هو الفارق الشاسع بين موتين.

الإسرائيلي يقول: «لا أحد منا صرخ، قبل أن يسقط: ما أجمل الموت في سبيل الوطن».

والفلسطيني يكتب قبل ذهابه إلى الموت: «ما أجمل طعم الموت عندما يمتزج بالأرض. نموت اليوم ليس هرباً من الحياة وليس يأساً. الموت في سبيل الهدف.. الموت رائع. إنني أشعر

بثقل المخيمات ينزاح عن صدري، ووحول الأزقة تتحول إلى طرق واسعة معبدة في وجه الشمس».(3)

لقد مات «الوطن» فيهم، لأنه وطن خطيئة. وعاش فينا لأنه وطننا. أكان لا بد من حروب ليفهموا العلاقة بين الحزن والبحر. وليروا المسافة بين الحرب والبحر، أكان لا بد من حروب كثيرة لكي يعرفوا أنهم يموتون لتحيا كراسي الجنرالات، وتزداد أرباح المقاولين، ويبقوا هم بعيداً عن المائدة.. وعن الاحتفال.. وعن السلام.. وعن العرب.

أكان لا بد من حروب كثيرة؟

لا. كان لا بد من نصر عربي، لكي يذهبوا إلى البحر للتأمل والتفكير. وما زال البحر أزرق. كبيراً وأزرق. عربياً.. وأزرق.

1. من كتاب «يوميات الحزن العادي» للكاتب.
2. من كتاب «التقصير» لكتّاب إسرائيليين.
3. من رسالة فدائي قبل استشهاده.

الشهداء يطلبون دمهم إذا ضاع في النفط

– متى عدتَ من الحرب؟

● لم أذهب اليها. هي التي جاءت إليَّ وعادت.

– وماذا فعلت بها؟

● انخرطت. وكنت أستدرج وعدين: أن أختبر معدني. وأن أصير حراً.

– وكانت خديعة؟

● كلا. الحرب كالحصان لا تخدع.

– وماذا كانت النتيجة؟

● فاز معدني الذي صرت أعرف الآن أنه كنز. وظلت حريتي ناقصة.

– وماذا تفعل الآن، تنتظر؟

● أكتب شعراً.. وأتحرر.

* * *

في الوقت الذي كان فيه «سرحان» يفتتح محاولة حياة جديدة، بالشعر، داخل زنزانة العمر، كان كثيرون من الكتّاب في الخارج يطرحون على مواهبهم هذا السؤال:

نكتب.. أم لا نكتب؟

كانت موجة إعلان الالحاد الشائعة بكثير من القناعات والقيم تصل إلى حد المطالبة بإعلان العصيان الأدبي. ضد من؟ لا أحد يجرؤ على القول. ووصلت عدوى الشك إلى جدوى الكتابة. وبطريقة تفتقر إلى القليل من الحياء، أخذوا يتساءلون:

أيهما أجدى، الرصاصة أم الكلمة؟

وكان أصحاب السؤال لا يعرفون أن إعلان هذه المبارزة المفتعلة لا ينضح بفقر القضية فقط، وإنما يجرد كلا من الرصاصة والكلمة من مسؤوليتهما المشتركة وتآلفهما في القضية الواحدة.

أن يُسأل هذا السؤال معناه أن الكُتّاب أو الكاتبين يكشفون عن مدى ما يكنونه من احتقار خفي لطبيعتهم، ومعناه أنهم يعلنون الاعتراف المهذب بممارسة الكذب على الكلمة والرصاصة معا. ما أبعدهم عن الحرية المتحركة. يجب أن تنتهي مطاردة الغزال السابح في بياض الغموض بمقتله حتى يأخذوا موقفاً.

وأن تسأل نفسك: أكتب أم لا أكتب؟ يستدعي أن توجِّه إلى النفس ذاتها سؤالا مشابها: أتنفس أم لا أتنفس؟

بدلاً من ذلك، ينبغي أن يُطرح سؤال أكثر جدوى: أكذب أم لا أكذب؟ أقتحم أم أتراجع؟ لماذا يهربون من مواجهة المسألة على هذا النحو. وكيف توجه الرصاصة؟ إلى أي هدف، وإلى أي تناقض؟ سؤال أجدى بكثير من الإجابة على سؤال لا ينبغي أن يطرح عن أيهما أجدى الرصاصة أم الكلمة.

إن من يتعامل مع صراع الموت والحياة بهذه الطريقة يعترف بأنه دفع كثيراً من الشباب، الذين صدقوا الكلمة، إلى الموت المجاني، لأنهم استجابوا إلى مزاج كاتب كان يمزح أو يتسلى. وهي خطيئة لا يُكفَّر عنها بالإعلان عن إفلاس الكلمة، بل بتعميق مسؤوليتها.

* * *

وقف اطلاق النار – وقف الكتابة. الا تكتبون إلا في الحروب؟ كان «سرحان» يسألنا، ويسجل ملاحظة: الكتابة هي النار الدائمة، وهي لا تخمد.

لم يقطع حوارنا السجان الذي كان يرابط عند النافذة، ويسد وجه الشجرة الوحيدة.

– هل ألفت الزنزانة يا «سرحان»؟

● كلا. ولكنها أوسع مما تتصورون. فهي تقول لي ان ثمة حرية في العالم. ومن هنا، فهي الجانب الحر من العبودية، لأن زنزانتي خارجي. وأنتم، تحملون زنزانتكم في قلوبكم حين تسرحون في الشوارع والورق.

– ماذا تعني؟

● أعني أن حريتكم هي اختيار الجانب العبودي من الحرية. هل نقتحم المقارنة؟

– بيننا وبينك؟

● أقصد بين حالتين، بين رؤيتين. اني أراكم لأنكم لا ترونني. وإني أعرف ماذا أريد. وأنتم ماذا تريدون؟

– حدثنا عن الحرب، هل فعلت شيئاً؟

● قلت لكم إنها جاءت إليَّ وعادت، تماماً مثلكم، ولم أذهب اليها. متى تعودون؟

أقصد.. إلى الكتابة متى تعودون؟

– حين نعرف ما يجري.

● متى تعرفون؟ متى تتوقعون أن تعرفوا؟

– الدنيا آخر ليل. وعما قليل، يظهر خيط السلام من خيط الحرب.

● وهل أنتم خارج الليل. هل تتفرجون؟ ألا تمسكون طرفاً ورؤيا؟ لقد قادتني قصائدكم إلى حريتي المتجسدة بهذه الجدران، وكنت شديد الفرح والحيوية. والان تستفتون مادة تجاربكم، تأخذون منها الحكمة. يا للعار!

* * *

نعم. فجأة عثر كثيرون من الكتاب على أنفسهم خارج الليل. لقد راهنوا على رصاصة. حين انطلقت فاجأتهم بأنها شكّلت مفترق طرق محيراً. نكتب أم لا نكتب؟ عم نكتب؟ وماذا نكتب؟ اسئلة تنطوي على ما هو أخطر من بؤس الأدب. كانت القصائد تعاتب القذائف التي تأخرت. وكان الركود تربة خصبة لتسابق شعراء على إهانة الأمة. وحين اندلعت النار أصابت الهزيمة هذه

النفسية، وحين خمدت النار ثانية عادت تلك النفسية ذاتها إلى البرهنة على صحة تدهورها. كم من شاعر راهن على عقم روح الأمة. كم من شاعر! وكم من شاعر راهن على اشتباك عسكري. كم من شاعر! وسنهدر كثيراً من الحبر والورق سدى ونحن نضع الحواجز الفولاذية، بين مرحلة ومرحلة. لانطلاق البارود شعراء، ولسكوت النار شعراء لحزيران شعر، ولتشرين شعر.

لماذا يموت أدب بكامله بعد معركة عسكرية واحدة؟ لأنه ليس أدباً، لأنه مخاطبة غرائز، لا التحام بحركة تاريخ وروح أمة وعلاقة بمستقبل. كيف نشهد الان شبه إجماع على أن أدب ما بعد هزيمة حزيران قد سقط؟ الأنه تهويمات مزاج، ام لأن معركة عسكرية في تشرين عادت بنتائج أفضل؟ كلا السؤالين واحد، لأن معايير الأدب صارت تأتي من توقيت انطلاق رصاصة. وماذا لو حررنا الأرض المحتلة. ماذا لو حررنا فلسطين، هل ينتهي الادب العربي الحديث؟.

لعل أشد ما يحمله كثير من نتاج الأدب العربي بعد حزيران من أمراض هو أنه أدب تعليقات على الأخبار. إنه ينسخ ولا يخلق. يصور ولا يبدع. يطفو ولا يرسخ. يقوم على ظرف جغرافي لا ظرف تاريخي. يأتي من الذكريات لا من المستقبل. انه تعبير.. تعبير فقط عن ردود فعل آلية. وبالتقاطه اللحظة الشعرية يتعامل مع التناقض الحقيقي بسطحية سهلة. ولا يحاول إعادة ترميم الحلم العظيم. يستبدل الحلم بالكابوس. لم يعد للأدب وظيفة، ولكنه صار الوظيفة التي تعجز، بتعاملها مع الحدث، عن خلق قيمة إنسانية قادرة على البقاء. إنه كتابة شيئية.

* * *

● ولماذا تضعون خطاً فاصلاً ما بين حزيران وأيار، ثم تضعون خطاً فاصلاً ما بين حزيران وتشرين؟. ولماذا تحاكمون كل ما سبق؟ لماذا تعلنون براءة الخطأ؟

لم نرد على سؤال سرحان، فتابع: هل انتهت الأسباب التي أدت إلى الكارثة؟ هل انهار نظام القيم القديم؟ هل طهرت بُنية مجتمعاتنا؟ لماذا لا تعلنون الإلحاد بالخطأ الذي ما زال سائداً. انكم لم تعلنوا الكفر الا بأثمن ما في هذه الأمة: إنسانها وتاريخها؟ إن الذين يستحقون المحاكمة هم كلاب الحراسة الذين يعيدون ترميم نظام القيم القديم ذاته، والذين يجهدون في البرهنة على أن شيئاً لم يحدث. لم يحدث شيء. وإن حزيران كان طارئاً. هل خرج منا حزيران، وهل صار ورقة في روزنامة ننتزعها ونرميها في سلة المهملات. إن من مصادر سعادة الإنسان قدرته على النسيان. ولكن لماذا نكون سعداء إلى هذا الحد بتكريس الخطأ. والدم الغزير الغزير الذي سال لا يعيد الحياة إلى الشجر القديم الفاسد، ولكنه يخصب الأرض الجديدة.

– ولماذا فرحت بالحرب الأخيرة يا «سرحان»؟

● لأنها اختبرت أثمن ما في هذه الأمة، وأثبتت أنه صالح.

– الدم أم النفط؟

● المدافعون عن ضرورة نسيان حزيران وأصحاب حزيران ذاتهم هم الذين يشيعون الآن أن النفط بطل الحرب. لا، ليس النفط بطل الحرب. لا، ليس النفط بطل الحرب. الدم هو البطل.

– ولكننا خسرنا مزيداً من الأرض.

● وربحنا مزيداً من الإيمان بطاقة التحول فينا. صرنا نعرف أن العيب لا يأتي من هذه الطاقة الإنسانية. العيب فوق.. في

السقف. لقد ازداد وضوح التناقض. والعيب في السقف.

هنا، قطع السجان الحوار. كان السجان مكلفاً بحراسة حزيران. وضع قامته الضخمة بيننا وبين صوت «سرحان». صار سرحان يشبه فارساً في زنزانة تشبه غابة.

وكنا على مقاعد الزوار القريبة من الشاطئ نشبه أسرى لا يعرفون من أسرهم. وكانت المسافة بين الشاطئ والسجن تضيق تضيق وتتحول إلى زنار حول الخاصرة، ثم إلى قيد حول الزندين.

وعاد إلينا صوت سرحان: ان تكفروا بالكتابة معناه أن الهزيمة كاملة، وأن الحرب نزهة للفرسان على شاشة بيضاء.

– حجر وقع من فوق ولم يرتطم بالأرض هذه هي حالتنا. لا هو نصر ولا هو هزيمة. الحجر لا يصعد إلى فوق. والأرض يحتلها الغزاة. فكيف نراه؟

● وضعوا الكم عيونهم. هذا صحيح. ولكن الفن يرى بشكل أفضل. الفن يخترق، لأن العيون في القلب. والشهداء يعلنون العصيان إذا استمر الخطأ. الشهداء يطالبون بدمهم إذا ضاع، من جديد، في النفط.

اذهبوا إلى فلسطين. ولكن لا تهربوا إلى فلسطين.

– ماذا تعني؟

● الذهاب إلى فلسطين ثورة وحلم أمة. والهروب إلى فلسطين تجريد وذريعة. فلسطين ليست جغرافياً فحسب. إنها عافية تاريخ. وحيوية ثورة، ومحالفة مستقبل. والهروب إلى فلسطين استعادة ذكريات وبكائيات عاطلة عن الفعل.

– ولكنها ابتعدت قليلاً؟

● لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا البعد يقربنا من الثورة أكثر، فتلد الحرب مولودها المنتظر، ويصير الفارق بين الخطأ والصواب أوسع.

آه، فلسطين! لا تكونين إلا ثورة. في الأمام وفي الوراء. في الحرب وفي السلام لا تكونين إلا ثورة.

الإنسان. الثورة. فلسطين.

وأطل «سرحان» من نافذة الزنزانة، ورآنا نختفي في الشاطئ، كأنه حرّ يودع أسرى عادوا إلى ثلاث كلمات هي مفتاح الافق العربي كله.

قال أحدنا: أن نكتب معناه إننا قادمون لتونا إلى الحياة. معناه أن نتجدد، معناه أن نفرح بالقدرة على دهشة افتتاح العالم. معناه أن نحيا، معناه أن نثور.

ولم يكن سرحان سجيناً كما تصورنا. كان يطل على الحرية.

هند تخربش على الجيتارة!!

(صلوات ليلة العام الجديد)

لأنبيائها وشعبها

● في أوج الموت تعطينا ميلاداً، فيكون الفرح أكثر من رمز وخلاصة. يكون بلاداً.

وفي أوج الحروب تعطينا سلاماً، فيكون الأمل أكثر من حافز ومعنى. يكون بلاداً.

وفي أوج العذاب تعطينا نشوة، فيكون الرجاء أكثر من صلاة. يكون بلاداً.

«هي» لا تكون ذاتها إلا خارج ذاتها.

كأنها خصصت للنبوءة. وكأن النبوءة لا ترتدي غيرها.

«هي» العالم.

والعالم ليس «هي».

تخرج منها الشرارة لتضيء خارجها. وتبقى «هي»، لا تبقى إلا في العتمة.

إنها تعيسة كالنار والأنبياء. سعيدة مثل لاشيء.

لم يخرج يسوع من أحد مذاودها ليحررها. خرج منها لتحرير العالم.

ولم يُحدَّد ميعاد محمد الوحيد لمقابلة الله إلا فيها، لتحرير العالم أيضاً.

واليوم، يركض أبناؤها خلف دمائهم في اتجاهها فيجدون أنفسهم خارجها.

«هي» لا تكون ذاتها إلا خارج ذاتها.

وهم لا يجدون ذواتهم إلا داخلها.

وإن قابلة الحرية والعدالة والسلام، في أشرف دور في التاريخ، لا تعرف الحرية ولا العدالة ولا السلام. لقد صدَّرتها إلى العالم. ولم تأخذ إلا العبودية والظلم والحروب.

يا فلسطين! إلى متى تدفعين من أجل ولادة متجددة، وأنت خارج الولادة؟. إلى متى تلدين لغيرك؟. ألانَّ العالم ينسى ويذكرك اليوم، ألانَّ العالم يحتاج!.

هذا اليوم يكفيها. يكفيها هذا اليوم الواحد لأنه يعادل تاريخ الأرض ماذا يبقى من التكوين غير هذا المعنى، ماذا يبقى؟.

اليوم، ينكسر العالم المدجج أمام غصن زيتون.

اليوم، ينحني العالم الطاغوت أمام كلمات دعوة.

اليوم، يقف العالم الغني فقيراً فقيراً أمام عبارة حب.

وغداً، يمضي وينسى.

ونحن، نبقى كما كنا: نمتشق هذا اليوم،

هذا اليوم الأبـدي بندقية وبنفسجة، ونواصل المحاولة: أن تجد فلسطين ذاتها داخل ذاتها. لتكون أرض الحرية حرة. ولتحظى أرض العدالة بالعدل. ولتمتع أرض السلام بالسلام..

نمتشق هذا اليوم ليكون نطفة السنة كلها، نطفة الدهر كله: بندقية وبنفسجة، لكي لا تبقى فلسطين كتاب المعاني العظيمة فقط. ولتصبح تجسيد هذه المعاني. وليكون التاريخ أكثر من وقفة احتفال. ليكون تواصلاً وديمومة. ولتصير الشجرة جسما يضاف إلى الفكرة. لتصير الشجرة شجرة.

نمتشق هذا اليوم بندقية وبنفسجة، لكي لا يكون جمال فلسطين معذباً لأبنائها ومبهجاً لسياحها، ليصير دهشة الجميع.

وكي لا تبقى الأرض نقيض الحلم.

ليتزوج الحلم الأرض.

لتصير فلسطين وطن الناس والمعاني، لا رمزاً ملهماً بلا ناس.

نمتشق هذا اليوم لكي تتسع المسافة بين ظهر المسيح وصدر صليبه، لتصير المسامير قناطر. من هناك نعبر.. من المسافة الضيقة إلى الأرض الرحبة. ونبني على صخرة محمد علم الغضب.. غضب الأم على سارقي أطفالها المعذبين.

نمتشق هذا اليوم، بندقية وبنفسجة، لتكون الأم عظيمة بحرية أبنائها لا بتشردهم.

وتكون فلسطين براءة العالم وهي حرة.

وطفولة العالم وهي حرة.

وبكارة العالم وهي حرة.

لتكون فلسطين وطن أنبيائها وشعبها معاً.

الميلاد وحارس الوهم

● هذا الحارس الذي يشهر سلاحه في وجه المهد، الليلة، بماذا يفكر!

وهؤلاء الجنود الغزاة المنتشرون على آثار خطى المسيح، طفلاً وشاباً ونوراً، عَمَّ يبحثون!

من أين جاءوا؟ وأهم من ذلك: إلى أين هم ذاهبون؟.

دعوهم واقفين، لان في وقفتهم عموداً من الملح.

ماذا تعلموا ليذوقوا نكهة التوبة؟

لا شيء إلا قدرة الرصاصة على قتل المدى والكلمات. لم يقتلوا إلا مداهم. وما زالوا واقفين.

وتكون الأرض الحزينة، حتى الفرح، كما هي.

ليس بوسع غزاة التاريخ كلهم أن يمنعوا هذا الميلاد.

– كم مرة ولد هذا الطفل الفلسطيني، ألا يكفي؟

● ملايين المرات. في كل لحظة يولد.

– ولماذا يشعل العالم كل هذه الشموع؟

● إن نوره يأتي إلى الشموع ويشعلها. يأتي وحده.

– من أين هذه الشموع؟

● الدمعة الفلسطينية لا تضيع.

– وما شأن العالم؟

● إنه ابن العالم.

– هل كان فلسطينياً وعالمياً إلى هذا الحد؟

- كان فلسطينياً وعالمياً إلى درجة الصلب.

تدق الأجراس في لحظة واحدة. يبدأ جرس واحد في بيت لحم، فتصير أصوات الدنيا متشابهة وواحدة. لقد ولد الطفل الفلسطيني من جديد. والجنود يشهرون سلاحهم في وجه الصوت والصدى. ليس ضد فلسطين وحدها. ضد العالم بأسره. وإن هذا الحارس، إذ يتربص بلحظة الميلاد، يتربص بضمير الإنسانية كلها.

قولوا له أن نهر الأردن لا يرتد.

وليست ثروة فلسطين برتقالاً وضحايا. هي أغنى من ذلك. إنها صميم العالم والمعاني التي هذبت البشرية.

حدِّق في الماء والطين: إنها رحم الحرية والعدل. وإن من يعنيه التعرف على جذور الإنسان فيه ليس بقادر على الراحة ما دام المصير الفلسطيني الحاضر بعيداً عن الهدايا والنعم التي قدمتها فلسطين إلى العالم.

هذه الأرض الرائدة ليست محطة لتصدير القيم والأنبياء فحسب. ان الكفاح من أجل أن يكون مصيرها امتداداً لعطائها هو مهمة تتعدّى مسؤولية الفلسطينيين وحدهم إلى دفع الإنسانية نحو اختبار جدارتها بما تتمتع به من قيم.

حدِّق في الماء والطين والحارس الذي يصر على احتلال خطى المسيح من بيت لحم إلى القدس الليلة. حدِّق تفهم جوهر الصراع. إن الحارس الصهيوني، يحرس محاولة إعادة التاريخ إلى الاثم والعتمة التلمودية. ويحاول فصل فلسطين عن العالم. أي: يحاول تجريد التكوين الإنساني الشامل من مقوماته الفلسطينية. أنه يسعى إلى إجهاض الحاجة إلى تجدد ميلاد الجوهر الإنساني في الإنسان،

ليكون الشر مناخ شرعيته الحرة حين تكفُ هذه المعاني عن التوالد.

ونحن بحاجة إلى هذا التجدّد، فهو يجدد إدراك العالم لإقامتنا في صلب منجزاته الروحية والإنسانية.

المسيح نور فلسطيني إلى العالم. يولد ملايين المرات في كل لحظة.

وفي كل لحظة تذهب فلسطين إلى قضيتها الشمولية. تذهب إلى عالميتها وأبعادها التي لا حدود لها لتطالب بمكان أبنائها المعذبين على الأرض.

وحارس الوهم يجد نفسه بعيداً.. بعيداً عن الإنسان لأنه لم يأخذ من التوراة الا السيف.

اعطوهم وقتاً... ليكبروا

● هند تخربش على الجيتاره.

وسيرين تلعب مع الفراشة.

وأعود، يا أُمي، إليك الليلة.

لماذا لم ننس أن نكبر وأن نسافر؟

لماذا لم تضربيني على يدي وتمنعيني من هذا؟

لم أجد في المطارات فراشة واحدة ترضى أن تلعب معي مثل سيرين.

ولم أجد في المدن جدراناً أُخربش عليها مثل هند.

وها هي هند تخربش على الجيتارة.

إنها تتسلق أوتارها وتضرب فيكون العيد. كل ضربة عيد، وهي تتعلم المشي، وهي أقصر من الجيتارة.

لا أعرف. ولا أعرف متى تقولين لي:

– لم تكوني أمي بقدر ما كنت ابنك؟

– أم لم أكن ابنك بقدر ما كنت أمي؟

إنها تمطر.. تمطر، فتأتون إلى البيت وتنتظرون.

ولا يعود الولد الذي لا يكبر إلا خارج البيت. في البيت يكون الجميع أطفالا.

لم أجد جيتارة أخربش عليها مثل هند.

لأني خارج البيت.

لأني خارج الطفولة.

أين أقضي ليلة رأس السنة؟ تسألين الآن.

تسألين بكثرة: أين يقضي الليلة؟

أقضيها في الليالي السابقة. أفتح المفكرة وأقرأ رقم هاتف البيت. أغنيه. أبكيه. أشربه ثم أعطيه للطفلة هند لكي تخربشه على الجيتارة.

هي الوحيدة القادرة على أن تعيدني إليكم. القادرة على إرجاعي إلى البيت.. إلى الطفولة.

- هل يصير الرقم... رقم البيت تعويذة؟

الليلة نعم. إذا ضاع رقم أحس أن شباكا طار وأن سقفا وقع.

وهند تخربش على الجيتاره، فتلم شتاتي.

يا أمي!

لماذا لم تعطيني وقتا طويلا لأكبر؟

لماذا لم تحققي أمنية ذلك الرجل الحكيم الذي قال للأطفال:

أتمنى أن تأخذوا وقتا طويلا لكي تكبروا!.

إنني اشرب نخبك، وأقبل يدك. وأقول للطفلة هند: خربشي على الجيتاره. خربشي يا هند. إن فراشات كثيرة تطير من الأوتار. وألعب معها مثل سيرين.

حوار بين مسافرين لقتل السأم المشترك

- من خطف بداية السطر الجديد؟

● الذي حذف النقطة من نهاية السطر السابق.

- لم تكن نهاية؟

● ولم تكن بداية كاملة. كانت مقدمات لها.

- كنت أقضم تفاحة. وكان لعابهم يسيل على الوقت.

● وقيل لنا: نذهب معهم إلى الوقت. ندفع زمانينا إلى حلبة الصراع. ونتفرج. لا يبقى إلا الزمن الصالح.

- وكانوا يدربون الوقت. وكادت تفاحتي تفسد. وحدث ما حدث: حين ضاعت النقطة من السطر السابق، لم تعد بداية السطر الجديد حقيقية.

● وما العمل؟

– نبحث عن النقطة الضائعة.

● أين؟

– في الحرب القادمة.

● صارت ذكرى. الحرب القادمة ذكرى، لأن الذين سرقوا النقط الموضوعة في آخر السطور الماضية قد التقوا مع أعداء بدايات السطور الجديدة.

– والشارع؟

● مسدود بالمذيعين، ومباريات كرة القدم، والشعراء الذين يكتبون بفائض النفط.

– وماذا تنتظر؟

● طلاق الألوان المتشابكة، والخارطة التي تضع الفاصلة الأخيرة بين الوطن والغزو.

– ولكن الانسحاب متبادل.

● والهزيمة متبادلة.

– وماذا يقولون؟

● ان أظافر العدو قد قُلِّمت. بعد الان لن تمتد إلى العواصم. وهذا هو المهم: العواصم امنة من الخارج، فالأمن مستتب في الداخل.

– وأين ثمار الدم الذي سال من الجنود؟ أين وعود الموت بوجه آخر؟

● هدايا تذكارية لعائلات الشهداء. ميداليات. وبضائع مستوردة للناجحين.

– من هم؟

● الذين يقررون مواعيد الحروب ومواعيد السلام، والذين يصفقون، والذين يسمون الأشياء بغير أسمائها.

– والذين خاضوا الحروب؟

● يلتزمون بالطاعة التي ينص عليها الدستور الذي استفتى عليه الشعب ووافق. يعودون إلى الكدح وبناء الوطن من جديد. ويدعون إلى الحرب وقت الحاجة.

– لمن يبنون هذا الوطن.. لمن؟

● كل شيء قطاع خاص. حتى الوطن.. مزرعة.

– والناس؟ اليس لهم من حق الا واجب الموت في الحرب، والذل في السلم؟

● يذيع التلفزيون حلقات مسلسلة عن مملكة النحل. الحكمة الالهية والطبيعة تريدان هذا التصنيف. ناس يخلقون عبيدا بالغريزة، وناس يخلقون ملوكا. ويقول العالم الذي قدم هذا البرنامج التلفزيوني إن علينا أن نأخذ العبرة من الطبيعة. إنها حكمة الهية.

– ولكنها كانت مجيدة. الحرب كانت مجيدة، وانتهت. هل نعيش في حرب دائمة؟

● ولكن هذا ليس سلاما. عبر الزجاج يكون الموت بطيئا وبلا لذة. والصاعقة تقتل بشكل أجمل.

– رغم هذا. كانت حربا.

● كانت حربا حاربنا فيها بشجاعة ومتنا برضا.

– وانتهت.

● لم تنته. لقد سُرِّحتْ من الخدمة. غضبوا عليها فاعتقلوها. ويقال أنها ستقدم للمحاكمة بتهمة التمادي وخلق الأحلام الكبيرة.

لقد جعلت الناس تفرح أكثر مما يجب.

– وهل هي تهمة. هذا هو شرفها. كان لا يمكن لها أن تخدمنا إلا بهذا الاستقطاب. فماذا حدث؟

● يقولون أنها انتهت مهمتها. فلماذا تجرؤ على خلق جاذبية تعد بتجاوز الحدود المقررة؟ ولماذا تخلق فرحا أكبر من القرار. انها مؤامرة.

– أي قرار؟

● القرار الذي أصدره الناطق الرسمي بلسان الفرح.

– من هو؟

● ليس له اسم. قد يكون طيفا، وقد يكون شبحا، وقد يكون كائنا سريا.

– وما هو الخطر الناتج عن فرح الناس بحرب وعدتهم بالحرية والتحرير؟

● لأن انتشار هذا الفرح يعني وجود خلاف في الرأي وانقسام. ولأن مسايرة مطالب هذا الفرح قد تتخطى الحدود، فيغضب العدو، ويصاب بحرج شديد.

– لا أفهم.

● أنا أيضا لا أفهم. ولكن الشائعات تقول إن التحام الناس بفرح الحرب يؤدي إلى الضغط من أجل التحرير. الأمر الذي يجعل العدو انتحاريا، ولا تتاح له – أمام مواطنيه المتصلبين – فرصة الذهاب إلى المصالحة. ويقال أيضا أن في صفوف العدو أجنحة متصارعة، وإذا تسببنا في ايذاء الجناح الحاكم أكثر مما ينبغي، فإن الأمر يؤدي إلى تقوية الجناح المعارض ووصوله إلى

السلطة. وهكذا نفقد فرصة السلام التاريخية.

– لا أصدق. ولكن هل صحيح أن الجغرافيا لم تعد مهمة في هذا العصر؟ هل سمعت شيئا عن هذا الامر؟

● هكذا تكتب الصحف. ولكني سألت: إذا لم تعد الجغرافيا مهمة، فلماذا لا ينطبق غياب أهميتها على العدو؟ لماذا تكون مهمة له إلى حد الموت؟ فقالوا لي أنني ضيق الافق ومحدود في المكان. قالوا أن العدو أسير في الجغرافيا، ونحن طلقاء في التاريخ.

– والعدو يعطي الجغرافيا بعدا تاريخيا!

● قالوا لي أن هذه الامور جزئيات وتفاصيل سخيفة. فأغمضت عيني وسرحت. تبتعد المدينة بقدر ما تبتعد الحرب. هذه هي المشكلة، وهذه هي المعادلة. ليس للحرب جمال، ولكن دفعها إلى الغياب حضور الخطيئة. عندما تتسع الزنزانة يصير الجسم فضفاضا. هذه هي المشكلة.

– مرت قرب دارنا قبل الشتاء. وكانوا يحبونها، لأن جمال الوطن يختبئ في بشاعتها. وكانت الطائرات ألعاب الاطفال. فتحت النافذة أمس، فلم أجد حرباً ولم أجد سلماً، ولم أجد مظاهرة.

وماذا أَخذ العرب؟

● لا شيء. صه! تكلم بصوت منخفض. دخلت الطائرة الأجواء الإقليمية. وقد يسمعون كلامنا فيتهموننا بالحزن.

– لا أفهم. كان الفرح تهمة. والآن، صار الحزن هو التهمة؟.

● لكل حال حالة. في هذه الأيام قرروا تعميم الفرح ومنع الحزن.

– لماذا؟

● الحزن في هذه الأيام يعتبر احتجاجا على تجميد الصراع مع العدو. يعتبر اعتراضا على السلم الغامض. ثم.. لا يجوز أن نستقبل العودة الأمريكية بمظاهر الحزن.

– العودة الأمريكية.

● نعم. يقولون أن أمريكا تغيرت. وأن وزير خارجيتها قاد ثورة تحت شعار «وحدة عربية. قومية عربية. اشتراكية عربية» داخل أمريكا. ألا تقرأ الصحف العربية؟ لقد تخلت أمريكا عن كل عناصر تكوينها السابق. وأوقفت كل المساعدات المالية والعسكرية للعدو، بعدما نجحنا في اقناعها – المسألة مسألة اقناع – بأن العرب أكثر وفاء لأصدقائهم من اليهود الجحودين!. كانت أمريكا مضللة. واتضح أنها ساذجة وطيبة القلب. وبالإقناع فهمت الحقيقة، خاصة بعدما رأى وزير خارجيتها بنفسه براعة التطبيق الاشتراكي عندنا، فأعجب به وطلب أن يكون عضو شرف في أحد أحزابنا الاشتراكية الكثيرة.

– والأسلحة التلفزيونية التي استخدمتها أمريكا أيام الحرب وكانت مسؤولة عن اختراق إحدى جبهاتها، ماذا حصل بها؟

● حدث ذلك بمؤامرة من خصوم صديقنا الوزير. ولكنه تغلب عليهم. ووعدنا بدفع التعويض. لكل شيء حساب: سيرسل الينا أطنانا من التشيكليتس، وسجائر كينت، وثلاجات، وآلات فليبرز التكنولوجية، ومجلات مصورة، وأفلاما حديثة.

– متى حدث هذا التغيير؟

● عندما كنا نسير في جنازات أقاربنا، ولم نكن نفتح أجهزة الراديو حدادا على الشهداء.

– توقيت ذكي؟

● طبعا. لئلا ننتبه ونشعر بالعار. في أيام الحداد لا ينتبه المرء إلى العار.

– صه! لقد انتهت مدة الحداد المقررة، وأي تمديد يعتبر تآمرا.

● وماذا يقول الشارع؟

– ذهول وانتظار. ومن لا يعترف بحدوث الثورة في أمريكا يعاقب.

● هل يجتهد أحد في معرفة صحة النبأ؟

– لا. الدستور يمنع ذلك. والحرب الماضية والحرب القادمة تمنحان صلاحيات المنع.

● قلت أن الحرب القادمة صارت ذكرى. هذا صحيح. ولكنها تكون حاجة لمنع الاجتهاد. لا صوت يعلو..

– وحين تندلع يخمدونها.

● الشعب يعطي الدم، والحاكم يأخذ الزينة. يحتاج إلى دم الشعب من أجل الطاعة.

– نريد أن نعرف: انتصرنا ام هزمنا؟ منذ تشرين والناس تسأل هذا السؤال ولا أحد يجيب. هل كانت لعبة؟

● الحرب، حين تقع، لا تكون لعبة. ولكن من الممكن التلاعب بالنتائج.

– من انتصر؟

● الإنسان. انتصرت الإرادة، وهزمت السياسة التي كانت بحاجة إلى هذا النصر لتكون قوية في ذهابها إلى الهزيمة.

- هل تحولت جثث ضحايانا إلى قناطر؟
- نعم. وصارت الدولة اقوى. وارتفع سعر النفط.
- وانتهى الصراع؟
- لا. هنالك عدو جديد لا ينتهي الصراع الا بالقضاء عليه.
- أي عدو؟
- روح تشرين.
- أين هي؟
- فينا. الا تلاحظ أنك تتكلم بطريقة جديدة، ألا تشعر بأنك قادر على التساؤل. ألا تشعر بأنك قادر على الفعل لو أتيحت لك الفرصة؟
- ولماذا يحاربون روح تشرين؟
- لأنها حصيلة اختبار الإرادة. إنها رفع الستار الوهمي عن الطاقة الحقيقية. قادرون.. قادرون.. قادرون. وقد تغلبت روح تشرين فينا على روح حزيران. ولمسنا يد القدرة والخوض. وحين أوشكنا على الالتحام اوقفونا.

وهل تتغلب روح حزيران من جديد؟

- لا أتصور. لا يجوز. عرفنا أن العيب ليس في المعدن. ليس في التكوين. العيب في الصمّام.
- أهذا ما أعطته الحرب؟
- عرفت الطاقة أنها طاقة. وعرفنا أننا قادرون بالحرية.
- وأين الحرية؟
- في قبضة الحاكم، كما الأرض في قبضة العدو.
- وأين الطاقة؟

● فينا. وتصير المعادلة واضحة. ويضطر اللون الرمادي إلى الاستقالة.

– وإلى أين نحن ذاهبون؟

● إلى الوطن.

– أين صارت حدوده؟ متى يعلنون نشرة الطقس لنعرف حدود وطن اليوم قبل الخروج.

● حدوده دائما فينا. ولن نجده خارجنا.

– عثرنا على النقطة في آخر السطر السابق.

● وعلى أول كلمة في السطر الجديد.

وإلى اللقاء.

شكوى الشهيد الفصيح

سيدي الوطن!

لم أعد قادراً على الانحناء أمامك. ولم يعد بوسعي الاشتراك في حفلات توزيع الأوسمة على أبطالك العائدين. وحين تسللت إلى احد مقاعد المتفرجين، زجرني أحد الحرس، وأعادني من حيث أتيت، فتدحرجت من هراوته إلى أول قبر.. واختبأت.

هذا هو دوري. وهذا هو عملي، وقد أديتهما. لم أطالب بنزهة بين قبرين، ولم أطلب ضريحا خاصا بي، لأن موظفي دائرة تسجيل البطولة لم يعترفوا باسمي المبعثر بين الهواء والرمل. حين جاء الوزراء والسياح الأجانب وهواة جمع الآثار الحربية إلى

جثة العاصفة النارية، كانت عواطفهم تتدفق على قطع الحديد المتناثرة.. أشلاء طائرات ودبابات. كانوا يجمعونها بلهفة تشبه لهفة امي وهي تجمع ما نسيه الحصادون في الحقول. وحين مروا، مصادفة، بأشلاء جسمي واسمي أبدوا إعجابهم بالتضحية واشمئزازهم من اللحم البشري، وقالوا: ليست هذه قطعا نادرة. ولا تصلح للمتحف والديكور والذكرى. وتركوني هناك.

●

هذا هو دوري يا سيدي الوطن. خادمك في الحياة هو خادمك في الموت بلا اجر. ومن كان فقيرا حيا يواصل عمله في خدمة الشهداء الأغنياء ميتاً. على حياتي السلام، وعلى جثتي ينزل الظلام. والموتى من شدة الكسل يلمّعون توابيتهم ويزخرفون أضرحتهم ويحولونها إلى مزار قومي. لا تظن أن هذا الأمر يهمني، فمن يكترث باسمه حيا لا يكترث بمستقبل ذكراه شهيداً. والأبطال، دائما، أحياء ومن عائلات عريقة.

من أين تعلمت هذه الحكمة؟ من الحبر الذي يعاملني، موضوعاً، ويهملني كائنا. أعرف أني صرت مادة للتلف. ولكن، هل كنت محتاجاً إلى هذه الحشرة يا سيدي الوطن؟. دخلت في عبارتك العجيبة وتداخلت. وصلت اليك وتوصلت. وصدقت انك لي، ولم أدرك أني اموت دفاعا عن شيء آخر.

لم أعرف أني أموت أبدا، لأنك محتاج دائما إلى هذه الوجبة. هكذا قالوا باسمك. وأنت لا تتكلم ولا تنطق، كأن صمتك القاسي عقاب المعذبين ليزدادوا عذابا من أجلك. هل كان عذابي خطأ أم حقا؟ إياك أن تعود إلى الصمت مرة أخرى، لأني ما عدت قادرا

على تفسيره والاندماج به. هل كنت تريد عذابا أكثر تعذيبا، أم كنت تريد عذابا أجمل!

●

وضعونا في خندق انتظار الموت سنين طويلة. وقالوا: هذا هو أمر الوطن. كنا قادمين من البيوت الطينية والأكواخ الخشبية... جياعا، وشبه عراة، ومرضى، ومعافين بك. كانت رفرفة العلم تغطينا. وكنا نكتب رسائل إلى الأهل البعيدين الذين صاروا بلا مصدر رزق، ننسى أن نصف أشواقنا إليهم لأن حبك كان يستنزفنا، ونحن عبيدك يا سيدي الوطن وعشاقك بلا وصل. وكنا نعتبر إشراك الزوجة والأطفال في القلب وهنا في الروح الوطنية، لأن التفكير بغير الخندق خيانة!

مرة تساءلنا عن لون الشمس في الخارج، فأتانا ضابط كبير من قسم التوجيه المعنوي ليوبخنا: «ان التاريخ كله يقف في انتظاركم. وآمال الوطن كلها تسكن بين أصابعكم والزناد، لقد شرفكم الله والوطن بحمايته، فكيف تسألون عن أمور دنيوية أخرى؟». شعرنا بثلج الخجل يا سيدي الوطن، ورضينا ان لا يكون لنا من نصيب فيك إلا بيوت من طين، وموت جميل لا يأتي، ومجاعة دائمة.

●

وتحولت إلى هاجس. تغلغلت فينا، يوماً يوماً، وتجنحت من شيء إلى حلم. ليست لنا مطالب، فأنت النعمة. وصرنا نقارنك بالجنة وكنت المتفوق أبدا كلما ازددنا شوقاً إلى تفجير المعجزة.

ما هي المعجزة؟ ما هي المعجزة؟ جاهزون للضغط على اللغم المربوط بالشريان.. جاهزون. ولكن الأمر لم يصدر. ولم تأمرنا يا

سيدي. صارت القنبلة أثمن من القلب. وكنا ننتظر الأمر بالحرية! في انتظار هذا الامر تحولت، أيها الوطن، إلى وعد. متى يصدر الامر فنلتقي بالوطن السحري؟ تساءلنا وتساءلنا، لا رغبة في الخلاص من الخندق العاطل عن العمل، بل توقا إلى ملاقاتك، فاتهمونا بممارسة الشك وبالتدخل فيما لا يعنينا. هل صحيح، إنك لا تعنينا يا سيدي! وحرمونا من وجبات الغذاء، فاشتد جوع أهلنا الذين كنا نرسل إليهم بعض قوتنا. وحرمونا من السلاح الذي سنعانقك به ونموت. فصار حرماننا اثنين، وعذابنا موتاً، موتاً قبيحاً يا سيدي الوطن!

●

انتهت العقوبة. وصدر أمر يقول إنك محتاج إلى أبنائك الشجعان. وإنك جاهز لإصدار الحكم علينا بالموت الموعود. هل كنت تتكلم حقا يا سيدي الوطن!

هل كنت توقع على أوراق رسمية بهذه اللغة الفخمة؟. وإذا كنت تتقن الكتابة والكلام، فلماذا لم تكتب الينا مباشرة؟ لم تأت الينا وتخاطبنا؟ هل كنت تشعر أنك بحاجة إلى مترجمين؟ لسنا أميين إلى هذا الحد يا سيدي!. ومتى كنت تتسلل من شرايين قلوبنا وتذهب إلى المكتب لتخاطبنا بالورق الرسمي؟. هل أنت محتاج، حقا، إلى كل هؤلاء الموظفين! وهل طلبت منهم أن يضطهدونا من أجل الطاعة؟. هل أنت هم؟ هل هم انت!. وهل ثمة طاعة اكبر مما نحن فيه يا سيدي! لم نأخذ منك شيئا، ولم نطالبك بشيء إلا السماح لنا بالذهاب إلى ملاقاتك بالموت.

●

وطـن.. وطن ولا وطـن، حتى أذنـت لنا أخيرا بالخوض

في بحيرة النار. اليوم ولدنا - هكذا قلنا ونحن نرمي بأجسادنا وبحرمان العصور إلى قلب البركان. خذ كل شيء! خذ ما تبقى يا سيدي خذ! من بخار الصحراء نشرب، ومن قشور الصخور ناكل لتكوين مزيد من دم نقدمه لك. خذ كل شيء يا سيدي! فقد التقينا وتعانقنا وتخاطبنا بلا وساطة. وعرفنا، مرة واحدة، أنك قابل للملامسة، وصغير، وجميل، وفينا.

سنأخذك إلى أكواخنا ونأكل الجراد والبصل معا، وننام معا. ثم نصحو في أول صباح بخفة ورشاقة لنبنيك وأنت مرتاح. الذين يحررونك هم الذين يبنونك يا سيدي الوطن. وستكون مثلنا ولنا جميعا.

لقد عثرنا على اللغة المشتركة البسيطة البسيطة كاسمك. لست فخما ولا مخيفا ولا بعيدا كما قالوا. ولا تحتاج إلى وساطة وبوليس كما قالوا. سنأخذك معنا إلى البيوت الفقيرة وتكون إقامتنا دائمة.

ولكن، دعنا نموت بكثرة الان. انتظر قليلا لكي نموت كثيرا، فتكون لنا تماما تماما.. لا للغزاة ولا للموظفين الذين كانوا يزورون توقيعك وصورتك وصوتك. عفوا، لا وقت لهذا الان، فما زال في شراييني قطرة دم، وأنت للشهداء.

•

وانتهى دمي. اكتملت علاقتي فتكاملت. توحدت فانتهت وحدتي. أين أنت الان، وأين أنا؟ أكاد اقول.. وأكاد أقول: كأني لم أمت، وكأنك لم تحيَ. ذهبت إلى المستقبل، فذهبت إلى الماضي. ذهبت للتحرر، فذهبت للتجمد. أكاد اصرخ، وأكاد أصرخ: لماذا تتركني يا سيدي الوطن؟ لماذا يشقنا الوداع في أوج الوصول؟

لماذا تخرجني منك لتعود إلى المكتب وتخاطبني بهذه اللغة التي خضت الحرب لأدمرها؟. ولماذا لم تذهب إلى بيوتنا وتأكل معنا وتنام؟.

لماذا تعيدني إلى دوري السابق. ولمن أُقدم شكواي؟

لم يجف دمي بعد..

ولم تعثر جثتي على قبرها بعد..

وها أنت تعود إلى وظيفتك اليومية وتبصق عليّ.

ألا تغسل يديك من دمي أولاً، لتكون قادراً على كتابة الأوامر ضد دمي!

لقد حولتني، في لحظة، إلى جوهر. أندمت.. فأعدتني إلى حالتي السابقة.. إلى قشرة؟.

هل تستخدم حياتي وموتي من أجل حساب، وأنا أُعطيك بدون حساب!

وهل انتهت رحلتك، لتخلعني منك كحذاء عتيق غير صالح للاستعمال!

لم أكن ألعب حين ذهبت إلى تجديد حياتك بموتي، يا سيدي الوطن، لم أكن ألعب. ولا أريد أن أصدق ما يقوله الوشاة. يقولون أنك تلعب بدمي الآن. ولا أصدق. فالوطن لا يكذب ولا يلعب يا سيدي الوطن. فمن يكذب ويلعب اذن!.

هل أنت أسير وشهيد مثلي؟ هل أنت مثلي!.

وهل نحن توأمان، في الخدمة، دون أن أدري!.

●

لمن أقدم شكواي؟ جئت أمس لأزورك، فصدَّني حراسك، وقالوا: عُد إلى واجبك ودورك. فالشهداء لا يتدخلون بالأمور

العامة. وليس للشهداء دخل بقضايا الدولة! ماذا يكونون اذن؟

أين أنت، ومن أنت؟ أخشى ان تكون مثلي. لا، لا أريد أن أُصدق أنك مثلي. وأخشى أن أصدق أن تكون مثلهم. لا، لا أريد أن أُصدق أنك مثلهم. فمن أنت.. وأين أنت؟ هل عادوا إلى وقفتهم الطويلة المدججة بيني وبينك؟ هل عادوا إلى ترميم الحاجز بيننا بعدما توحدنا يا سيدي الوطن؟ ومتى فعلوا ذلك؟ عندما كنت مشغولاً بالغوص فيك؟ وكانوا يتربصون باللحظة التي أغمضت فيها عيني على صدرك الضيق. هل اخترقوا تلك البرهة؟.

متى تصل شكواي يا سيدي؟ وما هو عنوانك.. أو: أين هي زنزانتك أين هي؟. لم أتعب من البحث عنك، ولكن حراس الحاجز يشددون الحصار. سأعود إلى قبري الضائع، وتعود إلى حريتك الضائعة. سأعود، لأُفكر بك بطريقة أخرى، لأتوحّد بك بطريقة أخرى.

ولكن، أعطني يا سيدي إطلالة واحدة من زنزانتك المخبأة في الملفات. أعطني يا سيدي صيحة واحدةً من مكانك المجهول. وحين تقرأ رسالتي لا تغضب عليّ، لأني أُحبك. وأعرف الآن أنك مثلي، ولكن عمرك أطول، ومفاجآتك أعظم. ولن أغترب عنك.. لن أغترب، لأن الموتى لا يغتربون عن التراب يا سيدي الوطن.

المخلص

ابنك الذي نسي اسمه

حين لفظ اسمك

الأعمال النثرية



محمود درويش

ذاكرة للنسيان



من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟

– كيـف عرفـتِ أنني كنـتُ أضع رأسـي على ركبتيـك وأنام؟

– لأنكَ أيقظْتني حين تحرّكْـتَ في بطني. أدركتُ أني تابوتك. هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟

– هـل يحـدث ذلك كثيـراً: أن يوقظني من المنام منـام آخر هو تفسيرُ المنام؟

– ها هو يحدث لي ولك.. هل أنت حيّ؟

– تقريباً.

– وهل أصابتك الشياطين بسوء؟

– لا أعرف، ولكنّ في الوقت متسعاً للموت.

– لا تَمُتْ تماماً.

– سأحاول.

– لا تمت أبداً.

– سأحاول.

– قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا؟

– منذ ثلاثة عشر عاماً.

– هل التقينا كثيراً؟

– مرتين: مرةً تحت المطر، ومرةً تحت المطر، وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. سافرتُ. ونسيتُكِ. وقبل قليل تذكرتُ. تذكرتُ أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

– وهذا ما يحدث لي.. كنتُ أحلم. ولقد حصلتُ على رقم هاتفك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا تنس أن لا تموت. ما زلتُ أريدك. وعندما تحيا، ثانية، أريدك أن تكلمني. يا للزمن.. ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة...

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوكٌ معدنية. دخان. حديد يُعدُّ وليمة الحديد السيّد. وفجر يندلع في الحواس كُلّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممر الضيّق. ولا أريد شيئاً، لا أتمنى شيئاً. ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف

أنظم زحام هذا الموت المنصبّ، لو أعرف كيف أحرِّرُ الصراخ المحتقن في جَسَدٍ لم يعد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في تَتَبُّع فوضى القذائف. كفى.. كفى - همستُ لَأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير إلى مكان الهاوية المفتوحة من جهات ست. لا أستطيع أن أستسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أقاومه. حَديد يعوي فينبح له حديد آخر. حُمَّى المعادن هي نشيد هذا الفجر..

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقائق. أكاد أقول: خمس دقائق فقط أعدّ خلالها عُدّتي الوحيدة ثم أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل تكفي؟ نعم.. تكفي لأتسرّب من هذا الممر الضيّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمام لا ماء فيه، والمفتوح على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذ ساعة ولا أستطيع.. لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتَيْ قُطْنٍ في أُذْنيّ، ونمتُ بعدما استمعتُ إلى نشرة الأَخبار الأخيرة. لم تقل إني ميت. معنى ذلك أنني حيّ. تفقدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع تحت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. إصبع في الوسط. وأما القلب فإنه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقى على أحد رفوف المكتبة.. مُسدس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها

منذ عامين خوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن، أنا حيّ، وبتعبير أدقّ: أنا موجود.

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو حصتي منه، على قدميه، ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم، نحن في آب. وتحولت الحرب إلى حصار. أبحث في الراديو، المتحول إلى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية تغري أي صيّاد بالإصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوِّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟ واجهة البناية الشمالية كانت تُمتِّع سكانها بمشهدٍ ما لسقف البحر المتجعِّد، لأَنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عراء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأَحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أَصلُ إلى المطبخ؟

أريد رائحة القهوة. لا أريد غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأَيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميّ، لأتحول من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميه. لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر.

كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائفُ البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا تكفي لأَن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا تكفي لأن أفتح زجاجة الماء، ثانية واحدة لا تكفي لأن أصبّ الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا تكفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة تكفي لأن أحترق...

أقفلت مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضيّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة ـ في مثل هذه الحالات ـ أن توفِّر غطاء الأَمان الوهميّ. فالموت هو أن ترى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدّدت مهمتي وهدفي. توثبت حواسي كلُّها في نداء واحد واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة...

والقهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك

علـى طبـق، لأَن حامل الطبق هو حامل الـكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام. ورائحة القهوة تتشـرّب الأصـوات، ولو كانت تحيةً مثل «صباح الخير»، وتفسد...

لذا، فإن القهوة هي هذا الصـمتُ الصـباحي، الباكـر، المتأني، والوحيـد الذي تقف فيه، وحدك، مع ماء تختاره بكسـل وعزلة في سـلام مبتكر مع النفس والأَشـياء، وتسـكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنّي، ثم تضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب...

ابتعـدْ قليلاً عـن النار الخفيفة، لتطلّ على شـارع ينهض للبحث عن خبزه، منذ تورط القردُ بالنزول عن الشـجرة وبالسـير على قدمين، شـارع محمول على عربـات الخضـار والفواكه وأصـوات الباعة المتميزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة إلى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ إلى النار الخفيفة – آه لو كانت نار الحطـب – وراقب بمودة وتؤدة علاقة العنصـرين: النار التي تتلوّن بالأخضـر والأزرق، والمـاء الذي يتجعّد ويتنفّسُ حبيبات صـغيرة بيضـاء تتحـوّل إلى جلـد ناعم، ثم تكبـر.. تكبر على مهـل لتنتفخ فقاعاتٍ تتسع وتتسع بوتيرة أسرع وتنكسر، تنتفخ وتنكسر عطشى لالتهام ملعقتين من السُكّر الخشن الذي ما إن يداخلها حتى تهدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشرئبة إلى مادة أخرى، هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية...

أبعـد الإناء عن النار الخفيفة لتجري حوار اليد الطاهرة من رائحة

التبغ والحبر مع أولى إبداعاتها، مع إبداع أول سيحدِّد لك، منذ هـذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن تعمل أم تتجنب العلاقة مع أحد طيلة هذا اليوم. فإن ما سينتج من هذه الحركة الأولى ومن إيقاعها ومما يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، ومما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهوة، فنجان القهوة الأول، هي مرآة اليد. واليدُ التي تصنع القهوة تُشيع نوعية النفس التي تحركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءةُ العلنية لكتاب النفس المفتوح.. والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

ما زال الفجر الرصاصيّ يتقدم من جهة البحر على أصوات لم أعرفها من قبل. ألبحرُ برمته محْشُوٌّ في قذائف طائشة. ألبحرُ يبدل طبيعته البحرية ويتمعدن. أَلِلْمَوتِ كُلُّ هذه الأسماء؟ قلنا: سنخرج. فلماذا ينصب هذا المطر الأحمر - الأسود - الرمادي على من سيخرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجر؟ قلنا: سنخرج. قالوا: من البحر. قلنا: من البحر. فلماذا يسلحون الموج والزبد بهذه المدافع؟ ألكي نعجِّل الخطى نحو البحر؟ عليهم أن يفكوا الحصار عن البحر أولاً.. عليهم أن يخلوا الطريق الأخير لخيط دمنا الأخير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك... فلن نخرج، إذن، سأعدُّ القهوة...

صحت عصافيرُ الجيران في السادسة صباحاً. تابعت تقاليد الغناء المحايد منذ وجدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوء. لمن تغني

في زحام هذه الصـواريخ؟ تغنّي لتشفي طبيعتها من ليل سابق، تُغَنِّي لها لا لنا. هل كنا نعرف ذلك فيما مضى؟ لقد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحترقة. كانت سهام الصوت المتعرجة تلتفّ على القنابل وتشـير إلى أرض سـالمة في الفضـاء. للقاتل أن يقتـل. للمقاتل أن يقاتل. وللعصـفور أن يُغنِّـي. ولكنني أكفّ عن طلب الكناية، أكفُّ تمامـاً عن التأويل، لأن من طبيعة الحروب أن تُحقِّر الرموز، وتعود بعلاقات البشـر والمكان والعناصـر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق من ماسـورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة.

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصـوات العصافير، الدوري بخاصة، العصـافير التي لا تكترث بهذه الحـرب القادمة من البحر ما دام فضـاؤها سـالماً. وللماء طعم المـاء، ورائحةٌ هي رائحـةُ الهواء القادم، بعـد الظهيرة، من حقل يتموج بسـنابل القمح الممتلئة، في امتدادٍ متقطِّع الضوء كبُقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراءه توتُّر جناح الدوري الصـغير وهو يطيـر طيراناً واطئاً على حقل. وليسـ كل ما يطير طائرة. ولعلّ أسـوأ الكلمـات العربية هي أن الطائرة تأنيث «الطائر». الطيور تواصـل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟

ولكن العصـافير تصـمت فجأة. تكفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبَّت عاصـفةُ الحديـد الطائر. أَمِنْ

هديرها الفولاذي سـكتت، أم من تشـابُهٍ غير متعادل في الشكل والاسـم: جناحان من حديد وفضّة في مقابل جناحين من ريش. حيزوم من حديد وكهرباء في مقابل منقار من نشـيد. حمولة من صـواريخ في مقابل حبة قمح وقشة. توقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحرب، لأَن أرض سمائها لم تعد سالمة...

ألسّـماء تنخفض، كأنها سـقف إسـمنتي يقع. ألبحر يتحوّلُ إلى يابسة ويقترب. السـماء والبحر من مادة واحدة. البحر والسماء يضـيقان علـيَّ الخنـاق. أدرتُ مفتـاح الراديـو لأعـرف أخبار السـماء. لم أسـمع شـيئاً. تجمد الوقت. جلس علـيَّ ليخنقني. مرّت الطائرات من بين أصـابعي. اخترقت رئتي. كيف أصل إلى رائحة القهوة. كيف أموت يابساً بلا رائحة القهوة. لا أريد... لا أريد.. فأين إرادتي؟

وَقَفَـتْ هناك، على الطرف الثاني من الشـارع، يوم أطلقنا النداء المضـاد لزحـف الخرافـة علينا من الجنـوب. يوم كـوّر اللحم البشـري عضلة الروح وصـاح: لن يمروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحـم مع الحديد وتغلّب على علم الحسـاب العسـير، فتوقّف الغـزاة على السـور. هنالك وقت لدفن الموتـى، وهنالك وقت للسـلاح، وهناك وقت ليمرّ الوقت على هوانا.. لتطول البطولة، فنحنُ، نحنُ أصحابُ الوقت...

كان الخبز يصـعد من التـراب. وكان الماء ينبجس من الصـخر. كانت صـواريخهم تحفر لنا آبار الماء، وكانـت لغة قتلهم تغرينا بالنشـيد: لن نخرج، وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين تغلي

بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا تنكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت - وسط هذا البحر، على بوابة هذه الصحراء أسماءً لوطن مختلف، وعودة المعاني إلى مفرداتها، هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من السوط...

فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلّاق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعَةٍ ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجأ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الانتقام من آباء حكماء، وبجنون الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط... هل، هل عرفوا أنهم يصححون، بجراحهم وطيشهم المبدع، حبرَ اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غربٍ لا يطلب من العبودية غير تحسين شروط التحاقها، منذ حصار عكّا في العصور الوسطى حتى حصار بيروت المُكَلف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأُسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط، ليرشدوا قارئ الرمل المضلّل إلى أسرار البطولة المكوّنة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأَخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية.. وأن يشق بنفسه، وحيداً، هذا

الفضاء المتطاول فيصوِّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن تشقّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم التي يريد أن يسوسها راعي القمع وراعي الخرافة، معاً، عبر سياج التواطؤ.

لن يمروا على حياتنا. فليمروا، إن استطاعوا أن يمروا، على ما تلفظه الروحُ من جثث،

فأين إرادتي؟

وقفتُ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فلا أريد أكثر من رائحة القهوة. خجلتُ. خجلتُ من خوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيها. وُلدوا منها بعيداً عنها. وتعلموها بلا انقطاع وبلا كلل أو ملل. تعلموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا – قيل لهم هناك.

ولستم من هنا – قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و«هناك» شدّوا أجسادهم قوساً تتوتَّر، حتى اتخذ الموت فيهم هذه الصيغة الاحتفالية. لقد أُخرج آباؤهم من هناك ليحلوا ضيوفاً على هنا، ضيوفاً مؤقتين، من أجل إخلاء ساحات الوطن من المدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية تطهير أرض العرب وشرفهم من العار والدنس: «أخي جاوز الظالمون المدى، فحقّ

الجهاد وحقّ الفدا.. طلعنا عليهم طلوع المنون، فكانوا هباء وكانوا سدى». وبقدر ما كانت تلك الأغاني تطارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سطراً، كان هؤلاء، هنا، يولدون بلا مهد، وكيفما اتفق، على حصير أو في سلّة من قصب، أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بلا شهادة ميلاد وبلا سجل أسماء، بلا فرح وبلا ميلاد، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب، ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة الشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا تمييزهم وقرأوا الخطاب القومي، وقرأوا صادرات وكالة الغوث، وقرأوا سياط الشرطة. وظلّوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا تاريخ الحصون والقلاع التي وقّعها الغزاة لتخليد أسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلاّ، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماءَ قادةٍ عسكريين لا لشيء إلاّ لأَن أولئك القادة قد تنفسوا انطباعاً أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد ـ ما أجملها ـ هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأسماء التي

نشـير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسـكري منتصر، وصار من الصـعب فكُّ الهوية عن هزيمتها. قلوع وحصون هي محاولات لحماية اسـم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسـيان. لا أحد يريد أن يَنسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنْسـى. وبشـكل سـلمي: ينجبون الأَطفال ليحملوا أسـماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه تاريخٍ طويل من عملية البحث عـن توقيع على زمان أو مكان، ومن حلِ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة...

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشـذوا عن قاعدة الطبيعة البشـرية؟ لم يطالبون بهذا القـدر من النسـيان؟ ومن هو القادر علـى تركيب ذاكرة جديدة لهـم لا محتوى لها غير ظل مكسـور لحياة بعيـدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومـن سيسـاعدهم على النسـيان في هذا القهر الـذي لا يتوقف عن تذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضـون الهوية المرفوعة للتدليل علـى خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصـرة الأوبئـة، ويراقبون براعة اسـتخدامها رافعةً قوميـة، هؤلاء المنسـيون، المطـرودون من النسـيج الاجتماعي الداخلـي، المنبـوذون، المحرومون من حق العمل والمسـاواة،

مطالبون في الوقت ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفّر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بالنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرب على التحرّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كيلا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كي لا ينسى أن له سماء أخرى. وعليه أن يعمل خادماً كيلا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كيلا ينسى فلسطين. وباختصار، عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير..

حسناً.. حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي ـ بندقيتي، فلماذا يكيلون عليه تهماً لا تُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالة، وحين تحرّك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، أقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقضّ عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة. وكان عليه أن ينتظر. ما العمل.. ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في حفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح ليستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا تجاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس،

في الداخل، ضـد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا تدخُّل في الشـؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن، ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سـوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لستَ إلى هناك. ولسـتَ من هنا. ومـن بين هذين النفيين وُلد هـذا الجيل المدافع عن وعاء جسـدي للروح، علّق عليـه رائحة البلاد التي لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولـم يصدق أن الهزيمة حتمية. وتبع تلك الرائحة...

منهـم أخجل، دون أن أعرف أنـي أخجل منهم. الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرّ عليَّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشـرب القهوة الآن. سـأمتلئ برائحة القهـوة الآن، لأتميز عن خـروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة...

.. تُبعـد الإناء عـن النار الخفيفة لتجري اليدُ أولـى إبداعاتها. ولا تكترث بالصـواريخ والقذائف والطائرات. فتلك إرادتي: سـأذيع رائحة القهوة لأمتلك فجري. لا تنظر إلى الجبل الذي يبصـق كتله النارية في اتجاه يدك. ولكنك لا تسـتطيع أن تنسى أنهم يرقصون هناك، يرقصـون من النشوة. كانت سـيدات القرنفل، في صحف البارحـة، يرتمين على دبابات الغزاة في الأشـرفية. كان النصـف الأعلـى من نهودهن، والنصـف السـفلي من أفخاذهـن عارياً من الصـيف ومن المتعـة، ومعداً جيداً جيداً لاسـتقبال المخلّصـين.

قَبِّلني يا شلومو، قبلني على فمي، ما اسمك يا حبيبي لأناديك باسمك يا حبيبي، شلومو كم انتظَرتْكَ شغافُ قلبي. ادخل، يا شلومو، ادخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسّ فيك القوة. كم أحبُّ القوة يا حبيبي. واقصفوهم يا حبيبي، واذبحوهم، واقتلوهم بكل ما فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنان يا سيد شلومو. اقصفوهم ريثما أُعِدُّ لك كأس العرق والغذاء يا حبيبي. بعد كم ساعة تقضون عليهم، بعد كم ساعة. لقد طالت العملية، يا شلومو، طالت، فلماذا أنتم بطيئون يا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تتقدمون؟ ولكن رائحتك كريهة، يا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعرق. سأغسلك بماء الفل يا حبيبي. لماذا تبوّل في الشارع؟ هل تتكلم الفرنسية؟ لا؟ أين وُلدت؟ في تعز؟ أين تعز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس.. لا بأس. كنت أَظُنّكَ شيئاً آخر. ما عليك يا شلومو! اقصف من أجلي هناك.. هناك.

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهال تُرْسَى، ببطء، على تجاعيد الماء الساخن، تحركها تحريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البداية، ثم من فوق إلى تحت. تضيف إليها الملعقة الثانية، تحركها من فوق إلى تحت ثم تحركها تحريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم تسكب عليها الملعقة الثالثة. بين الملعقة والأخرى أبعد الإِناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأَشقر على سطح الماء، تتموّج وتتأهب للغرق. لا تدعها تغرق.

أطفئ النار ولا تكترث بالصـواريخ. خذ القهوة إلى الممرّ الضيّق. صُبّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون تفسد حريـة القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصـاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السـيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غيـر مذاق السـيجارة التي تتبع عملية الحب، بينمـا المرأة تدخِّن آخر العرق وخفوت الصوت...

هـا أنذا أولـد. امتلأَت عروقـي بمخدرها المنبّـه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافايـن والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتسـاءل: كيف تكتب يدٌ لا تبـدع القهوة؟ كم قال لي أطبـاء القلب، وهم يدخنون: لا تدخِّن ولا تشـرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعـرف قهوتي، وقهـوة أمي، وقهوة أصـدقائي. أعرفها من بعيد وأعـرف الفوارق بينهما. لا قهوة تشـبه قهوة أخـرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصـية الفـارق. ليس هنالك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليستْ مفهوماً وليست مادة واحدة، وليسـت مطلقاً. لكُلِّ شخص قهوته الخاصـة، الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته. ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. ذلك يعني أن مطبخ السـيدة ليس مُرَتّباً. وثمة قهـوة لها مذاق عصـير الخروب. ذلك يعني أن صـاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحةُ العطر. ذلك يعني أن السـيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب

في الفم. ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القِدم من فرط ما تألّب البن في الماء الساخن. ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي. ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة...

لا قهوة تشبه قهوة أخرى. لكل بيت قهوته، ولكُلِّ يد قهوتها، لأنه لا نفس تشبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج وتتلوى وتتأوّد وتتأوّه وتلتفّ على سفوح ومنحدرات، تتشبّث بسنديانة أو بلوطة، وتتفلّت لتهبط الوادي وتلتفت إلى وراء، وتتفتّت حنيناً إلى صعود الجبل وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوّل..

رائحةُ القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تنحدر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت تعود. القهوة مكان. القهوةُ مسام تُسرِّب الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوَحِّد ما لا يتوحّدُ إلاّ فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضع الرجال بعيداً. صياحٌ مولود من مذاق مُرّ، حليبُ الرجولة، والقهوة جغرافيا..

□□□

من هي تلك الناهضةُ من منامي؟

هل هي حقاً كانت تخاطبني قبل الفجر، أم كنتُ أهذي وأواصل المنام صاحياً؟

لـم نلتق غير مرتين. في المرة الأولى حفظت اسـمي، وفي المرة الثانية حفظت اسـمها. وفي المرة الثالثـة لم نلتقِ. فلماذا تناديني الآن مـن حلم كنـتُ أنام فيه علـى ركبتها؟ لم أقل لهـا في المرة الأولى: أُحبك. ولم تقل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً...

□□□

واعتـدتُ أن أحصـي عدد السـوس في صـحن حسـاء العدس، الطبق اليومي في السجون.. واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأن الشـهية تتكيّـف، ولأَن الجـوع أقوى من الشـهية. ولكنني لـم أتكيّف أبداً مع غياب القهوة الصـباحية، ومع تناول غسـيل الشـاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السـجن. سـألتني صديقة بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأَنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شـيء فظيع. وأضـافت: ولكنني لا أشـربُ القهوة. قلت: لا أعرف سـيدات كثيرات مهووسات بصـباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها تُفضِّلُ المكياج!

ليس ذلك ما آلمني. لقد تمكن أحد زملائي السـجناء من إحضار فنجان من القهوة لي، ذات صـباح، تلقّفتُه بشبق ومنحتُ نفسي وقتـاً للتأمّل، مما دفع زميلاً آخر إلى تصـويب نظرة اسـتعطاف نحو الفنجان، تجاهلتُها لأتوحّد مع ملكيتي، تجاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسـادية أيقظتْ فيّ إحساساً بالإِثم فيما بعد. كان

ذلك قبل عشرين عاماً، وما زالت تلك النظرة المتوسلة تلاحقني إلى الآن داعية إيّاي إلى إعادة النظرِ المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاولة لرشوة توازني النفسي. ما أشدّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أُمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب...

□□□

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوةُ أُختُ الوقت. تُحْتَسى على مهل.. على مهل. القهوةُ صوت المذاق، صوت الرائحة. القهوة تأمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات. والقهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعاً تماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الإسرائيلية لا يكفّ عن تكذيب «الشائعات» القائلة أن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلاّ إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أن الصحف الإسرائيلية لم تصل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية إدمان. أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات. لقد جُنَّت السماء. جُنَّت تماماً. يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تتسع منطقة المطار لكُلّ هذه القذائف القادرة على قَتْل بحر؟ أفتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الإعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مارلبورو، تعال إلى حيث المتعة. ميّة الصحة.. صحة «صحة من جبل عالي». ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت ـ كارلو الخارجات للتو من الحمام أو غرف النوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت؟ أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار. أحوِّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين، أصوات منقولة على موجة قصيرة مكبرة إلى موجة متوسطة تحوِّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحدث لولا صعوبة الاتصال بالوقائع لعلّ في الأَمر ما يدل على أن كلا المتحاربين يحاول عسى ولا سيما ناهيك عن غموض ما قد يسفر عن طائرات مجهولة أسماء الطيارين تُحلِّق إذا أردنا الدقة حيث يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة المعلومات تنتهي بأغنية ذات لغة عربية سليمة العواطف لمحمد عبد الوهاب: يا تجيني يا تقوللي أروح لك يا تقوللي أروح منك فين.

أصوات متشابهةُ الرتابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة تصف الموت كما تصف الأحوال الجوية، وكما لا تصف سباق الخيل والدراجات. عمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تتساقط من الجهات كُلّها. ألا تكفيني هذه القراءة؟

ليس ذلك تماماً. فالباحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من الموت وحيداً إلى الموت الجماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشترك، وعن كلام متبادل، باحث عن مشاركة مّا في الموت، عن شاهد يشهد، عن شاهد على جثة، عن مُبلغ عن سقوط حصان، عن لغة للصمت وللكلام، عن انتظار أقلّ ضجراً الموت تأكد. فإن ما يقوله هذا الفولاذ، هذه الوحوش الفولاذية، هو أن أحداً لا يرى السكينة. ولن يحصي قتلانا..

كنت أكذب على نفسي، فليست فيّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأَمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأَنقاض، فريسةَ أنين لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحادثة وقد حدثت. أنا الآن هناك بين الأَنقاض. أحسُّ بوجع الحيوان المهروس فيّ. وأصرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم ـ الشبح» القادم من اتجاه معاكس، مما قد يحدث. بعض الذين يصابون بساقهم يواصلون الإحساس بالوجع في الساق حتى بعد بترها بسنين. إنهم يمدون أيديهم لتحسس موضع الوجع في ساق لم يعد لها وجود.. وقد يلاحقهم هذا الوجع الوهمي، الوجع الشبح

إلى آخر العمر. أما أنا، فأشعر بوجع جرّاء إصابة لم تحدث.. لقد طُحِنَتْ ساقاي تحت الأَنقاض.

وهـذه ظنوني: قد لا يقتلني الصـاروخ بشـكل خاطـف دون أن أشعر. فقد ينهار عليَّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واسـتغاثة لا تبلّغ مصـيري إلى أحد. قد يطحن ساقي أو ذراعي أو جمجمتي، أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيهـا لأحد للبحث عـن بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالإسـمنت والحديد والتراب فلا يَدُلُّ شـيء عليَّ. وقـد ينغرز زجاج نظارتي فـي عيني فأصـاب بالعمـى. وقد يتغلغـل عمود مـن الحديد في خاصـرتي. وقد أنسى في زحام اللحم البشري الممعوس المفقود بيـن الأَنقاض. ولكن، لماذا أهتم بمصـير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في تابوت خشبي ملفوف بعَلَم واضح الأَلوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا تدلُّ ألفاًظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ـ الأَعداء.

وأريـد أكاليل من الـورد الأحمر والورد الأصـفر. لا أريد اللون الـورديّ الرخيص ولا أريد البنفسـج لأنه يذيـع رائحة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة قليل البحة، قادراً على ادعاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة تحمل صوتي بعض الكلام. أريد جنازة هادئة، واضحة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقاء. فما أجمل حـظ الموتى الجدد، في اليـوم الأول من الـوداع، حين يتبارى المودعـون فـي مدائحهم. فرسـان ليوم واحـد، محبوبون ليوم

واحد، أبرياء ليوم واحد.. لا نميمة ولا شتيمة ولا حسد. حسناً، وأنـا بلا زوجة وبلا ولد. فذلك يوفر على بعض الأصـدقاء جهد التمثيل الطويل لدور حزين لا ينتهي إلاّ بحنوٍّ الأرملة على المعزِّي. وذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسات ذات البيروقراطية البدوية. حسـنٌ أني وحيد.. وحيد.. لذلك ستكون جنازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيّعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أطلُّ منه، كما يريد توفيق الحكيم أن يطلّ، على المشـيّعين.. أسـترقُ النظر إلى طريقتهم في الوقوف، وفي المشـي، وفـي التأفف، وفي تحويل اللعاب إلى دموع. وأسـتمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النسـاء، وكان يبذخ في اختيار الثياب. وكان سُـجّاد بيته يصـل إلى الركبتين، وكان له قصـر على الساحل الفرنسي اللازوردي، وفيلّلا في إسـبانيا، وحساب سريّ في زيوريخ، وكانت له طائرة سـرية خاصة، وخمس سيارات فخمة في مرأب بيته في بيروت. ولا نعـرف إذا كان له يخت خاص في اليونان. ولكن في بيته من أصـداف البحر ما يكفـي لبناء مخيّم. كان يكذب على النسـاء. مات الشاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مرحلته وانتهينـا من خرافته. أخذ شـعره معه ورحـل. كان طويل الأنف واللسان... وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تتحرر المخيلة من كُلِّ شـيء. سأبتسم في التابوت، سـأبذل جهداً لأَن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.

□□□

أمـا أن أموت هنا، فلا. لا أريد الموت تحت الأَنقاض. سـأدّعي لنفسـي أنني ذاهب إلى الشـارع للبحث عن الجريدة، فالخوف عار في حمَّى البطولة المتفشّية في جميع الناس، من أولئك الذين لا نعرف أسـماءهم على خطوط الاشـتباك، ومن أولئك البسطاء الذين اختـاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسـوا أيامهم للبحـث عن تنكة ماء وسـط مطر القذائف، اختـاروا أن يمدّدوا لحظة التحدي والصـمود إلى تاريخ، اختاروا أن يدفعوا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولة هي هذا الجزء المشطور من بيروت في هذا الصـيف الحارق. هي بيـروت الغربية. ليس من يموت هو من يموت بالمصـادفة. الحيُّ حيّ بالمصـادفة، إذ لم يسلم شـير واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحدة من انفجار. ولكنني لا أريد الموت تحت الأَنقاض. أريد الموت في الشارع.

انتشـر أمامي، فجأة، الدود الموصـوف في إحـدى الروايات.. دود يرتب صـفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صـارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكل العظمي. دود يأتي من المجهول.. ومن التـراب.. ومـن الجثة ذاتها. الجثة تأكل نفسـها بجيش حسـن التنظيـم يطلع منها في لحظات. إنها صـورة تفرغ الإِنسـان من بطولته ومن لحمه، وتدفع به في عراء المصـير العبثي، في العبث المطلـق، في العدم الكامل. صـورة تجـرِّد الأَناشـيد من مديح المـوت ومن الفـرار إلى الفرار. أَمِـنْ أجل التغلّب على بشـاعة

هذه الحقيقة، فَتَحَ الخيال البشريُّ ـ ساكنُ الجثة ـ فضاءً لخلاص الروح من هذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حَلّ؟ ربما.. ربما..

□□□

.. ولأنني أعرف «سمير» منذ الطفولة، لم أذهب إلى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعيه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا تبقّى منه؟ أعني ماذا تبقّى من وسامة كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤْثِرُ البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه حُسنُ يوسف وخَفَرٌ بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأُمّه الحسناء الطاغية. شعر كستنائي مُجعَّد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً وقويّ البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن أشعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الإسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي تسلّل عبر الحدود لينسف حيفا. كان ذلك عشية حرب حزيران. وكان الإعلام الإسرائيلي منكباً على إعداد الذرائع لإعلان الحرب. لم نصدِّق أن «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلاّ بعدما طالعتنا قامتُهُ المديدة في الصحف وهو يرسف في الأغلال. حدَّثني أبوه، وهو ابن عمي، كيف كانت الشرطة تُسْمِعُهُ – خلف

جـدران الزنزانة – أنين «سـمير» تحـت التعذيب المتواصـل. قطيعٌ من الذئاب يسـتفرد بغزال أسـير. لقد تحطـم والده تماماً وهو يسـتمع إلى الموت البطيء المتصـاعد من جسد «سمير»، المرفّه، المنعّم، المدلّل، الأنيق، الوسيم. ولكن أمّه ذات الجمال الجَهُـوريّ حمت أعصـابها، وتوازنها النفسـي، بمـا أيقظ في أمومتها من حاسّـة الزهو أمام تحوّل ابنها إلى رجل يتحدى دولة هزمت دولاً، فرفعت أحزانها إلى كبرياء. حكموا على «سـمير» بالسجن المؤبّد. وفي السجن استطاع أن يُمَثِّل دور المتعاون مع إدارة السـجن، متحملاً إهانات زملائـه الفدائيين، لينفّذ خطته، ويعمـل في مطبخ السـجن، حيث حصـل على مـا يحتاج له من أدوات حادة، وعكف شـهوراً على قطع قضبان الزنزانة، إلى أن حانت ساعة الصـفر، وتمكن من تهريب بعض زملائه السجناء. أصرّ على أن يكون آخر الناجين، إلى أن انتبه الحراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النافذة ليحكموا عليه، مرة أخرى، بالسجن المؤبّـد الثاني. بعد محاولة أخرى، حكم عليه بالسـجن المؤبّد الثالث. وهكذا، كان على «سـمير» أن يعيش ثلاثة أعمار أخرى ليتم إطلاق سـراحه... وفي عملية تبادل أسـرى خرج «سـمير» إلـى نـور الوطن العربي الكبير، فلم يصـدِّق الفـارق بين الفكرة وصورة الفكرة، ولم يصدق التنافر بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفاضلة السجناء التقليدية بين الحرية الخارجية الشكلية وبين الحريـة الداخلية المجازية المنبثقة من تماسـك اليقين، وسـلام النفـس، والارتبـاط بالخارج بربـاط المثال. لقد ألفنا شـكوى الخارجيـن من حريتهـم الداخلية إلـى حريتنا المُشَـوّهة، وألفنا

خيبتهم من كُلِّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصـوّرهُمْ عن الخارج. قال لي «سـمير»، حين التقيته بعد عشـرين عاماً في دمشق: أهذا هـو الوضـع؟ ليس مـن أجل هذا دخلـت. وليس مـن أجل هذا خرجت. ولكن ما فيه من وفاء لارتباط الإطار بالفكرة حال دون ذهابـه بالخيبة إلى منتهاها؛ إلى اسـتبدال الإِطـار والأداة بما هو أكثر توازناً وانسـجاماً. كان شـديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحـام بها. وليس في وسـع رجل مثلي ـ قـال ـ أن يغيّر جلده، لا خوفاً من إرهاب المؤسسـة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصـر التوازن. فلا أعتبر نفسي ـ سواء أكنت في هذا التنظيم أم في ذاك ـ خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع تبعية بعضـها، وهي لا تشـملني، إلى هذا النظام أو ذاك. كان يسـيّج نفسـه وتميُّزها بالجنـاح المطلق من الفكرة. كان يخشـى أن يـؤدي أيُّ تعديل في إطـاره إلى الطعن في صـدق تاريخه وفي حـرارة تضـحيته، لأن الاعتراض – في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سُـلّم قيم – قابلٌ للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسـفر مثل هذا النوع من «الحوار الوطني» إلاّ عن اغتيال، ولم يبرأ من تراشق هذه التهم أحدٌ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصـل أسـئلته الجارحة عن الحرية في السـجن، والسـجن في حرية قابلة للفسـاد وإلغاء نظام العقوبات، حتى لو تمكن أحد الناطقين باسم هذه الحرية من تدمير بناية على ساكنيها لتصـفية حساب مع عضـو في التنظيم، دون أن يفقد عضويته في

القيادة، وحقّه في تمثيل نظام عربي تمثيلاً مُدَوّياً في القيادة! لعلّ المحاكمة التي تستحقها الثورة هي أنها كانت خالية، وما زالت خالية، من تقاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المدوية. واقتصرت المحاكمة على تتبُّع جنايات أخلاقية يرتكبها شهداء المستقبل خلال بحثهم عن متعة عابرة في سيجارة حشيش، أو امرأة تغوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير» وعلى أمثاله الخارجين من السجون الإسرائيلية، أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» تعبّر عنه الثورة في علاقاتها بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟ لم يتمكن من إدمان هذه التقاليد، الملتبسة، لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي يتطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية، والقمة العربية، وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدّت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من تضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة!.. ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية، انخرط في موجة تساهل عام جَرَفَتْنا جميعاً إلى شاطئ القدرية.

.. ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربر. لن تعرفه ـ قالوا لي. وإذا كنت تحبه ـ قالوا لي ـ فصلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة.. فقد دخل في «الكوما».. دخل في الموت حيّاً..

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام

السجن المؤبّد بالإِعدام قصفاً بالطائرات. مات «سمير».. مات حَبَق العائلة.

.. لا أُريد أن أموت، مشوّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة.. في الشارع. أتمنى أن أحترق تماماً.. أن أتفحم، فلا يعثر دود الرواية إيّاه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم..

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة.. لأبرر سيري في شارع لا قطّة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارج الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. تهبُّ عليَّ كما تهبّ الرياح. تنزل كما يهطل المطر. تتحرك كما يتحرك الزلزال. لا تستطيع الإرادة البشرية أن تفعل حيالها شيئاً كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ ما تمخّض عنه الخيال البشري من إبداعات الشر الخارقة، وما بلغته التكنولوجيا من تقدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليوم أطول يوم في التاريخ؟ لا أحد يغسل الموتى، فليغسل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، وأستخدم كل قطرة منها بحرص فائق. لكُلّ قطرة دور. أكاد أعُدُّ قطرات الماء. خمسمائة قطرة لغسل الشعر. ألفان للجسد. مائة للفم. مائة للحلاقة. عشرون لكُلِّ أُذن. خمسون لكُلِّ إبط.. و.. و.. لكُلِّ قطرة قطعة من الجسد.

ما الماء؟ من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ما الماء؟

كيماويـاً: H_2O. يـاء. دال. اثنـان. ألـف. أهذا هو كل شـيء؟ ولكن، ما هذه النشـوة التي تفتح الجلد لتوصلنا إلى عيدٍ هناك.. في أرجاء الجسد وضواحيه فنقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحواس وما يحيط بها من هواء. الماء هو الهواء المقطّر الملموس المحسـوس المغموس بالضوء. ولهذا حثّ الأنبياء شعوبهم على حـب الماء (وجعلنا من الماء كل شـيء حي). أتذكر رسـالة ابن فضـلان فأتقزز من ماء في وعاء كان يغسـل جيشـاً بأكمله. لقد قطع عنا ممثلو الصـليبيين الماء، بينما كان صـلاح الدين الأيوبي يرسـل الثلج والفواكه إلـى أعدائه «لعل قلوبهم تـرقّ» كما كان يقول. وأضـحك فجأة من أغنية تقول «الميّة تروي العطشان»، وأتسـاءل: كيـف عـرف المغنّي هـذا الاكتشـاف المبهر؟ وفي تـل الزعتر كان القتلة يصـطادون الفلسـطينيات علـى نبع الماء، على ماسـورة الماء المكسورة، كما يصـطاد الصيادون الغزلان العطاش. الماء القاتل. الماء المخلوط بدم العطشى الذين غامروا بحياتهم من أجل كوب ماء. الماء الذي أشـعل حروب البدو في الزمان القديم. الماء الصـالح لتحسـين شروط التفاوض لدى من لم يلمس الماء إنسـانيتهم اليابسة. الماء الذي حَرَّك ملوك العرب وحمّلهم مشـقة الاتصـال الهاتفـي بالرئيس الأميركـي لإجراء مقايضـة رابحة: خذ الدم، وهات الماء. خذ النفط وهات الماء. خذنا، وهات الماء!

وصـوتُ الماء ضجيج عرس، أعلى أعلى من أصوات الطائرات.

صوت الماء مرايا لعروق الأرض الحيّة. صوت الماء هو الحرية. صوتُ الماء هو الإنسانية.

وما إن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عودة الماء إلى بيروت الغربية حتى يهبّ المحاصرون إلى حنفياتهم إلاّ نحن.. نحن سُكّان هذه البناية العالية، العالية إلى أعلى نداء العطش. فقد حاصرنا صاحبها قبل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجُنّ هو بسلطته: السلطة على الماء. ما إن يتشاجر مع أحد المستأجرين، أو مع زوجته، أو مع حسابه في البنك، حتى يهبّ إلى قطع الماء عنا جميعاً. لذلك ربّى فينا، من زمان، هذا الصبر على الماء. ربّى فينا مدائح الماء. وعلّمنا أن نفرح بالماء، حين يتدفق ساعة، كما لم تفرح به قبائل داحس، وحوّلنا إلى حراس أنابيب، نتجسّس منذ الفجر على صوت الماء المرتقب. وحين نسمع غرغرة الماء نعلن العيد ونجمع ما تهبنا رحمته في الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البناية كنز نجلّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّدنا حديث الماء وحوَّلنا إلى عائلة واحدة. ولكن صاحب البناية يغار من شارون، وينافسه في السادية. فحين تبتهج بيروت الغربية بالإفراج عن الماء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا تشملنا ولأن الماء لا يصل إلينا. نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. اغفر لنا ذنوباً لم نرتكبها يا أبا ربيع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. وما من سميع وما من شفيع، إلى أن اضطررت إلى الاستعانة باللجان

الشعبية المسلحة التي أفرجت عن الماء بقوة، فنسينا الحرب ونسينا الحصار من فرط ما فرحنا بالماء..

لي.. ولمن اكتوى، مثلي، بجروح الماء، قدّم «ابن سيده» أسماء الماء ونعوته، هذا غيض من فيضها:

ماء. ماءة. مويه. أمواه. مياه. ماهة. بلال. رجع. أبيض. أسود. عتيق. عدّ. كَرَع. غَمْر. عُلْجوم. بَلاثِق. زَغْرُب. السعْبَر. الطيْس. الطيسل. الرَيْب. الجوار. الخِضْرَم. القَلَيْذَم. العُبام. الهُرْ. الهرهور. الهرهار. الهراهر. اليهمور. الزمزم. الزُمزوم. الزمزام. القاموس. الجُراجر. اليهيري. الضحضاح. الكوثر. الأهْيَغ. الجبجاب. الهُلاهل. الطرطبيس. البثق. الحائر. الحَفْل. الأزْيَب. الثَمَد. المشفوه. المضفوف. الرقراق. الرقّ. الفَراش. الطَسْل. الضَهْل. السَمَل. البرْضُ. النُطْفة. الرزَغ. الصُبّة. الشَوْل. الرَفَض. الخِبْط. الصُبابة. القصملة. الصلاصل. الصُلْصُل. الذُفاف. الذُفّ. الذُفف. القطرب. الزَرْجُون. المَزّة. المجّة. النُقْمة. النُغْبة. المُكْلَة. النُشْفة. الغُرْفة. القُرحة. الحُسْوة. المُزْعة. السؤر. الوَشَل. اللزب. الجحْقة. الهلال. الرشْفُ. الطمْلَة. الدعْث. الحَيْل. الطلح. النقَاخ. الزلال. الفُرات. الرُضاب. الفضيض. الشريب. الشروب. الهُجُهج. المُخْضم. الزُعاق. الذُعاق. النمير. المَسُوس. الباضع. الغريض. البُسر. الحنبريت. القراح.

وغيرها.. وغيرها.. وغيرها.

□□□

.. أهبط على الدرج الحجري الطويل وسط الزجاج المهشّم. لا أعرف إن كانت الطوابق السفلى قد أُصيبت. وأتساءل: ماذا أفعل لو انقضّت عليَّ جثة؟ كيف سأحملها ولمن أنقلها؟.. ماذا أفعل لو لم أجد أحداً أتحدث إليه، لمن أنقل كلامي ومن يشاطرني صمتي؟ سأُصفِّر لحناً.. مطلع أغاني بيروت المتفجرة من هذه الحرب. لم تكن بيروت للغناء، ولم يستخدم الشعر اللبناني اسم بيروت القابل للاستعمال في جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة.. وماذا أفعل لو لم أجد قطة أُداعبها؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا أُستاذي. هكذا كنت أُخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادئ، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل عن منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفياً في أوروبا، ثم أقام في شقة ابنته. كنت أزوره يومياً وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعراً مجدداً، ولعله أول من كتب قصيدة النثر ثم توقف عن كتابة الشعر ليتفرغ، كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والإدارة والموزِّع والمصحِّح. لم تعادل شكواه من وحشية القصف غير شكواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس إليَّ وإلى أحفاده، ويتقبّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه إلحاح الطائرات المغيرة:

كفى، ماذا تريدون منّا. نحن نعرف أنكم أقوى منّا. ونعرف أنكم تمتلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا تريدون منا.. كفى! كانت زوجته تزجره: دعهم.. وشأنهم.. عايزين يضربوا.. وأنت مالك ـ تقولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن تخجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين. وكنت أمازحه لأقطع تيار الحرب المكهرب: حقاً، لماذا تعرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا تضحك. كانت في داخلها التربوي المعادي لما هو خارج طائفتها تحتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الإسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير الجميل. كانت تعتقد أن هذه الحرب هي مجرد تطوع إسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين. وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها إلى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الإسرائيليون من حيث جاءوا دون أن يحصلوا على أيّ أجر. كان في وسعك أن تجادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون أن تنفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس. يا سيدة لبنان احفظيه لنا!.. ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الإحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر». ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب. فأمام مثل هذا الانغلاق الصلب والتشكّل النهائي تتوقف محاولات الإقناع. وعبثاً حاول الأستاذ، ذو الماضي العلماني، أن يقنعها بأن الإسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وأن صاروخاً واحداً من طائراتهم سيحولنا،

نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة، إلى كَفْتة! وهي، هي المحصنة بيقينها النهائيّ، تحبُّ المناقشة العقيمة. ويسألني الأستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنب الاستفزاز وما قد تغدقه عليَّ من باطن، قائلاً: ليست تلك مشكلتي، فتحرك الماء الراكد:

إذن، ما هي مشكلتك؟

أُناور قائلاً: مشكلتي هي أن أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تتهرب مما نحن فيه. أنت تعرف أن لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت تعرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا تعرف؟

أقول: أعرف أن للماء لوناً وطعماً ورائحة.

تقول: لماذا لا تذهبون إلى بلادكم وتنتهي المشكلة؟

أقول: هكذا. ببساطة. نعود إلى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟

تقول: نعم.

أقول: ألا تعرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى بلادنا؟

تقول: إذن حاربوهم.

أقول: ها نحن نحاربهم. ألسنا في حالة حرب؟

تقول: أنتم تحاربون لتبقوا هنا، ولا تحاربون لتعودوا.

أقول: كي نعود إلى هناك. لا بد من أن نكون في مكان ما، فالعائد – إن عاد – لا يعود من عدم.

تقول: لماذا لا تقيمون في البلاد العربية وتحاربون منها؟

أقول: قالوا لنا ما تقولينه الآن لنا. طردونا. وها نحن نقاتل هنا مع اللبنانيين دفاعاً عن بيروت، ودفاعاً عن وجودنا.

تقول: حربكم بلا هدف ولا توصل إلى نتيجة.

أقول: ربما لن توصل إلى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.

تقول: عليكم أن تخرجوا من هنا.

أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وها هم يمنعوننا من الخروج. ولكن، ألا يعنيك إلى أين سنخرج؟

تقول: لا يعنيني.

وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يا لبنان. ارتفع من إذاعتين متحاربتين.

قلت: ألا تحبين هذه الأغنية؟

قالت: أُحبها. وأنت؟

قلت: أُحبها كثيراً، وتوجعني.

قالت: بأي حق تُحبّها؟ ألا ترى إلى أيّ حد تماديتم.

قلت: إنها أغنية جميلة.. ولبنان جميل. وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن تحبّ القدس.

قلت: أُحبّ القدس. والإسرائيليون يحبون القدس ويغنون لها. وأنت تحبين القدس.. وفيروز تغني للقدس.. وريكاردوس أحب القدس.. و..

قالت: لا. أنا لا أُحبُّ القدس.



الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمة من فولاذ. لمن أقدم صمتي البريء. صار الشارع أعرض. أمشي على مهل. وأمشي على مهل.. وأمشي على مهل كي لا تخطئني طائرة. يفتح العدم أشداقه ولا يبتلعني. أسير بلا هدف كأنني أتعرف على هذه الشوارع للمرة الأولى، وكأنني أسير عليها للمرة الأخيرة. وداع من طرف واحد. أنا المُشَيِّعُ والمُشيَّعُ. لو قطة.. لو أجد قطة. لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى. لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صوت. لا صمت. لا حرب. لا سلام. لا حياة. لا موت. لا نعم. لا لا. تزوّج الموجُ طحلبَ الصخرة على شاطئ بعيد وخرجتُ، للتو، من هذا الزواج الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنا. لم أعرف مَنْ أنا. لم أعرف ما اسمي، ولا اسم هذا المكان. لم

أعرف أن في وسعي أن أمتشق ضلعاً من ضلوعي لأجد فيه حواراً لهذا السكون المطلق. ما اسمي، مَنْ سيُسمّيني: آدم!.

□□□

«... ثم إن الله خلق، بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، سحاباً رقيقاً هو الغمام الذي قال فيه النبيّ (ﷺ)، وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خَلقَ عرشه على الماء.

قلت: هذا فيه نظر، لأنه قد تقدم أن أوّل ما خلق الله تعالى القلم وقال له: اكتب... فجرى في تلك الساعة، ثم ذُكر أن الله خلق بعد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحاباً، ومن المعلوم أن الكتابة لا بُدّ فيها من آلة يُكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يُكتب فيه، وهو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم.. ويحتمل أن يكون تُرِك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحّاك عن ابن مزاحم عن ابن عبّاس: أوّلُ ما خلق اللهُ العرش، فاستوى عليه. وقال آخرون: خلق الله الماءَ قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء.

وقيل: إن الذي خلق اللـه تعالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خلق قبل العرش أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي (ﷺ)، وقد قيل: إن الماء كان على متن الريح حين خُلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن أبي عباس، فإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن اللـه خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بألف عام.

واختلفوا أيضاً في اليوم الذي ابتدأ اللـه تعالى فيه خلق السموات والأرض. وقال عبداللـه بن سلام، وكعب، والضحّاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد. وقال محمد بن اسحق: ابتداء الخلق يوم السبت... وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيما خلق كُلّ يوم، فقال عبداللـه بن سلام، إن اللـه تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يومي الخميس والجمعة، ففرغ في آخر ساعة من الجمعة، فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه: إن اللـه تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عبّاس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعود: إن اللـه عزَّ وجلّ كان

عرشـه على الماء، ولم يخلق شـيئاً مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسـما عليه، فسـمّاه سـماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضـاً واحدة، فَتَقَها فجعلها سـبع أرضـين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره تعالى القرآن في قوله: ﴿ن والقلم﴾. والحوت في الماء. والماء على ظهر صفاة، والصَـفَاةُ على ظهر مَلَك، والملك على صـخرة، والصخرةُ في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لُقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضـطربت وتزلزلت الأرضُ، فأرسى عليها الجبال فقرّت.

قال ابن عباس والضـحّاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كُلُّ يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

.. واختلـف العلماء فـي الليل والنهار، أيُّهما خُلِق قبل صـاحبه، بعضـهم يقول: «إن الليل خلـق قبل النهار. وقـال آخرون: كان النهار قبل الليل، واسـتدلوا بأن اللـه تعالى كان ولاشيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضـيء له كل شـيء خلقه حتى خلق الليـل. قال ابن مسـعود: إن ربكم ليس عنده ليـل ولا نهار. نور السـموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عميـر الحارثي: كنتُ عند علي فسـأله ابـن الكوّاء عن السـواد الذي فـي القمر فقال: ذلـك آيةٌ محيـت. وروى أبو جعفر حديثاً طويـلاً عن ابن عباس عن النبي (ﷺ)، في خلق الشـمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكلِّ عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من

الملائكة، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليتهما من الكسوف...».

ابن الأثير [«الكامل في التاريخ»]

□□□

.. أسير وسط الشارع تماماً، ولا يهمني أن أعرف إلى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أَخرج من شيء ولا أدخل في شيء. ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها..

لم نفهم لبنان. لم نفهم لبنان أبداً. ولن نفهم لبنان. لن نفهم لبنان إلى الأبد..

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيّلة تُعيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة بل لأنها في حاجة إلى أن تضع للخيال موطئ قدم. شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو والحوار والمنتج والمخرج، ونوزِّع الأدوار دون أن ننتبه إلى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين نرى إلى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفِّق للصورة ناسين أنها من صناعتنا. وما أن يتحول الإنتاج إلى إعادة إنتاج حتى نُصَدِّق أن «الآخر» هو الذي يشير إلينا.

هل كان في مقدورنا أن نرى بشكل آخر غير ما يُسَهِّل علينا تأليب الواقع على ماديته؟ بنيتُنا التحتية هي المعنويات. ماركس واقفاً

على رأسه، معيداً هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكافيللي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

أَلأَنّ لبنان هو هكذا، يستعصي على الدراسة والإدراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورّط بمحاولة الإجابة، بقدر ما أزجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُناعه، لا مُدمِّروه ولا بُناتُهُ، لا حُلفاؤه ولا أصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون، ألأنَّ الواقع المفكَّك لا يُدْرَك، أم لأن الوعي المفكك لا يُدْرِك...؟.

ولا أُريد جواباً صحيحاً، بقدر ما أُريد سؤالاً صحيحاً.

لم نر من لبنان غير اللغة التي تُشيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها إلى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبد الناصر الذي خاطب في سكان القارة المتحولة إلى فسيفساء حاسّة الغياب المرهفة، وسمّى من النهر ضفافاً تُخفي ما في النهر من وحل، وطوائف، وقبائل كانت تجدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب.. إلى أن انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو..

أن نرى ما تريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شرط حياتنا إلى هذه الرؤية، المنحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها إلى وعدٍ تراجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو..

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تتحول فيه العزلة إلى بوصلة صواب، والأقلية المترسبة من مشروع الأكثرية - إلى هداية.

فيديو..

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا تحيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، إلى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد، تجري أثناءه الأنظمة عملية تثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الإقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو..

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أُخته تحت مسلم، وإلاّ فبنت أُخته، لا يصلح حليفاً حقيقياً ضد الإنكليز الذين يحاصرون عكا..

وفيديو..

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة تضمن نهاية الحروب، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع، ونقله من موضوع دعوة إلى موضوع انشقاق وفتنة.

وفيديو..

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والإفرنج، في هذه الشروط المعاصرة لا يرمي إلى ضمان احتفاظ العرب بما تبقّى لهم من

قلاع ومدى، لمواصلة الصراع، بل يرمي إلى منح العدو هدنة توفر له إمكانية تأسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء إلى قاعدة.

فيديو..

لأن هذا الضلع من الجزيرة، الضلع المكسور، مطلوب للمحاكمة بتهمة الاعتداء على راحة العروش بترويج كلمات ممنوعة التداول في الأطراف العربية: امرأة، معارضة، كتاب، أحزاب، برلمان، حرية، خنزير، ديموقراطية، شيوعية، علمانية.

وفيديو..

لأن فلسطين تتطور من وطن إلى شعار ليس للتطبيق، بل للتعليق على الأحداث، ولتزويق خطاب الانقلاب، وحلّ الأحزاب، ومنع زراعة القمح، واستبدال الكدح بالربح السريع، وإلى تطوير صناعة الانقلاب، الثقيلة منها والخفيفة، إلى أن يُعْقَد القِران على آخر حفيدات الخليفة.

وعلى الحدود، تُعلن الحرب على الحدود.

لذلك، كان علينا أن نرى من لبنان ما رأيناه من صناعة الأمل، وجه البطولة الساطع المتفجر من المدافعين عن يأسهم العظيم أمام أمل الصَدَفة المنغلقة ومن هجوم بحر الصحراء على جزيرة الروح الصغيرة. أسماء الأمكنة تضيق وتضيق وتنكمش. من الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج إلى ما هو أضيق: شرم الشيخ، جبل الشيخ، الضفة الغربية لنهر الأردن، مدرسة البنات في نابلس، حارة السجعية في غزة، غاليري سمعان، شارع أسعد الأسعد في

بيروت، فندق طابا في سيناء، بئر العبد هنا، مخيم شاتيلا، مستديرة المطار، إلى متراس أخير بعده الصحراء أو البحر...

□□□

لتتقدّسْ أيديكم، أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير..

لتتقدّسْ أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة.

وليتحول ظلكم المحروق إلى رماد عنقاء يجدِّدكم لتبنوا منه ومنكم مغارة لطفل يُولد.

ولتنبت أسماؤكم حبقاً وريحاناً على سهل يمتد من خطاكم، سهل لتهتدي حَبَّة القمح إلى ترابها المسروق؛

أيها المشرقون فينا أقماراً يعجنها دم سخيّ ينادي حُرّاس القلعة الهاربين إلى صفوف الأَعداء، فلا يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!..

من آثار خُطاكم، الخطى التي لا تخطو إلاّ تحت أو فوق، سنلُمُّ الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمُّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور سندلُّ القبائل على حدود أسمائها.

.. وحدكم!

فاحموا حدّ النشـيد، كما تحمون، مما يثلم القلب في هذه البريّة الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلٌ من النافذة..

.. وحدكم!

البحر من ورائكم، والبحر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلاّ هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

.. وحدكم

فارفعوا مائة مدينة أخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي..

دلّونـا علينـا لنفرغ ما فينا من حمولة جثث ليسـت لنا، ومن ثمر فاسـد تدلّى من لغة ليست لنا، ولنتابع المشي على خطانا لا على خطى قيصر.. لصّ الهوية والطريق..

لم يبق لنا من موت إلاّ موت الموت..

وحدكم،

تحمون سـلامة هذا السـاحل مـن اختلاط المعانـي، فلا يكون التاريخ سلس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتتقدّس أيديكم أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير.

– وداعاً سيدي

– إلى أين؟

– إلى الجنون

– أيّ جنون؟

– أيّ جنون... فقد صرتُ كلاماً..

□□□

.. مَسّـني ما مسّني من حماسة. وواصل الفضاء المحتل، والبحر المحتل، وجبل الصنوبر المحتل قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سيَر خروج لا تنتهي. لم يعد لي وطن، ولم يعد لي جسد. وواصل القصفُ قصف أناشيد المدائح وحوارات الموت المتحركة في دم كالضوء يحرق الأسئلة الباردة. عمَّ أبحث؟ عن امتلاء بالبارود، عن تخمة لغضب النفس. تدخل الصـواريخ في مسام جلدي وتخرج سالمة. ما أقواها! ولا أُحسُّ بالجحيـم التي يوزعها الهواء ما دمت أَتَنَفَّسُ الجحيم وأَتَصَـبَّبُ جهنم. وأُريد أن أنشد. نعم، أن أُنشد لهذا النهار المحروق. أُريد أن أُنشـد. أُريد أن أجـد لغة تحول اللغة إلى حديـد للروح، إلى لغة مضـادة لهذه الطائرات.. الحشرات الفضـية اللامعة.. أُريد أن أُنشد. أُريد لغة تسندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوة الغلبة على هذه العُزلة الكونية، وأمشي..

.. أمشـي لأراني ماشياً، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي. في منتصف الشـارع، منتصف الشـارع تماماً. تنبح عليَّ الوحوش الطائرة. تبصـق نارهـا ولا أُبالي. لا أسـمع إلاّ وقع خطاي على الإسـفلت المحفـور. ولا أرى أحداً. عمَّ أبحث؟ لا شـيء. لعلّ عناد التحدّي الذي يخفي خوف الوحدة، أو الخشية من الموت

بين الأنقاض هو ما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حد ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام، وضوضاء التجارة تخفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت من مدينة إلى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالة. كانت تطبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا تنتبه إلى ذاتها. كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة حرية. وكانت جدرانها تحمل موسوعة العالم الحديث. وكانت مصنع ملصقات. وقد تكون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات إلى مستوى الجريدة اليومية. ولعل قدراتها التعبيرية المتشكلة من تنوع، وموت، وفوضى، وحرية، وغربة، وهجرة، وشعوب، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير إلى خصوصية. وجوه على الجدران، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة، موت يُعيد إنتاج موته. شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه إلى أن يزيحه شهيد جديد أو مطر. وشعارات تمحو شعارات، تتبدل، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية. كل ما يحدث في العالم يحدث

هنا، انعكاساً تارة، ونموذجاً تارة، وقد يتشاجر مثقفان في مقهى باريسي، فينقلب شجارهما الكلامي إلى اشتباك مُسَلَّح هنا. لأن على بيروت أن تتضامن أو تتزامن مع كل جديد، ومع كل قديم يتجدّد، ومع كل حركة جديدة ونظرية جديدة. سينما ثورات سريعة الدوران. فيديو للتطبيق المباشر. القائد الجديد أو النجم الجديد، في أي مجال، مرشح ليكون قائدها أو نجمها. تطفح جدرانها بالصور والكلمات، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل. لذا، فإن أعمار النجوم والقادة قصيرة، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر، فالجمهور ليس هنا، بل لأن السباق يجري على النمط الأميركي ولو كانت أهدافه معادية لأمريكا، فهنا مندوبون دائمون لأيّ وعي جديد، ولأية نغمة جديدة، ولأية طفرة جديدة، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلاً على الإفراط في اليسارية، إلى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلاً على الأصالة، إلى تلقف كل إشارة تضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق، دليلاً على هبوب ريح الشرق. هنا محطة تحويل كونية لكُلّ خروج عن السياق، وتعميمه إلى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه، ومائه، وبدفن قتلاه...

أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد. أتذكّر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمشِ فيه أحد. وأتذكّر أن أحداً لم يكن معي قال لي:

– دَعْكَ من هذا الحوار، وتعال معي.

– إلى أين؟

ـ لترى هذا الرجل.

ـ ماذا يفعل هذا الرجل؟

ـ يذهب إلى بيته.

ـ ولكنه يمشي إلى الأمام ويعود إلى الوراء.

ـ تلك طريقته في المشي.

ـ إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

ـ راقبه جيداً. عُدّ خطواته..

واحدة، اثنتان، أربع، سبع، تسع، إلى الأمام.. واحدة، اثنتان، ثلاث، سبع، ثمانٍ إلى الوراء..

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ إنه يمشي. في هذه الطريقة وحدها يعرف الطريق إلى البيت: عشر خطوات إلى الأمام وتسع خطوات إلى الوراء. أي أنه يتقدم خطوة.

ـ وإذا سرح ذهنه، وأخطأ في العدّ؟

ـ عندها لا يصل إلى بيته.

ـ هل تعني شيئاً؟

ـ لا أعني شيئاً...

□□□

.. قريباً من فندق «الكافاليه» نظرت إلى ساعتي. هل صحا

الشـاعر (ي) من النوم؟ من يسـتطيع النوم تحت هذه القطعان من الطائرات؟ أثار فضـولي أن أعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغة لهذه اللغة. و(ي) هو الشـاعر صـاحب القصـيدة اليومية، المرئيـة، المتأنية، القادرة على التقاط تفاصـيل دالّة على جوهر إنسـاني. هو الشـاعر القادر على تحريك الفرح من الركام وعلـى إيقاظ الدهش. وهـو حين يكتب يغنيني عـن الكتابة، لأنه يقـول نيابـة عنا ما نحسُّ بالرغبـة في قوله. يملأني بشـجن يوقظ صـفاؤه فيّ مادة الفرح. وما دام هذا الشاعر يكتب فلن أجد دليلاً ملموسـاً على مأزق الشـعر. وهو باختصار شـاعري. التقيته أول مرة في بغداد. وسـرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشـرب ما تُيَسّره المائدة من كحول لا تتجانس إلاّ للتشاكس، فهو لا يعترف بفروق الكحول. الكحول هي الكحول. ما الفرق: بيرة، وسـكي، نبيذ، عرق، جنّ، كُلُّها تُجنِّن. وحين كان يوصلني في آخر الليل بسيارته إلى فندق «بغداد»، كان يحاول دفع السـيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا اسـتغاثتنا الصـاحية. قال ليهـدئ من روعنا: لا تخافوا، فأنا الآن موظف في دائرة الري. صحنا: الري؟ قال: الريّ، نعـم، الريّ. وأخيراً انتقل من دائرة الـريّ في بغداد إلى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أُمسـيات مشتركة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ أسابيع، في إحدى قواعد المقاتلين. رأيته ليلة أمس قرب فندق بلازا. تعرّف عليَّ وسـط الظلام الكحلي بواسـطة مصـباح يدوي، فصـرخ بي: كيف تسـير وحدك بلا حراسـة. قال: لماذا تقف هنا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب إلى غرفة العمليات.

□ □ □

أنتظر الشـاعر في ردهة الفندق. ولكن، لماذا يطلع الحلزون في وجهي. حلزون طويل. حلزون لا يكفُّ عن استعراض رخاوته. يلعب علـى المقاعد والجـدران. يدلق لعابه الأخضـر على فتاة تعـزف علـى البيانو. حلـزون يبكي. حلزون يضـحك. حلزون يسـكر. يدخل الشاشـة. يخرج من الشاشـة. يعلِّق بصره الزائغ على اللاشـيء. حلزون لا ينظر. يتهاوى. يتمايـل. يتأوه. يتنهد. يتخلّع. يتسـكع. حلزون يسـير على قدمين مـن مطاط يتأرجح. ولماذا يطلع الحلزون في وجهي هذا الصـباح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!

□□□

.. ينزل الشاعر من غرفته مُتّكئاً على جرادة..

أوف.. أهذه أيضاً. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان. نتعانق. أهزّ على كتفيه لأنفض عنه سـموات النعاس. كيف حالك؟ متشائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقول يا أخي. لم يتوقف القصف ثانيـة واحـدة. إنهـم يحرثـون المدينـة. أين كنت؟ في شـقتي. مجنون.. مجنون يا أخي كيف تنام هناك؟ غداً سأنام هنا.. ولكن أينقصـنا أن يُسفر القصـف عن حلزون وجرادة؟. ماذا تعني؟ لا أعني شـيئاً. عشـر خطوات إلى الأمام، وتسع إلى الوراء. النتيجة خطوة إلى الأمام. حسناً! هذا حسن..

حطت جرادة أُخرى، خائفة، على حضني. إرتَدَتْ عِفّة الخوف من الطائرات لتحتك بما يُحكّ. قلت لها مازحاً وناصحاً: هذا يوم

لا نهاية له. عندهم ألف طائرة تستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، وإذا واصلتِ الرد على كل غارة بهذا الاحتكاك، فإني سأجف، سأَصير رجلاً مثموداً! والتفتُّ إلى الشاعر: قل لي: لماذا تندلع شهوات الفتيات في أسوأ الحالات؟ أَهذا هو وقت الحب! ليس هذا وقت الحب. إنه وقت الشهوة الخاطفة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العَسَل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت تحته: يا أخي مش معقول.

هذا مش معقول. يا أَخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها. وتكوّم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على تخليص العبارة من تأتأة «ي». نضحك. كان علينا أن نضحك ونقهقه إلى حد أزعجنا معه فتاة البيانو. قلنا لها: ليس هذا وقت البيانو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات. وهذا وقت الحلزون.

هل تكتبان؟ سألنا «ف»..

«ي» يكتب يومياً.. وقرأ لنا إحدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: إني أختزن حتى الاختناق، وأُثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيدة.. ما جدواها بعدما تنتهي الحرب. ولكنني أَصرخ في لحظة لا يصل فيها الصراخ. ويبدو لي أن على اللغة ألا تزج

بنفسـها في معركة أَصـوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أَفضل.

– ولكن ماذا تكتب؟

قلت: أَتأتئ صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مفرُّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناعُ

لا إخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاعُ

لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ

ولا الأَمام ولا الوراءُ

حاصر حصارك.. لا مَفَرُّ

سقطتْ ذراعك فالتقطها

واضربْ عدوّك.. لا مَفَرُّ

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرُّ

حُرٌّ

وحُرٌّ..

قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة

فاضرب بها. اضرب عدوك.. لا مَفَرُّ

أَشلاؤنا أَسماؤنا. أَسماؤنا أَشلاؤنا

حاصرْ حصارك بالجنون

وبالجنون

وبالجنون

ذهب الذين تحبهم، ذهبوا

فإِمّا أن تكون

أَو لا تكون

سقط القناعُ عن القناع

سقط القناعُ، ولا أَحدْ

إِلاّكَ في هذا المدى المفتوح للأَعداء والنسيان

فاجعل كُلَّ متراس بَلَد

لا.. لا أَحد

سقط القناعُ

عرب أَطاعوا رُومهم

عرب وباعوا روحهم

عرب .. وضاعوا

سقط القناعُ

سقط القناعُ

.. سألنا «ف»: إِلى أَين ستخرجان؟

قال «ي»: إلى عدن..

– وأَنت؟ سألني

قلت: لا أَعرف..

صمت. صـمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحداً في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسـار ونحن نستعدُّ لاسـتيعاب عملية انتقال الواقع، برمتـه، إلى ذكريات تتألّف على مـرأًى منّا. ونحن نبتعد لنشـهد صـيرورتنا إلـى ذكريات. نحن الذكريـات. ابتداءً من هذه اللحظة سـيتذكر بعضـنا البعض كما نتذكر عالماً بعيداً تلاشـى في زرقة صـارت أَشدّ زرقةً مما كانت عليه. سـنفترق فـي أَوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعـرف الحقيقة: سـنخرج. ونعرف قسوة أَقسـى لا يجرؤ أَحد على أَن يُرى وهو يراها: أن الناس معنا لأَننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أعرف إلى أَين أخرج. ولأَنني لا أَعرف إِلى أَين أَخرج، فلن أَخرج.

وسألت «ف»: وأَنت؟

قال: أنا باقٍ. أَنا لبناني. وهذه بلادي. إِلى أَين أَذهب!

خجلت من سـؤالي، ومن فرط ما صـارت بيروت نشـيدي... ونشيد مَنْ لا وطن له!... خجلت من شدّة التباس الفكرة.



«.. في ذلك اليوم خرج يسـوع من البيـت وجلس عند البحر. فاجتمعـت إليـه جموع كثيرة حتـى أنه دخل السـفينة وجلس. والجمـع كُلُّـه واقف على الشـاطئ فكلمهم كثيـراً بأَمثال قائلاً هـو ذا الـزارع قد خـرج ليزرع. وفيمـا هو يزرع سـقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. وسـقط آخر على الأَماكن المحجرة حيث لـم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أَرض. ولكن لما أَشـرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أَصـلٌ جفّ. وسقط آخر على الشـوك وخنقه. وسقط آخر على الأَرض الجيدة فأَعطى ثمراً...

«... ثـم خرج يسـوع مـن هناك وانصـرف إلى نواحي صـور صـيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صـرخت إليه قائلة إِرحمني يا سـيّد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً. فلم يُجبها بكلمة. فتقـدم تلاميذه وطلبوا إِليه قائلين اصـرفها لأَنها تصـيح وراءنـا. فأجـاب وقال لم أُرسَـل إلاّ إلـى خراف بيت إسـرائيل الضـالّة. فأَتت وسجدت له قائلة يا سيّد أعنِّي. فأَجاب وقال ليس حسـناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب. فقالت نعم يا سيّد. والكلاب أَيضـاً تأكل من الفتات الذي يسـقط من مائدة أَربابها.

حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها يا امرأَة عظيمٌ إِيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة»

[إنجيل متّى]

□□□

.. وفي فندق الكومودور، معقل الصحافيين الأَجانب، يستجوبني كاتب صحافي أميركي: ماذا تكتب أيها الشاعر في الحرب؟

– أَكتب صمتي.

– هل تعني أن الكلام للمدافع؟

– نعم. صوتها أعلى من أي صوت.

– ماذا تفعل إِذن؟

– أَدعو إلى الصّمود.

– وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟

– لا. المهم أَن نبقى. بقاؤنا انتصار.

– وماذا بعد ذلك؟

– سيبدأُ زمن جديد.

– ومتى تعود إلى كتابة الشعر؟

– حين تسكت المدافع قليلاً. حين أُفجر صمتي المليء بجميع هذه الأَصوات.

حين أَجد لغتي الملائمة.

– أَليس لك من دور؟

– لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أَكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

.. لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائماً لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أَقلامهم السّامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: ما لكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتّاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس تقصيرهم أو هروبهم هو الذي يهيل البنايات على سكانها. وفي أسوأ الأحوال ليست كتاباتهم هذه أدباً. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأَحوال. كلا - يقولون: هذا هو المحك الأول والأَخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن تولد القصيدة الآن، وإما أن تحرم من حقّها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أَذنتم لهوميروس أن يكتب الإِلياذة والأُوديسة؟ ولماذا سمحتم لأسخيلوس ويوربيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً - أَيها الكتّاب - فمن يستطع الكتابة الآن فليكتب. ومن يستطع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أَذنتم لي بأن أُبدي رأيي - ودون اتهام - فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاشى والباحثين عن الماء والخبز والملجأ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم، أو فاصمتوا إِذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب. وفي وسعنا أن نقدم خدمات أُخرى للناس، فإن تنكة من الماء تساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الإنسانية لا الجمالية

الإبداعية. فلْتوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر إيقاعه قليلاً؟ ألأَنّ الناقد لم يُعْجَبْ بر واياتكم وقصائدكم تضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن تطرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضّاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي بمفهوم الحدث، معزولاً عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث تحرث الطائرات أَجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة تُعادل قوة الغارة أو تقلب موازين القوى على الأَقل. إذا لم تولد القصيدة «الآن» فمتى تولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هيِ قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقّد يحتاج إلى جواب مُركّب كأن يتاح لنا القول إن القصيدة تُولد الآن: تولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا تصل إلى الحنجرة والورق. سؤال بريء يحتاج إلى جواب بريء لولا أنه مليء ـ في هذه الجلسة ـ بالرغبة في اغتيال الشاعر الذي يجرؤ على الإعلان أنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتزع من زمن الغارات هذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيته من تاريخ كتابته

الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيها كل شيء عن الكلام، لحظة تصوغ فيها الملحمة الشعبية تاريخها وإبداعها الجماعي. بيروت هي الكتابة الإبداعية المثيرة. شعراؤها الحقيقيون ومنشدوها هم مقاتلوها وناسها الذين لا يحتاجون إلى ترفيه وتشجيع على عودٍ مقطوع الأوتار. هم التأسيس الحقيقي لكتابة ستبحث طويلاً عن المعادل اللغوي لبطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف تستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجة إلى كسل، أن تتبلور وتتشكّل في أوج معركة لها هذا الإيقاع الصاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي - وكُلّ الشعر تقليدي في هذه اللحظة - أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفون! فسؤال الحياة والموت المهيمن الآن، سؤال الإرادة التي تدفع بأسلحتها كُلّها في هذه الساحة، سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والأُلوهي، أهمُّ من السؤال الأخلاقي عن دور الشعر والشاعر. ومن اللائق أن نحترم الرهبة التي تنشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الوجود الإنساني من ضفة إلى أُخرى، ومن طور إلى طور. من اللائق أن يعرف الشعر القديم كيف يصمت، في خشوع، أمام حضرة هذا المولود الجديد. وإذا كان من الضروري أن يتحول المثقفون أو بعضهم إلى قنّاصة، فليحاولوا قنص مفاهيمهم القديمة وأسئلتهم القديمة وأخلاقهم القديمة. نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف. نحن نولد تماماً أو نموت تماماً..

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولاً بسؤال آخر:

أَين الرسامون؟

قلت: أَيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رَسّامو بيروت.

قلت: ماذا تريد منهم؟

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة.

قلت: ماذا دهاك يا فايز؟ ألا ترى سقوط الجدران؟

□□□

.. لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهو، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببُصاق مُتَوّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملوّن، يرشوني بابتسامة حانقة، ويغمد خنجراً في نُخاعِي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليَّ رائحة العرق والعرق، ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، ليدس لي قبراً تحت الحذاء؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يشرئبُّ إلى المقعد والجدار، ليطلَّ على قلبي ويسرق حزن الليمون، ويهربه إلى قبطان سفينة لا تصل، ظنّها سفينة نوح ولم تصل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزداناً بحذوة حصان قتيل ظنّها وسام الشرف؟

ولماذا أرى الطاووس العجوز، مدججاً بمسدسين: واحدٍ لقتلي، وواحدٍ لقفاه الجَشِع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟

□□□

احترق المكتب. قذيفة بحرية جعلته مخزناً للفحم. احترق قبل وصولنا بساعات. أين نجد مكاناً لنتابع الثرثرة: مهنتنا الخالدة في الحرب وفي الهدنة. الثرثرة. أين نتابعها: نخرج، أم لا نخرج؟ فقد حسب المثقفون المنصهرون في ورشة الصمود الرائعة انصهاراً مدهشاً أن هذا السؤال هو سؤالهم. وحسبوا أن لهم حق الفيتو على القرار السياسي. وكان بعضهم يعتقد أن نشرة «المعركة» هي التي ستحدِّد مصير المعركة. وقرروا أن هذا المنبر الشجاع هو الذي سيشهد للتاريخ أن المثقفين هم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!

أَلسّاعة الحادية عشرة، وعشرين أَلف قذيفة، وثلاثين ثانية. خرجنا من المكتب إلى المحترق إلى فضاء مشتعل. السماءُ تعانق الأَرض عناقاً دُخانياً. تتدلّى مثقلة بالرصاص المصهور، برماديّ داكن لا يفتح انغلاقه العدميّ سوى لون برتقالي تَبُولُهُ الطائرات

الفضـية المائلة إلى بياض الوهج. طائرات رشـيقة، خفيفة، تثب على هواء آمن كأن فيه أَخاديد.

قـال: «ز»: هيّـا بنا. قلت: إلـى أين؟ قال: نبحث عن أيّ شـيء، عـن غداء مثلاً. ما الحالة؟ زفت. شـروط الخـروج مذلّة، ونحن نناور، نحاول أن نشـتري الوقت. بـأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمدافع مضـادة للطائرات نفـدت ذخيرتها، ببطولة شـباب حيّروا العلم العسـكري وحيّروا الجنون. إلى متى؟ إلى أن يحدث شـيء ما لن يحدث. لم يحدث تغيير. ما زلنا وحدنا. هل سيدخلون بيروت؟ لـن يدخلوا بيروت. سـيتكبدون خسـائر لا يتحملـون نتائجها. ولكنهـم يحاولون قضـم أطراف المدينة. حاولـوا عند المتحف وفشـلوا. معنويات الشـباب عالية، عاليـة جداً. إنهم شـياطين. يائسون من النجدة. يائسون من تحرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، ولذلك يقاتلون بجنون. هل يبلغهم حديث الخـروج؟ نعم، يبلغهـم ولا يصـدقون. يقولون: تلـك مناورة، ويقاتلـون. ويعرفون أن هذا الصـمت الذي يتـوِّج العالم يعطيهم منصّة الكلام. دمهم، وحده، هو الذي يتكلّم في هذا الزمن. وماذا سـنكتب في «المعركة» أمـام حديث المفاوضـات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال.

بيروت من الخارج: محاصرة بالدبابات الإسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي. بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت تعطش..

ولكن بيروت الداخل، بيروت من الداخل، تعد حقيقتها الأخرى،

تمتلك إرادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على إشراق معانيها: عاصمة الأَمل العربي..

بشعار «إنقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل، كالسم الناعم، يُراد لهذا الأَمل أن ينتحر في مسادة عربية منقولة عن الذاهبين إلى انتحارهم في أوج انتصارهم. والشرط الوحيد الذي يضعه مبتكرو لفظة «الإنقاذ» هو: الاستسلام. استسلام تاريخ من المعاني المسقيّة بالدم. استسلام كامل الغضب. استسلام كل السلاح. استسلام بلا تكاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازاً مضاداً، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى أعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نُشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدد دورة الدم في عروق الأَجيال كُلّها. إذ لا خيار لنا إلاّ الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني تجريدنا منه تجريدنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في إيقاظ القارة العربية النائمة تحت قمع الأَنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأَداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطئ محيطين.

وهو الأُفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود.

هكذا.. هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا تكون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..

.. وهكذا كما نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا تردد: الكلام إياه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: الصمود. قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟

□□□

صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأَنه أقوى، بل لأَنه مختلف وبعيد. صوت يسرق المكان ويهرول. صوت يقصُّ الفضاء ويُحدث تجويفاً في الضوء.

هيا بنا.. لم نعبر طريق الروشة منذ أيام. شارع عريض مهجور يتوسع من غياب الخطى، كأنه ملكية خاصة للبحر. بنايات تدخن. نار تهبط من أعلى إلى أسفل. حريق مقلوب. نوافذ تشيخ وتتساقط على مهل. وتصل إلينا استغاثات الطوابق العليا واضحة جارحة. ناس تحاصرهم النار والانهيارات التدريجية الخارجة من هول الصدمة الأولى. رجال الإِسعاف المدني كانوا هناك،

يحاولـون إنقاذ اللحم البشـري المعجون بالحديد والأسـمنت والزجاج.

لا أسـتطيع أن أشيح بوجهي عن مشـهد المكان المجروح. للدم علـى الأرض وعلى الجـدران جاذبيّةُ الوحشـية. لا أسـتطيع أن أنصـرف ولا أسـتطيع أن أخمد إحسـاس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأَن الطائرات ستعود لتقصـف هذا الحشد الشهيّ. بلّل وجهي ماء ساخن يبعثه احتقان الغيظ. شدّني صاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغـاروا من جديد. من جديد أغاروا. ما هذا اليوم؟ هل هو أطول يـوم في التاريخ؟ نظـرت إلى البناية المقابلة، نظـرتُ إلى مكتبي الصغير نظرة وداع أخير.

□□□

موجة من بحر، كنتُ أتابعها من هذه الشـرفة، وهي تنكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشّاق..

موجة من بحر تحملُ بعض الرسائل الأَخيرة، وتعود إلى الشمال الغربـي الأزرق، والجنـوب الغربـي الـلازوردي، ترجـع إلـى شواطئها وقد طرّزت انكساراتها بالقطن الأبيض..

موجة من بحـر، أعرفها، ألاحقها بالشـجن، وأراها وهي تتعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تتعب فترتاح على شـواطئ جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن تكون أنا، وأنا، لن أكون موجةً من بحر..

□□□

كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد منذ البداية. ماذا نُهديك؟ نباتات وورد. زهور ونباتات. حوّلتُهُ إلى ما يُشبه العش. أردتُ له أن يكون نصاً من نُصوص المجلة. حروف بُنيّة مطبوعة على ورق أصفر ويُطلّ على بحر. أردتُ له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردتُ له شبهاً بالقصيدة. ولكن، لا نكاد نُعلّق لوحة حتى تنفجر سيارة مُفخَّخة تحت، وتطيح كل ترتيب. وما كدت أسند رأسي إلى مرفق يدي اليُسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب. لقد رفعني دويُّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدتُ وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولتُ العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوَّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد. ردّ الحارس الفتى على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا تفعل؟ قلت: قال: أطلق النار. قلت: على مَ تطلق النار وفي أي اتجاه؟ لعلّ أحداً لم يسأله هذا السؤال من قبل، لذلك استهجنه، فهكذا يحدث دائماً. رد الفعل الفوري، التلقائي، وربما الغريزي، على أي حدث أو إحساس عنيف أو خبر أو إصابة كروية هو: إطلاق النار. مجزرة جديدة على الروشة: عشرون قتيلاً آخر من هذه الحُمَّى الجديدة: حُمَّى السيارات المفخخة التي أتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين.

لقد مهدت هذه السـيارات لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحويل هذا الحصار إلى حادث طبيعي. أحصنة طروادة معاصرة تصهل في الوعي: لا أمن ولا أمان في بيروت الغربية. وكل سيارة واقفة على رصيف هي وعد بالموت.. فليدخل البرابرة!

□□□

موجـة من بحر في يدي. تتسـرب وتفلت. تناور حول صـخرة صـدري، ثم تقتـرب، ترتخي، وتستسـلم. تسـتعين، لئلا تعود إلى طبيعتها، بشَـعْر الصـدر. حرٌّ ورطوبة. موجة كالقطة تقضم تُفَّاحة. ثم تقبلني بطيش العابث: يحق لي أن أحبك. يحق لك أن تحبنـي. ليس الحب حقاً، يا قطة، وأنـا الآن في تمام الأربعين.. تنزوي في ركن: وأنا نصـفُ قَمَرٍ أُنثوي يتبع ذكراً. حرّ ورطوبة. ولكن الجسد الصغير مُكَيَّف: دافئ في الشتاء. طريٌّ في الصيف. جسـد طازج كشـاطئ بحر جديد لم تلمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقترب. وتفصلني عنه رائحةُ حليب. لم لا نُعلِّق آب على كرسـي؟ لم لا نسبح في بياض النوم؟ وتغطي عينين لامعتين ليلاً. لأنك صـغيرة. تزأر: لسـتُ صغيرة. أنا نصـف قمر أنثـوي يتبع ذكراً. يتبع رائحة الهـال. ألا تحقُ لي السـباحة؟ ولكن، ليس هذا البياض بحراً، تغضب وتقضم تفاحةُ وأظافر يدها. أجمع الشـفتين بأصبعي لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. هـا أنت تحبني. اعترف بأنك تحبني. قل لي إنك تحبني. فلماذا لا تشرب ملحي؟ لأَن العطش يكسر أناقة روحي. تغضب وتعود إلى الركن، تقرفص في الركن: لا أريد الشِعْر.. لا أحب الشِعْر..

أريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان! من أجلِك لا من أجلي. ما شأنك أنتَ بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. تقف. تقترب. يخشوشن مُواؤها: أعطني شيئاً ألعب به، أعطني لعبة.. أي لعبة.. قطاً صغيراً مُتَوتراً مشدوداً أمرر عليه يدي برفق إلى أن يسيل لُعَابُهُ على صدري...

كانت الموجة توشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزّ صخور البحر، فطارت الموجة إلى الطريق.. وطرتُ إلى السرير.

□□□

.. منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا أعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك تفعل أمراً إدّاً مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفتُ إلى أين يأخذنا الموت..

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟ قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ «أي شيء» أيّ شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح. كنا في أول شارع الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظي أني لستُ كاتباً مسرحياً لئلا أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل تعرف أن عين الكاتب سلبية، كما أن أذن القائد سلبية. تفتنها المفارقة الجارحة

هنا والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مُدَمر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي، لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالونات للنميمة وبثّ الشائعات. وازدهرت تجارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة! وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم. وإعدام مقاتل رفض إطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى تنظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرّافة. و..

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل..

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا تعكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم تمر الطائرات. هل تعبوا؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرج الناس من الملاجئ. لا طائرات.. لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد – وهو ساكن الشقة – ورحل. حاول البعض أن يُشَهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حي، يهتم بالماركسية وعلم اللغة. عدّوا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هبّتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

.. وهذا الصوت لا نعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق، سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً ـ وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة ـ بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ تجاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألحَّ بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يَلُمُّ أشلاءنا.. ألحّ حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجأ، اثقبها. وانكحها. وخلِّصنا منها ومنك!

ولكن ذلك الصوت البعيد حرَّك فينا قلق الغابات الأولى السحيقة. مشيت أنا و«ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» تشهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجري ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن تحت شمس محجبة بجميع ألوان الرماد. نندس بين الحشود لنجد مكاناً للتطلع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض.

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربِّص بالعالم الذي ينشئه الإنسان على أرض لا تطل إلاّ على شمس وقمر وهاوية.. ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلّم

المشـي، والقراءة، واستعمال اليد، إلاّ لنصـل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرِّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذا الشيء؟

قنبلة فراغية، تحفر ما تحت الهدف فراغاً هائلاً يُجرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا تعديل ولا تغيير. وهناك، تحت، في الحيِّز الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، تحت، تحت ما كان تحتهم قبل ثانية، يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظل نائماً. ومن كان يحمل طبق القهوة يظل حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظل يفتح النافذة. ومن كان يرضع من ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائماً على زوجته ظل نائماً على زوجته.. ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط إلى الشارع، من غير حاجة إلى استعمال المصعد، فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الأرض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟ القائد كان هنا... وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرِّر ذلك لهم

إبادة مائة إنسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة الفراغية؟ كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الأميركية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الإنسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. إنهم حيوانات تدبُّ على اثنتين». كان عليه أن يجردنا من الصفة الإنسانية ليبرر قتلنا، فإن قتل الحيوانات - إذا لم تكن كلاباً - ليس محرماً في الشريعة الغربية. كان بيغن يستعيد تاريخ جنونه وجرائمه، فقد ظن أن جنوده، صيادي هذه الحيوانات، يقومون بنزهة صيد، فألقيت في وجهه مئات التوابيت المرفوعة على آلاف تصرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأَننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدق أن البشر هم الذين يحولون دون تحول الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كُل القيم وكل البشر، في كل زمان وفي كل مكان: محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: مَن الحيوان؟ لقد انقضّت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباح من أبادهم في دير ياسين، وغيَّبهم عن المكان والزمان، غيّبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب. ولكن تلك الأشباح تحاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشبح من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُوصر نبي الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت

قادرة على أن تكتب، وحدها، تاريخ البشر..

□□□

.. «وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأَبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأَن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكُل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكُل من معها في البيت لأنها خبأت المُرْسَلَين اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلّة إسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرَّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها وأخرجا كل عشائرها وتركوهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا. وحلف يشوع في

ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا».

[سفر يشوع]

.. وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الأوزاعي. كان الرجل المحاصر في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، ما لا يفصح عنه. كان يحاصر في قراءتنا الخاصة أكثر من ملك وقف خارج اللعبة، ويحاصر أكثر من رقعة. كان يخاطب الكناية. ويؤجل إذاعة خطب التأبين المليئة بالدموع الملكية والجمهورية والجماهيرية المعدة منذ شهر، منذ طمأن التقدم الإسرائيلي خطباءنا الرسميين إلى مسافة الغزو المقترح، المبارك بصمت جليل، لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المسلح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

رأيت أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليَّ، فازددت قلقاً. همس في أذني: إنه ليس هنا. لقد غادر المكان، وأضاف: وعليك أنت أيضاً أن تغادر فوراً، هذا الزحام يغري صيادي الجو بغارة أخرى..

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليَّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: تعال معي! فهمت الإشارة، ولم أسأل إلى أين أنا ذاهب. توقعت كل شيء إلاّ أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الألمانية جالساً مع القائد. قال لي: هل

تتذكرني.. أنا أوري. غضبت. ولكنني قلت مازحاً: ماذا.. هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئت من الأشرفية لأجري مقابلة صحافية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أَمِنَ الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحافي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الإِعلام. فربما أراد أن يوصل رسالة مباشرة، وربما أراد أن يُمَرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء إبلاغها للرأي العام الإسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟ أجاب بلا تردد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر بهذه اللغة بقدر ما تأثر بها الإِسرائيلي واغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لِمَ لا؟ لَمَ لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن تذهب إلى بلادي ولا يحق لي أن أذهب إلى بلادي؟ ساد صمت، وانقطع الحوار. ازدادت المصورة ومساعدة الصحافي، تحديقاً بوجه العدو الأسطوري. سألتني إحداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعة العسكرية لأنه يحارب. ازدادت التصاقاً به. فقلت هل أعجبك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيراً...

أما أنا، فلم تعجبني المقابلة، ولا خِفَّةُ صاحب الشقة الذي زج بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الإِسرائيلية لا لشيء.. إلاّ ليرى أهله هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف

لمن نشـتاق: للبلاد، أم لصـورتنا خارج البلاد، أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!

□□□

أين «سـ» ديك الحي الفصـيح؟ عاشـق المسدسـات، واللغة، واللحم المُعلن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ تبنيته كان نادراً ما يتكلم معي حين نكون وحيدين فلعله صـدّق أني أبوه. ترك الحي الذي كان يسكنه قبل الحصار وجاء إلى هنا ليقيم مع شاب لبناني سرياني الأصل. أين السرياني وأين الكردي؟ تصـادقا منذ اليوم الأول للحصار. أحدهما متوتر كعضـلة وثانيهما بارد كقمر، كان «سـ» يبحث عن «ج» وكان «ج» يبحـث عن اختفاء يوحي بأنه شـهيد. وحين يلتقيان يشـتم أحدهمـا الآخر، ثم يخرجان إلى شـوارع الحمـراء، مدججين بكامل السـلاح والامتلاء، كأنهما يحرسـان الهواء من الاختراق ومن ثورة مضـادة. أحببت «س» منذ التقيته من سـنين، مستنفراً ضد مجهول. يخجل من الكلام ولا يتدخل فيه إلاّ ليتوتر. حاسم صارم ولا يساوم على شيء أو رأي. لا يقول إلاّ للورق الموضوع على وسـادة ما فيه من عالم عجائبي، فنتازي، مترع بالفصـاحة. ولا أعرف حتى الآن متى يبدأ فيه الروائي، السـارد، ومتى ينتهي الشـاعر. صـفع الحياة الثقافية البيروتية بانفجار مفاجئ. ولكنه يدافـع عن كتابته بقبضـته وشراسـته، لأنه لا يؤمـن بالحوار بين المثقفين ويعدّه ثرثرة. يأخذ مسدسه وعضلاته المزهوة ويذهب إلى المقهى المناسب ليتربص بصغار النقاد في الصفحات الثقافية

ويؤدبهم على ما كتبوا ضده. قلت له ذات مرة: هكذا كان يفعل فلاديمير ماياكوفسكي بنقاده في شارع غوركي. قال: هذا هو نقد النقد الوحيد. كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلى مكبوتُ عنفه ويحالف الفوضى. فيها يطلق أعنة جياده ويشهر حوافر نشيد لا غبار حوله سوى الرصاص. وفيها يعود إلى عصور الجبال البعيدة، وإلى نايات ترقِّص البعيد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى. وباختصار: فيها يجد ميدان الرياح التي تمتشقه سيفاً طازجاً للمبارزة مع أعداء مَرّوا. ولا يفهم.. لا يفهم أبداً لماذا يكتب الكُتّاب في الحرب. من يأبه بهم في لحظة القوة؟ يضرب على مسدسه ويتوعد: سننتصر.. سنعفر أنوفهم في التراب. لم يكن يعرف إن كان سينتصر حقاً أم لا، فهو وَلَد المعارك الخاسرة. وَلَد ضد الحساب. ما يهمه هو التحدي والمبارزة. كان «س» يقف في منطقة وسطى بين دون كيشوت وسانشو، يحيل الأعداء إلى نماذج في متناول اليد. يمتلئ حماسة فيتكور ويستطيل ويتوتر ويضرب أي شيء ثم يسلط على نفسه حكمة «ج» المتروي، الباحث عن الفلسفة في الشعر والمعادي للغنائية. ووجد «س» «ذات الجمال المنقطع النظير» في غياب الماء واللحم والنساء.. احذر يا «س» فهي من صناعة جدك دون كيشوت، من سلالة السحالي التي تظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتها صوت النبات اليابس في برية الأَطلال. لكنه قطع شوطاً، لا تراجع عنه، في عملية الإِحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغل في الملهاة،

ليحقق ما ينقص الفروسـية: امرأة! أين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطاد ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟

□□□

القنبلـة الفراغية. هيروشـيما. مطـاردة رجل بالطائـرات. فلول الجيش النـازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصـي بين بيغن ونبوخذنصـر. عناوين تخلط الماضي بالحاضر. وتدفع الحاضر إلى الهرولة. غد يباع في أوراق اليانصـيب. قدر إغريقي يتربص بأبطال صغار. تاريخ مشاع، لا أهل له، مفتوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليوم، في ذكرى قنبلة هيروشـيما يجرّبون القنبلة الفراغية في لحمنا. تنجح التجربة..

أتذكـر من هيروشـيما المحاولـة الأميركية لدفع هيروشـيما إلى نسـيان اسمها. وأعرف هيروشـيما، زرتها منذ تسع سنين. وفي إحدى سـاحاتها تكلمت عن ذاكرتها. من يُذَكِّر هيروشـيما بأن هيروشـيما كانت هنـا. سـألتني المترجمة اليابانيـة إن كنت قد شـاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أحب امرأة من سـدوم، لأحب، أو لألعب. في وسـعي أن أحب جسداً يقتلني حُرّاسـه خلف النافذة. قالت: لا أفهم. قلت: هي خواطر شـعرية.. ولكن أين هيروشيما؟ قالت: هيروشـيما هنا. أنت في هيروشـيما. قلت: لا أراها فكيف غطيتم اسم جسدها بالأزهار؟ أَلأَن الطيار الأميركي بكى فيما بعد، ضـغط على زر صـغير ولم يرَ إلاّ سـحابة. وحين رأى الصـور، فيما بعد، بكى. قالت: تلك

هي الحياة. قلت: ولكن أميركا لم تبكِ ولم تغضب على نفسها. غضبتْ من التوازن. هيروشيما غداً.. هيروشيما هي الغد.

لاشيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. تواطؤ أم خنوع؟ أما الضحية فلا تحتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عظيمة للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران تشرح درجات التدرج في القتل: من الحريق، إلى الدخان، إلى السموم، إلى الإِشعاع. تدريبات أولى على قتل كوني أشمل. تخطيط أولي للنهاية. هكذا تبدو الآن «ثروة» قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية تكون الكرة الأرضية، بفوضاها المنظمة: جبال، وديان، سهول، صحارى، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، تجاعيد، صخور، وما يتبعه من تنوعات جميلة في أرض تمجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشب حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر، والمواد القابلة للاحتراق، ينتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يسمم كل شيء حي، يسمونه المطر النووي. تبرد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول. وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلاّ الجرذان وبعض أنواع الحشرات. يصحو الجرذ،

ذات صباح، ليجد نفسه إنساناً يحكم الأرض. كافكا مقلوب. وأنا أسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الإنسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم: تصحو الحشرة فتجد نفسها إنساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!..

سماء بيروت قُبَّة كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة تنشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: «لن يمروا»؟ كتبوها. «تموت ليحيا الوطن»؟ كتبوها. هيروشيما؟ كتبوها. طاشت الحروف كلها من ذاكرتي ومن أصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي ر و ت.

□□□

جئت إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنت في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قبعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها ترام. ركبت في الترام. سار الترام على خَطّي حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطّي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّر هذه اللعبة الكبيرة ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام رأيت بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، تطل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجاراً كثيرة. الترام

يسير والبنايات تسير والأشجار تسير. كل شيء حول الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام إلى المكان الذي وضعوا فيه قبعةً على رأسي. تلقفني جدي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها ترام. خذوني إلى الترام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز. ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها! والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت، مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو أنني أوقفت سيارة تاكسي وقلت للسائق: خذني إلى الدامور. كنت قادماً من القاهرة، وكنت أفتش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا تليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنت أبحث: عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافا في إيتَكاه؟ كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقاً لتصير أكبر. وصرت أنا أكبر. صرت شاعراً يبحث عن ولد كان فيه، تركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسي بأن يكبر. هنا قطفت الصور الأولى. وهنا تعلمت الدروس الأولى. وهنا قبّلتني صاحبة البستان، وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودة في الجرائد ولا يعود. جئنا من قرى الجليل. نمنا ليلة قرب بركة رميش القذرة، قرب الخنازير والأَبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالاً. قطفت التوت من صور. ثم استقر بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين مزرعة

للثلج وكان فيها شلال. لم أر الشلال من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التفاح يتدلى من أغصان الشجر، كنت أحسبه ينبت في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التفاح من الشجر. أريد هذه الحبة. وأريد تلك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا إلى الدامور. غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوّى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل ولليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد، في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدي وهو يحدق في تراب محبوس خلف سياج. في تراب غيّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ أحمر وأصفر إلى تفّاح خشن. مات جدي وهو يَعُد الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يسند إليه عمره. لقد خربوا قلبه. تعب من الانتظار هنا في الدامور. ودع أصدقاءه، وأرجيلته، وأبناءه، وأخذني وعاد ليجد ما لم يجد هناك. وهنا كثر الغرباء واتسعت مخيماتهم. مرت حرب.. حربان.. ثلاث.. أربع، وازداد الوطن ابتعاداً عنهم، وازداد الأَطفال ابتعاداً عن حليب أمهاتهم بعدما شربوا حليب وكالة الغوث. فاشتروا بنادق ليقربوا البلاد الهاربة من أيديهم. أعادوا هويتهم، وأعادوا تركيب الوطن من جديد، وساروا على الطريق فاعترضهم حُرَّاسُ الحروب الأهلية، فدافعوا عن خطاهم، فخرج الطريقُ عن الطريق. وسكن اليتيم

جلد اليتيم، ودخل المخيم في المخيم.

□□□

لا أستطيع أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، حتى لو كانت متراساً لقناصة أرادوا روحي. لا أستطيع ولا أستطيع. فلتبعدوا هذا المُصَوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستطيع أن أرفع شهيدي على كتف جثة معلّقة على أغصان الموز.. لا أستطيع. «الحرب هي الحرب» ليست لغتي. لن أقرأ شعراً في الدامور. و«ما العمل تجاه ما يقطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي.. ليس سؤالي أبداً أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، لأني أبحث عن ولد، ولا أبحث هنا عن بلد.

□□□

وفي أنقاض الدامور، وجد أبناء الشهداء والناجون من «تل الزعتر» ملجأ آخر في سلسلة الملاجئ المتنقلة. حملوا التعب والخيبة وما نسيت أن تقطعه السكاكين من أجسادهم وجاءوا إلى الدامور. جاءوا يبحثون للنوم عن متر مفتوح للريح والأَناشيد. ولكن ما نسيت أن تفعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا تتوقف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطّات الأنقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الأَعراس.

أَلِلْقذيفة أحفاد؟.. نحن

أَلِلشظيّة أجداد؟.. نحن

ومنذ عشر سنين أقيم في بيروت، في مُؤقت من أسمنت، أحاول أن أفهـم بيروت فأزداد جهلاً بنفسـي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشـيد؟ سـرعان ما تنتهي، وسـرعان ما تبدأ. والعكس أيضـاً صحيح.

فـي المدن الأخرى تسـتند الذاكرة إلى ورقة. تجلس في سـاعة انتظار، في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة. تصـطادها لئلا تهرب منك، وحين تمضـي الأيام وتراها تتعرف إلى مصـدرها، فتشـكر المدينة التـي وهبتك تلك الهدية. أما فـي بيروت فإنك تسيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. تأخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق..

ونادراً ما تلاحظ أن بيروت جميلة..

ونادراً ما تحتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى..

ولا تكون جديدة، ولا تكون قديمة..

وحين يسـألونك: هل تحبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبـه؟ أأُحبها؟ ثـم تبحث عن عاطفة محددة لها، فتُصـاب بدوار أو خَـدَر. ونادراً ما تحتاج إلى التأكد مـن أنك في بيروت، لأنك موجـود فيها بلا دليل، وهي موجودة فيك بـلا برهان، وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجـود النيل. إذا رأيت النيل فهذا يعني أنـك في القاهرة. أما هنا،

فإن صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينة، أم مخيم شوارع عربية وضعت بلا ترتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نص، فتاة تربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحد أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم تبدو سهلة؟

وكم تبدو مستعصية على تجانس المفردات المتجانسة الإِيقاع والقافية: بيروت. ياقوت. تابوت..

أم لأَنها تقدم نفسها لعابر السبيل الذي، وحده، يشعر بأنها بهجته الخاصة. ووحدهم أصحابها وأصحاب الأَسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إن كنت أحبها أم لا أحبها..

للسياسي المهاجر كرسي لا يتغير ولا يتبدل. وبتعبير أدق: للكرسي سياسي مهاجر لا يغيره..

وللتاجر المهاجر فرصة التأكد من أن ريح الخمسينيات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن تمر من هنا..

وللكاتب الذي ضاقت به بلاده أو ضاق بها الحرية في أن يعتقد أنه حر دون أن يعلم في أية جبهة يحارب..

وللشاعر السابق إمكانية الحصول على مُسدس وحارس ومال. فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشو آخر..

وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق..

وللمهرب أن يهرِّب.

وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكل قادم إلى بيروت بيروته الخاصة به، ولا نعرف ولا أحد يعرف إلى أي حدّ يشكل مجموع هذه المدن مدينة بيروت التي لا يبكي عليها الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون..

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، تحوّل لقاء الأَضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، دون أن يسأل الكثيرون من العشاق هل هم في بيروت أم هم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها. ولعلّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع أنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة، ولا وطناً واحداً، وأنها ليست بلاداً متجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بيننا وبين واشنطن، وأن التناحر بين هذا

الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفـي الحرب فقـط أدرك المقاتلون أن سـلام بيروت مع بيروت مستحيل.

وفي الهدنة فقـط أدرك المقاتلون والمراقبـون أن هذه الحرب لا نهاية لها، وأن النصر فيها – خارج توازن الهزيمة – مستحيل.

ولعـل الجميـع أدركوا أن لا بيـروت في بيروت. فهذه السـيدة الجالسـة على حجر صورة لزهرة عباد الشمس تتبع ما ليس لها، وتجر عشـاقها وأعداءها، على السـواء، إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أو عليهم، ولا تكون لهم أو عليهم.

إنها شـكل لشكل لم يتشـكل، لأَن الحرب فيها – أعني حولها – سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأن الدائم فيها هو المؤقت.

أو: خذ موجة. أجلسـها على صـخرة الروشة. فكك عناصرها، فلن تجد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا تنتهي ولا تبدأ.

سؤال: هل هي مرآة؟

جواب: بقدر ما تصلح الموجة لأن تكون حجراً..

سؤال: هل هي طريق؟

جواب: بقدر ما تكون القصيدة شارعاً..

سؤال: هل تكذب؟

جواب: عندما يُصَدِّقُ ما لا يُصَدَّق..

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه الوجوه كالتي تدخل المرآة سترى ما لم تر خارج الدم والحريق، وتغير مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السلالة إلى الوطن. وأن الوطن سيدخل في الأُمة. وأن الأُمة ستكتشف بدهية شرط حياتها، كأن تعرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكان يبدو لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا - على الأقل - علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الإقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤة الجوهر.

وكان يبدو لي.. وكان يبدو لي..

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل:

هل أنا في فضاء أم أنا في قفص؟

أمرّ الآن في بيروت. في ربيع 1980، فأرى قفصاً مصنوعاً من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

- هل أخطأت؟

- كثيراً.

- اخرج من هنا.

- هل انتهت الحرب؟

– عاد جميع الغزاة، وولد الوطن من جديد.

– إلى أين أعود؟

– إلى بلادك.

– أين بلادي؟

– في الأمة.

– وفلسطين؟

– ابتلعها السلام.

وصرت الغريب الوحيد. ماذا أفعل في باريس؟ ماذا تفعل في بيروت. إلى متى أبقى في لندن؟ إلى متى تبقى في بيروت.

قل لي: ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية.

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم...؟

قال: لا هذه ولا تلك. انتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لا تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو واحة في الصحراء. عد من حيث أتيت لأَن الشارع يرفضك.

وصرت الغائب الوحيد. كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافياً لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافياً لفلسطين؟ ولماذا يصبح السقف السوري منافياً لفلسطين؟ ولماذا تكون فلسطين منافيةً لفلسطين.

كم أنا غريب هنا، في ربيع 1980، الهواء ينذر بشيء ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرت الغريب الوحيد.

... وعلى الجدران، تقضم الأَعلام الرسمية مزيداً من صور الشهداء، ومن الكلمات التي كانت تنشئ تماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة. بيروت مرت من هنا. بيروت مرت من هنا. بحثتُ عن طفلة الجنوب التي أكلت بطاقة هويتها الرسمية، فوجدتها تتدرب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي تحمل إليها العيد..

إنه الوطن..

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي تمردت عليها بيروت حين مرت من هنا. صارت العودة إلى الفوارق التي أشعلت حرب السنوات الأربع أمنيةً واحدة. وعادت بيروت وطن اللغة التي ثارت عليها. لَمَ لا؟ لَمَ لا؟ لَمَ لا؟ والسلام يخيم، فجأة، على الجنوب لولا مواقع يربطها بفلسطين خيط من دم.. السلام يخيّم على الجنوب لولا فلسطين..

ورأيت بيروت تبكي الجنوب. أعني رأيت المثقفين والرسميين يبكون الجنوب. فجأة تذكروا أن بيروت عاصمة لبنان، وأن الجنوب من لبنان. وتذكرت كيف كانوا ينسون الجنوب حين كانت الطائرات تشوي الجنوب. قبل تأسيس دولة حدّاد، كانوا يجلسون في المقاهي، يشربون البيرة، ويشفقون على عذاب بيافرا. يومها كان مفهوم الوطن يزعج الإسرائيلي الذي لا يعترف

بوطـن علـى الحـدود. يومها كان الوطـن يعني الواجـب. وكان الواجب يعني حماية الجنوب من الطائرات والدبابات الإسرائيلية. يومها لم يكن الوطن في حاجة إلى وطن.

– ماذا تغير يا صديقي؟

– البنايات الفخمة ملأى بالمهاجرين من الجنوب، والمهاجرون لا يدفعون الأجرة..

– وماذا تغير يا صديقي؟

الوجـع الجديد يطـرد الوجع القديم. والمشـكلة الجديدة تزيح المشكلة القديمة. وأنت الغريب الأَخير.

الأسئلة تثير سخرية بيروت الباحثة عن توازن جديد للتوازن القديم، وعـن وطن قديم للوطـن الجديد. التيارات تبحث عن الصـدفات التـي خرجت منها. وليس من حـق أحد أن يلومها إلاّ بقدر ما كان من حقه أن يصـدق ما صـدق. يُقال إن حرب الوعود انتهت وبدأ بناء السلطة. ولم تعد المرآة تعكس إلاّ ما هو أمامها.

وهذا الفضاء قفص...

□□□

... وماذا أيضـاً، عليك أن تكون أبيض، فهنالك ما هو أغلى من الحرية، ومن الحياة...

ما هو؟

البياض

.. «ويقول علماء التاريخ الطبيعي أن السمّور حيوان صغير ذو فراء أبيض، شديد البياض. وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته. وحين يصل السمّور إلى المكان الذي وسخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل أن يُصطاد ويُقتل على أن يمرّ في الطين، ويوسِّخ بياض فرائه، لأَنه يُفَضِّل البياض على الحرية وعلى الحياة».

سرفانتس [في حكاية المستطلع الفاسد الرأي]

□□□

وانقلب الصمت، صمت المتفرجين، إلى ملل. متى ينكسر البطل؟ متى ينكسر ليكسر تتابع الخارق إلى مألوف. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر عندما يطول المشهد فتخف النشوة. ألم يُدفع موضوع هذه البطولة ذاته إلى موقع الضجر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة تبحث عن حياتها العادية الخالية من الرسائل والهتاف، ليشهر الحاكم أمامها أسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المكلّل بالسجون، وتحويل الزراعة إلى صناعة لا تنتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثة النعمة، بهموم الاستهلاك الفردي الذي يثقل الدولة بديون يحتاج المواطن إلى أن يعيش عمره مرتين ليسددها؟ لقد جربت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء إلى أهلهم

سـالمين، وبوجبة فول أفضـل. فازدهرت الكماليـات، وامتدت سـنوات الخطوبة إلى أجل غير مسمى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجوعى جوعاً. ووضع السادات كل من تساءل أين ثمن السلام؟ في السجن حتى خرج من صفوف حراسه فتى يطلق الرصـاص على فرعون، وعلى هذا السـلام، وعلى هذا السـراب. والآخرون؟ الآخرون استخلصـوا العبرة واستغنوا عن شبق السادات أمام الخطاب وشيّدوا، بمنهجية ومثابرة، سلام الأَمر الواقع المشـروط بربط المعدة العربية بشـروط الرضا الأميركي. وضـعوا المعـدة العربيـة رهينـة، وأشـهروا الحرب، بالسـلاح وبالصـمت، على موضـوع البطولة. وانتظروا بقليل من الحرج، أن يحـرق الإسـرائيلون، نيابة عن الجميع، مسـرح هذه البطولة ومنصـة هذا الخطـاب البديل. البطولة أيضـاً تدعو إلى الضـجر. كفى. واختلفوا في طريق تسويق الضجر: بعضهم يدعو إلى انتظار مرحلة تاريخية تنقلب فيها موازين القوى، بعصا سحرية خارجية، إلـى مصـلحتنا، مما يوفر لنا حـق الكلام في الحرب أو السـلام. وبعضهم يسـتعجل النهاية وينصـحنا بالرحيل على سفن أميركية، بلا شـروط وبلا مماطلة. وبعضهم يسـتعجل النهاية أيضاً بدعوتنا إلى الانتحار الجماعي ليسـتولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفـى، إلى متى يصـمدون؟ فإما أن يموتوا وإمـا أن يخرجوا! إلى متى يخدشـون أمسـيات العرب بجثث تقطع تسلسـل المسلسل الأميركـي؟ إلى متى يحاربون ونحن في عـزّ الإجازة والمونديال وتربية الضـفادع؟ فليفتحوا الطريق أمام شهواتنا وعارنا. لتتوقف

هـذه الملهاة. أمـا حكماؤهم، المجلّلون بلياقـة التعاطف، فإنهم يقدمون للضجر مظهراً أبهى: آن لهم أن يعرفوا أن لا أمل.. لا أمل يرتجى من العرب. أمة لا تستحق الحياة. أمة على صورة حكّامها. وهذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صـمت مُكَلَّل بكل ما يفـرغ التاريخ من أنخاب. أحصـنة تزيينية على حقول ألفت مواسـم الغزو. وخطاب واحد يشـتهي اغتراب الكلمـات عما وراءها. خطاب واحد يعدد الصـدأ المتراكم على الكلام منذ استوى الخطيب على عرش المنبر. خطاب واحد يلقيه المنقسمون على أنفسهم، المقتتلون على خطاب. أمن حق مدينة، في هذا الحجم، وفي هذه الفوضى، أن تمنح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حقهـا أن تخربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حقها أن تقترب من سـياج الصراع المحكم التسييج؟ وتضع قواعد أخرى لجيران العدو ـ هذه هي أسـماؤهـم وألقابهـم: جيران العدو. إذن «الموت لبيـروت» يعنون: الموت لهذا الشـارع الأخير الخارج عن هندسة الطاعة.

ضـجروا، ضـجروا. لقد طالت المهلة المحددة لسـقوط المعنى الأخير، المتدلي كالثمرة الناضجة من نخلة العرب اليابسة. المتدلي لمـن يرث ليدفـن لا ليعلن جدوى التراكم. متـى يوقفون الجنون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في تشابه الرمل؟ متى يسقطون مثلنا، مـع الاحتفاظ بفارق معافى هو أننا نسـقط على عرش، من الهزائم المدويـة إلـى العرش، وهم يسـقطون على نعش، مـن البطولة إلى النعش..

وفي جعبة الضجر ما يشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح إلاّ وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة، من أين تأتي الشدة في هذا الرخاء المرفّه؟ هم يعرفون أكثر مما نعرف. قد تأتي من حي أو شارع يغضب. ولكن، من يُغضب هذا الشارع الذي أدمَنّا هجاء حراسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرئ الأمل من داء عضال؟ أما من أحَد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد..

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كلما جاءهم خبر عن تضييق الخناق على تل الزعتر. فبماذا يلتهون الآن أثناء تضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صورهم على أحواض السباحة. أليس شهر آب حاراً؟ ورأينا تعب حراسهم المدججين بالبنادق وهم يعرفون ابتسامات أسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لإعادتها إلى الأَفواه المفتوحة سالمة.. سالمة من عيون المارة ومن حصار بيروت..

ولكنني لا أغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت تحتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم، لا لأن كرة القدم تلهب الحماسة أكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا تهدد الوطن مادياً، في حرب معنويات تنتهي إلى هدنة أكيدة بعد خمس وأربعين دقيقة، يعيد

خلالهـا المتحاربون توزيع صـفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعيـة، ويتزوّدون بما يحتاجون إليه من ذخيرة معنوية ونجدة شـعبية، ثم يعودون إلى القتال تحت إشراف قوات دولية لا تسمح باسـتخدام الأسـلحة المحرَّمة دولياً. وتنتهي الحرب المحدودة، المسـيطر عليها، في سـاحة المعركة وخارجها ولا تتجاوزها إلى حدود البلدين، باسـتثناء حالات نادرة كما حدث بين السـلفادور وهندوراس. ولكن التـوازن الدولي الدقيـق، الممثل في مجلس الأمن، تمكن من إصدار قرار قابل للتنفيذ!

ولأنـي أحـب كرة القـدم، لم أغضـب كمـا غضـب غيري من المفارقة. لا مظاهرة واحدة يثيرها حصـار بيروت، بينما تثير كرة القـدم هذه المظاهرات أثناء حصـار بيروت. لمَ لا؟ إن كرة القدم هي ساحة التعبير التي يوفرها تواطؤ الحاكم والمحكوم في زنزانة الديموقراطية العربية المهددة بخنق سـجنائها وسجّانيها معاً. هي فسـحة تنفس تتيح للوطن أن يلتئم حول مشترك ما، حول إجماع ما، حول شـيء ما، تضـبط فيه حدود الأطراف وشروط العلاقة. مهما تسربت منها إيماءات ذكية، ومهما أسقط فيها المشاهد على اللعبة ما فيه من المعاني المضـغوطة. وطن، أو شكل من تجليات روح الوطـن يدافع عن كرامته، أو تفوقه، أمام الآخر، فلا يخسـر توزيع القوى الداخلي شـيئاً من تماسـكه الظاهري. المتفرجون يسـتولون على أدوارهم نحو هدف واحد هو تصـويب الهدف. والحاكم الذي عيّن نفسـه مُعبّراً عن روح الأمة يعبر عن نصـر هو نتاج سياسـته الحكيمة، وتنشـيط الإدارة والطاقات. لعله، وليس

اللاعب، هو الأقدر على التأويل لأنه هو صـاحب الأمة وراعيها، وهو الذي ينفق من ماله الخاص على تشجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب إلى عكسـه حين تختلف النتيجة عن المنشـود والمتوقع، حين ينهزم الوطن اللاعب أمام الآخر. عندها يتنصـل الحاكم من الهزيمـة ويحمّلها للأجهـزة، لتاريخ التقاليد مـرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسـة اللاعبين ـ المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحَكَم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد. وفي السياسة، ليس من التقاليد العربية الحديثـة معاقبة القائد علـى الهزيمة. إنه يدعو الشـارع للعطف عليه، ولمواسـاته الجماعية المعبَّر عنها في دعوته إلى البقاء على العرش ليكيد الأعداء. أليس ما يريده الأعداء هو إسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على أنفسنا وإبقاء الحاكم المهزوم جلاداً لنا.

ولكن الأمر يختلف في كرة القدم: في وسـع الشارع أن يغضب علـى اللاعبين وعلى المدرب وعلـى الحَكَم الأجنبي. اللاعبون خانوا روح الأمة، والمدرب أساء وضع الخطة. والحكَم منحاز. أما الحاكم بريء من الهزيمة، لأنه مشـغول بقضـايا أكثر جدية. لذلك يرفع الشـارع الغاضب صـورة الحاكم عالية عالية، وينفذ من تحتها إلى حرية التعبير: يشـتم الغرب كما يشـاء، ويومئ إلى الداخـل كما يشـاء. هذا ما تبقـى لنا من حرية، فهـل نُفرِّط بها؟ وهذا ما تبقى لنا من متعة، فلنصـفق لما يشـير إلـى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم تقول لنا ذلك.

تقول إن العاطفة الجماعية لم تتبلَّد. وإن في مقدور الشارع أن يتحرك بلعبة لا تثير الضجر. ألم تحتل فلسطين، في ما مضى من حاضرنا، هذه المكانة، العاطفية الحماسية؟ ألم يتحرك كُل شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كل ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأي مساس بهذا القلب الجماعي. الآن يتسابق الحُكَّام ليرشوا الشارع، ليدفعوه إلى التخلي عن هذا الإجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدى، علانية للخطوة والفكرة الفلسطينيتين ويحمّلهما المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، البعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة إلى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا أكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. ولكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فإن السجون ليست شرطاً لتحرير فلسطين.. و«لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلل إلى سؤال التحرير المعصوم من العقاب، إلى أن فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة، فحرم فلسطين وأخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سر الأمة..

هامش كرة القدم هو الهامش الفلسطيني السابق. فليغضب

الشارع، وليهرب سؤاله المكبوت إلى لعبة لا تثير الضجر، ولا تتيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، أن يُغلق الملعب.

صمت مُتوّج بأوهام القادرين، إلى الآن، على تقسيم الجهات إلى جهتين، والألوان إلى لونين.

صمت مُكلَّل بأوهام القادرين على انتظار النجدة. صمت مُرصَّع بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الذين يقودون بالجملة الثورية إلى خارج مصادرها، بتبعية محكمة ومستحكمة، استبدلت الشارع بالعاصمة، ونطقت باسم الشارع ضد العاصمة الأخرى، لأنها استثنت عاصمتها، سياج وعيها، من طبيعتها. وعيّنت للشر المطلق عاصمة، وللخير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف، أن تستبدل عاصمتها بعاصمة أخرى، دون أن تتخلى عن تدفُّق الجملة الثورية المرادفة للعاصمة. لا بد من عاصمة.. لا بد من عاصمة!..

□□□

لماذا يرتجف الصنم إلى هذا الحد، لماذا يرتجف الصنم؟ سيقول ما هو.

سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل تلاوة درس البداية،

سيمجد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب إلى برهانه: ألم أقل لكم؟

ولكنك لا تقول شيئاً يا سيِّدي الصنم..

يندسّ في السـلطة ليكون معارضاً. ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة.

ويحارب السـلطة بسـلطة أخرى، ولا يتبعه أحد من فرط ما هو تابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئاً لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد أي شيء آخر.

سيقول إنه لم يوافق على الخروج.

سيقول إنه قال لنا.

ولكنه لم يقل لنا شيئاً.

لماذا أرى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا أرى الصنم؟

□□□

صمت من ذهب. صمت من شماتة. لذلك أعجبتني غضبة الأمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «الموندیال». كانت العلامة الوحيدة على وجود شـيء يتحرك خارج أسوارنا الصاروخية. كانت الدليل على أن الأُمة لا تسمح للأَجنبي بـأن يخدش روحها. وكانت تحمل رَدّاً سـاخراً على وزراء الخارجية العرب الذين تنادوا للاجتماع في تونس لبحث

«إمكانية» عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الإسرائيلي، وَرَدّاً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الأميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق أصحاب «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم وأصابعهم؟ أليس في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الأرض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط.. شهر واحد لا يزيد على لحظة عابرة في تاريخ الحكم العربي الخالد. ولا تكفي لصياغة رد الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزراء خارجيتها ساعات صعبة في تونس، يختلفون فيها على تحليل أهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين أم ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الإعلان الإسرائيلي مداه.. وسيختلفون على تعريف مادة البترول: هل هو سلعة تجارية، أم سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية بالضجر. فإن الخبر المشتهى لم يعلن بعد، المقاومة لم تمت. وما زال في خزانات الطائرات الإسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لإحراق خمسين ألف طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الأسلحة الأميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والأوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. ومازال في البحر الأبيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت أهداف مدنية كثيرة لم تقصف.

فلماذا العجلة لماذا العجلة؟

ونحن أيضاً نحب كرة القدم. ونحن أيضاً يحق لنا أن نحب كرة القدم، ويحق لنا أن نرى المباراة. لمَ لا؟ لمَ لا نخرج قليلاً من روتين الموت؟ في أحد الملاجئ استطعنا استيراد الطاقة الكهربائية من بطارية سيارة. وسرعان ما نقلنا «باولو روسّي» إلى ما ليس فينا من فرح. رجل لا يُرى في الملعب إلاّ حيث ينبغي أن يُرى. شيطان نحيل لا تراه إلاّ بعد تسجيل الهدف، تماماً كالطائرة القاذفة لا تُرى إلاّ بعد انفجار أهدافها. وحيث يكون «باولو روسي» يكون الجوول، يكون الهتاف، ثم يختفي أو يتلاشى ليفتح مسارب الهواء من أجل قدميه المشغولتين بطهو الفُرص وإنضاجها وإيصالها إلى أوج الرغبة المُحَققة. لا تعرف إن كان يلعب الكرة أم يلعب الحب مع الشبكة، الشبكة تتمنع، فيغويها ويغاويها بفروسية إيطالية أنيقة على ملعب إسباني حارّ. ويغريها بانزلاق القطط الهائجة المائجة على صراخ الشهوة. وعلى مرأى من حُراس العِرض المصون الذين يعيدون إغلاق بكارة الشبكة بغشاء من عشرة رجال، يتقدم باولو روسي بكامل الشبق، يتقدم لاختراق شبكة قابلة للنيل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل..

كرة القدم،

ما هذا الجنون الساحر، القادر على إعلان هدنة من أجل المتعة البريئة؟ ما هذا الجنون القادر على تخفيف بطش الحرب وتحويل الصواريخ إلى ذباب مزعج! وما هذا الجنون الذي يعطل الخوف

ساعة ونصف الساعة، ويسري في الجسد والنفس كما لا تسري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الأول مع امرأة مجهولة..

وكرة القدم هي التي حققت المعجزة، خلف الحصار، حين حرّكت الحركة في شارع حسبناهُ مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم أفرح بمظاهرات تل أبيب التي تسرق منا كلَّ الأدوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة، لأنها تشي بتغييب أبطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة وتعودوا على الانتصارات السهلة. وقد سهّل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع تل أبيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين، واستنهضتهم ضحاياهم إلى درجة دفعت ضابطاً كبيراً إلى الاستقالة. كنت أستمع إلى إذاعتهم ولا أفهم سرّ البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى فقدان هويته: الضحية. لا حقّ لأحد في أن يحرز هذا الإنجاز: أن يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على أصحابه يقلب ميزان العدل الرملي، وبالنيابة عنا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو أقسى من هذا الغياب: ألاّ تكون معبّراً عن النصر، وألاّ تكون معبّراً عن الهزيمة. أن تكون خارج المسرح، ولا تحضر عليه إلاّ بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون. «إن أردتم فليست تلك بخرافة» هكذا أطلق تيودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي إلى تأسيس دولة لشعب لا أرض له على أرض

لا شـعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له أرض محتلة مع غزاة سـرقوا تلك الأرض، قام ناثان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار هرتسل بسخرية لامعة: «إن أردتم فليســت تلك بخرافة: نصر إسـرائيل لن يخيب، ولكن لن يدوم لكي يخيب..»، عشرات القصـائد العبرية تحاول التعبير، بدلاً من القصـائد العربية، عن حصـار بيروت، والاحتجاج على المذبحـة. منهم الخطيئـة ومنهم الغفـران. منهـم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء.

□□□

«ثم دخلت سنة...

□ وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا. وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستماية درهم. وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة السـلطان، فلما سمع الناس هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا. ونـدب الخليفة الفقهاء للخروج إلى البلاد ليحرضـوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من

أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوري:

وشرُّ سلاح المرء دمع يريقه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

□ وفيها سار السلطان محمد بن ملكشاه إلى الري فوجد زبيدة خاتون أُم أخيه بركيارق فأمر بخنقها، وكان عمرها إذ ذاك اثنتين وأربعين سنة.

□ وفيها بعث السلطان ملكشاه كتاباً إلى الحسن بن صباح أحد دعاة الباطنية يتهدده وينهاه وبعث إليه بفتاوي العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك! فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخرَ منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب.

□ وفيها ملكت الفرنج قلاعاً كثيرة منها قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر - وهو الذي أخذ بيت المقدس - إلى عكا فحاصرها...

□ وفيها ادعى رجل النبوة بنواحي نهاوند، وسمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الأربعة.

□ وفيها ظهرت صبية عمياء تتكلم عن أسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيات. وبالغ الناس في أنواع الحيل عليها

ليعلموا حالها فلم يعلموا. وسـألوها عن نقوش الخواتم المقلوبة الصعبة وعن أنواع الفصوص وصفات الأشخاص وما في داخل البنادق من المشمع والطين المختلف، والخرق وغير ذلك فتخبر به سـواء بسـواء، حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك فقالت: يحمله إلى أهله وعياله...

□ وفيها قدمت خاتون بنت ملكشـاه زوجـة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مائة واثنين وسـتين جملاً، وتسعة وعشرين بغلاً. وفتح الفرنج مدائن عديدة منها مدينة صيدا وغيرها..

□ وفيها قاتلوا الفرنج بالشام وانتزعوا منهم حصوناً كثيرة، ولما دخلوا دمشـق دخل الأمير مودود صاحب الموصل إلى جامعها ليصـلي فيه فجاءه باطني في زي سـائل فطلب منه شـيئاً فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته.

□ وفيهـا جـاء كتاب مـن الفرنج إلى المسـلمين وفيـه: «إن أُمةً قتلت عميدهـا في يوم عيدها في بيت معبودهـا لحقيق على الله أن يبيدها».

□ وفيها عزم الخليفة على طهور أولاد أخيه، وكانوا اثني عشـر ذكراً، فزيّنت بغداد سبعة أيام بزينة لم يُر مثلها...

□ وفيها وقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجّج فأحرقـت دوراً كثيـرة. وظهرت في بغـداد عقارب طيـارة لها شوكتان. فخاف الناس منها خوفاً شديداً.

□ وفيها وجد رجل يفسق بصبي فأُلقي من رأس منارة. وفيها ملكت الفرنج عدة حصون من جزيرة الأندلس. وفيها ملك نور الدين بن محمود زنكي عدة حصون من الفرنج بالسواحل. وفيها تزوج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش بن أرتق، بعد أن حاصره فصالحه على ذلك، فحُملت إليه إلى الموصل بعد سنتين، وهو مريض قد أشرف على الموت، فلم يدخل بها حتى مات، فتولى بعده أخوه قطب بن مودود فتزوجها...

□ وفيها وقع مطر في اليمن كُلُّه دم، حتى صبغ ثياب الناس.

□ وفيها باض ديك بيضة واحدة ثم باض باز بيضتين، وباضت نعامة من غير ذكر. وكانت وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً...

□ وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكون الساعة، وزلزلت الأرض وتغير ماء دجلة إلى الحمرة، وظهر في أرض واسط دم لا يعرف ما سببه، وأخذ الفرنج عسقلان.

□ وفيها كان غلاء شديد بخراسان حتى أكلوا الحشرات، وذبح إنسان منهم رجلاً علوياً فطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قُتل.

□ وفيها سقط بَرَدٌ بالعراق كبار، زنَة البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي. وخسفت هناك

القبور وطفت الموتى على وجه الماء. وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة قاصداً بلاد الشام فرده الله خائباً خاسئاً. وفيها قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلاً يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاآت مات الخليفة المقتفى – يعني خمساً وخمسين وخمسمائة.

□ وفيها كتب صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردّوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم...

□ وفيها كتب إليهم [الأمراء] القاضي الفاضل على لسان السلطان كتاباً بليغاً فصيحاً فائقاً رائقاً، على يدي الخطيب شمس الدين، يقول فيه «فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونتلقّى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير». فلما وصلهم الكتاب أساؤوا الجواب.

□ وفيها بعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر له أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نهاية إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجاً وطيراً لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يلطفها به، فأرسل إليه شيئاً كثيراً من ذلك كرماً. ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجاً فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الإحسان، بل لمّا عوفي عاد إلى شرّ مما كان. واشتد الحصار على عكا ليلاً ونهاراً. فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما أن تعملوا معنا شيئاً غداً، وإلاّ طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشق ذلك على السلطان.

□ وفيها وقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاثين سنة وستة أشهر، للفرنج ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة...».

ابن كثير [«البداية والنهاية»]

□ □ □

.. «وليس عند الإفرنج شيء من الغيرة والنخوة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجّار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّية من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو موضع كذا وكذا»... فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: «أي شي أدخلك إلى عند امرأتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «فكيف دخلت إلى فراشي؟». قال: «وجدتُ فراشاً مفروشاً نمتُ فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟». قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟». قال: «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يُقال له سالم من أهل المعرة في حمّام

لوالـدي رحمه اللـه. قال: «فتحتُ حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخـل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشـدّ في وسـطه المئـزر في الحمام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسـطي و رماه. فرآنـي وأنا قريـب عهد بحلق عانتي، فقال: سـالم. فتقربت منه. فمدَّ يده على عانتي وقال: سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا. واسـتلقى على ظهره وله مثـل لحيته في ذلك الموضـع. فحلقته فمرَّ يده عليه فاسـتوطأه فقال: سـالم، بحق دينـك اعمل للداما. (والداما بلسـانهم السّـت) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء. فمضـى الغلام أحضـرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشـعر وزوجها قاعد ينظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

«فانظروا إلـى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهـم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشـجاعة العظيمة. ومـا تكون الشـجاعة إلاّ من النخوة والأنفة..».

أسامة بن منقذ [«كتاب الاعتبار»]



.. ساعات ما بعد الظهر. رماد بن بخار، وبخار من رماد. المعدن سـيد الوقت. لا يفلُّ المعـدن غير معدن آخر يصـنع تاريخاً آخر. القصـف يطاول كل شيء. ولا يبدو أن لهذا اليوم نهاية. آب أقسى الشهور. آب أطول الشـهور. وهذا اليوم أقسى أيام آب وأطولها. أمـا لهذا اليوم نهاية؟ لا أعرف ماذا يحدث في ضـواحي المدينة،

لأَن هديـر المعدن حجب عنَّا صـمت الأشـقّاء المُدَوِّي، حجب عنا صـمت الملوك والرؤسـاء ووزراء الدفاع المشـغولين بقراءة مـا لا يقـرأون. ولم يبق أمامنا سـوى سـلاح الجنـون. نكون أو لا نكـون. نكـون أو لا نكون. نكـون أو لا نكون. ليـس لنا غير الجنون. «حاصر حصـارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذيـن تحبهم ذهبوا، فإما تكون أو لا تكون». تاريخ يتغير شـكله ومؤرخوه. تاريخ يكتب صورة النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلـب، من يؤرخ خـروج العدو من الأَخ، ودخـول الأخ في العدو؟ ومَنْ أطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الأخضـر. حلزون يسدّ حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل أن يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتاً بما ليس لنا ندافع عمَّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدي إلى الجبل. وليس لنا خطاب المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الأُمم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطـل إلى موطئ لكعـب. لماذا يطلع الحلـزون في وجهي، مرة أخرى، في نهار واحد؟ تبّاً لهذا النهار.. تبّاً!

.. جالساً في ركن قصيّ، قصـيّ عن الآخرين وعن نفسي، أُفكر في ما يرد عليَّ من منام يخرج من منام: هل أنت حي؟ متى حدث ذلك؟ هل تحميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل تسـتطيع سوسنة الماضي أن تكسر هذا السيف المرصع بالقذائف؟ ولماذا هي.. لماذا هي؟ لماذا تطلع السوسـنة من نشـيد الأناشيد وقد أوقَفَت الشمس والقمر على أسوار أريحا ليمتد زمن القتل؟

.. حصَّة للطفولة وحصَّة للشبق. جسد للمغفرة. جسد للشهوات. يذوب رخام الكلام ليصقل مدائح الساق التي تشق المقبرة إلى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الأول في العظام اليافعة. كم امرأَة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأَة فيك لأَسقط في زحام روحي وأنجو على توالد لحظة. كم امرأة أنت ليدخل الوقت في الوقت ويخرج خيطاً من حرير يصطفيني لاختيار مشانق الدم. كم امرأة فيك لتتقمص البرهة تاريخ الصلاة والمجون على قدمين هما ختم جهنم والجنة! كم امرأَة أنت لتكون سيرة هذا البطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الدفاع عن الصبا والأربعين. كم امرأَة أنت لأَستردّ الشتاء السابق من كل ما يأتي من مطرٍ اختار من قطراته شبهاً لما عرفت؛ ولأقارن اللذة باللذة، هل كنا معاً حقاً على صوف تلك الأَرض؟ أُقلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة تهز الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدد فينا ظنِّي بأني معك. ولم أَقل إِني أُحبك، لأَني لا أعرف إن كنتُ أُحبك ما دمت أُخبئ دمي تحت جلدك وفي شعيرات السرّ المقدس أذرف عسل النحل الأحمق، السرّ الذي امتصني لأَجد جسدي يتوالد بلا انقطاع. ولم تقولي أحبُّكَ لأَني لن أصدِّق أن جميع النساء اللائي وُلدن على جبل جلعاد وفي سومر وفي وادي الملوك يجتمعن عليَّ الليلة. كم امرأَة فيك لتنوح أحلامي على ما تفقد الأُمم من شتاء يستحقُّ أن تكوني أُمَّه وسيدته. في كُلِّ امرأَة جميلة هِبَة من وصايا قدميك للأَرض، وإرث لا ينقطع عن

تزويد الغابات بهستيريا الشعب. ليْتَ واحداً منا يمقتُ الآخر ليصاب الحبُّ بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحداً منا يموت قبل الآخر ليُصاب الجنون بالجنون.

□□□

خذني إلى أستراليا ـ قالت لأُدرك أنه آن لنا أن نبتعد عن الفارق والحرب. خذني إلى استراليا لأنني كنت عاجزاً عن الوصول إلى القدس. كنت خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش أن تهزم، وللنحلة في قلبي أن تصمد، وللروح أن تنتصر عليَّ وعلى أعدائي. كانت الفتوة والغنائية تحفران لي مساراً آخر على جبل يطل على ساحات تاريخ: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، وأعشاب، من تلك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا تعود الموجة عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيري من هيجان اللحظة بانتقالي من شهيد إلى شاهد.

ولكن، لماذا أتذكرها في هذا الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البار ـ الملجأ؟ ألأَن امرأَة أُخرى جالسة قبالتي تعيد مشهد الصرخة، أم لأن مناماً أخرجها من منام هذا الفجر؟ لا أعرف كما لا أعرف تماماً لماذا أتذكر أُمي، ودرس القراءة الأَول، وفتاتي الأُولى تحت شجرة الصنوبر، وعقدة الناي التي لاحقتني خمسة وعشرين عاماً. تعود الدائرة إلى نقطتها الأُولى...

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..

لا تقضمني كتفاحة، فلنا هذا الليل كله. خذني إلى أستراليا حيث لا أحد منا هناك، لا أنت ولا أنا..

كانت تضع الحطب في الموقد. كانت الأُغنية تعيد الأغنية ذاتها: سوزان تأخذك إلى النهر. الكلمات جميلة، والصوت لا يغني بقدر ما يقرأ شعراً لا يصل إلى أي مكان. إنسان وحيد في البراري. إنسان يقول ليتماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى تقبلني؟

عندما أُصدق أن في وسعي أن أصدق أن هاتين الشفتين مفتوحتان لأَجلي..

إذن لمن؟

لصوت قادم من كوكب بعيد. أتعرفين أن في وسع عينيك أن تُلَوِّنا أي ليل بأي لون تريدين؟

قبّلني!

مطر خلف الزجاج. وجمر داخل الزجاج. لماذا تمطر إلى هذا الحد؟

لكي تبقى فيّ...

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا تنطفئ. جسد لا ينتهي. رغبة تضيء الظلام والعظام. ولا ننام إلاّ ليوقظنا عطش الملح إلى العسل، ورائحة البن المحروق قليلاً على اشتعال الرخام.

بارد وساخن هذا الليل. ساخن وبارد هذا الأَنين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتد كلما احتكّ بمسام جلدي وصاح. الهواء إبر من لعاب دافئ بين أصابع قدمي، وعلى كتفي أفعى من الكهرباء تزحف وتشرئب على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يبقى من اللغة غير صراخ الغرف الموصدة على حرب الحيوانات الأَليفة. وعرق يُبَرِّد الهواء ويجفل.

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.

□□□

الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: أعطني مزيداً من البيرة. هل مرَّ «س» لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. وأُستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأتِ بعد. والشاعر الممتلئ بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. وأُستاذ الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميريكية؟ مرَّ في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأتِ. ووفد الهلال الأحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. أعطني مزيداً من البيرة. أين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعل المرأَة الجالسة، قبالتي، لاحظت ما أسرق من ساقيها، فمدّدتهما، سلّطتهما على عطش رغبتي. وطلبت مزيداً من البيرة.

□□□

الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي.

قالت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ أما أنا فلا أُريد أن أنام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول أن ينام.

قالت: نمْ. وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني لَيْلَكُ نظرتك الصافية. هل تعرفين أن عينيك تدفعان أي ولد شقي إلى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا تفعلان بالرجل؟

قلت: تدفعانه إلى الفروسية؟

قالت: نَمْ.

قلت: هل تعرف الشرطة عنوان هذا البيت؟

قالت: لا أَظنُّ ذلك، ولكن الأمن العسكري يعرفه. هل تكرهُ اليهود؟

قلت: أُحبك الآن..

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن أَسألك: هل تحبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج إلى إجابة أكثر من حاجتكم إليها.

قلت: هل أنت حمقاء؟

قالت: قليلاً، ولكن لم تقل لي إن كنت تحب اليهود أم تكرههم!

قلـت: لا أعرف، ولا أُريد أن أعـرف. ولكنني أعرف أنني أُحب مسـرحيّات يوربيدوس وشيكسـبير، وأُحب السـمك المقلي، والبطاطا المسـلوقة، وموسـيقى موزارت، ومدينة حيفا، وأُحب العنب، والمحاورات الذكية، وفصـل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، وأُحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج. أما اليهود فليسوا سؤالاً للحب أو المقت.

قالت: هل أنت أحمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل تحب القهوة؟

قلت: أُحب القهوة، وأُحب رائحة القهوة..

نهضـت عاريةً حَتّى منّي، فأحسستُ بوجع مَنْ خلعوا عضواً من أعضائه.

صِـحْتُ: تعالي فوراً، عودي من رائحـة القهوة، فأنا ناقص، ولا أستطيع لا أستطيع.

– ماذا دهاك؟

– هل انتهى كلُّ شيء؟

– ماذا دهاك؟

– لا أستطيع العودة إلى نفسي..

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة].

ـ خذني إلى أستراليا.

ـ خذيني إلى القدس.

ـ لا أستطيع.

ـ ولا أستطيع الرجوع إلى حيفا.

ـ بماذا تحلمين عادةً؟

ـ عادة لا أحلم. وأنت بماذا تحلم؟

ـ بأن أتوقف عن حبك.

ـ هل تحبني؟

ـ لا. لا أُحبك... هل تعلمين أن أُمك سارة قد شرّدت أُمي هاجر في الصحراء؟

ـ وما ذنبي أنا. ألهذا لا تحبني؟

ـ لا ذنب لك، ولهذا لا أُحبك... أو أُحبك.

عزيزتي، جميلتي، ملكتي، الساعة الآن الخامسة والنصف صباحاً، وعليّ أن أعود إليهم:

ـ لمن؟

ـ إلى شرطة حيفا لأُثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

ـ تثبت وجودك؟

ـ وفي الرابعة بعد الظهر.

– وفي الليل؟

– يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

– وإذا لم يجدوك في البيت؟

– سأكون مسؤولاً عن أية حادثة تقع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

– وما هي العقوبة؟

– مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل.

أما إذا وقع حادث أكبر، فإن العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

– وماذا ستقول في المحكمة؟

– سأقول: كنت هنا، أحيا نشيد الأناشيد.

– مجنون؟

– مجنون...

– ولا تحبني؟

– لا أعرف.

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..].

□ □ □

... وهنـاك، في الركن القصـيّ، أرى الفرسـ الطالعة من مدائح العـرب. فرس تشـاكس المجهـول. فرس تشـاكس اللغة. فرس تنبثـق من قطرة الضـوء المتلألئة علـى حقل تفتحه ذبذبـةُ وَتَرَيْ غيثار يُنادي أعراس الفرسـان القتلى. القبـاب والمآذن والأبراج والمدى تتبع ظلّ العاشـقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتر. سـأدير ظهـري للخناجـر كـي أُلاَمس طحلـب المانغا وأسـقط في علو الموت الشاهق محروسـاً بالنعناع والشظايا التي لا تسمح لأحد بالاقتراب من الفضـاء المفتـوح لخطوتين. الحـب أن ترددي. والحـب أن أسـخى بمزيد مـن حيوانات الـروح. والحب أن لا أسـمع منك غير الأنين. للهواء أن يتحول إلى مادة صلبة. وللبحر أن يهدد. ولك أن تلقي بعتاد الجسـد الخائف إلى أقصى الخوف لنأمـن هذا الباب الخشـبي الهش. اصـعدي مائة واثنتي عشـرة درجة كي يتصبب لهاثك صهيلاً يتعب وكي أمسح العرق بجلدي المنـذور لهذا الواجـب. سـأدعوك «ج» لأَنك مطلـع الجنون، ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشـهوات المنتصرة على حـرب بجماع لا يتحقق إلاّ في الخـوف من الموت. دعي ابنتـك تلعب مع أسـتاذ الكيمياء، وتعالي إلى مرصـد الصـواريخ لنرصـد ما في الجسـدين من قطط. قدمُك مصـقولة كحجر في شـتاء الجبال، حجر يندس في خاصرتي لأَصرخ نبيذاً من خوابي الأديـرة. ولا أصـرخ كي لا تظنّي أن شـيئاً غير الحصـار يوجع. ولاأردُّ التحية لأني تواطأت مع قصتي على رغبتي من أول خصلة شعر كسرتني. فللشهوة أيضاً قناع، لتطول اللعبة عاماً آخر. تعبتُ

من قناعي، ومن لعبتي، ومن تعبك. فلا تدقي بلاط الشارع أكثر بصهيل يحفرني. تعبتُ من حوادث سير لا تليق بهذه الحرب كأَن ترتطم كتفي اليُسرى بكتفك اليسرى في تقاطع صبيانيّ المشهد. ومن العار أن نموت حُبّاً في زمن الحرب. هل أحبك؟ لا أُحبك إذا كان الحب يستغرق وقتاً أَطول من إطلاق رصاصة على نخاع شوكي. وأحبك، إذا كان الحب امتثالاً لصاعقة برق تضربني الساعة: تعالي لنعرف الجواب. تعالي لنسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الأَخير من العالم غير أن يُعْتقا جِنَّ الشبق من سجن الكلام والذهب. ومن الظلم أن نهاجر بلا التصاق. من الظلم أن نُرجع النظرة من منتصف الطريق إلى عيون تصبّ العسل على النار. عيناك تجرحان الحجر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى أجمع هذا النمل وأُعيده إليك، إلى بيت النمل، لأَتوقف عن حكّ دمي بنظرات الساق على الساق. أُخرجي من هذا الباب إلى اليسار، ثم انعطفي إلى يمين آخر. هناك شجرةُ زنزلخت كبيرة، شجرة وحيدة ستدلُّك على ساحة صغيرة.. اقطعيها واتبعي رائحة الهال إلى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحة الدم. اتبعي صوت دمي، واصعدي مائة واثنتي عشرة درجة. ستجدين الباب مفتوحاً، وستجدينني خلف الباب مشوياً من الانتظار، جاهزاً للموت واقفاً معك واقفاً فيك حتى يفصلنا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السلالم كما يدق كعبك العالي طرف القلب ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشارع. كم أُحب الحذاء العالي لأنه يشد الساقين في كلية الأُنوثة المتأهبة للاندلاع.

والحذاء العالي يختصر البطن ويفتح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبّا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يصُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. والحذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاوية. والحذاء العالي يوقف الرمح على منبر من هواء صلب. دُقّي بلاط الشارع بنفور غزال لا تتلقفه ذراعان ولا كلمات. واتضحي رويداً رويداً خلف الباب المغلق. أمام الباب مقعد جلدي صغير يحملنا ويتسع لنا. سأجلس أولاً وتجلسين. فغرفة النوم مكشوفة من جهة البحر الذي يرانا، ويتوعد، ويقصف. وغرفة الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتب مكشوفة من جهة البحر. ولم يتبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا تنزعي ثيابك لئلا يرانا الموت عاريين. فرس على حضن رجل. لا وقت لغير الحبّ السريع ونزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة. أمن طبيعة الحرب أن تخلق الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت أن يتوتّر هذا التوتُّر؟ يدان تخرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لإغراء الذئاب. وأُحب هذا الحب الذي لا ثرثرة فيه ولا أناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يُدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب إلى سيجارة ندعي تأمّل ما ترسمه من دوائر الدخان الأزرق. وننظر إلى الساعة لا لنرى الوقت بل

لنعرف متى يتسلل أحدنا من الآخر. وأُحب هذا الحب الذي لا يترك وجعاً في الذكريات ولا ندبة في الروح. حب يُزَوّد الروح بهبوب الفراش على وردة الروح. لحظة عابرة أبقى وأنقى جمالاً من بيروقراطية الحب الطويل المحتاج إلى إدارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والأغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمت معه إلى غربة. عالمان لا يتداخلان إلاّ بغير القمع. لا مساومة في العاطفة. عالمان يعودان - حين يصمتان - إلى ما كان من ذكريات لا تتصالح بقدر ما تتصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج إلى إعادة ترتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنتُ أُحبه على ظلام صخرة على شاطئ بحر، أو في سيارة تختبئ في غابة صفصاف، أو في قطار ليلي لا نعرف فيه الأسماء، أو في رحلة طيران ليلي طويلة، أو على سياج ملعب يصفق فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص والهتاف على نداء أوج آخر. أحب هذه اللحظات النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات. ولكن الحرب تضفي تصوفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما أجمل أن نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يوحّد الجسدين. وما أجمل أن نُودِّع أيامنا على انفتاح وردة تعرق وتشهق وتتمزق من احتكاك الندى والملح، تحت قصف جوي وبري وبحري نسوس فيه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحديد بعواء اللحم والدم والعصب المشدود. فلا تسأليني إن كنت أحبك

أيتها الفرس الطالعة من مدائح العرب. أيتها الفرس التي تترجّل عن حضن فارسها لتذهب إلى مهرتها الصغيرة، التي ترعى بين الصواريخ وأقداح البيرة وأستاذ الكيمياء والممرضات النبيلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت إحباطاً وغمّاً بالموت في قضية. لا تسأليني إن كنت أحبك، لأنك تعرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد. خذي خبزاً وزجاجة ماء. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك لم تذهبي معي، كما ذهبت السوسنةُ الطالعة من نشيد الأناشيد. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السوسنةُ هذا الفجر...

□□□

.. والقصف يقصف كل شيء، يقصف حتى الخوف. أفكر في هذا الركن القصي بهذا الشاب الباكستاني الغائب. ما الذي جاء به إلى هذه المدينة من آسيا البعيدة؟ كان يطارد الرغيف فاصطاده الرغيف في هذا الحصار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجزة الإِنسانية: رغيف الخبز، رغيف الخبز الذي يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حياً أو ميتاً إلى أي مكان، لا يعود إلى أي قبر. باطل الأباطيل والكل باطل. وأفكر في الطرائق المعدّة لنهاية جسد كافح حتى النضج ليحترق أو ليختنق. باطل الأَباطيل، والكل باطل. وقد علّمتنا معاشرة الموت أن الموت لا صوت له. إذا سمعت صوت الصاروخ فذلك يعني أنك حي، ذلك يعني أن

الصاروخ قد أخطأك وأصاب غيرك، أصاب العامل الباكستاني على سبيل المثال. الصاروخ يسبق صوته. إن لم تسمع صوته فاعرف أنك مت. باطل الأباطيل والكل باطل. ولكن ما سر هذه المناعة؟ أشعر بنعاس لا يقاوم.. نعاس أقوى من أية قوة.. نعاس سلطان..

ولكن «س» يوقظني. أراه مدججاً بمسدس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. أين كنت؟ أين كنت؟ اجلس معي إذا استطعت أن توقف ثرثرة السيدة، أو أرسلها إلى أية جحيم.

– أين اختفيت؟

– على إحدى الجبهات.

– ما هي أخبار الشباب؟

– صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. إنهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس تعبت ويقال إن صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح أننا سنخرج؟

– طبعاً.. سنخرج. ألم تعرف أننا سنخرج؟

– كنت أظن أن الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

– سنخرج حقاً.

– إلى أين؟

– إلى أي مكان عربي يقبل بنا.

– ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

– بعضهم لا يقبل حتى جثثنا. وأميركا تطلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

– أميركا؟

– نعم.. أميركا.

– هل تعني أن هذا البعض يريدنا أن ننتحر ونبقى في بيروت؟

– هذا البعض لا يتحمل صمودنا. ولا يدعونا إلى الانتحار أسوة بالكولونيل الليبي ولا يريد لنا أن نبقى في بيروت،أو في أي مكان على الأَرض. يريد لنا أن نخرج.. من العروبة ومن الحياة.

– إلى أين؟

– إلى العدم!

– ومتى سنخرج؟

– بعد أن نحصل على عناوين للخروج. وبعد أن نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.

– أهناك ضمانات؟

– هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات. ولكن السفير الإِيطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق. قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الإِسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.

– ألا يمكـن إخفاء فكرة الخروج، لأَنهـا قد تؤثر على معنويات المقاتلين؟

– هذا صـعب لأَن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية متلهفة بحجة أنها تطمئن المواطنين.

– ولكن، لماذا سنخرج؟

– لا أحـد يوافق علـى بقائنا، لا الداخل ولا الخـارج، ولا تنس أن البلد ليس بلدنا. انتهت مُدَّةُ الضـيافة. وبعض أطراف الحركة الوطنية يُهددنـا. ولم يبق ما نعتمد عليه: لا مقومات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشدّ الناس قلقاً من هاجس الخروج، فهو يخشى اليُتم الجديد، يخشى أن ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتَّاب المهاجرين إلى مشـروع الثورة المتحوّل إلى بيت وهوية. لا يملك ما يدل عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سـفر، ولا شـهادة ميلاد. ولهذا وجد فينا أهله ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين والعراقيين والمصريين والفلسـطينيين قد أنزل على بيـروت معاني نهائيـة تمنح التباس العلاقة بها شـرعية حق المواطـن إلى درجة أجفلت الكثيرين من اللبنانييـن الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهـم أكثر منا، ويعرفون أنها لا تحتمل هذا الإسـقاط. وقد لاحظ أن السهولة التي يوحي بها التعامل مع بيروت، نصـاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت حداً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان الذي

شهد ازدهار التعبير السياسي والإِعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على تقديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع إلى حدّ ارتكاب أخطاء لم ينجُ منها أحد، ودون أن يتمكن أحد من تحديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا تحولت العلاقة ببيروت إلى إدمان جعل اللغة مجازية إلى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد أشكال التدرب العربي على ديموقراطية متخيلة. فصارت بيروت مُلكَ من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب تعويضي حلّت في كل غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء إلى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجئ إلى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكك، بل أباح لنفسه حق التحالف الداخلي لمواصلة تفكيكه خدمة لمشروع ديموقراطي أكبر يخاطب خارج بيروت أكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسّ المقيمون في بيروت، في تحالفهم مع أطراف قواها المتصارعة، بمقاييس أخرى للغربة والمواطنة حُدد فيها للبنانيين أنفسهم وبمساعدتهم مقدار حقهم في وطنهم، لأَن الوطن تحول من جمهورية إلى مواقف. وفي الشعر أيضاً،

لم يكن عُشَّاق بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم ينشدوا لبيروت. كانت أغنية الحب الطالعة من الحرب «بحبك يا لبنان». لقد تمَّ استثناء بيروت لأَنها لم تعد بيروت لبنان. ليست بيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربية يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل أن ينأى بلبنان الجمالي إلى أقصى غابات العنصرية، ليرى أن الحرب لا تدور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل إنها حرب شعب بأسره.. «الطفل الفلسطيني عدو»..

«س» وآخرون كوَّنوا بيروتهم؛ صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفضّ عنهم حلفاء الثقافة وجدوا أنفسهم تحت العراء.

لقد سبقت الغزو الإِسرائيلي عودة الكثيرين من المثقفين إلى أصدافهم الإقليمية، تعبيراً عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف إلى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جرت إعادة اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، إلى بطل منذور لسائر المعبّرين عن طوائف أخرى تحتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، إلى إيوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن أتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب إلى دولة، واحتاج الخائفون إلى أية دولة. فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم ينقصها

غيـر فرقة الرقصـ الليبي المحاطـة بدويّ إعلامي صـاخب. ولم يتسـاءل أحد عن المغزى السياسـي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سـجل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشـروع الديموقراطـي إلى الصّـدفَة الطائفيـة، حوّلونا إلى «سُـنَّة». وانهالـت علينـا الحمـلات والتهديـدات مـن الشـعراء والرسـامين والمسلحين الذين عدّوا نقد عودة المثقف إلى الطائفة تشـهيراً منـا، كمعبرين عن طائفـة، بطائفتهم. وحين كنت أقسـم بأنني لا أعرف ما هي طائفتي لم يصـدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشـرى، ولأَن أي فهم لما يجري فـي لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصـر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شـارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسس المسدس. أما أنا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في تبرئة نفسي من جريمة القول إننا «جزء.. لا جزيرة».

«.. التجربـة مفتوحة على حوار الإبـداع والأفكار. فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الإبداع في الثورة، والثـورة في الإبداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام إلى المناداة بالاختـلاف، أو الخلاف، بين مفهومي الثورة والإبداع، حيث يحاول أحد أطراف هذا الميل تحقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصـافي». ويحاول الطرف الآخر جرّ الأدب إلى تقديم الخدمات اليومية المباشـرة للبرنامج السياسـي. نحـن نتاج هـذا الواقع وهـذا الزمن الذي تختلط فيـه الانهيارات

الواضحة بالولادات الغامضة، ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر انكسارها، ولا نواجه الأزمات التي تلتف حولنا بإسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث. لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط. فقد اخترنا أن نعتقد أن المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير. ولا يأتي من ماضٍ يتحول في الأزمات إلى سيد الأيام. وحين نلاحظ أن الثورة لم تكتب بعد أدبها إلاّ بالجسد، فإننا ندرك أن معادلة الفعل ـ القول المترابطة في سياق التجربة تنضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك أننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل أن يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيّقة، بل ميدان العلاقة الأعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تتخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السرّ العلنية حتى الانفجار العام. إننا لا نؤسِّس تياراً في الأدب بقدر ما نشير إلى سياق أو مجرى كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلاً من الأشكال، في وقت يتعرض فيه إلى أكثر من محاولة تفتيت أو وأد، وهي الثقافة المفتوحة على تاريخها في تعدد مصادره. وهكذا لا نقول إن الشرق شرقي كله، ثقافياً، وأن الغرب غربي كله، فنحن لا نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً، ولا نريد أن نُحبَس في هذه الأوهام، بعدما أطلقها كراس أو كراسان، إلاّ بقدر ما تستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر تغلق علينا الأفق كله، وبقدر ما توضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معاً. وحين نرى

إلى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، فإننا لا نعلق: هنا الأزمة فاهربوا... بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، وننتبه.. ننتبه إلى أسلحة الأدب القادرة على إخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الأحلام تحت غطاء الاشمئزاز من السياسة، أي من الصراع. لا، لسنا غرباء على أية أرض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون إلى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن تاريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى فيها اللص غير وجوه اللصوص. وإذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فإننا لا نرى الاستقرار في فوضى التجريبية التي لا تريد أن تقول أكثر من تجريبيتها. وإذا كنا نشكو التقصير من القدرة على إتقان لغة الناس، في العملية الإبداعية، فإن ذلك لا يمنعنا من الإصرار على التعبير عنهم لنصل إلى لحظةٍ يحقق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصوت العام. نعم، إن للأدب دوراً.. وإن انقطاع التفاعل بين النص وبين الذين يتحول النص - فيهم - إلى قوّة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق له الآن المبشرون بالهزيمة النهائية لكل شيء. وهنا نستصرخ النقد، نستصرخه ليسترد الإيمان بشجاعته وجدواه، نستصرخهُ ليدخل الساحة المستباحة، نستصرخهُ ليرسي المعايير التي أباح غيابها للجهل وللثورة المضادة أن يتبطّنا في ادعاء الحداثة. ندعو النقد إلى إعادة النظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كلها ووصلت

إلى مفترق طرق أعلن، على الأقل، انهيار وهم وحدتها السابقة. وندعوه إلى تمزيق حصانة النص الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّل نفسه بكل ما هو خارج ادعائه من حمولة إيديولوجية يحتكر إخفاءها ويحرم الناقد أو القارئ من حق إعلانها. ولنسأل عن دكتاتورية النص. لقد أوصلنا الحياء أو الجهل إلى درجة صار معها التقدم يخشى الإعلان عن نفسه. وأدنى من ذلك: صارت سلامة اللغة تخلفاً. واستقامة الوزن رجعية. وصار الوضوح عورة. وصار القول ووصول القول همجية. وباختصار: تقدمت الرجعية القادرة على الوقوف يساراً بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستطاعت أن تستدرج الآخرين إلى أسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العربية الكبيرة، وعودة أبناء الطوائف الضالّين إلى طوائفهم، أو تصوفهم، أو رموزهم.. معلنين التوبة عن عمر أضاعته حركات التحرر التي لم تُسفر إلاّ عن صعوبات لم تكن متوقعة، وأضاعتهُ الثورة التي دلت على أنها باهظة التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية أغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية، غير مكترثة بإعلان فارقٍ جوهري بين مستوياتها وإيديولوجية مصادرها، لأن تدمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة. هكذا تتحدد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر أو محوَّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا تفتقر إلى أسباب الإفادة من فشل «رجعيات التقدم». وحين نكتب ونستكتب شعار حرية الإبداع

فإننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرةٍ أبسطُ مقوماتها: أننا نريد أن نحرر أنفسنا، وبلادنا، وعقولنا، وأن نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فإننا نعبّر عن إيماننا بفاعلية الكتابة. من هنا، لا نشعر بأننا أقلية. نعلن أننا الأقلية ـ الأغلبية. ونعلن أننا قادمون من هذا الزمن.. لا من الماضي ولا من المستقبل»..

لماذا أصابهم هذا الكلام بالهستيريا؟

لأنهم يريدون لنا أن نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: إلى أين سنذهب؟

قلت: لا أعرف. إن هناك ضابطاً في غرفة العمليات لتحديد العناوين وأسماء المهاجرين.

قال: رُبما ينسونني.

قلت: رُبّما..

خاف. خاف إلى درجة نَهَر معها امرأته الثرثارة التي تعرف كل شيء، وتمتلك جواباً لأي سؤال: اخرسي! قالها بإنكليزية كرّديَّة جعلتها تصمت لمدة عشرين ثانية كاملة، وواصلت بعدها ثرثرتها. إنها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. إنها أقسى من حصار. كان يطفئ أسئلة ضياعه في وهم غرابتها. كان يستوطنها قارباً أو ملجأ. كان ينتمي فيها إليها، إلى ما يسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف أين هو.

وجدت له حلاً: إبق معي.

استبشر خيراً: أين؟

قلت: هنا في بيروت.

صاح: هل أنت باق؟

قلت: نعم. باق.

قـال: ولكنني لا أحمل جواز سـفر ولا بطاقة هويـة. مُزَوَّرَة كل أوراقي مزورة. فكيف أبقى، وإلى أين أذهب؟

قلت: أين تريد أن تذهب: السودان، اليمن، سورية، الجزائر؟

اختار: الجزائر.

قلت: سترحل إلى الجزائر.

قال: هل تعلم أنني لم أسافر مرة واحدة في حياتي؟

قلت: ستسافر كثيراً، يا بني، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار، شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير تنطق شعراً.

– بالمناسبة، أين المثقفون الغاضبون منا؟ لم نسمع أصواتهم منذ بدأ الغزو؟

– لقد ذهبوا إلى الجنوب.

– ليقاتلوا الغزاة؟

– لقد اشتاقوا إلى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء أرض محتلة، أو شعراء مقاومة.

– ألا يزالون يعانون من هذه العقدة؟

– ولن يخلصوا منها.

– إذن، لماذا يحذفون المثال؟

– ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلوا..

هل تتوقع تحولاً في كتابتهم؟

– لا أتوقع شيئاً.

– ولكنهم أبرياء وطيّبون.

– وأسرى نموذجيْن متناقضيْن.

– سيكبرون في التجربة.

– في الطائفية لا يكبر أحد.

– ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون. والطائفية موجة حماية عابرة.

– إذن، لماذا يستقوون علينا؟

– لأَننا غرباء.. ولأَن الدولة بدأت عملية تكوُّنها. سينتخب الإسرائيليون بشير الجميل رئيساً للدولة.

□□□

.. يـا سـيدة لبنان، احفظيـه لكل لبنـان. الدعاء الخافت ينتشـر كالخيمة النبوية، كالسـقف مرفوعاً على الدبابات الإسـرائيلية، والعادة الإسرائيلية السرية تتحول إلى زواج علني. والإسرائيليون يتمددون على شاطئ جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من الحلوى، ويدعو إلى توقيع معاهدة سلام، أو تجديد المعاهدة القديمة بين إسرائيل ولبنان. ويعاتب أميركا: لقد أهديناك لبنان...

ما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

إن بيغـن لا يعيش فـي زماننا، ولا يتكلم لغتنا. إنه شـبح قادم من عهد الملك سـليمان، وهـو العهد الذهبي فـي التاريخ اليهودي العابر على أرض فلسـطين، حيث «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة، وزَيَّنَهُ بخشب الأرز والصندل والفضـة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكي من العاج المطلي بالذهب. وأبرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمدّه بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السـمك في البحر الأبيض المتوسـط. سـليمان ينـي المراكب وحيرام يُقدِّم له الملاحين. سـليمان ينـي الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصك الأسلحة، وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلّم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين».

بيغـن يتقمص سـليمان. يتخلى عـن مزايا سـليمان، عن حكمته وأناشـيده ومصـادره الثقافية، ولا يأخذ منه غير العصـر الذهبي

المرفوع على دبابة. لا يتعلم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً وازداد الأغنياء غنى.. لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. أين ملك صور؟ أين ملك الأشرفية؟ بيغن يُجمّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل إلى نهاية الهيكل الذي لم يبق سوى حائط للدموع، حائط لا يدل علم التنقيب عن الآثار على أنه أحد أبنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكل شيء بقي على حاله في وعي ملك الخرافة.. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين وعلى شواطئ البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم ابن سارة ابن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، وبالتحالف مع ملك الأشرفية بشير، ابن بيير، ابن جميّل...

فدائيون من حَبَقٍ وحُريهْ

ومنذورون للجمرة

على قرميد أغنيّهْ

على أُسطورةٍ حُرَّهْ

هي الثورة،

هي الثورة...

خنادقهم هواءُ البَحْر

وظِلُّهُمُ يَشُقُّ الصخْر

نشيدُ نشيدهم واحد:

فإمَّا النَّصْر

وإمَّا النصر

ومنهم تُولَدُ الفكرة

هي الثورة،

هي الثورة...

وُلدنا فوق أيديهم

كما تتفتحُ الزهرةْ

فكمْ مَرَّه

وكم مرَّه

سيُولد في ابنه الوالدْ؟

وتحملُ غابةً بذره

هي الثورة..

هي الثورة

.. وفي ساعات العصر هذه تتدلى السماء أكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد، سماء تصير إلى يابسة. ولا تستطيع المبارياتُ الإذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، أن تشير إلى شيء وإلى مشترك، لأن الصوت قد انفصل تماماً عن

مصـدره، رحل عن أرضه إلى تجريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت تحوِّل الحرب فيه كل شـيء إلى تفاصـيل. أُحبك يا لبنان – إعلان لا تصفق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة فـي ثلاث شـوارع. وبيـروت لا تبـدع غناءها، فذئـاب الحديد المتوحشة تنبح من كل ناحية. والجمالُ المُغَنى له، المعبود، ينتقل إلى ذاكرة تشـتبك الساعة بأنابيب النسـيان الفولاذية. الذاكرة لا تتذكر بل تسـتقبل ما ينهال عليها من تاريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا يناسب مقام الساعة – جمالاً مأسـوياً؟ وطن ينهـار ويُرَمَّم في حوار الإرادة البشـرية والحديد، وطـن يرتفع على حنجـرة تطل علينا من السـماء، حنجرة وحيدة توحـد ما لا يتوحَّد، وتؤلف ما لا يتآلف. هرب الكلام إلى البَعيد، أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصـر هذه، يعجز البدن عن حمل أعضائه. وتعجز الروح عن الطيران. تتكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الـكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن تبادل النظرات. آب بيروت لا تنقصه نار جديدة. خلفنا مدرسة تحولت إلى مستشفى. تحـوم الطائرات بشراسـة حـول المستشـفى. قال أسـتاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً. فلنهبط إلى الطابق الأول. كان من الصـعب إيقاظ «غ» فهي نائمة منذ شـهر. ظننت أنها مريضـة فـي الكبد. ولكنهم قالوا إن الخوف الشـديد يدفـع الخائفين إلى النوم العميق، النوم المتواصـل. إنها تنام وهي

نائمة، تصحو وهي نائمة، تمشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الأول أكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا تحت الأنقاض. تزايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها. قلت لأستاذ العلوم السياسية كي نخرج مما نحن فيه: أظن، يا دكتور، أن الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن. قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. وأوشكت تجربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء. قلت: ومن أين تبدأ المرحلة الجديدة؟ قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا أن نواصل تطوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا تركيب جملة كاملة، وكان علينا أن نُعيد تركيب عناصر تجربة تتعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله القديمة ويفاخر بجذور تعرضت للاقتلاع منذ أربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملَّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجس إنشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الأوسط يكون مقرها لبنان. أن تطعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه أن تعتدي على أغلى أحلامه، فيتحول إلى كتلة من الأعصاب للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورَّع بعض الطلبة عن تهديد الأساتذة بالسلاح، للحصول على علامات أفضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان مدجّجين

بالمسدسـات. كم من شـكوى تلقيناهـا دون أن يتمكن أحد من معالجة المشـكلة بسـبب اختلاط الهوية التنظيميـة. وقبل ذلك كان الخناق يضـيق حول الطلبة الذين لـم يجدوا جامعات عربية لاسـتيعابهم. وكنتُ أمازح الدكتور: أفي مثـل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان تؤسَّس جامعة مفتوحة تحتاج إلى استقرار اجتماعي ومستوى تربوي آخر؟ ولكن الدكتور كان شـديد الإيمان بنجاح الفكرة، والأداة. كان يـرى إلى واقعنا من بعيد. ومن بعيد تخفي الظواهر تفاصيلها وتقدِّم السطوح.

– ما هو مشروعك الآن؟

– سأعود إلى شيكاغو.

– والجامعة مفتوحة؟

– أُغلقت..

دخـل علينـا الأميركـي الـذي يظهر حيـن ينبغي لـه أن يختفي، الأميركي السـعيد بما يرى، الشـاهد على ما لا يتوفر لسـواه من نعمة التجربة. حرب وحصار. أهنالك ما هو أكثر إثارة لأميركي يلهـث وراء أية مأسـاة بكاميـرا ودفتر وزوجة مـن هذا الموت؟ سمَّيته الـ «كوسـمان» لأنه عاشق القضايا السـاخنة. ولم أطمئن إلى مـا يُبدي من افتتان بحـرب تمدهُ بثروةٍ إعلاميـة. كان علينا أن نموت أكثر ليعمل أكثر، ولينتشـي بمعايشة الضحايا. جاء من نيويورك، خصيصاً، ليتفرَّج علينا. لم يكن صحافياً محترفاً يركض

وراء الخبر لخدمة المهنة. كان هاوياً يصور المآسي بعدسة كاميرا تلفزيونية وعلى أشرطة تسجيل.

– ما هو شعورك؟

– عكس شعورك.

– ماذا تقصد؟

– هل ستعترفون بإسرائيل؟

– لا ..

كان الدكتور قد استدعي إلى القيادة ليشارك في صياغة عبارات قانونية غامضة تدور حول هذا السؤال الذي كان يشارك في القصف.. عبارات غامضة حول قرارات مجلس الأمن. كانت الضحية مطالبةً بالاعتراف بحق قاتلها في قتلها. كان المطمورون تحت الأنقاض مطالبين بإعلان شرعية قاتلهم. لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا الاغتصاب السياسي، بقدر ما كانت السَّادية أسراباً من الطائرات. لأول مرة يُطالَب غيابنا بالحضور الكامل: الحضور من أجل تغييب الذات. من أجل الاعتذار عن فكرة الحريّة. من أجل القول إن غيابنا حقّ من أجل تزويد حقّ الآخر بحقٍّ مصيرنا. الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضور قليلاً من أجل إعلان حقّه في دفعنا إلى الغياب النهائي..

– لماذا نطالب، الآن، بالاعتراف؟

– من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

– الغريق لا يحرص على جريان النهر. المحترق لا يحرص على بقاء النار مشتعلة، والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة..



كنتُ أحمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضَّ عليَّ حرف «الهاء» الخائف، الخائف أبداً، في السلم والحرب، الخائف من أيِّ شيء: من ليلة بِلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيانو، من شهر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كما تنقضُّ التهمة على لص: متى تخرجون.. متى تخرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: تعنين البطولة العبثية؟

قالت: لا فرق. أما زلتم تصدِّقون؟

قلت: نُصدق ماذا؟

قالت: أي شيء، اخرجوا.. اخرجوا كي تعود المياه إلى أنابيب البيوت..

هي دائماً هكذا: عصبية، شقية، ذكية، غبية، وجذابة كعصفور الدوري. تقدِّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُل عاشق من فرط رهافتها ودعتها المتجددة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربي تموجات بطنها لإغراء أسراب الحمام. تندفع وتتراجع. تلعق بلسانها قدم العاشق، تغسل جواربه وقفاه، تحلق له ذقنه، تقدم له النهار على طبق من كستناء، وتقدم له الليل على سرير من فُلّ.

وسرعان ما تسخر من اندفاعها وأوهامها: أخطأت. إنه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها، أنا وأهلها، ونُسمي طباع خيبتها «جورج». هل تذكرين جورج؟ فتقفز من وجهها الطفولي لتعضنا واحداً واحداً. نحن نواصل الضحك وهي تواصل كسر الأطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفها من الطائرات حين تجعلها تقفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس.

أبوها يبكي على أي إنسان يموت في أي مكان. أُمها تُصلي لسيدة لبنان ليحمي بطلها لكل لبنان. وأختها تُعدُّ الطعام لولد لا يشبع، وتنتظر خط الهاتف للاطمئنان على الشاب الفرنسي. وأنا أواصل الاعتذار عن وجودنا في بيروت.

– متى تخرجون؟

– حين يوقفون القصف، ويصبح الميناء آمناً. اهدئي يا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

– إلى متى تمضون في شيء لا يوصل إلى شيء؟

– خذي عنقود العنب. وابحثي عن الجريدة عمَّن مات. إنهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا إنتاج موتنا.

– هل ستذهبون وتتركون شهداءكم؟

– إذا استطعت أن تعيدي إليَّ ما في دمك من دمي، فسنأخذ

معنا شهداءنا إلى البحر.

– لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

– وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيروز عن بيسان.

– لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

– وسنأخذ معنا خبز الكلام.

– لا أقصد أن أجرحكم.

– وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.

– لا أقصد أن أجرحكم.

– وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غايات القصائد.

– لا أقصد أن...

– وسنأخذ معنا آثار المطر المتجعد على خطى حاولت أن تسمّي الوقت.

– لا أقصد أن أجرحكم.

– وسنأخذ معنا ما استطعنا أن نراه من هذا البحر. سنأخذه معنا إلى البحر.

– لا أقصد أن...

– وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المفروك وهاجس الحبر.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة..

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أُسطورة، ومطالع الصلاة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ لن نأخذ معنا شيئاً. خذي سريري ومكتبي وحبوب نومي. خذي غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب.. خذي الغياب.

□□□

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تخيفني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أَكره أحداً ولا أُريد أحداً ولا أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماض لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصمة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن

أخجـل من دمعـة أُمي ولا أن أرتعش من تقاطُـع حلمين وُلدا في لحظة واحدة عند الفجر...

□□□

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها

شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني.. يا ليتني

أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها

طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني

لم أَمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً

كي أرى ما لا يُرَى من مُدُني

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها

حائط يبعدني عن شجني

ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا

بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني

وهنا أخرج مما ليس لي

وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني

ولتكن بيروت ما شاءت. ستنساني لأنساها

أَأَنسى؟ ليتني.. يا ليتني!

أستطيع الآن أن أُرجع مني وطني

ليتني أعرف ماذا أشتهي

يا ليتني

يا ليتني!

□□□

غروب للغروب تندفع كُتَلُ الغيوم السوداء المعبأَة بالبارود نحو حافة البحر. تحمل الطيور تعبها وتحوِّم باحثة عن بقعة لا تطاولها أجنحة الطائرات. غروب يدلُّنا على ما فينا من تعب. ينهال علينا الظلام والفحم والقنابل ليشتاق الجسد إلى جسد يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت؛ شوقاً معدنياً آليّاً لا تخترقه عصافير سريّة ولا نغم بعيد، شوقاً مقطوعاً من شجرة الطارئ كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فُستق مالحة، أو إلى أي صوت صادر عن راديو..

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج. سئمت تلك الثرثرة هناك. وهناك شرفة المشاعر الذي رأى سقوط كل شيء، فاختار موعد نهايته. أَمسك خليل حاوي بندقية الصيد، واصطاد نفسه، لا ليشهد على شيء، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء. لقد سئم هذا الحضيض، سئم الإطلال على هاوية لا قاع لها. وما الشعر؟ الشعر أن يكتب هذا الصمت الكوني، النهائي، الكُلي. كان وحيداً، بلا فكرة، ولا امرأَة، ولا قصيدة، ولا وعد. وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أَيُّ

أُفق، أيَ نشـيد. لعبت معه «طاولة الزهر» منذ أكثر من شـهر. لم يقل لي شـيئاً. لم أقل له شـيئاً. جلسـنا ولعبنا. لعبـة لا ذكاء فيها ولا منـاورة. الحظ هو الذي يلعب. وعلـى الحظّ أن يطيع خليل حاوي، وإلاّ غضـب على الحظ وعلى شـريك اللعب. كان يعينه كثيراً أن ينتصـر، عكس الشـاعر «أ» الذي ينتصر ويبتسم وينهزم ويبتسـم، لأن مـا يعنيه وما يراهـن عليه يقع خـارج هذا اللعب. لذلـك يفتقر اللعـب معه إلى شـيء من الحماسـة، عكس خليل حـاوي المتحمس، المتوتـر، اللاعـن الطاعن فـي الهجاء. لا أُريد أن أطل على شـرفته. لا أُريـد أن أَرى ما فعله نيابةً عني. لقد خطرت الفكرة نفسـها على بالي وتراجَعَتْ أو تراجعتُ. وقريباً من هذه الشـرفة، بعد أربعة شـوارع تحت، سقط شاعر آخر منذ قليل، شـاعر سمَّى نفسـه الذئب والغجري وسيِّد الرصيف. كان يوزِّع هويته الشعرية «الرصيف» عندما أُصيب بقذيفة. كان عَدُو المؤسسة، أية مؤسسة. وكان ينشئ مؤسسة الرصيف، كان ينشئ مؤسسته. ولكن منافسه على الرصيف، خصمه العنيد «ر» يقول باعتزاز: أنا قتلت علي فودة. كيف قتلته؟ ـ سـألناه. قال في هدوء عقلاني: سـلَّطتُ عليه كراهيتي. كراهيتي هي التي قادت القذيفة إلى بطنه. أنا الذي قتلته. ألستَ نادماً؟ سألناه. قال: لا.

إنني أكرهه حيّاً وميتاً، وأستحق التهنئة.

□□□

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ قادتني خُطاي في ضوء الطائرات

والقذائـف إلى منزل «ب». يبدو لمن لا يعـرف «ب» أنه يقود هـذه الحـرب كلها، مـن الجبهة العسـكرية إلى المفاوضـات إلـى الإِعلام. حيوي، فتيّ، شـقي. وجد في هـذه الحرب لعبته الضـائعة. إحدى يديه على الهاتف، يصـرح بمـا يعرف وبما لا يعرف. ويده الأُخرى تكتب الأوامر والتعليمات والتوصـيات. ينظِّم عشـرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّةُ نحل في رجل كَرَّسـته الأَقدار للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَم لا يتكلم. صنم يُهتَفُ له. يُسجدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسـمه «أ» قـادر على تصـوّر شـكل العالم بعد نصـف قرن من الزمان. أفكاره المبنية على منطق شكلي سينمائية الإثارة. يتكلم عن الدول الكبرى والصـغرى كما يتكلم عن شـوارع بيروت، بلا كلفة وبلا تردُّد. وإذا صَـدَقَتْ آماله فهذا يعني أن هذا الشرق سيُحاصـر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أُوافقه على هذا الاحتمـال باعتباره حداً أقصـى لتطور التدهـور، باعتباره أحد أشـكال الكارثة القادمة. ونختلف إلى مـا لا نهاية حين يرى أن ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وأن في وُسع ظلام أن ينتصر على ظـلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أُصـدِّق أن تاريخ هذا الشـرق سـيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى إبداعية، مهما انفصلت شـعارات السياسة الحديثة عن مبادئها، ومهما تخلَّص الخطاب من مضـمونه، فلن أتوقـع تغيير العرب وتطويـر العرب من غير العـرب. ولا أرى أن ذلـك النموذج المعدّ لإغراء اليائسـين من

العصـر بالايمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة إلى الصـراع على أسئلة لـم تعد أسئلتنا. ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ إذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي..

يصـرُّ «أ» و «ب» علـى أننـا لن نخـرج، لا لأَنهما يفتقـران إلى المعلومـات وخبايا المفاوضـات، بـل لأن فكـرة الخروج من بيروت تُشبه فكرة الخروج من الجنَّة أو من الوطن. كان يصعب على مَنْ شـارك في صـياغة التجربة وشـهد نمو بدايتها المرافق لنموِّه الشخصـي أن يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضـية. لنفترض أن موازين القـوى أخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو أسـوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسسـاتي الكثيف؟ هل أصابنا نـوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ أكثر من مرة، فإلى متى نعتمدُ على النجاة؟..

و«م» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفئ. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتّو، من كابوسي. لا يراه أحد وهو يدثر الصـمت ويـردّ عنا أمواج البحر المتلاطمـة في الغرفة. هل تـرى ما لا نرى يـا «ميم»؟ يرد: وهل ترى مـا لا أرى يا «ميم». خفـت: هل رأيت حلمي. لم تكن أنـت في منامي. قال: لم أكن في منامك، ولكن هل ترى ما لا أرى؟

هدأت أصواتهم ليتأكدوا من أننا أُصبنا بالجنون.

أخذني إلى الشـرفة: هل شـقّتُكَ آمنة؟ سـألت: ماذا تعني؟ قال: هل تصـلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا أم ضـدنا؟ قلت: البحر ضـدنا. قال: هل تعني أنك تخشى على سـفينته؟ قلت: أعني أن واجهـة شـقتي زجاجية ومفتوحـة على قذائف البحـر. قال: لا تصـلح. ومن الأفضل أن ينام، الليلة أيضاً، في كَراج للسيارات أو على الطريق.

هَبَّـتْ ريـاحُ الجنة. لقد اسـتعدَّ لكُلِّ شـيء، وأبطـل توقيعه. لم يبق على المسـرح احتمال لدخول شخصـيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه أمام القضـاء والقدر. هل كانت التراجيديا إغريقية أم شيكسـبيرية؟ لقد زُجَّ بكل عناصـر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَـحِّي بالطفلة الرهينة بيروت أم يخـرج إلى ما لا يعرف؟ هـل يموت هنا في انفجار عظيم لتُشـهر الفكـرة نُبوَّتها، أم يُنقذ هذا البناء على السفن؟ لم يبق هنا شيء يُحرك ما هو خارج البحر والسـور. وانفضّ العالم من حول المشـهد. وحيد.. وحيد إلى مـا لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البدايـة دون أن يدري. هل جاء متأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقاب في حقول البترول؟ وحيـد كمقطع في نشـيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصـرخة القلب في برية..

بعضـ الجمعيات الدولية يُعِدُّ لنا الخيام لمواجهة الشـتاء القادم، فنحـن ما زلنا ـ في وعيهم ـ لاجئين يسـتدرّون العطف ويخافون الشـتاء. وأميركا تحتاج إلينا قليلاً، تحتاج إلينا لنعترف بشـرعية ذبحنا، تحتاج إلينا لننتحر لها، أمامها، من أجلها. والقبائل العربية

تقـدم لنا الدعاء الصـامت بدلاً من السـيوف. وبعض العواصـم يمجد بطولاته فينا وينكر دمنا. فلا اسم لمن يقاتل حول المطار! وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.

□□□

هبَّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟

لن يقول..

سألت «م»: أي بحر سنسلك؟

قال: البحر الأبيض، ثم البحر الأحمر.

قلت: لماذا أنت بعيد؟ هل كنت في منامي أمس؟

قال: لا أعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسه. الصنم نفسه. والغارات هي الغارات. دخل حارس البناية ليبلغنا أن شخصاً غريباً يدَّعي أنه صديق قديم قد جاء لزيارتكم. فوضع كل رجل يده على مُسَدَّسه لاستقبال ما يسفر عنه الباب من غموض. وخبّأنا الصنم في الحمّام. ولكن الزائر كان عز الدين قلق بتوتره الضاحك. سألناه: كيف وصلت؟ قال: كما وصلتم وصلت. لم يتغيَّر فيه شيء. بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليك بريبة مَنْ يقابل غريباً لا يعرفه. قلنا له: اطمئن يا عز، فإن «م» في غرفة العمليات.

كنا نتكلم معه بلا دَهَش، كأَنه مسافر عاديّ قادم من باريس. كان يواصل حضوره بيننا ويشاركنا عملية الانسلاخ الجماعي الكبير

عن هذا المكان. نسـينا أنه غادرنا إلى الأبد منذ عشر سنين، وأن الموتى لا يزورون الأحياء إلاّ لإثارة التأويل. ولكن عز الدين بيننا بلا جلبة ولا فزع.

سألته عن أحواله هناك في الآخرة. قال إنها عادية لا جديد تحت الشـمس. قلت: هل هناك شمس؟ قال: نعم، هناك شمس. سألته عن المناخ فقال إنه حار ورطب لأنّ المناخ في آب حار ورطب. سألته إذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتابعون الأخبار، سـاعة، ساعة، على شاشة التلفزيون. ويتألمـون من الغيظ لعجزهم عن تقديم أي عون لنا. سـألته عمَّن وصـل إليهم منا لعلّهم قدموا لهم شـهادة حيَّة عما يجري. قال: لم يصـل إلينا أحد. قلت: وقد نسـفوا مقبرة الشـهداء، فهل نجا أحد من الشـهداء وجاء إليكم؟ قال: لم نقابل أحداً منهم، وسألته أيـن تقيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مسـتغرباً: ماذا تعني؟ قلت: مـن أين جئت: مـن الجنة أم من جهنم؟ قال جئـتُ من هناك... من الآخرة. حدَّقت فيه مليّاً لأَتأَكد من آثار عنوانه على جسـده، فوجدتـه طبيعياً وعادياً كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامات للنعيـم. أهـذا كل شـيء يا عـز الدين.. أهـذا كلُّ شـيء؟.. هل تزوجت؟ قال لم أجدها بعد. مَنْ لا حظ له في الدنيا لا نصيب له في الآخرة. سألت: وكيف تقضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد.. مـن المكتـب إلـى غرفتـي فـي الحـيّ الجامعي، ومـن قاعات المحاضـرات إلى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أُسافر في القطار من باريس واقفاً، وحين أطلُّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة،

وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع أشكال الخبز، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأَقدام لدعاة الاستسلام. التفتنا إلى «ب»، فلم نجده.. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعز الدين: أما زلنا، قبل التكوُّن في حاجة إلى الأوهام لنتكوَّن؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة التكون في حاجة إلى أصنام يعبدها بحثُنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكرة مع الإطار. في حاجة إلى حبر فاسد. وإلى أدب مبتذل لنقول إننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: إذا كان الجواب عن ذلك هو يبدو ذلك، فلماذا نخرج من بيروت إلى الفضيحة.. ودواليك؟

قال: لا أعرف.

قلت: كيف تفكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما تفكرون هنا.

قلت: يا عز الدين، ماذا تفعل هنا. ألم تُقتل؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق. هل أنت حيّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عـز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننـا أحياء، فهل أنت ميت؟

قال: مثلكم.

قلت: يـا عز الدين، لنفترض أنني قلت لـك إننا موتى، فهل أنت حيّ؟

قال: مثلكم.

صحت: يا عز الدين، ماذا تريد مني؟

قال: لاشيء.

قلت: إذن، دعني وشأني.

قال: آن لي أن أذهب؟

قلت: إلى أين؟

قال: من حيث جئت.

قلت: إبق معنا قليلاً.. سنخرج معاً.

قال: انتهت إجازتي، وعليَّ أن أعود.

قلت: من أين جئت؟

قال: لا أعرف...

صافحنا واحداً واحداً. ولكنه خصّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منا قليلاً. عانقناه على الباب.. حيث تلاشى كخاطرة شاردة. نظرت إلى الدرج فلم أجده. نظرت إلى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في أي مكان. نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً.. عز الدين اختفى.

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عز الدين.

قالوا باستهجان: من هو عز الدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته تدقُّ الدرج!

نظروا إليّ كما ينظرون إلى ممسوس. أشرت إلى مقعده المسكون بطيْفه:

هنا. هنا.. كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة..

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟

□□□

.. البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلمنا إلى الخريف. فإلى أين يأخذنا البحر؟

القصة إياها، لا أكتبها ولا أنساها. غصَّةُ الكتابة وحرمانها الأَبدي، قصة الرجل الذي جلس سبعة وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطئ صور. أما آن لها أن تعتقني؟ أم آن لها أن تأخذني معها إلى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا اليوم، سأنسخها مرة أخرى لأتدرّب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر. تعبتُ من كثرة ما سألتُ هاني: كيف نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه؟ ومتى تأخذني إلى الصخرة التي هبط منها كمال إلى البحر؟

سأل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي أسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطئ صور، في انتظار حمامة تظهر من الجنوب الغربي حين تكون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئاً، لا شيء، غير تلك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرّهُ الباقي. وحين كان أصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون أو يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم أو بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر إلى الحمامة. ولم يكن بإمكان الطائرات المغيرة أو جنازات الشهداء أن تسلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال إلى العائلة.

سألت هاني: هل تعيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟

قال: إن كمال يعتقد أنها تعيش من الأَزل إلى الأَبد.

سألت: ولماذا لا يصطادها؟

قال: لأَنها لا تطير، ولأَنه لا يستطيع الوصول إلى بُرجها. وأخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعة واحدة: لماذا أتعبك وأتعب صدري؟ فالمسألة لا تحتاج إلى كُلِّ هذه الأَسئلة.

الحمامةُ هي حيفا..

... لأَن جبل الكرمل المنبثق من صعود البحر إلى السماء ومن هبوط السماء إلى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مُطوَّقاً بقبلة مجبولة من حجر وشجر، أعني حيفا تتقدَّمُها شهوة حادة في كل منقار مُلَوَّن يشهد على أن في مقدور موجة جامحة أن تتحجَّر من الأَزل إلى الأَبد. لأَن الأمر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة. وكل حمامة تشبه حيفا.

ولكن ما لم يكن يدركه كمال هو أن المدينة تطير.. تطير في دمه.

وكمال ينطوي على سرِّه. يلتف بذكرياتٍ صارت أحلاماً. يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به. كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمُّ الآخرين أو صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون أن تعنيه أو تكون حروبه، طالما لم تأخذه شظيّةٌ واحدة من شظاياها إلى.. الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني، هل عرفته شخصياً. هل رأيتَهُ في صور؟

يتردد هاني في الإِجابة، فأعرف أنه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعرف البحر من يراقب البحر. لا يعرف البحر من يجلس على الشاطئ. ولا يعرف البحر من يأتي إليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحر إلاّ من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كما يتلاشى في امرأَة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. هناك الكلمات. لا يُرى ولا يُلمس إلاّ في أعماق البحر. ألبحر هو البحر.

– لا أحب شعرك يا هاني، حدثني عن كمال، لا تحدثني عن نفسك!

لا يستطيع منذ ثلاث سنين وهو يروي قصته مع بحر صور. ولا شيء عن كمال. لا شيء عدا العنوان.

– قل لي ما هي سيرة كمال؟

– قلت لك إنه يُسَمِّي حيفا حمامة. وهو أيضاً صيَّادُ سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلَّع إلى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرجُ العاشق السيئ الحظ من تجربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى، يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصّل إلى إثبات البراءة أو نفيها فيدخل في السجن الأول ويخرج إلى طريق آخر. لأَن العاشق السيئ الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير

للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعتُ الشارع هناك لم أحمل قنبلة ولم أنتبه إلى لافتة «منطقة مغلقة».. كنتُ أحمل أشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت تُزَفُّ في تلك الليلة. وماذا لو قلت أيضاً: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع. ولكن القمر أطلّ قوياً فرأيت الحجارة المدبّبة تحت سطح الماء الصافي، فخفتُ الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً جارحاً. فتبّاً للذين عَيَّنُوا موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان ينبغي عليَّ أن أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو. هل يصدق؟ هل يُصَدّق أني اجتزتُ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دَلَّني القاضي على أن للبحر طريقاً آخر. او أَنَّ في البحر سّراً آخر. ومن يومها وأنا أذهب إلى البحر ولا أراه.

– هل تعرف لماذا لا تراه؟ لأنك تذهب إلى الشاطئ.

– ولكنني أرى البحر.

– لا أحد يعرف البحر كالآخر.

– وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو إلى الحمامة؟

– عاد إلى البحر.. عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس. ربما كان يعتقد أن الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة. ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم

تُولد وردة

إذا عاشت طويلاً

ضاعت الحمامة.

ـ ماذا كان يعني؟

ـ لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة..

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة من ماء. ويكون الضوءُ قصباً..

وفي الخريف تسكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم..

وفي الخريف تذبل الحمامة..

وفي الخريف يتحول القلب إلى تُفَّاحة ناضجة..

وفي الخريف تنكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان...

وفي الخريف ينطق الأخرس:

يا ليتي أرمي خُطَايَ

على طريق مِنْ زَبَدْ!

يا ليتني أرمي خُطاي لكي أنام

على سرير من زَبَدْ

حيفا! لماذا لم تطيري كالحمام

حيفا! لماذ لا أطيرُ ولا أنام؟

حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة:

أنتِ طيرٌ أم بَلَدْ

يا ليتني أرمي خُطاي.

وأستريحُ إلى الأَبدْ...

.. وسرق كمال زورقاً..

ظلّ يجدف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرّز من الحور والغيم واضحاً. وكان حرس الشواطئ واضحين. فأدار المجداف عائداً إلى عرض البحر وتظاهر بصيد السمك ريثما يهبط الغروب ويقفز إلى طوق الحمامة النائمة عل بعد دقيقتين من الموج.

رأى موجته الضائعة فتعرف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاماً، على صوت الرصاص القادم من منطقة البلدية فتح النافذة فرأى الناس تندفع إلى الميناء، فهبط من شارع عباس

وأبحر مع المبحرين إلى ميناء عكا التي لم تكن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل إلى صور..

يبدو أن كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شرّدته لتعيده الآن. كأَنَّ حالماً قد استطاع أن يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل أن عاد بحارٌ على الموجة التي شرّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل أن قتل قتيل قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل أن عاد أحد على طريق الرحيل؟ لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحج. كان ينزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيُمْسك بالزورق بكلتا يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبا تكسّر وتبعثر. سيتحسّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطئ ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريّ العتيق الذي يبدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت إلى شبابيك تعلَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً إلى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خمس درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس المتدلي على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر إلى الزاوية الشرقية المطلّة على

درج عريض يؤدي إلى حيّ اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفـرن الواقع على رأس الوادي. سيصـعد درجاً طويلاً على اليمين. سـيحيي السـكّان الجالسين على شـرفات تجلس على الأرض عند مدخل شـارع حدَّاد. ويصـل إلى تقاطع الدرج مع ثلاثة شـوارع صـاعدة يأخذه أحدها إلى شارع عبَّاس. سيصعد ويصـعد ويصـعد ولن يلهث. سـيقف طويلاً أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السـنديان والطيُّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبُّها لأول مرة أيضاً. سيضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شـدَّة الصدأ. سيدق على باب الجيران. ويُسَلِّم عليهم ويشـاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سـيفتح باب بيته ويسـرع إلـى حنفيَّة الماء ليسـقي النباتات التي عطشت. سـيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات... ساعات.. ساعات. سينام إلى الأبد.

صـحا كمال من غفوته القصـيرة. الفرح يمـلأ البحر. ومن فرط إحساسـه بالحرية شعر أنه حَبَّةُ قمح، وأن البحر تربة خصبة. وأن الموج سنابل..

نظر إلى سـاحل يمتدّ في يده الممدودة، فرأى قطعة ماس تخرط الجبل لتنحت له مهداً سـريعاً. سينام أعلى من البحر قليلاً.. أعلى مـن النوم. سيشـتهيه البحر. سـيحوله إلى عصـفور من الحجر. سينام بعد قليل..

وحيـن هبـط الغـروب، جدَّف كمـال بحماسـة لـم يعرفها من

قبل. وحين اقترب من الشـاطئ سـلّطت عليه الحمامةُ أضواءها الكاشـفة. لقد احتاج الأمر إلى وقت ليعرف كمال أنه مُحاصَـر بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوَّبة عليه من جهات البحر كُلِّها، وأن الحمامة ليست هي التي تبهر عينيه..

تجعَّدت الموجة..

تجعَّد القلب.

– هل معك أسلحة للقتل؟

– معي حنين يقتلني.

– من أين أنت؟

– من الحمامة.

– إلى أين تمضي؟

– إلى الحمامة.

– ما هي هذه الحمامة؟

– حيفا.

– من أرسلك؟

– خيط الدم.

– كم عمرك؟

– موجة تأتي وتضيع.

– أين كنت تقيم؟

– في صور.

– ماذا كنت تعمل هناك؟

– أصنع آلهة.

– ما أسماء آلهتك؟

– الحمامة.

– هل أنت فدائي؟

– لا.

– وماذا تريد؟

– أريد أن أدفن جُثَّتي بيديّ تحت طوق الحمامة.

لم يُصدِّق رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه. ظَنُّوه يناور. صعدوا إلى زورقه بحذر شديد. قيّدوه. نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية. سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق. أنا أعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة..

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

– هل كل ما في الأمر أنك تريد أن ترى الحمامة.

– نعم..

– إذن، سترى الحمامة!

دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: إبق هنا، وانظر إلى الحمامة. الحمامة أمامك..

كان ينزف، وكانت الحمامة تكبر وتصغر..

وبعد أسبوع، أعاد البحر جثته إلى شاطئ صور، إلى الصخرة التي كان ينظر منها إلى الحمامة..

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر..

□□□

دخلتُ في ليل المدينة الكحليّ مثقلاً بالتعب، و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حادَّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغَّل في ما هو أكثر من أوَّل الليل. من أوصلني إلى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل إلى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع. كانت قنابل الطائرات المضيئة تفتح ظلام الزقاق واسعاً لخطىً أجُرُّها جراً. هنا لم أمُتْ. هنا لم أمت بعد. من عشر سنين وأنا أسحبُ ظلّي على هذا الرصيف، وأوقع غربتي، وأعرف أنني لن أبقى أكثر من عام. تكدّس العام على العام. منذ عشر سنين وأنا أقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أوثر الطريق البريّ، الطريق الأول الذي مشيته منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية إلى هناك. هل

نسـيتُ أن أرجع، أم نسـيتُ أن أتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شـيء، منذ عشر سنين؟ تمشـي أيامي أمامي كقطيعٍ من ماعز لا يأتلف. تمشي أيامي ورائي كرائحة الوردة الواقفة عكس الريح. وتمشـي أيامي حولي كما أمشـي حولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصـادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى الآن. ولكن هذا الصـراخ الهابط من السماء، والصاعد من الأرض، لا ينقطع ولا يُتيح لأَية صـورة من صور أيامي أن ترسو على شـكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسـمح لطيشـي بأن يتغافل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضـيء لأطرد عن رؤياي سـحابة الطائـرات كما يطرد المـرءُ الذباب. كفى! قُلتها بصوت أعلى، فردّت بصوت أعلى وأعلى.. وبصقتْ كتلاً مـن لهيب أعادتني من رحلة القطار المسـافر مـن حيفا إلى يافا لأعرف أني أسير على طريق آخر. كفى! فهمتُ.. وماذا لو كنتُ هنا. هنا لم أمت.. لم أمت بعد. كفى.. سنخرج، قلنا سنخرج، فلماذا تواصـلون هذا الهـراء الجهنمي. كفى.. ليتنا لا نخرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد، وأشعة الليزر، والقنابل العنقودية، والقنابل الفراغية.. كفى! اسـتعراض قوة مترف. قضـم المدينة والأَعصـاب. والظلامُ سريع الانتشـار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعـة فحم واحـدة تنجب هذا الظـلام كُلَّه في أقلّ من نصـف سـاعة. ولأول الليل مذاق مُرّ، حامضـ، رخو. مذاق يخلق في النفس بلاداً غريبة الغربة، ويخلق في عطش الجسد الرطب شوقاً

خاملاً إلى عطش جسد رطب آخر. ويسوق النسيان إلى مجرى آخر: كلانا يقتل الآخر خلف النافذة. قطار الساحل يُسابق البحر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار. مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحديد. مطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقي يداعب صديقي الناحل المكفهر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة أن نعود في الليل، لنذهب إلى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجل - أنا موجود. سجِّل! إيقاع قديم أعرفه. سجل - أنا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنُهُ إحدى هذه الطائرات. قلتُها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قلتُها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة تيارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا تكتفي بأن تشير إلى أبي، بل تطاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأَن أقولها هنا في بيروت: سجل، أنا عربي. هل يقول العربيُّ للعرب أنا عربي؟ يا للزمن الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ إلى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء إلى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع، نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ معين

في الحفلة مقهقهاً: لم تعد فتى. الحمدلله، تخلصنا من فتىً آخر. لم تعد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أَنك في الأَربعين. قلت: أنسيت أنك تقترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً، الأَعمار كلها تتشابه بعد عتبة الأربعين، لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. أهلاً وسهلاً. لم تعد فتى، لم تعد فتى، لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة. قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به.. يا للزمن! القطار يقُصُّ البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي إلى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟ وهل كنتُ حقاً في السابعة والعشرين حين احتكّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات الحصان الهارب من جبل الكرمل إلى البحر الأَبيض المتوسط؟ إلى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة.. وإلى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة... ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلاّ الآن. قطار ومطر وشجر، ومدفأة، وقدمان حافيتان بيضاوان على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأَناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته إلى النهر. وهي تقول لي: خذني إلى أستراليا، وأنا أقول لها: خذيني إلى القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكنني كنت أحلم، فهل

الحلم هو اختيار النسيان. ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حيّ. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت. لقد اكتملت الدائرة. أمي البعيدة تفتح باب غرفتي وتقدّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي أن أضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي أن أمتطي الحصان ما دام سرجه سيسقط ليسقطني تحته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتح، ينفرج، يصير أبيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع إلى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، البحرية، والمدفعية. أشعلت قنديل الغاز لأعدّ طقوس النهاية. ما زالت الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ إلى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما أوصي به. لا سرَّ في حياتي. لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة أحتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمام. يحطُّ الحمامُ. يطيرُ الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد..

سمعتُ نقرتين على الباب. هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديتُها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت تبحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم تجد أحداً.

– هل تهذي، أم تحلم؟

– شيء من هذا، شيء من ذاك.

– من هي؟

– لا أحد..

– هل تهذي؟

– أحياناً..

اقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة.. ناراً زرقاء بيضاء، فحيح. هسهسة ملح. أنين قطط مكبوت. ورغبة في موت مختلف.

– أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

– في كل يوم إلى أن ينتهي الحصار. أعود إلى بيتي.. وتخرج من هنا. كن تابوتي لأكون تابوتك.

– على الشرفة. أريد أن أرفع تابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

– مجنون؟

– مجنون بالحياة.

– لا.

– على الشرفة. سترفعين تابوتك. الشرفة هي اعتداءُ الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد أن أخجل.

– ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

– أمن الضروري أن تصرخي دائماً؟

– الرجل لا يفهم المرأة.

– المرأة لا تفهم الرجل..

.. وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضر ونداء الباعة، وضجيج البار المُسلَّح، ومشاكل الماء والمصعد كما تآلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة تطل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتتبادل الأسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرّة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمُت. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا إلى خشخشة في سيارة، فنبَّهنا سكان الشارع إلى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأَمان حول الجامعة الأميركية، من كل أنحاء المجازر والطوائف. وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما توقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كُلُّه حين عرف أن في وُسع جرذ واحد أن يُهجّر حيّاً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يُهجّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنـا، لم أمت. لم أمت بعد. كُلَّما كانت تحطُّ الطائرة في مطار بيروت كنتُ أشـمّ روائح المجهـول، وعبق الرحيل القادم. كان الضـباب الصـاعد من رطوبة الصـيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشـياء شكلاً مُحدَّداً، شكلاً من الغموض المحدّد، شـكلاً من أشـكال تواطـؤ الطبيعة مـع الهاجس، أي هاجس. وخاصة في آب. آب الشهر الدنيء، السافر، العدواني، الحاقـد، الخائـن.. آب القادر علـى تزويد الرمز مـا يحتاج إليه مـن جثث، وعلى مَدِّ تراخي الجسـد بما تبول عليـه الطبيعة من عبوسـ البخار ونذير الرطوبة المحتقـن، وجهُ آب وجه حَاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذر، ضجر، قاحل، قاتل، مائل إلى نهايات تطول مقدماتها، نهايات لا تبدأ ولا تنتهي، كأنَّ آب طائفية الفصـول التي لم تجد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل إلى الأفق زفير الرصاص.

– قـل لـي، يا أخ محمود، ماذا تقصـد بالبحر، مـا معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

– من أين أنت يا أخ؟

– من حيفا.

– من حيفا، ولا تعرف البحر؟

– لم أولد هناك، وُلدت في المخيم.

– وُلدت هنا في المخيم، ولا تعرف البحر؟

– نعم. أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟

– معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.

– هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟

– نعم، البحر هو البحر، في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.

– ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننت أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا...

– لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، هو بحري. نحن من بحر واحد، وإلى بحر واحد... البحر هو البحر..

يتعجب المقاتل من عجز الشاعر عن تفسيره. أو يتعجّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. أو يتعجَّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

– ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر إلى الشعر، حين تحمل البحر على كتفيك وَتُثَبِّتُهُ أين تشاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر وشعر البحر؟

– أنا بريء. أنا أدافع عن حقِّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.

– وأنا أيضاً... ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضي بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يسفر عن أبيض لا نهائي، ولا يُسفر عن ساحل. إلى أين.. إلى أين يأخذنا البحر في البحر؟ وهنا لم أمت. لم أمت بعد. سأنام. ما

النوم؟ ما هذا الموتُ السحريّ المفروش بأسماء العنب؟! جسد ثقيل كالرصاص يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشربُ النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على تجعُّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات ترتخي وتتوتر. يفتح لي ذراعه. أستأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك تدريجياً إلى رمادي وأبيض. النوم أبيض. انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينُه الأخيرُ.. وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلات قوية، عضلاتٌ من زهر الياسمين. النوم سيِّد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإله. أستسلم إليه كما يستسلم العاشق لمدائح المرأة الأولى. النوم جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرج من منام:

– هل أنتَ حيّ؟

– في منطقة وُسْطى بين الحياة والموت.

– هل أنت حي؟

– كيف عرفت أني أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

– لأَنك أيقظتني الآن حين تحركت في بطني. هل أنت حيّ؟

– لا أعرف، لا أريد أن أعرف. ولكن هل يحدث كثيراً أن يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو تفسير المنام؟

– هذا ما يحدث الآن.. هل أنت حي؟

– ما دمتُ أحلم، فأنا حيّ لأَن الموتى لا يحلمون.

– هل تحلم كثيراً؟

– حين أقترب من الموت..

– هل أنت حيّ؟

– تقريباً، ولكن في الوقت مُتّسعاً للموت.

– لا تمت

– سأحاول

– هل أحببتني؟

– لا أعرف

– هل تحبني الآن؟

– لا.

– الرجل لا يفهم المرأة

– والمرأة لا تفهم الرجل..

– لا أحد يفهم أحداً.

– ولا أحد يفهم أحداً.

– لا أحد يفهم..

– لا أحد..

– لا أحد..

المحتويات

القسم الثالث


مكتبة
t.me/soramnqraa

PROSE WORKS

الأعمال النثرية

شيء عن الوطن

يوميات الحزن العادي

وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام

ذاكرة للنسيان



مؤسسة محمود درويش، رام الله، فلسطين

دار الناشر
رام الله، فلسطين / هاتف 2961911 2 00970
عمّان، الأردن / هاتف 5694861 6 00962



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962

ISBN 978-9950-385-81-8
9 789950 385818